

مَانِي من حَمْدَ الله حَقَودٍ وفتَّان — ولا بقَلْبِي للرَفَاقَة غَلِيلـــــه
ضِعِيفهم عنْدِي قَوِي ولَهْ شَان — و اودَّهُم وادْمَح لهم كل عيْلــهْ
لَوِبِي خبَاث أجْعَلَه قَط ما كان — ورُوحِي على رَقْعَة خَمَلْهم طويله

حسن الخضير المقبل

الحســــــــنة

حماة الشنبل وأسود النقعة

حسن الخضير المقبل

دار الإرشاد للنشر

الطبعة الأولى

رجب 1412

كانون الثاني 1993

العقيد المتقاعد

حسن الخضير المقبل
وغيض من فيض مميزات كتابه ((الموسوعة))
((الحسنة حماة الشنبل وأسود النقعة))

عرض وتقديم: عبد العليم أحمد صافي

في المثل: ربّ صدفة خير من ميعاد.

والمصادفة وحدها هي التي وقفتني على هذا الكتاب الموسوعة الضخم جداً، لدى صديق الصدق الأستاذ محمد فرحان بن عبد الحسيب الطرابلسي، ودفعني حب الاستطلاع وحده إلى تصفحه، ثم إلى قراءته مرتين عبر ليالٍ أربع، فشدهت، وأكبرت، وندبت نفسي لتقديم هذا الكتاب إلى القارئ، دون أن أرى صاحبه، وما أظنني سأراه قبل أن ينفض هذا القلم جهده من هذا التقديم.

الكتاب في أكثر من أربعمائة صفحة من القطع الكبير جداً، وهو موسوعة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى موضوعي وواقعي.

يبدأ صاحبنا كتابه بمقدمة هي بحق، منهج علمي لخطة السير في تأليف هذا الكتاب ((بواعثه، وخلفياته، خطواته، محتواه)).

وفي أول المقدمة يقول صاحبنا: ((ولقد استهوتني قصص المحدثين من البدو، لما تحتويه من شجاعة وكرم، وشغفتني أخبار غزواتهم وسير فرسانهم وأشعارهم في حلهم وترحالهم، ومجالس القضاء عندهم، وتعدد اختصاصاتها، وكنت أرى في هذه الموضوعات مادة غنية بأحداثها، وممتعة بالاستماع إليها، وكنت أقول في نفسي حبذا لو دوّن هذا كله في كتاب)).

ففي هذه الأسطر القليلة السابقة نقف على الباعث النفسي، وعلى محتوى المادة الغنية التي يتمنى صاحبنا أن تدون في كتاب، كما نجد أن صاحبنا يروم من مثل هذا الكتاب المادة الغنية بأحداثها والممتعة بالاستماع إليها، العرض التاريخي والإمتاع الفني.

ويحول دون قيام صاحبنا بما يشوّقه عمله في القوات المسلحة، فلما أحيل إلى المعاش، هزه الحب إلى تنفيذ ما كان يرغب فيه، وقد رأى كما يقول في مقدمته ((قبيلة عنزة في بادية الشام أنموذجاً مثالياً للبداوة الحق)) وجرى من صاحبنا بحث عن مصادر وحالت عقبات ولكن صادق العزم أورق وأثمر، فجاء هذا الكتاب الموسوعة الضخم جداً.

لقد أخذ صاحبنا من المصادر العربية والأجنبية، وأخضع ما أخذه لمناقشة منه، عملية ومنطقية ودقيقة،

فالتفت إلى (الرواة) يأخذ منهم مادة يغربلها حتى يثق بها فيدونها، كما فعل أجدادنا القدامى من المؤرخين والمحدثين والعلماء المخلصين حين وقع على عاتقهم تدوين مورثنا الحضاري الشامخ.

وليعذرني القارئ إذا ما استطردت في الحديث من ماض عريق إلى حاضر مرموق، فإن منظمة "اليونسكو" التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، أقرت في إحدى دوراتها، وسمحت عالمياً للدول المنتسبة إليها نشر وطباعة كل ما هو موروث قديم لأمة من الأمم، على اختلاف أنواع وأشكال ومحتوى هذا الموروث، وقدمت لكل دولة من مال ميزانياتها ما يعين على نشر وطباعة وإصدار هذا الموروث، وأهابت بالمؤلفين في كل دول العالم، للتأليف في موضوعات تمتُّ إلى هذا الموروث بصلة ما، وعلى نشر وطباعة المخطوط منه.

كما أقرت منظمة "اليونسكو" بناء على مذكرة قدمتها مجموعة الدول الإفريقية في تلك المنظمة الدولية أن تعتمد الرواية والتواتر في الرواية الشفوية كمصدر مقبول ومعترف به علمياً في التاريخ وفي تأريخ الحوادث والأحداث القديمة لشعوب العالم ودوله، لغلبة الأمية وانعدام التدوين المكتوب لدى تلك الشعوب قديماً.

ومن هذا المنطلق، فإن اعتماد صاحبنا مؤلف هذا الكتاب على الرواية يغدو في المفهوم التاريخي الحديث مصدراً ثقافياً وعلمياً حديثاً أجمعت عليه دول العالم كلها وأخذت به.

ثم إنّ البحث عن الجذور والأصول العرقية ليس مسبة ولا تأسيساً لعنصرية وعرقية، وإنّما هو مطلب غريزي وفطري لدى الفرد ولدى الجماعة، ولولا ذلك لما كان هناك تاريخ لشعوب ولا لدول ولا لأفراد.

ولعل الكاتب الأمريكي الأسود المعروف عالمياً (هالي) أبرز مثال على ما نقول حين عانى ما عانى، ونقّب ما وسعه التنقيب، وسافر وقطع المسافات، ليثبت جذوره الإفريقية الأولى وليعتز بهذه الجذور وليجعل من هذه الجذور واقعاً حياً ووجوداً قائماً، ورواية فنية نالت إعجاب الأدب في العالم هي (رواية الجذور).

وما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه ما قام به صاحبنا، بما فعله(هالي) الأمريكي الأسود، مع شيء أساسي وهام، هو أن(هالي) ملأ ثغرات كثيرة من استقصائه عن جذوره بمادة روائية، كما يعترف هو بذلك، أما صاحبنا فقد جدّ فوق ما وسعه الجد، فجاء بما يذكر له فيشكر وعندما كان يتعثر في موقف ما فإنه كان يقر بذلك ويعترف به ويرده إلى أسبابه.

وصاحبنا مؤلف هذا الكتاب(الموسوعة) متواضع، فما يزعم لنفسه ولا لقارئه أنه أتى بكل شيء عن البدو، كما كان يريد لأسباب ذكرها في مقدمته، وما نحب لها ذكراً، ولكن هذه الأسباب نفسها دليل

قاطع على عبقرية صاحبنا، وعلى المسافات الواسعة والعميقة في مجرى كتابه بمحتوياته وأسلوبه.

فهو في بداية كتابه، كما يقول في مقدمته، قد تحدث عن البدو بصورة عامة وكيفية غزوهم وأسبابه، وطرق معيشتهم، والقضاء عندهم، وحلهم وترحالهم وتقاليدهم، لأن هذه الأمور يشترك فيها البدو عامة. وهو لمّا وجد أن مصادر الفرنسيين مشبوهة ومخالفة للواقع يمّم وجهه شطر البدو أنفسهم، شطر النبع، فوجده جماً صافياً غزيراً فأخذ يستقي منه مواد بحثه من الأصول متجنباً الفروع وكدرها، ثم هو إلى جانب هذا فقد ناقش ما نقله عن الرواة بعقلانية وحداثة معاً.

ويعتذر صاحبنا في مقدمته عن عدم إيفائه حق القول عن قبيلة ((عنزة)) (لما قدم من أسباب) فحاول أن يكتب عن بني وهب على الأقل، فأعجزه هذا أيضاً، لذلك فقد قصر بحثه على عشيرة (الحسنة) وبعض أبناء عمه القريبين من بني وهب، وهو لا يدعي أنه أحاط بكل شيء (عن الحسنة).

ولكن محتويات الكتاب وصفحاته الكثيرة عدداً، تدل بصراحة أنه قد أوفى ووفّى، فقارئ كتابه يجد فيه (كتاب تاريخ، وكتاب جغرافية، وكتاب أدب، وديوان شعر، ومعاجم كثيرة).

فمعجم جغرافي نجد فيه مفردات غزيرة جداً عن أسماء الجبال والوديان والسهول والسهوب والممرات في بادية الشام، وعن أسماء مساقط المياه والآبار والغدران وأصحابها، وعن الماء الصالح للشرب وعما فيه من أوبئة وديدان، وعن أسماء كل أولئك وعن الحيوانات البرية التي توجد في البادية السورية وعن أسمائها، وعن الصيد وأنواعه ووسائله، وعن أسماء هذه الوسائل من حيوان وطيور جارحة، كما يضم المعجم الجغرافي أسماء النباتات والأعشاب التي تنبت في البادية السورية وعن أسماء التي تكون غذاء للإنسان، والتي تكون غذاء للأنعام، وعن السجادة النباتية الطبيعية الغنية بألوانها وأنواعها التي تنعم بها البادية في كل ربيع، وعن أسماء كل ما تحوي هذه السجادة النباتية.

كما نجد في هذا المعجم الجغرافي (الذي لا ينفصل وجوده عن العرض المتسلسل للحوادث والأحداث، والزمان والمكان)، مواقع ومنازل كل قبيلة بدوية في (مشراقها ومغرابها) وعن أسماء كل تلك المواقع والمنازل.

وفي المعجم التاريخي (وهو أيضاً غير منفصل عن العرض المتسلسل للحوادث والأحداث، والزمان والمكان)، نجد أسماء القبائل وتسلسل أنسابها وصلاتها وأسماء غزواتها، وأسماء أبطالها، وأسماء مواقع ومنازل وأسباب تلك البطولات.

وفي المعجم الاجتماعي (الذي هو كسابقيه)، نجد أسماء وأنواع الإبل والخيل وأنسابها ومشاهيرها،

ومرابطها، ونجد أيضاً أسماء كل جزء من (بيت الشعر) ومن الركائب في التركاء، وعن أنواع وأسماء (السقا وروايا الماء).

ومعجم الشعر البدوي، هو أغنى ما في الكتاب، فإنه يأتي بمعنى كل مفردة من الشعر البدوي الحديث والقديم، حتى لنتذوقه قراءة وفهماً وأسلوباً ومضموناً وإشارات اجتماعية وسياسية وقبلية.

وكل ما ذكرنا، وما لم نذكر مما اصطلحنا على تسميته (المعاجم) التي جاء بها الكتاب، فأغنى بها ثروة المفردات والأسماء والمواقع وجعلها قريبة جداً جداً من فصحانا، ومن فهمنا، ومن ثقافتنا الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والأدبية، إن كل أولئك يعتبر من مميزات هذا الكتاب ومما يعد ثروة لغوية بحد ذاته.

وإن القارئ لهذا الكتاب ليطرب حقاً حين يقرأ في هذا الكتاب ((بنية المجتمع البدوي)) بكل ما فيه من حرمة الجوار، وشيخوخة البدوي، والقضاء، والبشعة، والوساقة، والمشاريق، ومشاتي البدو، والصميل عندهم، ومرباعهم، ومغرابهم، ومصايفهم، والجنب، ومتى يرافق الإبل، وبر الوالدين، وجزاء العقوبة، والجيرة وأشكالها والدخيل، وحق الملحة، وحق الصحبة، والمرأة وعملها ومعاناتها، والمرأة البدوية كشاعرة، والهوى العذري، ومركب البدوية، والأعراس والختان والزواج، والموت، والروح الدينية وفرائض الإسلام لدى البدو وأسباب العداء بين العشائر، الغزو، والسريّة، والحنشل، والأمثال.

مرامي الحياة الاجتماعية عند بدو البادية السورية ربط الماضي القريب بالماضي البعيد، هجرات الحسنة، مشايخها، فرسانها، منازلها، مواقعها، شعراؤها، أنساب عنِزة ومنها الحسنة، ومراحل التحول البدوي نحو الأخذ الجاد بمعالم الحضارة اجتماعياً وثقافياً وسياسياً، ولسوف يطرب قارئ هذا الكتاب أكثر فأكثر حين يجد كاتبنا يلقي اللوم على مشايخ عشيرته في كثير من مثالب الحياة البدوية، خاصة فيما يختص بمواكبة مسيرة العلم والتعليم، ويكون قارئنا أكثر طرباً حين يتحدث كاتبنا عن (مدرسة العشائر في تدمر) وعن مربي الأجيال البدوية (المعلم البدوي الرائد جمعة البياعي).

أما ربط الماضي العشائري البعيد، بالماضي القبلي القريب فأهم أسبابه عند كاتبنا صلة الحاضر القريب والماضي القريب بالماضي البعيد، وبالذي هو أكثر بعداً، ومن اتصال الفروع بالجذور، حتى لا تنقطع السلسلة ولا تنفصم العرى الوثقى.

وأكثر ما يثير الحنين في القارئ فهو عندما يقرأ في الكتاب (الموسوعة) ذكرى المعارك العربية قبل الإسلام، تلك التي انتصف فيها العرب من العجم (كوقعة ذي قار)، والتي كان لقبيلة عنِزة وفروعها باع طويل

فيها وفي غيرها من حروب جرت بعد الإسلام، وخاصة في حروب الردة مع خالد بن الوليد.

وربط الشعر القديم جداً بالشعر البدوي الحديث، فهو من هذا النوع أيضاً حتى أنه ليمتد إلى أبعد من ذلك، فحين يشرح كاتبنا قصيدة كعب بن زهير (البردة) كأروع ما يكون الشرح وكأبدع ما يكون التسامي في أسلوب هذا الشرح. فلعله ليثبت أن مفردات قصيدة كعب الغريبة هي أمّ حقّ، ومنبت أصيل للقصيدة البدوية الحالية إلى حدّ إن لم يكن قريباً جداً، فهو لا ينتهي إلى غربة عجماء، على أن كاتبنا ينعى على اللهجات فعلها الذميم في التغريب الذي حصل بين الفصحى واللهجات القائمة، ويضع منهجاً رشيقاً للتقريب إن اتبع أينع خير الثمار، وكأن كاتبنا عالم لغة تحرير وأستاذ تربية قدير.

ثم ما وضع العنوان في هذا التقديم لهذا الكتاب؟ ((الحسنة: حماة الشنبل، وأسود النقعة)) أعتقد أن العنوان من إطلاق (الجزء) وإرادة (الكل) كما أطلق أبو تمام اسم (الحماسة) على مجموعته المختارة من شعر العرب، مع أن المختار من شعر الحماسة هو بعض هذا الديوان.

والكتاب الذي بين أيدينا لم يقتصر على عشيرة الحسنة وحدها، وهذا ما يدلنا عليه الفهرس المفصل في آخر الكتاب، وجدول الأنساب وذكر مراحل البداوة الحديثة في القرن العشرين، ومرحلة الملك عبد العزيز ومرحلة الانفتاح على الحياة الحضرية المعاصرة، وغيرها كثير.

أما وصف القبيلة بأنهم (حماة الشنبل، وأسود النقعة) فليس فيه انفعال المحب لجذوره وأصوله وأهله فقط، بل فيه (وهو الأصح والأرجح) الإشارة إلى واقع تاريخ لا سبيل إلى نكرانه في عهود ضعف الدولة العثمانية أو في عهود سوء تنظيم أمنها، وقصورها وتقصيرها عن تأمين الأمن الشامل لرعاياها في الريف (وحتى في المدن)، فعهدت تلك الدولة إلى بعض القبائل البدوية القاطنة على مشارف تلك القرى والمدن في تأمين الحماية اللازمة لقاء جعل معلوم، وكان من واقع قبيلة (الحسنة) أن تحمي القرى في منطقة حمص وحماه، التي تكيل محصولاتها الزراعية بالشنبل (كما يقول صاحب الكتاب) وهو ما يساوي حالياً مئتين وعشر من الكيلوغرامات.

أما أنهم (أسود النقعة) فهو واقع مكاني أيضاً، فهم يحمون مواضع تواجدهم ومستقر الأرض التي تضم وجودهم وأرزاقهم، وليس في هذا إلا تأسيس لنخوة موروثة فقدناها مع الأسف.

أما ما يبعث على الإكبار والإعجاب، فهو أسلوب صاحبنا في كتابه (الموسوعة) والضخم عدة، وعدد صفحات، فإن هذا الأسلوب (سلس، وسليم)، ويكاد يعلو في بعض نفحاته إلى لغة الشعر، تلقائية، وعذوبة، وقوة في الإيحاء والتعبير، ولكن الأسمى من ذلك كله هو (أسلوب الرواية الطويلة في أدبنا العربي

الحديث، بكل مستلزماته وتقنياته)، وإذا ما أردنا أن نردّ هذا الأسلوب إلى مدرسة بعينها، ارضاء لشبابنا من القراء فإننا نستطيع أن نرده إلى المدرسة الواقعية التاريخية بدقتها، وموضوعيتها، وعقلانيتها، وحرصها على التوثيق المطلوب.

أما بعد:

فإن القبائل العربية كلها، واقع تاريخ لا مهرب منه، كان قديماً وهو موجود في واقعنا التاريخي العربي، وتاريخه في الماضي القريب فيه خير للتاريخ القومي، ولعلم الاجتماع وللبحوث المقارنة بين المجتمعات الإنسانية، وما كانت الأمة العربية بدعاً وحدها في الوجود الإنساني بقبائلها وعشائرها وبداوتها، ولعل علم الاجتماع المقارن يظهر تقدم بداوتنا حضارياً واجتماعياً على بداوة أقوام يفرضون وجودهم الآن على الإنسانية كوجه مشرق لحضارة وعلم ووجود.

وكاتبنا حين يتناول في كتابه (الموسوعة) كل أمور البداوة في باديتنا السورية في أوائل هذا القرن، وما جرى فيها وعليها من تطور بالتفصيل الدقيق والموضوعية العلمية، فإنه يؤدي إلى التاريخ أجلّ الخدمات وأصدقها وإلى علم الاجتماع أوسع الإحصائيات وأدقها.

أما خير ما أختم به هذا التقديم، فهو قول كاتبنا في مقدمته ((مجتمع البدو كغيره من المجتمعات فيه الغثّ والسمين، وأنا في حديثي أقر لهم بحميد الصفات التي يفتخر بها كل عربي، أما ما يختص بغزواتهم وأسباب حروبهم، وما انحدروا فيه من أعمال، فلربما يعود الأصل فيها إلى عهودهم الأولى في جاهليتهم، فهذا ما لا أقره، وأعوذ بالله منه، ولكنني أورده لكي يرى القارئ من أبناء هذا المجتمع، أين كنا، وكيف أصبحنا، ليحمد الله على ما صرنا إليه من نعمة، فبدّل خوفنا أمناً، وخشونة عيشنا نعيماً وجهلنا وأميّتنا حكمة وعلماً)).

أما بعد أيضاً فهل أحسنت تقديم هذا الكتاب (الموسوعة) إلى القارئ العزيز، ما أظن ذلك ولا أدعيه، لأن المجال واسع جداً والإيجاز في التقديم مطلوب حقاً، فالمقصد الأول في التقديم هو تحبيب القارئ بالموضوع بإلقاء نظرات خاطفة على الكاتب والكتاب، فإن فعلت فالفضل للكاتب والكتاب، وإن كانت الثانية فهذا جهد قلمي، ولا يكلف الله (نفساً) إلاّ وسعها، ولا قلماً إلا ما هو ميسر له.

– والله ولي التوفيق –

مساء 1991/7/4 **عبد العليم أحمد صافي**

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغي لجلال قدره، وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على نبي الهدى ورسول الرحمة، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين، وبعد:

فلقد استهوتني قصص المحدثين من البدو لما تحتويه من شجاعة وكرم، وشغفتني أخبار غزواتهم وسير فرسانهم، وأشعارهم في حلهم وترحالهم، ومجالس القضاء عندهم، وتعدد اختصاصاتها، وكنت أرى في هذه المواضيع مادة غنية بأحداثها، وممتعة بالاستماع إليها، وكنت أقول في نفسي: حبذا لو دوّن هذا كله في كتاب، وكنت أرى في قبيلة (عنِزة) في بادية الشام نموذجاً مثالياً للبداوة الحق.

وكان بودي أن يشمل البحث عشائر عنِزة في بلاد الشام جميعاً، وهممت غير مرة أن أخوض تجربة الولوج في هذا البحث، ولكن واجبي تجاه عملي في القوات المسلحة العربية السورية كان يحول بيني وبين القيام بمثل هذا العمل لأن ذلك يتطلب جهداً كبيراً في التقصي والتنقيب، ووقتاً طويلاً في الانتقال من عشيرة إلى أخرى لمقابلة الرواة، وخاصة النسابين، والعاملين في القضاء منهم، وكان هاجس كتابة هذا البحث يراودني على الدوام، ولذلك، فإنني ما إن أحلت إلى المعاش، حتى بدأت من فوري بالتحضير له، والإعداد للشروع فيه.

وبما أنه لابد من الاستعانة بالمصادر التاريخية لمعرفة أحوال البدو في العشرينات من هذا القرن، لأنها كانت فترة مشحونة بالغزوات والخلافات العشائرية ونظراً لقلة المصادر العربية في هذا المجال، فقد اتجهت نحو المركز الثقافي الفرنسي في دمشق لعلمي أن الفرنسيين قدّموا بحوثاً في هذا المجال، في أثناء الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.

وقد وجدت العجب العجاب في أقوال كتبها كتاب فرنسيون ومنهم ضباط كانوا مسؤولين عن سلاح الهجانة في البادية السورية بعيدة عن الحقيقة، ومخالفة لواقع الحال، ولا تتعدى كونها نقمة مستعمِر على شعب مستعمَر، ولم أجد فيها شيئاً أجهله، أو ما يفيد في بحثي هذا فطويت عنها كشحاً، وذهبت أستقي معلوماتي، ومواد بحثي من البدو أنفسهم متجنباً بذلك الفروع وكدرها ميمماً شطر النبع، فوجدته جماً صافياً عذباً، فاغترفت منه ما قدره الله تعالى لي.

وشاءت إرادته سبحانه أن أتعرض لحادث أقعدني في الفراش، وأنا في البدايات الأولى لهذا البحث،

ولذلك فإنني وجدت نفسي عاجزاً عن إعطاء هذا العمل حقه لكي يكون شاملاً قبيلة عنزة جميعها، فحاولت أن أكتب عن بني وهب على الأقل، ولكن حتى في هذا ظهر عجزي وقلّت حيلتي، وأرجو أن أُعذر إذا قصرتُ البحث على عشيرة (الحسنة) وبعض أبناء العم القريبين من بني وهب، ولأن ذلك لا يكلفني الانتقال من مكان إلى آخر الأمر الذي لا أستطيعه، ولا أدّعي أنني أحطت بكل شيء عن الحسنة، فلا ريب أنه فاتني كثير، ولكن عليّ الجهد ومن الله التوفيق.

ولإخواني وأبنائي المثقفين من الحسنة أقول: اللهم هذا جهدي، فإن وفقت فبفضلٍ من الله تعالى ومنّةٍ، وإن كانت الثانية فاخلفوني في عزيمتي.

على أنني تحدثت في كتابي هذا عن البدو عامة، وكيفية غزوهم وأسبابه وطرق معاشهم، والقضاء عندهم وحلّهم وترحالهم، وعن عاداتهم وتقاليدهم، لأن هذه الأمور يشترك فيها البدو عامةً، وذلك في الفترة التي سبقت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين بن علي، وما بعدها حتى الأربعينيات من القرن العشرين الميلادي.

ومجتمع البدو كغيره من المجتمعات فيه الغث، والسمين، وأنا في حديثي عنهم أقرُّ لهم بحميد الصفات التي يفخر بها كل عربي، أما ما يختص بغزواتهم وأسباب حروبهم، وما اقترفوا من أعمال، فربما يعود الأصل فيها إلى عهودهم الأولى في جاهليتهم، فهذا ما لا أقره، وأعوذ بالله منه، ولكنني أورده لكي يرى القارئ الكريم من أبناء هذا المجتمع أين كنّا وكيف أصبحنا ليحمد الله على ما نحن فيه الآن من نعمة؛ فبدل خوفنا أمناً، وخشونة عيشنا نعيماً، وجهلنا وأميتنا حكمة وعلماً.

وضربت صفحاً عما حصل وكان يحصل ضمن عشائر بني وهب خاصةً، وقبيلة (عنزة) عامةً من منازعات، واقتصرت على بعض الأمور التي تقتضي الضرورة ذكرها، ولا يتم فهم تسلسل الأحداث دونها، ولم أقصد من وراء ذلك إحياء حقد أو إثارة ضغينة، وما ينبغي لي ذلك، وقد قلت:

مابي من حمد الله حقود وفتان	**ولا بقلبي للرفاقة غليله**
ضعيفهم عندي قوي وله شان	**وأودّهم وأدمح لهم كل عيله**
لو بي خباث أجعله قط ما كان	**وروحي على رقعة خملهم طويله**

ولكنني أسلط شعاعاً من نور على زاوية مظلمة من تاريخ مجتمعنا العربي، عفا عليها الزمن، وعدت عليها الايام، مضيفاً إلى مكتبتنا العربية عملاً متواضعاً، أسأل الله أن يكون فيه الفائدة، فهو الهادي إلى سواء السبيل.

وليعذرني من له معرفة بشؤون القضاء عند البدو إذا كنت لم أفِ هذا الموضوع حقه لعدم قدرتي على الانتقال للبحث عن القضاة (العوارف) من جهة، وكون هؤلاء قد قل عددهم بعد إلغاء العمل بقوانين القضاء البدوي في ظل تطبيق الشريعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية منبت هؤلاء القضاة، وتطبيق القوانين الوضعية في بلاد الشام والعراق حيث تنتشر قبيلة عِنِزة، وغيرها من القبائل التي كانت تتبع القضاء البدوي لحل مشكلاتها من جهة أخرى.

وقد أفردت لأنساب الحسنة بحثاً خاصاً في نهاية الكتاب، اعتمدت فيه على ما رواه لي العارفون بالأنساب من كبار السن في كل أسرة، وتوخيت الدقة ما أمكنني ذلك، ولكنني وجدت أن معظم هؤلاء لا يعرفون أكثر من الجد الثالث لأسرهم، وبعضهم لا يعرف سوى الجد الأول، وهذا فيما يختص بالفروع، أما الأصول فهي معروفة لدى الجميع، وقد أثبت الفروع كما أخذتها منهم، وأستميح معشر الكتاب عذراً فأنا لست بكاتب، ولست من أصحاب هذه الصنعة، بيد أن خوفي على هذه المادة من الضياع هو الذي اضطرني إلى اعتلاء هذا المركب الصعب.

وإنني مدين بالشكر لأولئك الذين شاركوني مهمة البحث في هذا الموضوع، والذين اعتمدت عليهم كمصادر رئيسية لكتابي هذا، وأخص بالذكر منهم:

الشيخ نايف القبلان الملحم الذي قدم لي شرحاً وافياً عن حياة فارس الحسنة وشاعرهم الشيخ (جديع بن قبلان)، ومعارك الحسنة مع غيرهم، في بادية الشام منذ دخولهم إلى شرقي الأردن، حتى وصولهم إلى منطقة الباب القريبة من حلب، وأخبار الشعراء الفرسان منهم وأشعارهم.

والسيد الفاضل فيصل بن النوري الملحم الذي كان أحد المصادر التي استقيت منها بعض مواد هذا البحث، ولا يفوتني أن أسجل تقديري للأستاذ الكريم محمد فرحان عبد الحسيب طرابلسي الذي تفضّل – مشكوراً– بقراءة مخطوط هذا الكتاب، وأبدى إعجابه به مما شجعني على المضي قُدماً في إنجازه، ولا بدّ من تسجيل امتناني للأخ الكريم الدكتور ياسر عبد الرحمن التركاوي على ما قدمه من أجل طبع هذا الكتاب وإنجازه.

وأخيراً أسجد لله شاكراً، الذي أمدّني بجميع هؤلاء، فإنه لا يتحرك ساكن إلا بإذنه، واسأله سبحانه وتعالي أن يجزيهم عنّي خير الجزاء، فإن ما عنده خيرٌ لهم مما عندي، وبالله تعالى أهتدي، وبه أستعين.

في 1991/5/26 الموافق 13 ذي القعدة 1411 هـ

حسن الخضير المقبل

المصادر

1- جمهرة لنسب لابن الكلبي.
2- سبائك الذهب في معرفة أنساب قبائل العرب.
3- قبائل الجوف، للشيخ عبد الرحمن آل كريع.
4- كتاب: عشائر الشام، لوصفي زكريا.
5- كتاب: لاسكاريس العرب، ترجمة فريد جحا.
6- ما كتبه العرب والأجانب عن البدو.
7- شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي. تحقيق د. فخر الدين قباوة.

ومن الرواة

1- الشيخ تامر الملحم.
2- خالد الخضير المقبل.
3- نايف القبلان الملحم.
4- نايف الفيصل الملحم.
5- فيصل بن النوري الفيصل.
6- محمد الهزاع الفيصل.

الوصف الجغرافي لبادية حمص والشام:

تمتد بادية الشام من الطرف الشرقي لغوطة دمشق، مكونة خطاً يمرّ بالطرف الشمالي لتضاريس منطقة اللجاة، وهي سلسلة من الأراضي الوعرة صعبة المسالك، تقع في الطرف الشمالي لجبل الدروز ويسكنها عشائر المساعيد والغياث ويطلق عليهم جميعاً: عشائر أهل الجبل.

ثم من خطّ يمتد من عدرا باتجاه الشمال الشرقي ماراً بضمير محاذياً سلسلة الجبال التي تتصل في نهايتها الشمالية بالجبال التدمرية، ويقطع هذه الجبال بشكل عرضاني وادٍ عريض إلى الشمال من ضمير نحو/50/ كم مشكلاً ثنية تسمى: ثنية المحسة ، وفي الطرف الجنوبي الشرقي من الثنية توجد بئر سطحية (جوفية) تسمى: بئر المحسة، يمتلكها جديع بن عرضان من عشيرة الروله، وكانت فيما مضى مصدراً رئيسياً للمياه في تلك المنطقة، ولهذه السلسلة من الحبال المذكورة عدة منافذ نحو البادية تسمى الثنايا، وهي من الجنوب إلى الشمال: ثنية مشق سمرى، وثنية النصراني، وثنية المحسة، وثنية البصيري، وثنية الباردة، وآخرها ثنية تدمر التي تقع على الطريق العام الذاهب من تدمر إلى حمص.

ويرتفع إلى الشرق من المحسة ببضع كيلومترات تلّان متشابهان أحجارهما بركانية سوداء، رأس أحدهما مدبب ورأس الثاني مسطح قليلاً يسميان: العبد والعبدة، ويعدّان نقطتي علام للقوافل التي تسير نحو الشرق متوغلة في عمق البادية.

وإذا سرنا مع هذه السلسلة الجبلية نحو الشمال وعلى مسافة /40/ كم من المحسة نجد مصدراً آخر للمياة عند بلدة القريتين، وهو عين ماء جارية ذات مياه عذبة تروي بلدة القريتين، وتعد مصيفاً محبباً لعشيرة الروله وتجمعاً كبيراً لهم في فصل الصيف. ويسمون هذه العين: أم القلايد.

وعلى أم القلايد هذه كان الشيخ فواز الشعلان يضرب مخيّمه عدة أيام يجمع الودي[1] من الروله. وكذلك كان قبله أبوه نواف وجدّه النوري يفعلان ذلك. وإلى الشمال الشرقي من بلدة القريتين بنحو خمسين كيلو متراً توجد بئران غزيرتان، تبعد الواحدة منهما عن الأخرى بضعة كيلو مترات تسميان: الباردة والبصيري، ويقعان في واد كبير، وتعدّ الباردة واحة خصبة يخيم حولها كثير من البدو صيفاً جلّهم من عشيرة الروله، وبعضهم من بني خالد، وتعود ملكية بئر الباردة وواحتها للشيخ نايف الشعلان.

وإلى الشرق من الباردة يوجد مصدران للماء هما: الهلبا والعليانية، هذا على الطرف الغربي من البادية الشامية، أما إذا توغلنا في الداخل باتجاه الشرق، فإننا نجد سهولاً واسعة ذات تربة خصبة صالحة للزراعة

[1] هو الرسم السنوي الذي يأخذه الشيخ من العشيرة عن كل قطيع من الإبل.

في معظمها ولا ينقصها إلا الماء لتصبح جنات ورافة الظلال، ويتخلل تلك السهول أودية بعضها رملية وبعضها الآخر ذو تربة زراعية كالجزء الجنوبي الغربي من وادي البطمي ووادي الهيل وأبو داليه ذو التربة الحمراء التي تشبه في لونها سهول حمص.

وقسّم البدو هذه البادية منذ القديم إلى أجزاء، وأطلقوا عليها أسماء تعرف بها لسهولة الدلالة عليها، وهي من الغرب إلى الشرق وبدءاً من سلسلة الجبال التي تكلمنا عنها، وإلى الشرق من أبي الشامات بنحو /30/ كم منطقة البطمي، وهي أرض سهلية ذات تربة خصبة في طرفها الجنوبي الغربي ووعرة ذات أحجار سوداء بركانية في الطرف الشمالي منها.

وعند اتصال السهل بالأرض الوعرة وعلى طريق دمشق بغداد تقع خربة رومانية قديمة ذات آثار. وفي هذه الخربة بئر قديمة عذبة المياه، وقد اكتشف أخيراً في هذه الخربة بركة رومانية حُفرت بعمق عشرة أمتار ورصفت بالحجارة السوداء بإتقان في جوانبها وقاعها وتمتلئ هذه البركة شتاء بمياه السيول المنحدرة إليها من الوادي الذي يتوسط أرض البطمي من الشمال إلى الجنوب، وكان هذا الوادي إلى عهد قريب مملوءً بشجر البطم في معظم أجزائه، بيد أن هذه الثروة زالت بفعل الفؤوس ليصنع منها وقود للشتاء، والسائر الآن في هذا الوادي، لا يرى من هذه الثروة إلا بقايا جذور يابسة لبعض شجيرات البطم.

وإلى الجنوب الغربي من البطمي تقع خبرا الصيقل، وفيها قصر أثري يقع على طرفها يسمى قصر صيقل وهي منخفض واسع من الأرض تبلغ مساحته مساحة بحيرة متوسطة تفيض فيه مياه المرتفعات القريبة منه، وتعدّ أكبر خبرا في البادية الشامية من حيث المساحة، أما من حيث العمق فإنها سطحية لا تتعدى المتر عمقاً في أعمق أجزائها، وخبرا صيقل هذه من المصادر الرئيسية للمياه في بادية الشام، إلا أن قلة عمقها لا تساعد على تخزين الماء فيها فترة طويلة، وهي تجفّ غالباً قبل انتهاء فصل الربيع، وعلى كل حال فإن ماءها مزيج من الطين والكدر وتتوالد فيها الديدان التي يسمونها (الدغاليب) في الأيام الأخيرة من الربيع ويحتاج من يشرب منها إلى استعمال منديله أو ثوبه ليتّقي دخول الدغاليب إلى فمه.

وإلى الشرق من البطمي تقع الصرية، وهي أرض ذات مرتفعات قليلة تتخللها بعض الأودية، وتعد مرتعاً خصباً للماشية، وإلى الشرق منها يقع وادي الهيل، وهو واد رملي في معظم أجزائه ينبت فيه شجر الشيح والقيصوم، وفيه عدد كبير من الآبار تمتد على طول الوادي، وتمتلك عشيرة الروله معظم هذه الآبار، وهي آبار ذات عمق متوسط يتراوح ما بين ثلاثين إلى خمسين متراً.

وإلى الجنوب الشرقي من البطمي وعلى طريق دمشق بغداد تقع (السبع بيار)، وربما جاءت هذه

التسمية من كون آبارها سبعة فيما مضى، أما الآن فليس فيها إلا بئرٌ ارتوازية واحدة حفرتها الدولة، يردها البدو في الشتاء والربيع، وفيها مركز لحرس البادية ومستودع للأعلاف، وإلى الشرق من الهيل تقع الرمانة أو الرمامين وقد سميت بهذا الاسم لأنها تحتوي عدداً من التلال يشبه كل منها ثمرة الرمان، وفيها قال الشاعر الشيخ رشيد بن سمير في لحظة من لحظات الذكرى للحماد:

يا محلا زوعة[1] الركايب مجيفين[2]   ياطن زرقا والرمامين والحوق[3]

وإلى الشرق من الرمامين يقع الشحمي، وفيه واد كبير يسمى وادي الشحمي، وفيه حفرة كبيرة مستطيلة الشكل كأنها غدير تسمى: محفور الشحمي، حُفر من قبل القوات البريطانية ليكون مصدراً للماء على طريق دمشق بغداد، أما أرض الشحمي فهي في معظمها أرض سهلية ذات حجارة صوانية سوداء.

وثمة مصادر أخرى للمياه هي عبارة عن خبرات منتشرة في الحماد، مثل: خبرا مرفيّه وخبرا كميّه وخبرا أم الرمم، وكل هذه الخبرات ذات عمق بسيط لا يتعدى عشرات السنتمترات، وتجف مياهها بسرعة في الأيام الأولى من فصل الربيع.

وإلى الشرق من الشحمي، تقع منطقة الجويف قريباً من الحدود العراقية، وفيها محفور يشبه محفور الشحمي يسمى محفور الجويف، ومنطقة الجويف هذه أرض بيضاء كلسية فخارية ذات منحدرات حادة وتلال كثيرة يشبه بعضها الطرابيش، ويعتقد البدو بوجود سكان من الجن فيها. أما المنخفضات وبطون الأودية فإنها خصبة تنبت العديد من الأعشاب والورود الجميلة.

وفي أقصى الشمال لحماد دمشق وحمص تقع منطقة البخراء، وهي واد كبير طويل كثير الآبار ذات عمق قليل ومياه غزيرة، وفيها جرت أول معركة بين الحسنة والموالي وسنأتي على ذكرها فيما بعد إن شاء الله.

---

[1] مسير.

[2] مسرعين.

[3] زرقا والرمامين والحوق: أماكن في بادية الشام.

المعالم الطبيعية في البادية:

تتألف البادية من أراضٍ متنوعة التربة، مختلفة الهيئات، بعضها كثبان رملية غير صالحة للزراعة وهي قليلة وينبت فيها شجر الرمث وفي الأودية منها ينبت الشيح والقيصوم والخافور والبادية السورية أراض صالحة للزراعة في معظم أجزائها لو توافر لها الماء، وهي تربة بكر إذا ما ارتوت أعطت نتاجاً غزيراً يزيد بكثير عن نتاج السهول الداخلية.

الحزوم: وتتألف من مرتفعات بسيطة من الأرض يشبه الواحد منها ظهر الذئب ويسمى الحزم وجمعها حزوم، وغالباً ما يخلو الحزم من النباتات عدا بعض الأعشاب مثل: النَّزع وأبو شويرب وتتألف تربة الحزم من الرمل والصوان الأسود والأحمر.

الفقارة: وهي هضبة تشكل في أعلاها سهلاً منبسطاً في أغلب الأحيان ينبت فيه أجمل الحشائش مثل: النفل والشقاوة والقريص.

الأودية: تتجه معظم الأودية في الحماد السوري من الجنوب إلى الشمال. وهي أودية طويلة يصبّ بعضها في نهر الفرات شمالاً، وبعضها الآخر يتجه نحو الجنوب الغربي ليصب في الرحبة في جبل الدروز، وتكاد تكون منسقة من الغرب إلى الشرق حسب الترتيب التالي:

أولاً وادي البطمي، ثم وادي الهيل، ثم وادي مرة، ووادي المياه في الطرف الشرقي من البادية السورية، وسمي بهذا الاسم نظراً لكثرة الآبار فيه وهو واد طويل يخترق البادية من جنوبها إلى شمالها، ويصبّ في نهر الفرات بين دير الزور والبو كمال وثمة أودية صغيرة ترفد الأودية الكبيرة وتصب فيها تسمى فروع، والواحد منها فرع ومن روافد صغيرة لهذه الفروع تسمى: التلاع ومفردها تلعة، وليس للتلعة روافد فهي أصغر واد على الإطلاق، وعنها قال طرفة بن العبد:

وَلستُ بحَلاَّل التَّلاعِ مخافةً ولكنْ متى يَسْتَرفِدِ القَومُ أَرفِدِ

وكما هو واضح من قول طرفة بن العبد، فإن التلعة واد صغير يستخدم أحياناً للاختفاء والسائر في الصحراء لا يرى بيت الشعر الذي في التلعة إلاّ عندما يشرف عليه على بعد عشرات الأمتار.

والبادية في مجملها أراض مفتوحة من جميع الجهات، يسهل السير فيها ليلاً ونهاراً، إلا أن خلّوها من الهيئات الطبيعية والنقاط المميزة في معظم أجزائها يجعل من الصعوبة بمكان تحديد السير فيها ليلاً ولكن الله تعالى وهب ابن البادية فكراً نيّراً ومعرفة جيدة بطرقها ومسالكها وإن من البدو أدلاء مهرة قريبي الشبه بالسليك بن السلكة وتأبط شرّاً وغيرهم من صعاليك العرب، خبراء الصحراء الذين كان الواحد

منهم يملأ بيضة النعامة بالماء شتاء ويدفنها في الرمل ثم يردها صيفاً دون أن يخطئ مكانها.

حدثني صديق لي قال: كنا قافلة نسير ليلاً في الصحراء وتوقفنا نستريح ساعة من زمان ثم تابعنا سيرنا، فقال لنا رفيقنا نومان الفروان: نسيت زنادي حيث استرحت، وبعد مسير ثلاثة أيام من ذلك المكان وصلنا القريات في المملكة العربية السعودية وملأنا رحالنا بالملح، ثم عدنا أدراجنا من حيث أتينا، وبينما كنا نسير ليلاً باتجاه العودة إذا برفيقنا نومان يوقف القافلة ويطلب منا أن ننتظره قليلاً ليبحث عن زناده المفقود، فانتظرنا وبعضنا يضحك منه، وبعد دقائق معدودة عاد الينا نومان وهو يقدح بالزناد على حجر الصوان والشرر يتطاير منه وقد اشتعل فتيله.

وفي البادية تلال صغيرة ويجمعونها على (تلول) ويسمون سفح المرتفع: (بطين) أو(بطانة).

مصادر المياه في البادية:

الخبْرا: وهي منخفض من الأرض تتجمع فيه مياه الأمطار شتاءً، وهي ذات عمق قليل لا يتعدى المتر في أعمق نقطة فيها وتجفّ مياه الخبرا باكراً قبل انتهاء فصل الربيع، وتحيط بضفافها أرض صلبة مغروسة بصغار الحصى التي تؤلم أقدام الرواة فيضطرون إلى خلع أحذيتهم عند الخوض فيها لملء قربهم ، لأنّ الماء في الخبرا يتدرج في العمق بحيث يكون على الضفة سطحياً جداً لا يسمح بالاغتراف منه، ولا بد لمن يرده من أن يخوض فيه عشرات الخطى ليستطيع الغرف منه وماء الخبرا ضحل طيني يتلّون بلون ترابها، وفي أواخر أيامه تكثر فيه الدغاليب (جمع دغلوب)[1] ولا بدّ للشارب من استعمال طرف منديله أو طرف مسحه ليتقي دخول الدغاليب إلى فمه.

ويستعمل البدو نوعاً من التربة توجد في الحماد تبدو كأنها مزجت بالزيت، وتظهر على شكل بقع صغيرة ما بين روض وآخر يسمونها (الدهناء) يستخدمونها لتصفية الماء، وذلك بأن يضيفوا قليلاً من ترابها إلى الماء ويحركونه ثم يترك ليرتاح فيصفو بعض الشيء.

الغدير: ويتشكل في بطون الأودية بعد سيلانها بمياه الأمطار، فيتجمع الماء في الأماكن المنخفضة منها، ويبلغ طوله عشرات الأمتار ويزيد على المائة أحياناً ولا يتجاوز عمقه بضعة أمتار في أعمق نقطة فيه ويكون ماؤه في البداية عذباً صافياً، ولكنه بعد الورد عليه يختلط ببول الإبل والماشية ويصبح عكراً آسناً مختلطاً برائحة البول وطعمه، وتكثر فيه الديدان (الدغاليب).

المحفور: هو حفرة اصطناعية تتجمع فيها مياه الأمطار، وتشبه في شكلها الخارجي الغدير وطولها وعرضها كطول الغدير الكبير وعرضه، ومنها في الحماد السوري محفور الشحمي ومحفور الجويف.

الحوية: هي حفرة مستديرة قليلة العمق لا يتجاوز قطرها العشرين متراً في أحسن حالاتها ويحفرها البدو في سفوح المرتفعات الصخرية تتجمع فيها مياه الأمطار عند سيلان هذه السفوح ويكون ماؤها في البداية عذباً صافياً ولكنه لا يدوم طويلاً لصغر حجمها.

العاقولة: وهي تجمّع للماء بين روضين متجاورين، وتتشكل على أثر سقوط مياه الأمطار في أيام الربيع، وماؤها صاف قراح، ولكنه لا يمكث فيها أكثر من ثلاثة إلى أربعة أيام نظراً لقلة عمقها.

الصنع: وهو حفرة صغيرة في الصخر تكونت بفعل عوامل الطبيعة، ولا يتعدى عمقها المتر أو يزيد قليلاً، ويبلغ قطرها نحو 50 سم، وهي ذات شكل مستدير، تشبه القدر في تكوينها.

---

[1] هي ديدان صغيرة بحجم حبة القمح وتشبه الفأر في مظهرها الخارجي.

الحسو: وهو تجمع للماء تحت الرمال في بطون الأودية أيام الشتاء وعند نهاية موسم الأمطار يحفر في الرمل بضعة أشبار في بطن الوادي وفي الأماكن المعروفة بتخزين الماء تحت رمالها فيظهر الماء من تحت الرمل صافياً ولكن هذا النوع من مصادر المياه لا يدوم طويلاً كون مائه ضحلاً.

الآبار: وتنتشر في أماكن كثيرة من الحماد السوري، وهي ذات مياه سطحية قليلة العمق في معظمها، يتراوح عمقها بين الثلاثين إلى الخمسين متراً وقد يزيد بعضها عن ذلك قليلاً ونذكر على سبيل المثال منها: بئر المحسّة، وبئر أبي الجراذي، والسبع بيار، وبئر البطمي، وآبار وادي الهيل وآبار وادي المياه، وغيرها كثير، والبدو يسمون البئر(قليب) ويجمعونها على قلبان بتخفيف القاف.

الحيوانات في البادية:

البعير: وهو أكبر حيوانات الصحراء حجماً، وأكثرها صبراً على تحمل التعب والظمأ، ويقال لأنثى البعير (ناقة)، وللذكر (جمل)، أما البعير فيطلق على الذكر والأنثى من الإبل، ومن بعض أسمائه عند البدو (البليهي) ويشبهون به فحول الرجال، قال شاعرهم:

**خطو الولد مثل البليهي[1] ليا ثار		زودٍ على حمله نقل حمل ألفيه**

ولا يميز الحضر بين الجمل والناقة، فيسمون الذكر والأنثى(جمل).

أرسل معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب لآتينّك بقوم لا يفرقون بين الجمل والناقة، ويعني بهم أهل الشام.

الغزال: وهو أجمل حيوانات البادية شكلاً، وأسرعها جرياً، وأجمل ما في الغزال جيده وعيناه، ويشبهون بعينيه عيون الجميلات من النساء الحور، وليس في عين الغزال بياض بل كلها سوداء.

قال صاحب ليلى العامرية وهو ينظر إلى غزالة تقف أمامه، وقد تذكّر ليلى وجمال عينيها:

**فعيناك عيناها وجيدك جيدها		ولكن عظم الساق منك لأرفع**

ويسمى القطيع من الغزلان (عانة)، وللعانة قائد منها يسير أمامها فتتبعه يسمونه (عنود) قال الحطيئة يصف حال أعرابي يحاور زوجته في أمر عشاء لضيفهما:

**وبينا هما عنّت على البعد عانة		قد انتظمت من خلف مسحلها[2] نظما**

ويعمد بعض الصيادين البدو إلى قتل العنود أولاً لأنّ العانة تبقى لحظات تدور حولها حتى يخرج من بينها غزال شارد فتتبعه، مما يمكّن الصياد من زيارة الصيد منها، والغزلان نوعان:

العفرى: وهو ما كان لون ظهره أحمر وبطنه أبيض، وهذا النوع هو أجمل الغزلان شكلاً.

الكشتي: وهو ما كان شعر ظهره خليطاً من اللونين الأسود والأحمر، وبطنه أبيض.

ويقال لصغير الغزال(خشف) فإذا كبر قليلاً يقال له (غرنوق)، وللغزال قدرة عالية على تحمل الظمأ والحرارة، ويرد الماء ليلاً لمسافات بعيدة تصل إلى ستين كيلو متراً عن مكان مرتعه.

ومن الحيوانات اللاحمة:

الذئب، الضبع، وابن آوى، والغريري وهو بحجم الثعلب، والثعلب الذي يضرب به المثل في الحيلة

[1] فحل الإبل.

[2] هو الغزال الذي يسير في المقدمة (العنود) – ديوانه – دار صادر.

والمراوغة، فيقال إنه يتظاهر بالموت حتى تدنو منه فريسته فيمسك بها، وينسب إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قوله في اللئيم:

يعطيك من طرف اللّسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلبُ

والبدو يتفاءلون بالثعلب ويسمونه (أبو الحصين) ويتشاءمون من رؤية الأرنب.

ومن الحيوانات العشبية التي يؤكل لحمها: الأرنب، واليربوع، ويقال لذكر الأرنب (خزيزي) ولصغيرها (خِرِنقْ)، واليربوع حيوان بحجم الفأر أو يزيد قليلاً له ذيل طويل ينتهي بخصلة بيضاء، يحفر وكره في الأرض ويجعل له بابين، فإذا دخل عليه عدو من أحدهما خرج هو من الآخر، ويأكله البدو مشوياً.

ومن الزواحف:

الأفاعي، والسحالي، والجخادم (الحراذين)، والضب وهو يشبه التمساح في مظهره الخارجي وحجمه بحجم الهر، وبعض البدو يأكلونه ويتخذون من جلده سقاء يحلبون فيه نياقهم يسمونه (الصميل)، قال أبو الطيب المتنبي يعيّر قوماً أكلهم الضب:

سكان بادية، غرثى بطونهم أكل الضباب لهم زاد بلا ثمن

الطيور في البادية:

وهي نوعان: جوارح وغير جوارح.

الطيور الجوارح:

الصقر: ويسميه البدو(الحر) وهو أسرع الطيور طيراناً على الإطلاق وقد ضرب به المثل بالسرعة ودقة الإصابة، ويستخدمه البدو في صيد الأرنب والحباري، ولبعض الصقور قدرة على صيد الغزال وهذا قليل، وعندما يهاجم الصقر الغزال فأول ما يضرب بمخالبه عينيه فيفقأهما ثم يأتي بعد ذلك دور الصياد إذ يسهل عليه صيد الغزال فاقد النظر.

ومن الصقور ما يلتقط صغيراً ثم يربىّ حتى يكبر ويدرب على الصيد ويسمونه (وكري) ومنها ما يلتقط كبيراً، ثم يدرب على الصيد لعدة شهور ويسمونه (وحش)، وهذا النوع من الصقور أشد فتكاً من النوع الأول. وهناك نوع اسمه (قوسيّة) وهي أصغر حجماً من الصقر العادي ولكنها أسرع منه في الطيران، والبدو يفضلون من الصقور ما يغلب على ريشه لون البياض، ويرى الصقر لمسافات بعيدة تصل إلى مائة كيلو متر، ويقولون إنه يرى من الارتفاع الشاهق أذن الأرنب إذا تحركت وهي في مكمنها.

ومن بعض أسماء الصقر– عند البدو– النداوى، ويشبهون به نوابغ الشباب قال شاعرهم:

خطو الولد مثل النداوى ليا طار صيده سمينٍ ما يصيد الضعيفهْ

وخطو: بعض، والولد: الشاب فهم يقولون للشاب ولد.

وللصقور أثمان مرتفعة في دول الخليج العربي إذ يصل ثمن بعضها إلى ملايين الليرات.

العقاب: وهو يشبه الصقر ولكنه لا يستخدم في الصيد، ويتهمونه بالحسد لأنه لا يهاجم فريسته وهو يرى بشراً حوله.

النسر: وهو أكبرها حجماً وأكثرها ارتفاعاً في الطيران، ولكنه يتغذى بجيف الحيوانات الميتة.

الرخم: وهو طائر أبقع ذو لونين أسود وأبيض، ويتغذى بالجيف والحشرات.

الباشق: ويشبه الصقر في مظهره ولكنه أصغر حجماً ويقتات الحشرات والسحالي وصغار الطير.

الهدهد: ويسمونه (أبو شبب).

أم سالم: وهي من الطيور الكوامن التي تكمن في الشتاء ولا تظهر إلا في أوائل الربيع، ولها صوت تغريد جميل يشبه زغرودة المرأة إلى حد ما.

الحمّرة: وهو طائر صغير ضعيف.

القطا: وهو عدة أنواع يتكاثر في فصل الربيع فيطير أزواجاً ذكراً وأنثى، بأعداد كبيرة يصل السرب منها إلى عدة مئات، وللقطا أصوات جميلة وهو يطير أسراباً في السماء، خاطبه الشعراء وشكوا إليه وهو يطير حراً طليقاً، قال ابن عباد الأندلسي يشكو إلى سرب القطا من سجنه المكشوف:

شكوت إلى سرب القطا إذ مررن بي سوارح لا سجن يعيق ولا كبل

وطلب بعضهم من سرب القطا أن يعيره جناحا يطير به إلى من يحب فقال:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

اللقلق والسنونو: وهما طائران مهاجران يفدان في فصل الربيع ويعودان من حيث أتيا في الخريف، والبدو يسمون اللقلق (أبو سعد) ويسمون السنونو (أبو الرقيع).

النعام: وهو أكبر طيور الصحراء حجماً ويسمى ذكر النعام (ظليم) وتسمى أنثاه (ربداء) والنعامة لا تطير ولكنها تجري على قدميها بسرعة هائلة، والبدو يطاردونها على الخيل فيدركونها ويتحاشون مطاردتها من الخلف لأنها تقذف الحصى بشدة بقدميها إلى الخلف فتؤذي من يكون خلفها، لذلك فهم يجانبونها

عن يمينها أو عن شمالها.

الحبارى: وهي طائر كبير يشبه الأوز في مظهره، ويعدُّ صيداً ثميناً لمن يظفر به من البدو، ووسيلة الصيد الأكثر اتباعاً لاصطياده هي الصقر المدرب ويجمعون الحبارى على(حباري).

الغراب: وهو طائر أسود يتشاءم البدو من صوت نعيقه ليلاً.

وسائل الصيد عند البدو:

أهم وسائل الصيد عند البدو: الصقر، وكلب الصيد المدرب (السلوقي) وهو أضمر بطناً من الكلب العادي، وكذلك الصيد بالبندقية.

البدو

أخرج ابن أبي شيبة، وأبو عبيد في الأموال، وأبو يعلى، والنسائى، وابن حبان والبيهقي عن عمر رضي الله عنه أنه أوصى من يلي الأمر بعده بالمهاجرين والأنصار وأهل الأمصار ثم قال: وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام[1]، والأعراب هم البدو، أو أهل البادية الذين يتتبعون مساقط الغيث، ومنابت الكلأ.

ونحن لا بد لنا عند الحديث عن البدو من الوقوف على عتبات التاريخ نقلب صفحاته لنرى ما قال الكتّاب المتقدمون والمتأخرون من عرب وعجم عن البدو، ومن المفارقات أن المتحدثين منهم عن هذا القطاع من المجتمع العربي والمتوغلون في أعماقه، هم من المستشرقين العجم، ولذلك فإن على من يريد الاستزادة من هذا البحث أن يشد الرحال إلى مكتبات الغرب في لندن وبرلين وباريس ليجد هناك ضالته أو شيئاً منها، أما الكتاب العرب فقد وقفوا على أطراف البادية ولم يكلفوا أنفسهم مشقة الولوج فيها ليروا كيف يمارس هؤلاء الناس حياتهم الطبيعية على امتداد صحرائهم الواسعة.

ومن الإنصاف القول إن للمستشرقين جهوداً مشكورة في هذا المجال، وأذكر على سبيل المثال (موزيل التشيكو سلوفاكي) الذي سمى نفسه موسى الرويلي، وعاش بضع سنوات مع قبيلة الروله وكتب عنها الشيء الكثير، والسيدة الليدي التي قامت مع زوجها برحلة شاقة من بادية الشام إلى نجد، وتعرضت خلال هذه الرحلة للمخاطر الأمر الذي تستحق معه كل تقدير.

ولكن أليس من المفارقات العجية أن نبحث عن أخبار أهلنا العرب عند من لا يتكلمون العربية؟! وسنورد فيما يلي ما قاله المؤرخون عربهم وعجمهم بادئين بالعرب منهم ليرى القارئ الكريم بنفسه الظالم والمظلوم، ولنا تعليق في نهاية كل بحث من بحوثهم إن شاء الله.

ما قاله ابن خلدون عن البدو:

فمما قال الفيلسوف ابن خلدون المغربي المتوفى سنة 807هـ عن البدو:

((إنهم بطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعيث ينتبهون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرّون إلى منتجعهم بالقفر، والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم،

[1] عن كتاب حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوي ج2 ص:269

وأما البسائط- متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة- فهي نهب لهم يرددون عليها الغارة والنهب إلى أن يصبح أهلها مغالبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة إلى أأن ينقرض عمرانهم، وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب لأنهم أمة وحشية فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوا أثافي للقدر ويخربون السقف ليعمروا به خيامهم ويتخذون منه أوتاداً لبيوتهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس نهباً أو مغرماً، فإذا توصلوا إلى ذلك اعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم، وهم متنافسون في الرياسة وقلّ أن يسلّم واحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل فيتعدد الحكام منهم والأمراء وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام فيفسد العمران وينتقص، وانظر إلى ما ملكوه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه، فاليمن- قرارهم- خراب إلا قليلاً من الأمصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك.

وهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، أقل ما تجتمع أهواؤهم، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين، على الجملة، والمباني التي يختطفونها يسرع إليها الخراب لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي فإنه بالتفاوت في هذا تتفاوت جودة المصر ورداءته والعرب بمعزل عن هذا وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث ولا قلّ أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية، وانظر لما اختطّوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاتها إلا مراعي إبلهم وما يقرب من القفز ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لهم مادة تمد عمرانهم من بعدهم وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس فلأول وهلة من انحلال أمرهم ذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها أتى عليها الخراب والانحلال.

وهم أبعد الناس عن الصنائع لأنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها، وهم أبعد الناس عن العلوم لأن العلوم ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع.

وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير.

وهم أقرب إلى الشجاعة لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم،

فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطريق قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية، ونجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام))[1]. - انتهى-

أنا هنا لا أملك أن أقول لابن خلدون سامحك الله، لأنه لم يعني البدو فحسب، وإنما عنى بذلك العرب كل العرب، بدوهم وحضرهم ولم يستثنِ، فالذين اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان وهم ذؤابة هذه الأمة وذروة سنامها، وإنما كان اختيارهم للأمكنة خاضعاً في كثير من جوانبه إلى اعتبارات عسكرية واستراتيجية لم يدركها ابن خلدون كما أدركوها هم وفهموها، ثم أليس من بلاد الشام سيّرت الجيوش إلى مشارق الأرض ومغاربها ومنها كانت توجّه وتقاد؟

ما قاله عباس العزاوي عن البدو:

ومن المادحين للبدو المعجبين بمزاياهم وأخلاقهم، والناظرين إليهم بعين الرضا من الباحثين المعاصرين الأستاذ عباس العزاوي العراقي بكتابه المستطاب لعشائر العراق، حيث قال:

((ضيق المعيشة وضنك الرزق وقلة الموارد تجعل المرء في لبس من تصديق أن البدوي لا يكذب وأنه صريح القول ينفذ كل ما عزم على فعله وما قطع في أمره وهو في هذه الحالة لا يشهد كذباً ولا يحابي وفيه من الشمم والإباء والعفة بمعناه الصحيح وإكرام الضيف وحمى الجار والنَّزيل ما لا يوصف.

شاهدنا وقائع اعترف فيها البدوي أنه قتل أو أنه أثار القتل فلم يحلف ولم يخن أمانة ووفى بعهده، وهكذا وكم أخذتنا الحيرة في وقت لا نراه يقدم على الكذب وهو في أشد المواطن خطراً وأعظمها إحراجاً، ترى أوصافاً كثيرة عند البدو ولا نجدها عند غالب إخوانهم من الحضر وكأن البداوة ملازمة للصدق والأنفة من الخديعة وكأن الحضر عير منفكين من الأوصاف الرديئة إلا من عصم الله تعالى، ذلك ما دعا أن يأمن الحضري معاملته مع البدو وأن يتخوف من أهل المدن وحيلهم والطرق التي يتخذونها وسلب ما عندهم، فهو في حذر وخوف حتى إذا اشترى بضاعة يشترط أن تكون سالمة مسلمة للمناخ وهكذا نخشى في هذه الحالة أن تتطرق إليهم بعض صفات أهل المدن الرديئة وتنتقل عدواها، وإن القائمين بأمر إصلاح المجتمع يحتم عليهم الواجب أن يلاحظوا هذه المهمة وأن يتورعوا بوسائل مانعة من التسرب إلى هؤلاء وأن يسيروا بهم إلى التربية الحقة.

نعم قد تكون في البدوي بعض الصفات التي اكتسبها من حاجته ومحيطه ويهزأ بمن يذمها أو يلومه من

---

[1] مقدمة ابن خلدون/ ص: 164

أجلها أمثال: الغزو، ولكن بالنظر إلى منع حوادث الغزو والاتفاق والتكاتف بين الدول المجاورة على منعه تغيرت هذه الحالة وماتت من نفسها وصار يشعر بأن ماله ما اقتناه من طريق مشروع، وستقوى هذه الخصيصة ويتعود مغزاها، ومهما كان الأمر، فالبدوي يغزو وينهب ويقتل ولكنه لا يكذب ولا يخدع ولا يخون الأمانة ولا يقبل بذل.

يعيش بعز ولا يرضى إذ يهان، حر الضمير صريح القول وعفيف الذيل في غالب أحواله وهو أيضاً كريم بطبيعته، شريف في نفسه، أبيّ لا يتروى عن معونة ولا يحجم عن مساعدة، وإن القلم ليعجز أن يجري في تبيان خصاله الحميدة المقبولة، والمرء ينجذب بل يكون مغرماً بأوصافه هذه، وأتمنى أن تكون هذه الصورة عامة عندنا وأن نمضي على كثير منها سجايا قوية عالية لا تفترق في وجه عن أوصاف العرب القدماء، ولا تقل عنها ويعوزهم ما أعوز تلك من إصلاح حقيقي وتهذيب اجتماعي لا يشبه ما نحن عليه اليوم وهم كما نعتوا أنفسهم:

حنا كما صافي الذهب وأنظف من الخام الجديد

ولا نريد أن يزيف هذا الذهب أو تنال ذلك الخام نكتة تكدر لونه أو تودي بصفاته وجميل رونقه، فإذا كان:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

فالأخلاق فاضلة وعزيزة ولم تدخلها التطرية، حسنها طبيعي وسالم من العذاريب الكثيرة كما يصطلحون عليها)). – انتهى–

ما قاله انستانس الكرملي عن البدو:

ومن الناظرين إلى البدو بعين الاعتدال والسالكين نحوهم سبيلاً وسطاً الأب (انستانس الكرملي) في كتابه خلاصة تاريخ العراق، قال:

((أخلاقهم غريبة كل الغرابة إذ تجتمع فيها المحاسن والمساوئ معاً أو المناقب والمعايب معاً، وهذا ينشأ من انفرادهم في البراري وضرورات الأزمات ومخاطرة الحياة في البوادي التي احتلوها مما يجعل دمهم فواراً ومزاجهم متقلباً بتقلب هوية الفلوات وتخيلهم ميّالاً إلى كل قوة طارئه ميل الكلأ الذي يأنسون إليه ويعيشون في وسطه، ويأخذون عنه تموجهم عند أدنى حرة في النسيم، فمن فضائل البدوي أنه في غاية الصبر حتى لا يكاد يجاريه فيه أحد، فهو يحتمل الحر والقر والجوع والعطش والتعب والراحة والشغل

والبطالة وكثرة الشيء وقلته بنفس واحدة بدون تبرم أو تضجر ومع هذا الصبر العجيب قد يثور فيه الغضب ويطلب الثأر الشديد إذا أهانه أحد أو احتقره أو شتمه.

البدوي طماع وسلاب، فإذا رأى عندك شيء لماع أو رنان أو حسن اللون مال إليه وأراد أخذه منك، لكن عند إكرام الضيف ينسى كل شيء ويجود لك بما لديه.

البدوي شديد الوطأة إذا أراد سلبك ونهبك، ولكن لا يقتلك، وإذا احتميت به ونزلت خيمته أعزك وأبدى لك من الظرف وحسن المعاملة ما لا تجد مثيلاً له في أول الناس في المدينة. البدوي ينظر إلى السلب والنهب والغزو بغير العين التي ننظر بها إليها، والذي يجيز له ذلك قطر الأرض التي وجد فيها، فهو ينظر إلى عابر السبيل بمنزلة رزق ساقه الله إليه، إذ أن هذا العابر لا بد أن يصل محلاً فيجد فيه ما يستغني عما خسره في رحلته، ولذلك يجيز لنفسه أن يسلبه ولكن لا يتعرض لحياته البتة ،وهو لا يميز بين الحرب والخدعة، فما يأخذه بقوة السلاح بالشبكة التي نصبها للمسافر أو في عثوره عليه هو بمنزلة كسب أو ربح وعنده لا فرق بين سلب ابن السبيل وبين فتح مدينة أو بلاد معادية هجم عليها وأخذها.، والذي يميز البدوي كل التمييز ويفرقه عن سائر الخلق حبه للحرية والاستقلال، فقد بلغت به هذه الشاعرة مبلغاً لا يمكن للحضري أن يتصورها فهو يفضلها على كل موجود على الأرض مهما كان عزيزاً أو ثميناً ومن يحاول أن يقيد البدوي بقيد من القيود كمن يحاول تقييد السنونو في قفص فإنها لا تزال تضرب جدران القفص برأسها حتى تموت مفضلة الموت على الحياة، ولذا ترى البدوي يحتقر أبناء المدن إذ البقاء فيها هو القضاء على حريته، تلك الحرية التي احتفظ بها منذ خلق الخلائق إلى يومنا هذا. إذ أهل البادية وحدهم بقوا محافظين على معيشتهم، فيما ترى سائر الأجيال خضعت للقيد والحصر والضيق.

البدوي سريع الخاطرة، متوقد الذهن ولو لم يدرس العلوم والفنون، فإن ذكاءه فطري وسليقته سليمة من معايب التمدن وليس من بدوي إلا تراه شاعراً يصف لك الأمور على حقائقها ودقائقها، بليغ إذ لا يكلمك إلا ويفتنك بسحر كلامه، خطيب لما يسرد لك المبادئ الصادقة المغزى والمعنى والمبنى في صوت تسكرك نغمته ونبرته.

البدوي يصدق كل ما تقوله له من الخرافات والأقاويل الصبيانية لسلامة نيته، البدوي تجيش نفسه لأدنى وصف أو إغراء لكون خياله يضارع هواء باديته الذي يتقلب بين برد ودفء وحر وقر في النهار الواحد.

البدوي يحب الأحاديث الخيالية والأقاصيص الملفقة أو الشبه ملفقة مما يكثر فيها الأوهام والمغالاة.

البدوي قابل لكل شيء عظيم إذا ما عرف العاقل أن يسوسه أو أقنعه بفكر ظهر له فيه منفعة. البدوي يتلّون بلون الحرباء ويتقلب تقلب الطفل، تقول له شيئاً فيصدقه ثم يأتيه آخر فيخرجه من فكره بالسرعة التي دخلها.

البدوي لا دليل له إلا سليقته الوقتية ويحكم على الأمور بموجب ظواهرها ولا يهمه بواطنها وينخدع بالبوارق وينقاد لما فيه جلبة وزخرفة.

البدوي وحده لم تتغير صفاته وأن تغير الزمان، طالع ما جاء في الكتب المقدسة من وصف أخلاقه وقابلها بما هو عليه الآن لا تجد فرقاً.

والعادات التي يجري عليها اليوم هي نفس العادات والسنن التي جرى عليها أجداده في سابق الزمن وعلى طبق ما نراه مدون في أسفار الأقدمين الذين جاوروه أو عاشروه، ولهذا نجد كثيراً من الأمور التي أعضل فهمها على العلماء والمؤرخين زال عنها الأوهام وانهتكت أستارها عندما وقفوا بأنفسم على أهل البادية المعاصرين لنا.

البدوي يحتقر الموت ولا يعده شيئاً، فهو شجاع مستقل منذ صباه، فالموت عنده شرب كأس لا غير ولهذا كثيراً ما يموت قتلاً وهو الموت المرغوب لكل واحد من الأعزة.

وقد نعتوا الموت بنعوت: منها الموت الأسود وهو الموت خنقاً لأن المخنوق يكون لونه أزرق وهو عندهم أسود، ومنها الموت الأحمر وهو الموت قتلاً لأن لون دمه يسفك، والموت الأبيض وهو الموت فجأة لأن كثيراً ما يبقى لون المفاجأة بلونه الطبيعي، وإذا مات البدوي حتف أنفه يقولون عنه (فطس أو هلك) والبدوي الضعيف الدنيء خوّان أو غدار وهو كثيراً ما ينضم إلى القوي من الناس ويقتل ويغتال من خفره.

فإننا نقرأ في التاريخ أن بطليموس السادس انتصر على صهره اسكندر بالاس، فذهب هذا والتجأ إلى أهل البادية ظناً منه أنه يجد ملجأ فيهم منيعاً، إلا أن روبريك غدر بآداب الضيافة وضرب عنق زائره تقرباً من بطليموس ودمتريوس ثم بعث برأسه إلى ملك مصر.

ونرى سليمان باشا وزير بغداد القتيل احتمى في طريقه بقبيلة الدفافعة، فنزل عتد شيخهم فلمّا درى صاحب البيت أن المحتمي به مهزوم غدر به وقتله، وأقرب مثال شاهدناه هو ما رأيناه في الحرب العالمية الماضية فإن أعراب بادية العراق كانت تقتل دائماً فلول العسكر، فإن كان المكسورون أتراكاً قتلوا الأتراك وحموا الإنكليز، وإن كان المكسورون الإنكليز قتلوا الإنكليز ودافعوا عن الأتراك.

هذه كانت أعمالهم في الحرب التي كانت تدور في هذه الأنحاء بين القومين المتقاتلين، فتلك هي أخلاق البادية فهي حقيقية مجتمع أضداد وملتقى محاسن ومساوئ على ما افتتحنا به كلامنا وهو من أغرب الأمور قلما يخطر على بال إنسان)). - انتهى-

أقول: إن المجتمع البدوي هو كغيرة من المجتمعات، فيه الغث والسمين، ولا تعدّ حادثة جرت لأحد الناس مقياساً لمجتمع بكامله، ولا بد أن تلامذة التاريخ يذكرون كيف أجار هانئ بن مسعود الشيباني النعمان بن المنذر من ملك الفرس معرضاً نفسه وقومه إلى خطر الموت والإبادة فكانت معركة ذي قار الخالدة التي انتصر فيها العرب على الفرس، فقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: هذا يوم انتصف فيه العرب من العجم، وسنأتي على ذكر هذه المعركة فيما بعد، إن شاء الله ،وقد خلدها شاعر عنِزة الأسمر بن خلف الجويعان في قصيدة الملحمة الوائلية مشيراً إلى ابنة المنذر وكيف أجاروها:

المنذرية يوم جتنا دخيلهْ حنا حماها يوم لوذات الأذهانْ

جتنا تقفيها المنايا ذليلهْ وعدنا لها مجد الشرف بعد الأحزانْ

وأجار الشيخ رشيد بن سمير شلاش العر الذي كان مطلوباً من الدولة العثمانية فخبأه عنده ولم يسلمه متجاهلاً تهديد العثمانيين بقتله ونهب أمواله وقال في ذلك:

يا شلاش ما نعطيك حمر الطرابيش[1] لو جمعوا كل العساكر علينا

أخوان[2] عذرا ما بهم سيس واكديش[3] يا لايذٍ برشيد[4] حرزٍ[5] متينا

دخيلنا[6] نعذيه[7] عن التفاتيش لو أننا بالسوق نرهن حدينا

وقتل رجل من الشعلان قريباً له واستجار بمحمد الدوخي رئيس عشيرة ولد علي فأجاره، ولما طالب رئيس عشيرة الروله يومذاك بإعادة الدخيل إليه منعه محمد الدوخي واستنصر بجميع عشائر بني وهب، فحصلت مواجهة بين الروله وبني وهب استمرت عدة أيام ذهب فيها أعداد من الطرفين، ولولا أن حمود الشعلان تخلى عن مطالبته بالدخيل وسحب رجاله من المواجهة لاستعرت حرب بين الحيين لا يستطيع

---

(1) هم العسكر الأتراك.

(2) هم آل الدوخي شيوخ ولد علي.

(3) هو الحصان غير الأصيل.

(4) هو رشيد بن سمير شيخ ولد علي.

(5) الحِجاب أو التميمة.

(6) المستجير بنا.

(7) نصونه.

أحد تقدير نتائجها، وقال يومها محمد الدوخي ابن سمير مخاطباً حمود الشعلان:

يا حمود ما نعطي دخيل نصانا لو جمعوا كل العساكر والأورام

ذبح المدرع من عوايد لحانا ودخيلنا ما هو قصير لسطام

ثم لو أردنا عرض الأمثلة من هذا القبيل لضاق بنا المقام عن حصرها، ولكننا نكتفي بغيض من فيض. وتاريخ القبائل يزخر بأمثال هذه القصص التي هي في أساسها من مفاخر العرب التي يحرصون على إبرازها والتمسك بها.

وما أشار إليه انستانس الكرملي عن قتل عشائر العراق للأتراك حيناً وللإنكليز حيناً آخر، فلأن الطرفين أعداء للعرب، فالأتراك كانوا قد أعلنوا الحرب ضدهم بعد قيام الثورة العربية الكبرى، أما الانكليز فإنهم أعداء للعرب على كل حال، وليس لأي من الطرفين صفة الدخيل أو المستجير، وعليه فإن ما أراد أن يستشهد به الكرملي إدعاء عريض لا يصلح في هذا المقام، ثم ما علاقتنا نحن العرب بروبريك وبطليموس واسكندر بلاس، ومن أي القبائل هؤلاء حتى يتخذ منهم الكرملي حجة علينا؟

ما قاله أديب وهبه عن البدو:

ومما قاله الأستاذ أديب وهبه من شرقي الأردن وهو من الناظرين إلى البدو بعين الرضى والتعاطف:

((إن سكن البدوي في بيت الشعر في البوادي المحفوفة بالأخطار والمشاق وبعده عن الحامية وانتباذه الأسوار قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها عن الحضري منها: الشجاعة والعصبية والوفاء والكرم ولأنفو والنجدة، فتوغل البدو في البادية وتولعهم بالغزو والغارات قد جعلهم في قتال واستعداد دائم للقتال. فأصبحت الشجاعة فيهم طبيعة، وتعذر قيام الفرد مهما كان شجاعاً بمقابلة العديد من العدو قد اضطرهم للالتجاء إلى العصبية وهي التضامن المطلق بين أفراد القبيلة حتى تطلب العشيرة بأجمعها بحق أفرادها، وأقرب أسباب لديهم الأخوة والأبوة والعمومة ومنها تتألف الأسرة ومن الأسرة تتألف الفصيلة وتتدرج بهذه الصورة إلى القبيلة، والذي عليه عشائر شرقي الأردن أنها تطلب وتطالب بحقوق أفرادها إلى الجد الخامس من جدود الطالب والمطلوب أي كل فرد يتصل مع أيهما الجد الأول والثاني أو الثالث إلى الخامس له الحق بطلب حق قريبه وعليه أن يخضع للحق المطلوب منه ولهم بذلك قوانين وقواعد موروثة، ثم إن ابتعاد البدو عن المدن وتفردهم في الأرض المقفرة يضطرهم إلى إكرام الضيف والقاصد وحماية الضعيف والملتجئ حتى إذا وقع أحد أفراد قبيلتهم بمثل هذا الأمر الذي يكثر حدوثه لديهم تقاضى ما

أسلفه. وأن مطاوي التاريخ العربي مستفيضة بأقاصيص كرماء العرب وكرمهم العجيب.

والبدوي يعتقد أنه لا ذكر له ولا أرث أفضل من سمعة الكرم والجود، وإن هذه المزية لا تزال عند بدو شرقي الأردن على ما كانت عليه في زمن أجدادهم الجاهلين، فلا يحل ضيف في بيت أحدهم غنياً كان أو معدماً إلا ويسرع لتهيئة ما يرضيه ويسره وأن الكثيرين منهم يضطرون إلى تحمل أعباء الدين الثقيلة لإرضاء قاصدهم وإذا استأمنهم مستأمن على أمانة فدوا لحفظها أموالهم واولادهم وأنفسهم، كذلك إذا التجأ إليهم خايف أو استجار بهم مظلوم أو نزل عليهم موتور أو مطرود)). – انتهى–

أقول: أن ما قاله الأستاذ أديب وهبة عن البدو في شرقي الأردن ينطبق على البدو عامة وعلى أهل الإبل منهم خاصة، فإن المزايا الخلقية الحميدة التي يتحلى بها البدوي هي واحدة وقديمة قدم عروة بن الورد وعنترة العبسي وحاتم الطائي، بل هي أبعد من ذلك بكثير، فهي كما هي لم تتغير ولم تتبدل، وقد حرص عليها البدو وأغنوها بالمزيد من المآثر الخلقية الطيبة، ولولا جاهلية في البدو لم يستطيعوا التخلص منها لجهلهم الإسلام، لكانوا سادة الأخلاق وأرباب الحجا، فانظر إلى قول عنترة العبسي مخاطباً عبلة:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

أجل كان عنترة يزجّ بنفسه في حمأة الوغى غير هيّاب، ويشن الغارات الصاعقة على الأعداء ليس من أجل مغنم يبتغيه، ولا من أجل نويقات يقتنيها وإنما كان يفعل ذلك ليرفع من شأن قومه ولكي يتحدث العرب عن شجاعته وعظيم أفعاله. أما عند توزيع الغنائم فإنه يترفّع عنها أنفه منه وعفة ويتركها لغيره لأنها ليست مبتغاه.

وقال شليويح العطاوي[1]:

لا قلت الشربة وصارت تراشيح[2] نفسي عن مقصاد[3] ربعي[4] تشوم[5]

---

[1] أحد فرسان قبيلة عتيبة.

[2] إذا نفذ الماء.

[3] هو حصاة صغيرة توضع في أسفل الوعاء فيصب عليها الماء حتى يغطيها ويعطى للرجل من الغزاة أو المسافرين ويسمى هذا المقدار من الماء (مقصاد) وهذا عندما يشح الماء ويقتضي الأمر الاقتصاد فيه.

[4] رفاقي.

[5] تعاف أو تتنازل بأريحية.

ما قاله حافظ وهبه عن البدو:

وفي كتاب جزيرة العرب في القرن العشرين للأستاذ حافظ وهبة الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية بلندن:((أما البدو فهم القبائل الرحل المتنقلون من جهة لأخرى طلباً للمرعى أو الماء. والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة، وحياة البدوي حياة شاقة مضنية ولكنه وهو متمتع بأكبر قسط من الحرية يفضلها على أية حياة مدنية أخرى. هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت أبناء القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم، فالبدوي ينظر إلى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى. إن البدوي في الصحراء لا يهمه سوى المطر والمرعى، فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى ولا يبالي بما يصيب العالم بالخارج، ما دامت أرضه مخضرة وبعيره سميناً وغنيمته قد اكتنزت لحماً، وقد طبقت شحماً، أما إذا نما السكان وضاقت بهم الأرض أولم تَجُد أراضيهم في المرعى، فليس هناك سبيل إلا الزحف والقتال أو الهجرة إن كان هنالك سبيل إليها.

وكذلك القبيلة التي غلبت على أمرها وحرمت من ومراعيها وأراضيها ليس أمامها سبيل آخر سوى الهجرة وهذا ما يفسر الهجرة من وقت لآخر إلى العراق والشام ومصر واستعمار الجزء الشمالي الغربي من أفريقيا وتدفق شمر إلى ما بين النهرين وقبائل عنِزة إلى الحماد كلها نتيجة تغلب غيرهم عليهم من القبائل واضطرارهم إلى ترك أراضيهم التي لم يعد لهم سبيل في الإقامة بها لضيق وسائل الحياة، وقد جرى العرف أن القبائل تعتبر الأرض التي اعتادت رعيها والمياه التي اعتادت أن تردها أملاكاً لها لا تسمح لغيرها من القبائل الأخرى بالدنو منها إلا بإذنها ورضاها، وكثيراً ما تأنس إحدى القبائل من نفسها القوة فتهجم بلا سابق إنذار على قبيلة أخرى وتنتزع منها مراعيها ومياهها.

إن قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدي على السابلة والقوافل، فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والسماحة والترفع عن الدنايا كما اشتهر بعضها بالتعدي وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع بما في أيدي الناس.

ومع أن الدين الإسلامي أبطل كثيراً من العصبيات القديمة واحل محلها الأخوة في الدين ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم وأبناءهم أو أخوانهم أو

عشيرتهم﴾[1]

فقد عادت العصبيات في شرورها في بلاد العرب مرة أخرى والفضل الآن في استتباب الأمن والضرب على أيدي المفسدين يرجع إلى جلالة الملك عبد العزيز وسهره وإقامة أحكام الشريعة وسرعة تنفيذها.

ليس للبدوي أية قيمة حربية تذكر، ولذا كان اعتماد الأمر على الحضر، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلواته، وكثيراً ما كان البدو شراً على الأمير المصاحبين له، فإن ذلك الأمير إذا ما بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ويحتجون بأنهم هم أولى الأعداء المحاربين ولقد جرى كثير من هذا في الحرب الإنكليزية والعراقية، مما كان يندهش له الضباط الإنكليز لأنهم لم يعرفوا أن صديقاً ينهب صديقاً ولكن البادية لا تعرف شيئاً غير النهب والسلب وعندها الغنيمة مقدمة على كل شيء.

والبدوي لا يرى حياة أسعد من حياة البادية ويرى الحاضرة حبساً لحريته وتنقله حيث يريد، كما أن أهل الحاضرة يرون البداوة شقاء لا يعادلها شقاء، ويصفون البدو بأنهم جفاة غلاظ القلوب.

البدوي إذا لم يجد سلطة تردعه أو تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ويُخضع غيره بها، على أن لهؤلاء قواعد البادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامها، فالقوافل التي تمر بأرض قبيلة وليس معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضة للنهب ولذا فقد اعتادت القوافل قديماً أن يصحبها عدد غير قليل من القبائل التي ستمر بأرضها ويسمون هذا (رفيقاً).

والبدوي يحتقر الحضريَّ مهما أكرمه، كما أن الحضري يحتقر البدوي، فإذا وصف البدوي الحضري بأنه الغالب يقول حضيريّ تصغيراً لشأنه، ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شيء وانتقاد ما يراه مخالفاً لذوقه أو لعادته بكل صراحة، فإذا مررت بالبدوي في الصحراء استوقفك وسألك من أين أنت قادم، وعمن وراءك من المشايخ والحكام وعن المياه التي مررت بها وعن أخبار الأمطار والمراعي وعن أسعار الأغذية والقهوة وعمن في البلد من القبائل وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم ببعض.

وبعض البدو لا يحلف كذباً مهما كانت النتيجة، لقد شاهدت كثيراً من القضايا في الإحساء وغيرها كان البدوي ينكر إذا وجّه إليه اليمين وكان لا مفر له اعترف بجرمه إذا كان مذنباً ولا يحلف بالله كاذباً وهذا أمر يدعو إلى الغرابة والإكبار، أيضاً فإنه يدل على شعور عميق بالخوف من الله وأن هذا الشعور إذا أحيط بالعناية والرعاية فإنه ربما يوجه إلى الخير أو على الأقل إلى الإقلاع عن الشر.

---

[1] سورة المجادلة، الآية /24/.

ويستمر الكاتب قائلاً: ((ومع وجود الروح الأرستقراطية التي تتجلى فقط في الزواج ورئاسة القبيلة والحكم، فإنه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الأخرى. فالفرد وشيخ القبيلة والأمير يأكلون جميعاً الرز واللحم واللبن والتمر، ويلبسون جميعاً الثوب والعباءة والغترة (الكوفية)، ويتمتع أفرادهم بحرية لا حدّ لها، فالبدوي يقف أمام الحاكم فيجادل في سبيل حقه ويستعمل كل الأساليب التي يراها موصلة إلى ما يريد)).

أقول: لقد أصاب الأستاذ حافظ وهبة في بعض الجوانب، ولكنه أبعد النجعة في جوانب أخرى، ولا أريد أن أناقش جميع ما ورد في كلامه السابق عن البدو خوفاً من الإطالة، وقد تجاوزت ما في الإمكان تجاوزه وما كان شبه قريب من واقع البدو، ولكن ما لا أستطيع تجاوزه هو قوله ليس للبدوي قيمة حربية تذكر، فهل كانت الجيوش الإسلامية التي زحفت باتجاه دولتي فارس والروم فأزالت ملكهما، وأقامت على أرضهما حضارة ملأت الدنيا شرقاً وغرباً إلا قبائل بدوية نظمها الإسلام وهذبها ووجهها الوجهة الصحيحة، فكانوا خير جند لخير عقيدة ومن بين صفوفهم نبغ أولئك القادة العظام أمثال: المثنى بن حارثة الشيباني وقتيبة بن مسلم الباهلي والأحنف بن قيس وغيرهم كثير.

ويخطئ كثيراً من يشك بقدرة البدو الحربية، ولكن ما ينقصهم هو القيادة الجيدة والتوجيه الصحيح والعقيدة الواضحة القريبة من إدراكهم ووعيهم، فإذا تحقق لهم هذا كله كانوا القوة الساحقة التي لا تغلب، فهم إلى جانب ما وعدهم الإسلام به من جزيل الثواب في اليوم الآخر وأنّ لهم الجنة إذا قتلوا في سبيل الله فإنهم في طبيعتهم يعدّون الهزيمة عاراً على المنهزم يلتصق به طوال حياته فلا يفر في القتال إلاّ كل جبان مغمور النسب.

ويتسابق كرام البدو إلى ابنة الشجاع المقدام أو أخته للزواج منها كي تنجب لهم رجالاً يشبهون أباها أو أخاها بالضرب والطعان.

ما قاله خير الدين الزركلي عن البدو:

ومما قاله الأستاذ خير الدين الزركلي عن البدو في كتابه (**ما رأيت وما سمعت**):

(البداة هم البداة في كل عصر وجيل، يتطور المجتمع وتنقلب الدول وتكثر الاختراعات ويتقدم الإنسان وهم أولئك الحفاة الرعاة الشعث الغبر، تغمزهم الحضارة غمزات فينقادون خطوات فتأبى عليهم طبائعهم إلا أن يعودوا القهقرى، فإذا سجاياهم سجاياهم وأخلاقهم أخلاقهم، كأنما جبلوا من طينة اسمها (سنة

الله) لا تحويل لها ولا تبديل، ولهم على انفرادهم في خلالهم وعاداتهم انفرادٌ أوشك أن يكونوا فيه أمة وحدهم لها ما لها وعليها ما عليها، فقد يشاركهم في بعض مظاهرهم وتقاليدهم من كثير الصلة بهم أو قريب العهد في مساكنهم ومعاشرتهم من أبناء الحواضر المحفوفة في سكان القفار لا سيما قطّان القرى كالحجاز وأخص منهم قرويي الطائف فإن جلّهم بداة يسكنون الدور بدل الخيام ويأكلون من خبز زروعهم لا من لبن ضروعهم، وفي هؤلاء من يغزو ويُغزى كأصحاب المضارب لا فرق بين الفريقين، إلا أن ساكن القرية أحرص على الاشتغال بحرث أرضه واستغلالها وساكن بيت الوبر أولع بالمغازي واحتياز الأسلاب بقوة الساعد).

وفي كتابه الثاني (**عامان في عمّان**) المطبوع عام 1342 هـ و1925م ورد ما يلي:

(وجرى حديث في السلط عن البداة وطريق النجاة من المعتدين منهم، فكثر المتكلمون وكانوا جماعة فلخّصت حديثهم الطريف بما يأتي:

يمرّ السالك في البادية بالأعراب فينظر الأعرابي إليه نظرة الطامع به الوازن نفسه هل يستطيع سلبه أو هناك ما يمنعه فإن وجد له الأولى اعترضه وإلا تأوه ولوى وجهه وفي نفسه أن غنيمة عرضت له وفاتت، ولا يخلو سالك البادية من أن يكون أحد ثلاثة:

واحد: أما عزيز الجانب.

اثنان: أو في قوته ضعف.

ثالثاً: أو ضعيف بادي الانحلال.

فإذا كانت الأولى فلك أن تجري في الأرض مرحاً وعليك أن تسلم على من تلقاه في طريقك وإذا نزلت في حي من أحياء العرب أو قرية من القرى فتصدّر المجلس وأْمر وانْهَ واطلب ممن أنت نازل عنده كل ما تحتاجه إليه فإنه المضيف الذي يسمونه (معزب) يلبيك سريعاً ويرى الشرف في خدمتك.

وإن كنت الثاني فاتبع النصائح التالية:

1ـ لا تسلّم على أحد في طريقك مالم يبدأك بالسلام فذلك أدعى للرهبة.

2ـ اهمز جوادك لتظهر عليه علائم النشاط والقدرة على الكر والفر فإنهم استضعفوا دابتك طمعوا فيك.

3ـ لا تكثر التلفت يميناً ويساراً وخلفاً فإنهم يشعرون بأنك خائف فيعترضونك.

4ـ كن جهوري الصوت إن تكلمت مع أيّاً كان.

5ـ لا تكن منفرداً.

6ـ إذا لقيت أناساً فتشاغل بالحديث مع رفيقك أو رفاقك.

7ـ إذا لاح لك عن البعد أناس فضع بندقيتك كالمتهيئ للشر.

8ـ إذا نزلت حياً أو قرية فلاطف المضيف (المعزب) ولا تكثر من كلامك.

وإن كنت الثالث فخير لك أن تسالم من تراه فتسلّم على الذاهب والآيب وتكثر من النزول بخيام العرب لتكسب مودتهم وإن اعترضك أحد بشر فلاطفه ولا تتعنت وأولى بك أن تلقي إليه بما يطلب فذلك أحفظ لحياتك)) انتهى.

هذا ما قاله العرب عن إخوانهم وأبناء جلدتهم البدو، وهم كما رأينا بين قادح ومادح، وبين منصف وظالم، ومتعاطف وحاقد، وهم على كل حال لم يعيشوا حياة أهل البادية ولم يتوغلوا فيها وإنما وقفوا على أطرافها أو قابلوا في الأسواق من عنده معرفة عنها فسألوه وكتبوا عنه، ولم يكلفوا أنفسهم عناء السفر والضرب في مجاهل الصحراء ليقفوا على حقيقة الأمر بأنفسهم ولو أنهم فعلوا هذا لكانوا إلى الحقيقة أقرب، وربما ألغوا كثيراً مما كتبوه وأضافوا كثيراً مما جهلوه بسبب امتداد المسافة بينهم وبين أهل البادية.

أما ما قاله الكتاب الأجانب والباحثون منهم في هذا المجال فحدّث عنه ولا حرج، فهم ينظرون إلى أهل الحاضرة من العرب على أنهم متخلفون ومتوحشون، فكيف بأهل البادية منهم؟.

ما قاله المقدم مولر الفرنسي عن البدو:

ونورد فيما يلي رأي المقدم مولر الفرنسي الذي كان قائداً لقوات الهجانة في أثناء الانتداب الفرنسي على سوريا، وكان أكثر الفرنسيين اختلاطاً بالبدو بحكم طبيعة عمله، فمما قال: ((إن البدو إن تكلموا كذبوا وإن ناقشوا واربوا وإذا تقاضوا ما حكوا، وعندهم الطمع والجشع وحب السلب والنهب وقوة القلب وحرمان الرحمة وضعف الدين مع الولع بالخرافات وهم بخلاء إلا إذا وجدوا مأرباً في البذل وجبناء إلا إذا وجدوا خصماً ضعيفاً، وهم إن أظهروا شجاعة واندفاعاً للطعان والبراز فما هو في الغالب إلا للتبختر والمباهاة. وإن تراءوا أشداء فذلك للزهو وكسب الشهرة لا للإخلاص والتضحية، لأن الإخلاص والتضحية وفكرة الواجب أمور تكاد تكون مجهولة لديهم))[1].

أقول: هذا كلام ضابط فرنسي مستعمر حاقد، لا ينتظر منه غير هذا عن البدو خاصة، وعن العرب

[1] عن كتاب عشائر الشام للأستاذ وصفي زكريا.

عامة، لا سيما إذا علمنا أن أكثر معاناته في سورية كانت من البدو لأنه كان موكل إليه مهمة المحافظة على الأمن في البادية، وإن ظهر البدوي أمامه بمظهر الجبان فلأنه كان يملك القوة الساحقة التي لا طاقة للبدوي بها، ولا شك أن مولر كان يرى وهو يجلس على موائد البدو أن بأنفسهم خيفة منه وريبة لأنهم كانوا يعلمون أنه فرض عليهم وجوده بقوة السلاح، وهذا ما جعله – لقصر نظره – يفسّر كرمهم بالخوف منه، وهو أن وجد في البدو ميزة السلب والنهب فذلك لأنه عدو لهم يتربصون به الدوائر ويترقبون غفلة منه لينهبوه كما ينهب العدو عدوه، ولا ألوم مولر إذا فسّر سجايا البدو الحميدة هذا التفسير الأحمق العجيب.

ويتابع مولر قائلاً: إن كان البدوي قنوعاً وجلوداً فلأنه يعجز عن حمل مؤونته إلى أماكن بعيدة، وإن كان راضياً بعيشه وزاهداً في دنياه فلأنه لا يرغب شيئاً يجهله.

وإن كان في بعض الأحيان كريماً مضيافاً فلأنه ينتظر أن يقابل بالمثل من ضيفه أو غير ضيفه أو لأن في ذلك الكرم غروراً شخصياً وإن كان نهاباً سلاباً فلأنه يعد ذلك أسرع واسطة للعيش وأسهلها، وإن كان ذا أنفة وخيلاء فلأنه لم يدخل بعد تحت سلطة ونظام، وإن عطف على أولاده فعلى أمل أن يكونوا له أعواناً وحماة، ولكن أولاد البدوي لا يحملون عطفاً واحتراماً كافيين نحو آبائهم ومقام النساء عند البدو بعد المال والحلال إلا ما ندر وللبنات قيمة أكثر مما لأمهاتهن لأنهن سيعرضن يوماً ما للبيع[1]، وهم يفرحون لموت المرأة[2] لأنه سيسبب تبدلاً جديداً في الحياة ويحزنون لموت البنت لأن فيه خسراناً في مورد لا يعوض.

ما قاله كاتب فرنسي عن البدو:

وورد في كتاب (عشائر الشام) للأستاذ وصفي زكريا نصاً مترجماً عن الفرنسية من رسالة (العشائر البدوية ونصف البدوية في دولة الانتداب الإفرنسي)، وهو أعدل حكماً من المقدم مولر قال فيه ما يلي:

((وفي صدد نوع المعيشة التي يقضيها البدو نقول إن البدوي قنوع وذو صبر وجلد جديرين بالإعجاب، فغذاؤه القليل الذي لا يتغير جعله رجلاً عصبي المزاج نحيفاً وذا قوة عضلية قليلة في البنية وهو يعيش من أول السنة إلى آخرها بحليب نعاجه وعنَزاته وبالخبز والبرغل والتمر ولا يرى اللحم إلا إذا زحف نحو مائدة

---

[1] كذب مولر فالبدو لا يعرضون بناتهم للبيع ولا يعدونهن مصدر رزق لهم.

[2] فهل يعقل هذا؟! ومن يصدقه؟!

الشيخ عند قدوم الضيفان، وموائد الشيوخ تتألف من المواد الآتية:
يقدم الفطور في ساعات مختلفة جداً (من الساعة الثامنة حتى الساعة الثانية عشر) وهو حفنة من التمر والخبز واللبن الرائب، ويقدم العشاء بين الساعة (السادسة والتاسعة) وهو صحن من الرز وخروف وخبز ولبن، وقائمة الطعام هذه تتوالى دون أي تبديل على مدى السنة كلها.
ومن خصوص المزايا والأخلاق، فالبدوي لا يخلو من نصيب من الذكاء الذي يستعمله غالباً في الخداع فهو لا بد له بادئ ذي بدء إذا سألته أن يكذب ويراوغ قبل أن يعلم القصد من الأسئلة الموجهة إليه ثم هو قليل التعلق بالدين يؤدي صلاته على هون وحينما يروق له ذلك لكنه ورع جداً في صوم رمضان ثم هو قليل الفتك وغير سفاك للدم وهو إن كانت حرفته الأولى في السلب والنهب إلا أنه يتجنب القتل، وأساس مزاياه الطمع فهو لا يعرف فيه هوادة وخلافاً لما يروون عنه كحقيقة ثابتة، فالبدوي ذو معلومات وذو استقامة، وإما كرمه ووفاؤه فهو في ذروة الشهرة التي نالها، وقيمة البدوي العسكرية نسبية فهو لا يرغب أن يحارب في خارج البادية التي لا يعرف سواها وهو حتى في أرضه إذا بدأ بمشروع حربي كالغزو مثلاً ينبغي لنجاح ذلك المشروع أن يحصل على النتيجة بسرعة وفوراً، وأما إذا شاهد أمامه دفاعاً قوياً ومقاومة مستمرة لا يلبث أن يترك المشروع ويهمله ولا يعود إليه، ويعدّ البدوي غير جدير بحرب المشاة ولا بالكمون واتخاذ الموضع مهما كان موضعه قوياً، ومن ثم كانت قيمة البدو العسكرية محدودة جداً لا ينفعون إلا في مطاردة عدو منهزم وملاحقته وإزعاجه كما كانوا يعملون في أواخر الحرب العالمية الماضية وراء الجيش التركي الرابع))(أ. هـ).
قلت: وهكذا نرى أن التناقض واضح بين الكاتبين، والاثنان فرنسيان والثاني منهما يكذّب الأول، ففيما يفسر الأول كرم البدوي بالخوف والرياء، يفسره الثاني على أنه سجية في طبعه، وبينما يفسر الأول قناعة البدوي وجلده وصبره بعجزه عن حمل مؤنته إلى أماكن بعيدة نجد الثاني يقول إن جلد البدوي وصبره جديران بالإعجاب، وإذا كان الأول يصفه بالتقلب والكذب والمراوغة ينعته الثاني بأنه ذو معلومات واستقامة ... إلى آخر ذلك من التناقضات.

ما قاله الرئيس رينو عن البدو:

وجاء في كتاب (البدو في مقاطعة دمشق) للرئيس رينو والطبيب مارتيني الفرنسيين وصف شامل لأطوار حياة البدوي متتبعين مراحل الطفولة والشباب والشيخوخة وحتى نهاية العمر ما يلي: الولادة عند البدو

حادثة كثيرة الوقوع لأن البدوي كغيره من المسلمين يرى الزواج والاستيلاد واجباً والعقم يعد من بواعث المهانة والازدراء وهذا هو السبب بأن البادية تحوي أماكن للزيارة تهرع إليها النساء اللواتي لم يلدن تلك السنة، فيتوسلن لربهن أن يحسن لهن بولد، والحق أن هذه الحالة الروحية جديرة بالتقدير جداً لأنها تعوض وفيات الأطفال التي تقع لديهم بكثرة ويكفي أن تمر بمقبرة بدوية حتى يثبت لديك عظيم الخسارة بالأطفال وإذاً تكون هذه الحالة الروحية قد كفلت بقاء العرق البدوي وأمنت مستقبله إلى حدّ ما.

وإذا كانت عملية الولادة عندنا نحن الأوروبيين تعد عملية صعبة ومزعجة، فإنها تعد عند البدويات المتعايشات مع الطبيعة حادثاً فيزيولوجياً وحركة عرضية بسيطة فإذا كانت المرأة الماخض في الحي يسرع إليها بعض النساء المتقدمات في السن ويساعدنها وبعد مضي ساعتين أو ثلاث على الوضع تعود النفساء إلى أعمالها المنزلية المعتادة، أما إذا جاءها المخاض في الطريق وهي راكبة على بعيرها فإنها تنيخه وتضع ولدها بنفسها وهي جالسة القرفصاء وتقطع سرّته وتربطها بيدها ثم تلف وليدها وتحمله على ظهرها وتتابع سيرها كأن شيئاً لم يكن، وإذا تعسرت عليها الولادة كأن يخرج رأس الولد وحده تأخذ حبلاً وتربط أحد طرفيه برقبته وطرفه الآخر بأحد قدميها بعد أن تطوي فخذها وتشد عليه شداً قوياً بحيث أنها حينما تمد فخذها يخرج رأس الولد منفصلاً[1].

والعناية الأولى بالوليد بسيطة حيث يدهن بالزيت أو يغسل بالرمل وهي طريقة حسنة لأن الرمل ذو قوة امتصاص كبيرة ثم إن وضع الرمل على الأعضاء التناسلية للوليد يمنع العطن عن جلده وعازل في القماط، ثم يكحل وهذا الكحل الذي يحيط بالأحداق يؤثر في جلد الوليد الأصفر الذهبي ويظهره بلون الليمون، ثم يلف بخرق بالية مشدودة بخيوط ويضعون على رأسه طاقية صغيرة عليها تمائم ويضيف الأغنياء منهم إليها ريشاً من ريش النعام، ولا يشهد أحد هذه الولادة أو يسجلها إذ ليس للبدو سجل إحصاء للنفوس ومن ثم يبقى الولد جاهلاً الزمن الذي ولد فيه، وإذا حاول أحد الفضوليين أن يعرف عمر أحد الأولاد وجاء يسأل أباه وأراد هذا الأب أن يجيبه يجهد فكرته ويستخرج تاريخ الولادة تقريباً من عدد سنين النجعة التي تبدّى فيها منذ نشأة ابنه.

وتعطي الأسرة إلى هذا الولد اسماً واسم البدوي يتألف من اسم أولي مضافاً إلى اسم الأب أو اسم الأسرة التي ينتمي إليها، كنوري بن شعلان، وإذا صادف مرور ضيف جليل القدر أثناء حبل الأم يسمى الوليد

---

[1] هذا من خيال الكاتب لأن الولادة على هذا النحو عملية مستحيلة ولم أسمع قط أنه حدث مثل هذا.

باسم هذا الضيف[1]، وأكثر أسماء البدو هي كما عندنا (الأوروبيين) من أسماء الأنبياء الواردة في دينهم كمحمد وأحمد وإبراهيم وعلي، والبدو لا يحتفلون إلا بولادة الصبي أما البنت فليس لها محل من الذكر والاهتمام وإذا سئل أب عن عدد أولاده لا يعد إلا الصبيان.

وأطفال البدو يولدون ويتلمسون حياة البداوة وهم محمولون إما على ظهور أمهاتهم وإما في إحدى عيني الخرج الموضوع على ظهر حمار صغير وهم يترعرعون رويداً رويداً لوحدهم مثل الجديان والحملان الراقدة في بيت الشعر حول أولئك الأطفال لا فرق بين هؤلاء وأولئك.

ودور الطفولة شاق جداً، فالطفل البدوي يترعرع في الغالب دون أن يرى أي أثر للعطف والحنان لأنه له إخواناً وأخوات كثيرين دون أن يتمتع باللهو واللعب لأنه ما إن يشتد جسمه ويرجى عمله حتى يوجه إلى غاية نافعة مثمرة، ولا يرى مسرات الطفولة ويفرح بها إلا القليل من أبناء الشيوخ والكبراء فحسب ولا شيء يستحق التنويه في دور صبوة البدوي إلا حادث الختان الذي يجري بين السنة الثالثة والخامسة وإليكم وصف حفلات الختان عند البدو:

قبل الحفل بأيام عددها بعدد عمر الصبي تقام معالم الأفراح في كل المخيم فتمد الموائد وتذبح الذبائح ويبدأ الرقص والهرج، والرقص يبدأ حول دمية من وتد كبير يلبسونها لباساً فخماً ويركزونها في الأرض وتسمى هذه الدمية (الموسانا)[2] وتأتي أجمل فتيات المخيم وأرشقهن قواماً وتحسر رأسها وتسبل شعرها وتشرع بالرقص حول الموسانا ورقصها هو المعروف بهذه البلاد وهو عبارة عن حركات بدنية أخصها هزّ الأوراك والأرداف ويلتف الرجال والنساء حول الفتاة ويعملون كما تعمل فيصير الرقص هكذا عمومياً يديره امرأتان تسمى كل منهما (اللافحة) وفي ختام الرقص يدعى الحاضرون إلى الطعام وهو مؤلف من البرغل أو الرز واللحم، ولا بد من أن يعمل في إعداد هذا الطعام كل النساء اللواتي لهن أولاد عمرهم 3 إلى 5 سنوات.

ويجري الختان في اليوم المعين وقت الظهر ويقوم به رجل أخصائي لقاء (مجيدي) أو جزة وبر جمل أو عدة جزات من صوف الغنم، ويسبق هذه العملية الهامة وليمة أكبر من سابقاتها وأكثر دسماً لأنهم يذبحون لها عدة خرفان أو ناقة سمينة توضع فوق منسف كبير من الأرز ويعقب هذه الوليمة حفلة طرّاد الخيل مع إطلاق الرصاص وتمثيل الكر والفر في الحرب وزغاريد النساء وتظل معالم الأفراح بعد الختان أياماً عددها

[1] المتعارف عليه أن البدو إذا ضافهم أحد رؤوس القوم أثناء ولادة المرأة يسمون الولد باسمه وليس أثناء الحمل.

[2] أظنها المصنع، وقد أخطأ المترجم.

قدر التي احتفل بها قبل وقوعه.

والصبي المختون يستمر في نموه وترعرعه وهو يمشي في الغالب عارياً في فصل الصيف وإذا ألبسوه فمن بقايا الثياب التي كانت لأبيه، ورجلاه حافيتان أبداً وهي تتصلب وتعتاد على دوس الحصى والصوان، أما رأسه فمحلوق بالمرة إلا من غديرتين طويلتين تتدلى الأولى على جبنه للبهرجة وتبقى الثانية في قمة رأسه وهي في زعمهم لأجل أن يسحبه ربه إلى السماء إذا مات لأن هؤلاء الأطفال المساكين يموتون بكثرة ويعود ذلك إلى سوء التغذية ورداءة تنقيتها، ومن هنا ترى بطونهم منتفخة متألمة.

ثم إن الليالي في البرية باردة جداً والخوف من الأمراض السارية كالحمراء والحصبة سائدة، ومن ثم كان الانتخاب الطبيعي يعمل عمله بقسوة وشدة فهو يبعد من هذا النسل الكثير كل من يعجز عن تنازع البقاء في هذه الحياة، وإذا ناهز الصبي البلوغ في سن (13 – 14) سنة يحسب رجلاً وحينئذ يغطي رأسه بخرقة ويربي شعره ويجعله مستطيلاً وتتدلى جدايله على كتفيه وتحيط بوجهه الصغير المقطب، وهو يأخذ صغار الإبل وصغار الغنم إلى المراعي ويعيدها إلى البيت ويشترك في حلب الغنم وفي التقاط الأعشاب اليابسة وجمع بعر الإبل للوقود، وهو يبقى في الغالب مع النساء اللواتي يساعدهن ويسابقهن إلى العمل، وتراه أحياناً يدخل الربعة ويقبل أيدي الضيوف ثم يندسّ في إحدى الزوايا محدقاً حوله ساعات طويلة صامتاً صموت أبي الهول دون أن ينبس ببنت شفة ودون أن يعبر عن أصغر ابتسامة وسن الفتوة للبدوي هو دور روائي ومبهرج وشعري.

والفتى البدوي يغسل وجهه ببول الإبل ليغذي جلده ويمسح بدنه بعرق الخيل لتنشيط عضلاته ويمسده أيضاً بروث الخيل الذي يزيل الدهنة جيداً ولا يلبس الفتى البدوي إلا قليلاً من الحلي كخاتم من النحاس أو الفضة وإذا لم يجده يستعمل الوشم المشابه للأختام أو للأسورة.

والفتيات البدويات في باب التجمل والتزين أكثر طلباً واندفاعاً من الفتيان، فهن يحملن في معاصمهن وأحياناً في كواحلهن عدة أساور ودمالج من الفضة والذهب أو النحاس حسب ما تمكنهن ثروتهن، فيسمع لها قعقعة ترافق وقع أقدامهن ويعلق في البراري في أرنبة أنفهن اليسرى وفي شحمة آذانهن كرية صغيرة بشكل وردة يدعونها (ورده) ويصبغن شعرهن وآذانهن بالحناء، وأخيراً يستعملن الوشم بكثرة تضطرنا للتحدث عنه، فالوشم بدقّة في الإبرة وذلك بأن يوخز الجلد بها حتى يخرج الدم في المكان المقصود وشمه ثم يدق هذا المكان بمسحوق الثلج وهذا العمل تقوم به النساء ويعملنه بين السنة الثالثة والعاشرة حسب عادة العشيرة وهو أمر محتم على الفتيات لا بد أن يقمن به ويعد من أكبر أسباب الزينة

والتجمل لهن ويعتقد البدو أن الوشم يردّ مرض المفاصل (الروماتزم) والفتيات يرسمن في أصابعهن رسوم الخواتم وفي أيديهن نجوم وعلى شفافهن حبات الجمال وعلى أعناقهن قلائد وعلى أثدائهن وأفخاذهن سلسلتين عرض كل منها واحد سنتمتر متعرجتين كالمروحة وعلى بطونهم رسوم متنوعة.

هذه هي أخص رسوم الوشم التي تختلف حسب العشائر وحسب مقدرة الفتيات على تحمل آلام عملية الوشم.

واستعمال الفتيان للوشم أقل بكثير من الفتيات، فالشباب يكوون سواعدهم والكي يستعمله البدو للتداوي ويسيرون استعماله بكثرة وفي أي مكان، فهم يكوون سواعدهم بحديدة محمية أو بقطعة من الصوف المحروقة ويجعلون الكي بقدر القرش فالجرح يتعفن والفتحة تتقيح وتبيض وتشبه قطعة من النقد.

والبدوي في سن العشرين يحب التمارين الرياضية والسياقة والرشاقة إلا أن شجاعته ليست زائدة وهي لا تخلو من التحذلق حينما يتم واجبه أو يتحدث عما جرى له وهو من صغره يعوّد على الفروسية فيركبونه فرساً يسوقها برسن واحد مصنوع من الوبر ويكون السرج غالباً بدون ركاب وهو يتجول بها مسافات طويلة تنوف عن المائة كيلو متر دون أن يقف أو يعرج على حي عاني، وعندما ترحل العشيرة من مكانها يذهب للتفتيش عن المراعي والمنازل وقبل أن يأتي رائد آخر يسبقه إلى هذه المهمة وحين الظعن يرافق القطعان وهو راكب لأجل أن يخبر عن هجوم قد يقع على هذه القطعان ولكي يدافع عنها أيضاً.

وقد يقوم هذا الفتى ببضعة أعمال بطولية وحينئذ تراه قد انشرح صدره انشراحاً عظيماً وزاد غروراً وافتخاراً حينما تستقبل النساء الغزاة الراجعين الظافرين الفتاكين. ويتأهلن ويرحبن بهم ويزغردن والغالب أن يتزوج البدوي أول امرأة حينما يبلغ سن العشرين وقد تشترط الفتاة المخطوبة على خطيبها أن يأتي بمعجزة أو مأثرة وقد اختصت بنات الشيوخ وحدهن بحق اختيار الخطيب وحق فرض الشروط عليه. لذا نرى خطباءهن يقابلوهن أحياناً بعمل من أعمال الفروسية الخالدة، وسن العشرين ليس محدداً للزواج مطلقاً لأن بعض البدو يتزوجون في الخامسة عشر وبعضهم قد يتأخر إلى الثلاثين لأن مهور النساء غالية وكثيراً ما يفضل الأب المعمر نفسه على ابنه فيتزوج هو بفتاة صغيرة ويدفع مهراً ويهمل ابنه.

وعدد النساء اللواتي يتزوجهن البدوي غير ثابت ويذكر عن بعض الشيوخ في الجزيرة الفراتية أنهم قد تزوجوا بخمسة عشر امرأة، ويذكر عن آخر زواجه بمائة امرأة، أما البدو الذين نبحث عنهم فلا يجمع أحدهم أكثر من امرأتين سوية ولا يتزوج من خمس نساء مدى حياته كلها، والسواد الأعظم من البدو لا يحوي أكثر من واحدة.

وتجري الخطبة في هدوء وتكتم ولا يسمح للخطيبين أن يتبادلا أكثر من بعض النظرات وبعض الكلمات أثناء الطريق أو حول البئر وربما دام هذا بضع سنوات لعجز الزوج عن تأدية المهر.

وترسل بادئ ذي بدء رسل الخطبة المنتخبون انتخاباً حسناً إلى البنت فيطلعها هؤلاء على ما يراد منها وترسل رسل آخرون مؤتمنون لمحادثة أهلها وهذه المراجعات الرسمية مقررة ولا بد من تحقيقها حتى عند الفقراء، فإذا جاءت الأجوبة بعكس المطلوب يبقى كل شيء مكانه وإذا جاءت وفق المطلوب تجري الخطبة الرسمية بمعرفة كبراء العشيرة حيث يذهب هؤلاء إلى أبي الفتاة ويرجونه أن يخرج إلى خارج البيت ليتمكن من الإدلاء بحرية عن رأيه فيعرضون عليه القصد من مجيئهم ومن هنا يفهم السبب بأن الأب لا يأخذ رأي البنت ذلك لأنها قد استشيرت بالمراجعات الأولى وعرفت رغبتها. لهذا ندر أن يلاقي القادمون للخطبة الرسمية رفضاً، وإذا حدث الرفض يعد إهانة للقادمين المذكورين.

هذا وانتخاب الفتاة المخطوبة تابع إلى حد ما إلى تقاليد وقيود، فالشيوخ أو أبناء الشيوخ لا يستطيعون أن يتزوجوا إلا بفتيات من طبقتهم وأمثالهم وقد تتداخل الدواعي السياسية بهذا الانتخاب والزواج لأن البدو يحتمون وجود التماثل في الثروة والطبقة ومن ثم كان الزواج محصوراً في الغالب بين أبناء الفخذ الواحد أو أبناء فخذين من العشيرة الواحدة، فإذا كانت العشيرة المطلوب مصاهرتها بعيدة وجب أن تكون صديقة وهكذا يستمر نمو العرق محتفظاً بالخصال الأصلية وهذه القضية حقيقية بحيث أنك بعد اعتبار قليل تصل إلى معرفة البدو الذين تلاقيهم وتستطيع أن تنسبهم إلى عشيرتهم وذلك إذا أمعنت النظر في وجوههم وأساريرهم ومن هنا تدرك السبب في أن شدة القرابة الدموية بينهم هي الباعث للعيوب البدنية التي تكثر لديهم.

وإذا تم التراضي يدفع المهر إلى أبي المخطوبة أو أوليائها أما هي فلا ينالها منه شيء ولكن إذا كانت من عشيرة أخرى يعطونها نصف المهر وفي مقابل المهر تحمل هي إلى بيت بعلها جهازاً متواضعاً مؤلفاً من سجادة أو فرشة ووسادة وصندوق ثياب وأدوات زينة ونادراً أن يدفع البدو نقداً بل يدفعون مقابله من الإبل والغنم وقد يدفعون بادئ ذي بدء نصف المهر ويؤجلون النصف الثاني، ولكن لا يقع الزواج أبداً ما لم يدفع نصف المهر على الأقل ولا يمكن الشذوذ عن هذه القاعدة إلا حين التبادل، أي يأخذ أحدهم أخت الثاني ويزوجه أخته فيكونان قد تبادلا دون دفع شيء.

والأعراس أيضاً عند البدو بسيطة فإذا كانت حالة العروس مؤاتية يركبونها هودجاً على بعير ويرافقونها إلى بعلها وتقام معالم الفرح حين وصولها وتولم الولائم ويدعى إليها كبراء العشيرة. وأساس هذه الولائم ذبائح

الإبل أو الغنم، وإذا كان العرس لأناس أغنياء يضاف إلى ذلك الطبل والزمر والغناء وطراد الخيل.

ومظاهر الأفراح التي تجري في الأعراس ليست رهن السلام الدائم في الحياة البيتية فالشقاق إذا ذرّ قرنه والبغضاء إذا تنفست لا بد من أن يعقبها الهجر والطلاق وإذا طلق الرجل امرأته تحمل هذه معها كل ما أتت به من الجهاز وترجع إلى أهلها الذين يحتفظون بمهرها ولا يردونه، وإذا وقع الطلاق بطلب الزوجة وهو ما اعتادت عليه بعض العشائر يحق للرجل أن يسترد المهر الذي دفعه، والطلاق يتم إذا لفظ الرجل ثلاث مرات العبارات المعينة الآتية:

أنت طالق يمكنك أن تتزوجي بمن تشائين أنت وشأنك يا فلانة لا أريدك بعد الآن.

بيد أن الطلاق نادر وأندر منه العزوبة لأن العزوبة عند البدو تماثل العقم ويشبهون الأعزب بالشجرة غير المثمرة ويرونه جديراً بالمهانة، وأندر من هذا وذاك الزنا لأن أقل انحراف عن العفاف تقوم به المرأة عقابه القتل ويقر الزوج هذا القتل بنفسه وينفذه بيده ويوافق الجميع على ذلك.

والزوج لا ينحرف عن عفافه في الغالب، ألم يهوّن عليه دينه الأمر ويسمح له بتعدد الزوجات؟ ثم هو إذا لم يغش المدن كيف يتمكن من الزنا وسط نساء العشيرة العفيفات؟ بل أن الأمر بالعكس فما أن يتم شهر العسل وما أن تظهر علائم الحمل حتى تحتل المرأة مكاناً في فؤاد بعلها، ويفسر هذا المكان في أنها (أي المرأة) مطية اللذة الجسدية وقالب إيلاد الذرية، وإذا تزوج البدوي سرعان ما تراه قد صار رب أسرة وسرعان ما تراه قد كبر وبلغ أشده.

أما لباسه في هذا السن فهو: لا يختلف لباس النساء والرجال عند البدو في أيامنا هذه عما كان عليه في العصور الغابرة، وهذا اللباس لا يفارقهم لا في النهار ولا الليل ولا يبدلونه إلا مرة في العام عقب شهر رمضان، وهو موافق كل الموافقة لحالة البدوي، وماذا تريدون أكثر من الكوفية دواء لعواصف الرمال وأشرس من الفروة الفضفاضة في دفع برد الصحراء في الشتاء؟ وهل هناك ألطف من الثوب العريض المهلهل في تخفيف حرارة القيظ؟

أما من الناحية البدنية: فالبدوي كبير الجثة رشيق القامة شديد السمرة وله شعر مضفر يحيط بوجه متطاول منته بذقن مدورة أو مثلثة الشكل تحمل لحية مجعدة مسترخية الطرف وخداه مقعران بينما وجنتاه بارزتان وأنفه أخنس وربما كان أقنى أما عيناه فسوداوان وصغيرتان ونظراته تعرف اللطف كما تعرف العنف، وتظهر أحياناً من حدقة عينه المخضرّة انعكاسات كانعكاسات الفولاذ الأسمر، أما أعضاؤه فنحيفة وقوية العضل وحينما تراه أثناء الطعام يعجن لقم الأرز الضخمة ويدملكها في يده وبأصابعه

النحيلة ويهيؤها للإزدراد وتلحظ نحف جلده الأسمر ونحف سواعده المفتولة وبروز عضلاته ودورانها كأنها خيوط من فولاذ، ونساء البدو هن على الوتيرة نفسها وقد ألفن الأشغال الشاقة أحياناً أكثر من الرجال ومن ثم تراهن بنفس اللون والسيماء والمظهر الذي لأزواجهن والعضلات في أعضائهم المعصوبة تشبه حزمة من الأحبال المشدودة.

أما من الناحية الأخلاقية: فالبدوي كاد يكون مجموعة من تناقضات كأن المزايا الحقيقية الموروثة عن أجداده قد كلت وكهمت ونتيجة المعيشة القاسية التي يقضيها في يومنا هذا؟ فالبدوي غير خال من الشجاعة، لكن شجاعته سطحية وغير خال من صدق الطوية؟ ولكنه يجنح كثيراً إلى الخداع والمواربة؟ وقد أكسبته التجارب أن اللف والدوران حول العقبات والمشكلات خير من مجابهتها مباشرة فهو إذا ما طرحت عليه سؤالاً يجيبك دائماً أجوبة غامضة، بيد أنه يمكن استخلاص الجواب الشافي منه فيما إذا كانت المسألة لا تمس مصلحته الشخصية ومصلحة أقاربه الأدنين، لأن مصلحته ومصلحة عشيرته هما أهم الأمور التي تحدد اتجاهه في المعاملة. فالبدوي ميال إلى السلب والنهب، وعنده في الوقت نفسه ميل إلى الكرم والسخاء كل ذلك حسب الظروف والحاجة، والطمع رائد البدوي بحيث أن وساوسه لا تمنعه أصلاً من أن يتجه نحو الناحية التي يجدها أصلح له بيد أنك تجده غيوراً منافحاً عن سمعته وحريته وهو سريع التأثر والغضب لكرامته وشديد الانفعال إذا أصابته إهانة أو عداوة، لا ينسى ذلك حتى آخر عمره، ولا بد من أخذ الثأر ومحو العار والبدو حقود وطلاّب للثأر إلى حد أنه يورث حقده وثأره إلى أعقابه.

وشظف عيش البدوي لا يمحو الناحية المثالية من شخصيته وكلامه موزون ومعقول في عبارة صريحة وسرعة انطلاقه نحو الهدف ويزخرفه بضرب الأمثال وبالتشبيهات التي تصدر عن روية ومعرفة، وفي السهرات يسمع البدوي ويصغي لما يقصونه عن الأبطال والفرسان من أبناء قومه وتترنح أعطافه طرباً حينما ينشد أحدهم أمامه أغنية بصوت مطرد الأوزان ترافقه دقات الربابة التي تتلاشى رناتها في الصمت الواسع للمخيم المستغرق في هدوئه، والبدوي يقدر قدر الدماثة واللباقة وهو يهوى السلاح ويحسن استعماله وإذا كان البدوي رشيق القامة ومتخلق بكل أوصاف جنسه ودنيوي النزعة حسب بيئته ترى دوره الذي يمثله في مسرح الحياة دوراً تزينياً وخزفياً، ثم هو يلاحظ أعماله ويصدر أوامره ويتقبل الزيارات ويردها، ثم هو إلى ذلك صاحب سلطة وقيادة ويعرف حسن القيام بهما ثم يوكل نساءه وأولاده أمر العناية بأعمال البيت وتربية الماشية وإرعائها وإسقائها ولكن إذا كان هو روح أسرته وعماد بيته يعرف

وقت هجوم الأعداء كيف يقف ويدافع عنها. ويعرف أن من واجبه خدمة شيخه يوم الغزو.

والبدوي في حقيقته أقل فروسية وأنقص في المثالية، (الكمال) مما يصوّره الروائيون والقصاصون، وهو خلط من المحاسن والمساوئ ولكن مهما كانت مزاياه يظل في نظرنا رجلاً مستحقاً كل الاستحقاق الاحترام والانجذاب والتودد نحوه.

وتمتد حياة البدوي الفعلية مدة مديدة إلى أن يشيخ وتخذله قواه رويداً رويداً ويعلوه الشيب فينوب عنه ابنه الأكبر في الأعمال وحينها يرتدي الأب عقالاً ضخماً ويلزم الانزواء في بيته ويرجع كما كان في عهد الصبا للعيش بين النساء لا يزار في بيته ولا يخرج إلا حين الضرورة وتنسى العشيرة يوماً بعد يوم استشارته في مهام الأمور على أنها تحفظ له كل رعاية وحرمة، ويبقى سنين عديدة مثال السلف الصالح ممسكاً بدفة الأمور إلى أن يموت كما يموت المصباح المنطفئ.

وموتة البدوي كولادته تقع حسب ظروف الحل والترحال، وإذا مات تمزق نساؤه ثيابهن الفوقانية، ويحثين التراب على رؤوسهن، وينفش شعرهن، ويرفعن أصواتهن بالولولة، ومن علامات الحزن تنزيل أحد أطراف الخيمة، ويتوافد كبراء العشيرة ويقدمون لورثة الميت تعازيهم بعبارات بالية اتكالية ثم يحفرون له قبراً في ذروة أكمة مشرفة على منزل العشيرة ويجعلون اتجاهه نحو مكة ويحمل أبناؤه نعشه وحوله النساء الباكيات النادبات ويبلغون به الأرض التي طالما دافع عنها في حياته وهناك يتلون بعض صور دينية بصوت منخفض ويغسلونه الغسل الأخير بالرمل، وهذا الرمل الذي غسل جسمه الصغير العبل الأصفر صفرة ذهبية لما كان طفلاً صغيراً يعود لغسل الهيكل العظمي للميت الأسمر اللون ويضعون على القبر ركام التراب المستخرج من حفرته ويحيطونه بسور مستطيل من الحجارة دون أن ينقشوا عليها أي كلمة أو رسم ثم يستأنف الحي سيرة نحو آفاق جديدة وأبعاد سحيقة، ويعود الزمان إلى فعله ويمحو آثار القبور الرثة ويلاشيها. وتدوس أخفاف الإبل العريضة القبور المجهولة وهي سائرة دون علم ولا معرفة بها ولا بأصحابها، وإذا مات البدوي فمعنى ذلك أن حياته قد انتهت بكل بساطة، كما بدأت ونمت بكل بساطة، ونحن أهل الحضارة والتمدن لا ندرك للحياة معنى ما لم تكن محفوفة برغد العيش في الدور الفخمة والموائد المزخرفة وما لم تكتمل بغشيان المقاهي والمسارح، ولأجل ذلك نعدّ حياة البدوي عديمة الألوان ونعتبرها قاسية شديدة، ونراها كأنها دواعي عذاب الجسم وإرهاقه دون انقطاع، أو كأنها قشافة وزهادة على غير جدوى.

على أن هذه الحياة في عين البدوي هي منتهى القصد وغاية المنى، أليس كل رغد في الحياة هو نسبي؟

أليست العادة أساس كل شيء والفكرة التي تحييها العادة هي مختلفة في نظر كل منا، إذاً هذا هو السبب، في أن البدو قليلو الاكتراث بمطالبهم الجسمية طالما مطالبهم الروحية مؤمنة وجلّ ما يحتاجه البدوي هو النهارات المضيئة والليالي الصافية والآفاق الواسعة الممعنة في البعد والمساحات الشاسعة اللانهاية لها حيث الأرض يرثها أول من يطؤها، وحياة البدوي مبنية على عدم المبالاة بالغد بتاتاً على الانفعال المؤقت الساذج على البطالة الطوية تحت سقف الخيمة مع تدخين الناركيلة الخزارة واحتساء القهوة نغبة بعد نغبة بالفناجين الصغيرة، ثم أن حياة البدوي قد جلبت أيضاً وخاصة مع الحرية الحقة والبدوي جلود جلادة البعير، جسور جسارة الأسد ونشيط كنشاط الغزال إلا أنه أكثر من هؤلاء جميعاً حرية واستقلالاً. هذا هو البدوي وهذا هو ما يود أن يحرص عليه ونفسيته المتعاظمة لا تقبل مطلقاً كل ما يشبه البتر إذا حزّت الرقبة، فالحرية والاستقلال هما من الممتلكات التي يضعها البدوي فوق كل شيء، ويبقى حريصاً على الاحتفاظ بها مدى الحياة.

وختاماً نقول إن عقيدة القضاء والقدر هي المتسلطة على كل شيء لدى البدوي وكلمات (الله أكبر) و (الله أعلم) و (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) و (أينما تكونوا يدرككم الموت) وأمثالها هي القواعد التي يعتمد عليها البدوي طول عمره وهذا هو السبب في أنه لما يتم البدوي حياته القاسية المتشردة وينقلب شيخاً هرماً لترى وجهه الذي كان نشيطاً فعالاً صار يشع صفاء روحياً تماماً. – (انتهى ما قاله الرئيس رينو ورفيقه) –.

قلت:...... لقد قدّم الرئيس رينو شرحاً وافياً عن حياة البدوي منذ طفولته حتى شيخوخته ومماته، ولكن لا ندري من أين جاء بهذه الصورة المشوهة عن حفل الختان عند البدو والتي وصفها بأنها تنتهي بهز الخصر والأرداف من قبل الحافلة كما سماها، ومشاركة الرجال والنساء في عملية الرقص العامة وكأنه يصف حفلاً صاخباً في أحد الملاهي الليلية، على أنه من المعروف عن عشائر بادية الشام أنه ليس لديهم هذا النوع من الرقص المصاحب بهز الخصر والأرداف، وإن جاز هذا النوع من الاختلاط بين الرجال والنساء عند بعض العشائر القاطنة على ضفاف الفرات والمشتغلة بالزراعة، فإنه لا يجوز عند غيرهم من عشائر البادية الشامية المتمسكين بأصالتهم العربية وبداوتهم النقية.

وصورة أخرى جاء بها الكاتبان عند حديثهما عن طفولة البدوي، فقالا إنه يحلق شعر رأسه ويترك له جديلة في أعلى رأسه وأخرى تتدلى على جبينه وأن التي في أعلى رأسه لكي يسحبه الله بها إليه عند مماته وكأنهما جاءا بهذه الصورة من إحدى قبائل الهند أو من قبائل جنوب إفريقيا، أما في قبائل بلاد الشام

فلا أعلم أن لديهم مثل هذا النوع من الاعتقاد التافه الساذج، لكن صبيانهم يجدلون شعورهم على شكل ضفائر تتدلى عن يمين الرأس وعن شماله وإذا استطالت تصل إلى صدورهم وهم ينقضونها في الأفراح عند طراد الخيل.

ما قلته عن البدو:

هذا بعض ما قاله كتاب العرب والعجم عن البدو، وهم إن أصابوا مرة وأخطأوا مرات فإنهم غير ملومين، ولا ننصفهم إذا طلبنا منهم أن يعرفوا عن البداوة كل شيء لأن ذلك ليس في طاقتهم، ولا بد لمن يحيط بجميع جوانب هذا البحث من أن يكون ابناً للبادية نبت منها ودرج على رمالها واشتدّ عوده عليها واستوى، وإلا كيف يحسّ بشدة بردها من لم يكن قد بات غادياً على ظهر بعيره في قافلة للصميل لجلب الماء لأهله من مكان بعيد حتى إذا ورده في الساعات الأولى من الصباح وجد سطحه قد تجمد فيكسره ليملأ منه القرب وتخونه أنامله في شدّ الوكاء على فم القربة فينفخ عليها بفمه ليسخن الدم الذي تجمد فيها.

أو كيف يدرك صعوبة تقلب الرياح في ليالي الصحراء الباردة من لم يمض ليلة يقارع الريح ليغير اتجاه بيته (يدير الرواق) في ليلة عاصفة ممطرة حتى إذا انتهى من عمله كانت ثيابه تقطر ماء فيأوي إلى فراشه دون أن يخلعها لأنه لا يملك غيرها فيبيت مقروراً حتى الصباح، أو من لم يسرح بإبله إلى مرعاها مع طلوع الشمس يصارع فحول الإبل الهائجة ليضع الهجر في قوائمها، أو كيف يصف حرّها من لم يمش حافياً على رمالها الملتهبة في ساعات الهجير التي لا تطاق؟

لا أعتقد أن أحداً ممن كتبوا عن البدو عانى مثل هذا أو رآه ليقف على الصورة الحقيقية للخلفية القاسية التي كونت هذه الشخصية المتميزة.

وبما أنني واحد من هؤلاء الذين ولدوا على أرضها وعشت فيها طفلاً ويافعاً فإنني أسأل الله أن يجنبني الخطأ ويهديني إلى الصواب لكي أنقل للقارئ الكريم صورة صافية ناصعة لا يشوبها كدر ولا يعتريها زيف، وسأبدأ بنفسي سالكاً في ذلك سبيلاً وسطاً، فأنا من أسرة ليست بالفقيرة، ولا بالغنية، متنقلاً من الطفولة الأولى إلى الصبا، وحتى الكهولة، فهي مثال حي ونموذج مطابق لحياة كل بدوي إلى حد بعيد.

طفولة البدوي:

ومن أجل ذلك فإن بداية حديثي ستكون بعيدة جداً تبدأ من عشية ذلك اليوم الذي جئت فيه إلى الدنيا وفي اللحظات الأولى من مجيئي عندما وضعت جدتي حبلي السريري (حبل السرة) بين حجرين لتقطعه ولا أدري أهوت عليه بضربة واحدة أم أنها كانت في سبيلها إلى فعل ذلك عندما أضاءت الشيحة[1] التي وضعوها على النار، وصاحت بعدها جدتي بفرح: إنه ولد ورفعت الحجرين وقالت أعطوني (سكين).

كانت جدتي تحسبني أنثى لأنني جئت بعد خمس بنات لأمي على أثر بعضهن حتى أشيع أنها لا تنجب إلا البنات، وكل الناس يفرحون بالولد الذكر بدوهم وحضرهم لأنه سيصبح رجلاً فيما بعد، بيد أن حاجة البدوي لولده أمر تفرضه ضرورة الحياة في البادية لأن مبدأ (عد رجالك وارد الماء) هو المبدأ السائد في أكثر الأحيان.

وبعد أن قطعت جدتي حبل السرة وربطته لفتني بقطع من الثياب العتيقة لأنّ البدويات لا يهيئن للمولود الجديد شيئاً يلف به كما يفعل أقرانهن من أهل الحضر، وكانت أمي محظوظة بوجود جدتي إلى جانبها في هذه الساعة فكثيراً ما تلد نساء البدو ولا يجدن من يخفف عنهن آلام الوضع أو يساعدهن، واللواتي يقمن بهذا العمل حين يجيء المرأة المخاض جاراتها والنساء المسنات في الحي، ويرش جسم المولود الصغير بمسحوق الريحان لأنه يمتص الرطوبة وذو رائحة زكية. ونصيب الصغير من الاغتسال بالماء كنصيب أمه منه مرة كل شهر أو شهرين في أيام الشتاء وحسب توفر الماء، ويتغذى الطفل حليب أمه فقط وهو من أحد العوامل التي تساعد الطفل على مقاومة طبيعة الصحراء القاسية إضافة إلى أشعة الشمس والهواء النقي.

وتحمل البدوية طفلها على ظهرها في إزارها (الزبون) وفي أثناء الرحيل تحمله معها على ظهر البعير أو تضعه في الخرج على ظهر الحمار، وتضع مقابله في العين الأخرى من الخرج أحد إخوته، أو تضع حجراً يساوي وزنه، وتغطي البدوية رأس ولدها بقبعة موشاة بالخرز الأزرق وتعلق عليه من الأمام فوق جبهته بعض التمائم لتمنع العين عنه. ويكبر الصغير رويداً رويداً حتى إذا بدأ يحبو أو يخطو الخطوات الأولى، وأرادت أمه الخروج من البيت لجمع الحطب أو لجلب الماء ولم يكن في البيت من يعتني به، تربط رجله بإحدى عرى العدول لتأمن عليه من الخروج حتى عودتها، ويلعب الصغير مع إخوته الصغار أو مع أقرانه

---

[1] شجرة الشيح.

من أبناء الحي، ولا تعاني البدوية كثيراً في تربية أطفالها، فهم يسرحون مع أقرانهم في الأرض الواسعة دون قيود، وليس في بيت الشعر من الأثاث ما يخشى عليه من التخريب كما في بيوت الحضر.

وعندما يصبح الطفل في سن السابعة أو الثامنة، يكلفه والده برعاية الإبل، إذا لم يكن له إخوة أكبر منه يكفونه مشقة هذا العمل، ويوصي به والده الرعاة الذين يكبرونه سناً.

لم أكلف أنا بمثل هذا العمل، لأن والدي كان يستأجر راعياً لذلك، أما أقراني من الذين لا يستطيع أهلهم دفع أجر الراعي لضيق ذات يدهم، فقد مارسوا حياة الرعي منذ نعومة أظفارهم، والرعاية هي أول عمل يقوم به الطفل البدوي، وهم حين ينقلون إلى أبيه البشرى بمجيء المولود الجديد يقولون له (أبشر لك براعي)، ويعنون نزفُّ لك البشرى أو نبشرك براعي.

والذين لا يرعون الإبل في هذه السن من أطفال البدو يسوقون الخراف في مؤخرة القطيع ويقومون بمساعدة راعي الغنم في أثناء الانتقال من منزل إلى منزل، ولم يخطئني هذا العمل فقد مارسته طويلاً وكان أشدّه علي تلك الأيام التي كنا نرتحل بها شتاء، وكان علينا أن نسير منذ الصباح الباكر حتى وقت الزوال مشياً على الأقدام، وأكثر ما كنا نعانيه الجوع والبرد، وكثيرة هي المرات التي كانت تتخدر فيها أصابع يديّ ورجلي حتى أنني كنت أحياناً لا أستطيع أن أجمع أصابع يديّ إلى بعضها من شدة صقيع الصباح، وفي المرات التي كنت أعفى فيها من هذه المهمة، كان والدي يردفني خلفه على الفرس أو الذلول.

ولا يمارس أبناء الشيوخ ورؤساء القوم مهنة الرعاية إلا نادراً، لأن لأهلهم القدرة على استئجار الرعاة.

وعندما يبلغ الطفل الثانية عشرة يصبح في إمكانه الاعتماد على نفسه في رعاية نياق أهله أو نياق غيرهم بأجر معلوم إذا كان أهله من جملة الفقراء، وهذه الفترة وما بعدها هي من الأيام الجميلة في حياة البدوي التي يذكرها إبان شيخوخته.

وفي أيام الصيف الحارة يسرح الطفل مع أقرانه رعاة الإبل، ويبيتون بعيداً عن أهلهم يومين أو ثلاثة أو أربعة حسب بعد المرتع أو قربه من أهلهم، ثم يردون الماء ويسمى البدو هذا النوع من الورد: الربع أو الخمس إذا رتعوا ثلاثاً ووردوا في اليوم الرابع أو رتعوا أربعاً ووردوا في اليوم الخامس، أما إذا وردوا يوماً وأظمؤوا يوماً فيسمونه غباً، والغب هو اليوم الذي لا يردون فيه.

ولا يجالس الصغار الكبار في مجالسهم سوى المحظيين منهم عند آبائهم، وإذا حصل مثل هذا فإن الطفل يجلس بصمت وهدوء يستمع إلى أحاديث الرجال ويتعلم منهم، ويمتاز البدو في مجالسهم بدرجة عالية من حسن الاستماع وأدب الكلام، فإذا تحدث أحدهم أنصت له الجميع حتى ينهي كلامه، وليس عند

البدو مدارس في عهودهم الأولى، فمدارسهم هي هذه المجالس التي يتعلم فيها الفتى البدوي أسلوب الحديث وطريقة سرده والبلاغة في إيراد المعاني، ويتعلم قصص الكرم والشجاعة ومحاسن الأخلاق وصون الجار وعوذ الجاني وإغاثة الطريد لأن تلك المجالس غنية بمثل هذه الدروس. والمحدثون من البدو لا يتحدثون إلا بخير القصص التي تحوي في مضمونها هذه المعاني الحميدة والمزايا الخلقية الكريمة، وهم يروون خلاصة تجاربهم في الحياة وما حفظوه عن آبائهم وكبار السن منهم، وفي البدو محدثون مهرة يجيدون فن الرواية لا يملهم السامع ولا يضيق بهم الجليس.

وفي سن الخامسة أو السادسة يختن الطفل، ويقام من أجل ذلك حفل يستمر سبعة أيام، وتعدّ حفلات الختان من أهم حفلات الأفراح عند البدو وسنورد إن شاء الله تفصيلاً لها عند الحديث عن الأفراح عند البدو.

ومن الجدير ذكره هنا أننا عندما نتحدث عن البدو فإننا نعني بهم أهل البادية في البدايات الأولى للقرن العشرين وتحديداً بداية الحرب العالمية الأولى وما قبلها، أما بدو اليوم فإنهم يتطاولون في البنيان وأبناؤهم يدرسون الطب والهندسة والرياضيات، ويتدرب الفتى البدوي على ركوب الخيل إذا كان أبوه ممن يقتنونها، وأما الذين لا يربط أهلهم الخيل فيتدربون على ركوب الهجن، وهم يمارسون هذا النوع من الرياضة ويكتسبون فيها مهارات متفوقة في أثناء رعايتهم للإبل، فيستطيع أحدهم أن يجانب البعير وهو يركض مسرعاً فيمسك بذروته بكلتا يديه، ثم يثب، فإذا هو جالس متمكن على ظهره.

ويتسلح الفتى بالسيف أو الرمح أو الردنية (المسدس) أو الشبرية إذا تجاوز السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، وحسب إمكاناته المادية، وفي هذه السن يهبُّ الفتى للنجدة مع قومه إذا جاء النذير بوجود غارة من الأعداء على الإبل، إمّا فارساً على ظهر جواد، أو ظهر الهجين، أو راجلاً إذا كانت المسافة قريبة.

وتطحن الحرب والمنازعات والغارات التي تشنها العشيرة أو يشنها الأعداء عليها كثيراً من الفتيان في هذه السن لأنهم يكونون عادة متحمسين مندفعين في طليعة قومهم يبحثون عن المجد والشهرة ولكي يتحدث الناس عن شجاعتهم وأفعالهم، ومن بين هؤلاء يبرز الفرسان الذين يذودون عن شرف العشيرة ويحمون ذمارها، وقد يوجد في كل جيل من العشيرة نماذج من هؤلاء، وتاريخ القبائل البدوية غني بأمثال هؤلاء الأبطال منذ عهد عنترة العبسي ودريد بن الصمة والقعقاع بن عمرو، إلى عهد راكان بن حثلين، وخلف الأذن من الشعلان، ومحمد الفيصل الملحم، وعقل بن عساف، ودبجان الرفاشي، وجدوع الغريان من

الحسنة القريبي العهد بنا.

ويتزوج الفتى البدوي عادة إذا بلغ سن العشرين أو تجاوزها. وقد يسعى له أهله في الزواج أو يسعى هو لنفسه، والمهر عند البدو (العامة) بسيط جداً في أغلب الأحيان، ويتراوح ما بين البعيرين إلى الثلاثة، أما عند رؤوس القوم فقد يزيد عن ذلك بكثير، ويقايض البدوي أخته أو ابنته على أخت رجل آخر أو ابنته، ويسمون هذا النوع من المقايضة (البديلة)، وهو ما يعرف باللغة بزواج الشغار.

وبعد أن يتزوج الفتى يبقى في بيت أبويه إذا كان وحيدهما أو كان هو الولد الأكبر لإخوة صغار، أما إذا كان له إخوة كبار فقد يبني بيتاً جديداً، وتعين العشيرة الفقراء من أبنائها في مثل هذه الحال، فهذا يأتيه بلحاف، وذاك بفراش، وآخر بصحن، وسواه بقدر صغير حتى يصبح البيت مكتملاً، وكذلك شأنهم فيمن تحل به مصيبة أو ينهب بيته، وهو عمل ينمّ عن روح تعاونية جماعية عالية مما يجعل أفراد العشيرة كلاًّ متكاملاً يشد بعضهم أزر بعض.

وقد يصبح صاحب هذا البيت كريماً أو شجاعاً أو من ذوي الرأي السديد، وهذه الصفات الثلاث هي أكثر ما يتميز بها الرجل في عشيرته، وقد يحوز أحدهم هذه الصفات جميعها، فيحتل مركز الصدارة في العشيرة ويعتمد عليه في الملمات، ويندب في المهمات، والمحدثون من البدو يرددون دائماً أنه لا يحق للبواكي أن يبكين إلا على ثلاثة: الشجاع والكريم وذي الرأي السديد، وفي ذلك قال شاعرهم:

لا عاد ما تندب لا صار قاله[1]   تراك تحسب من هدوم[2] بها أزوال[3]

والهدوم الملابس، ولا قيمة لهذه الهدوم إذا كانت على خيال يتحرك ليس فيه شيء من الشجاعة أو الكرم أو حصافة الرأي، وهي الصفات التي يندب أصحابها للمجالس حين تلمّ بالعشيرة الخطوب أو يهددها الأعداء. أما إذا لم يحز الرجل صفة من هذه الصفات المذكورة فيكون رقماً مكملاً للعدد في العشيرة فلا يستشار ولا يؤخذ له رأي.

ويحلق الفتى شعره من الأسفل إلى الأعلى حتى فوق أذنيه بقليل ويرسل الباقي على شكل ضفائر تتدلى على صدره اثنتان من اليمين واثنتان من الشمال ويتفاخر بهذه الضفائر عند ركوب الخيل في الأفراح وفي أثناء الحرب فينقضها ويرسلها على كتفيه.

ويغسل البدو شعورهم بالماء حيناً وأحياناً كثيرة ببول الإبل لأنه يكسب الشعر لوناً برونزياً مائلاً للحمرة،

---

[1] مشكلة.

[2] ملابس.

[3] وهي جمع زول عندهم.

وغالباً ما يعشعش القمل في تلك الضفائر ولا ينكر البدو رؤية القمل في شعر أحدهم إذ لا يكاد بدوي يخلو منه، وذلك لقلة الماء اللازم للحد الأدنى من النظافة، وهم يصلون ثيابهم على النار ثم يطرقونها بأيديهم ليتخلصوا من هذه الحشرة الصغيرة، ويفرش الرعاة ثيابهم على بيوت النمل لأن النمل يستخلص القمل منها، والمرأة هي التي تغسل شعر الرجل وترجله في أكثر الحالات.

مشراق البدو (التشاريق):

ولكي نقف على حقيقة حياة البدو وأسلوب معيشتهم في حلهم وترحالهم بصورة صحيحة، علينا أن نتتبعهم في منازلهم في مشتاهم ومربعهم ومصطافهم سائرين معهم في تشاريقهم وتغاريبهم أو مشراقهم ومغرابهم.

ولتكن صحبتنا لهم بداية من مشراقهم وهو رحيلهم من مكان اصطيافهم وما يسمونه (المقيظ) لأن فترة المشراق أو التشاريق (كما يسمونها) هي فترة محببة إليهم ومسيرة جماعية تتجدد كل عام مع بداية فصل الخريف ينتقلون بها من ضيق أرض المقيظ المحدودة إلى رحابة البادية وسعتها اللامتناهية، خاصة لأنها تأتي بعد قضاء أشهر الصيف الطويلة في مكان واحد.

والبدو بطبعهم لا يرغبون هذا النوع من الإقامة بيد أن قلة مصادر المياه في البادية صيفاً تضطرهم إلى ذلك، ولذلك فما أن يأتي فصل الخريف، وترتفع المزن في السماء، متجهة نحو الشرق، حتى يبدأوا بمراقبتها، فإذا جاء الليل، ولمع البرق فيها، شدّهم لمعانه وأهاج في نفوسهم الحنين إلى أماكن مشتاهم ومربعهم في سهول الحماد الواسعة وأوديته الدافئة وغدرانه الصافية، وإلى رائحة الشيح والقيصوم التي تنعش القلب وتشرح الصدر، ولطالما تغنى شعراؤهم بالمزن وبروقها وتمنوا أن تسقي بمائها الأرض التي يحبون، وفي ذلك قال الشيخ رشيد بن سمير:

برقٍ لمع من مشاريق حطين[1]	**عساه يروي من هوى القلب يا صفوق**[2]
عساه يروي من خباري البساتين	**ما طرت العيثه مشاحي هل النوق**

والخبارى: جمع خبرا[3]، والبساتين: أماكن في الحماد فيها هذا النوع من الخبارى، والعيثة: هي اسم

[1] هو المكان الذي جرت فيه المعركة الكبرى بين الصليبيين والمسلمين.

[2] أحد أقارب الشيخ رشيد، وقد يكون صفوق بن فارس الملحم.

[3] شرحت عند الكلام عن مصادر المياه في البادية.

لأرض في بادية الشام اعتاد الشيخ رشيد المشتى فيها والمربع، وقد سأل الله أن يسقي بمائه تلك الأرض من العيثة والبساتين لأنها أحب أرض الحماد إليه.

وخاطب شعراؤهم تلك المزن التي تحمل في طياتها الخير والأمل والحياة، فعلى أي أرض هطلت، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

قال مقحم الصقري مخاطباً واحدة منها جاءت مبكرة وقد جذبه إليها من بعيد برقها المتوقد الوهاج في ثناياها:

يا مزنة غرا من الوبل مبـدار … اللي جذبنا من بعيدٍ رفيفـه

ترمي على كل المفالي بالأمطار … وتصبح بها قيعان ربعي مريفـه

صبح المطر فاحت بها ريح الأزهار … تخالف النوار مثل القطيـفه

وقال الشيخ جديع بن قبلان:

عز العزيز وعز برقٍ يهلِ … يم الغراب ويم رجم الحدالي

والغراب ورجم الحدالي: أماكن في الحماد السوري، ويقول البدو عند مشاهدة البرق: (عز العزيز) ويعنون بها: العزة لله.

قال عبيد بن عبد العزيز المزيد:

عز العزيز وعز برقٍ نخيله … برق الثريا حين طيحات الأمطار

نعم، ما أن يروا هذه المزن ترتفع في السماء متجهة شرقاً حتى تسير معها أبصارهم وقلوبهم، فيبدؤون بالإعداد للمشراق، فيمتارون لأهلهم ويجددون خياطة بيوتهم، ويكتسون حتى إذا انتهوا من تدبير أمورهم اجتمعوا في بيت من بيوت وجهائهم ليقرروا اليوم الذي فيه يرحلون ويبدؤون بتحميل رحالهم في الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم، فيكثر في الحي الضجيج والحركة ويختلط رغاء الإبل بقرقعة العمد، وبكاء الصغار، وأصوات الرجال الذين يحملون المتاع على ظهور الجمال، حتى إذا انتهوا من التحميل ونفضوا عن متاعهم غبار الصيف الطويل، سارت بهم الإبل تاركين وراءهم آثاراً تدل عليهم هي: أماكن القدور والأثافي وأكوام الرماد ومبارك الإبل والأرصفة، وقد انتظمت هذه الرسوم إلى جانب بعضها، فبدت وكأنها مخطط قديم لمدينة بادت وأتى عليها الزمن.

وعلى مثل هذه الرسوم وقف القدامى من الشعراء يبكون حبيباتهم ويستبكون من معهم، واصفين تلك المنازل بأجمل الكلام وألطف العبارات، قال امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

سقط اللوى وحومل: هي أماكن رسوم منازل حبيبته التي ارتحلت عنها.

وقال طرفة بن العبد:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

برقة وثهمد: هي أماكن الديار التي كانت تسكنها خولة حبيبة الشاعر ولكنها في نظره ليست كما يراها الآخرون حجارة ورسوماً ورماداً فقط، ولكنها جميلة موشاة قد انتظمت بدقة وجمال حتى بدت كأنها الوشم المرصع بدقة على المعصم الأبيض الرخص الجميل..

وقال زهير بن أبي سلمى:

أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلمِ بحومانة الدراج فالمتثلمِ

ديارُ لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشمٍ في نواشر معصمِ

وزهير يتساءل هل هذه الأطلال والرسوم التي نخاطبها فلا تجيب وتأبى علينا الكلام هي حقاً أطلال منازل أم أوفى، فإن كانت هي حقيقة فإنه يحق لنا الوقوف عليها بإجلال واحترام ولا بأس إذا ذرفنا فوقها الدموع حزناً على ساكنيها الذين طال اشتياقنا للقائهم وزاد وجدنا عليهم.

وقال عنترة العبسي[1]:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهــم

يا دار عبلة في الجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

أية ديار وأية رسوم تلك التي يقف عليها فارس عبس وشاعرها ليخاطبها ويطلب منها أن تتكلم لترد عليه السلام؟ لقد جعل عنترة من الرسوم البالية الخالية من السكان أحياء تنطق باسم ساكنيها في يوم من الأيام، فيلقي عليها تحية أهل الجاهلية (عمي **صباحاً**)، ولكن عنترة لم يحب الديار ولكنه يحب من كان يسكن هذه الديار، إنه يرى فيها صورة عبلة ابنة عمه مالك التي تمنى أن يقبّل السيوف في ساحة الوغى لأنها لمعت كبارق ثغرها المبتسم، فأيّ حب هذا؟!.

وقال شاعر البدو:

يا حمود واوجدي على ربعنا العام هذي منازلهم على العين خلوات

توحي رزيح نجورهم تقل دمام ونيرانهم من كثر الأوقاد حيات

---

[1] معلقة عنترة.

وقال غيره واصفاً ما بقي من آثار حبيبته في منزل أهلها الذي ارتحلوا عنه:

هذي مشاقة رأس عين الغزال وهذا مراح اللي عساهم يعودون

والمراح: هو بقايا الديار، والمشاقة: هي ما يتساقط من شعر الرأس أثناء ترجيله.

ولنترك الشعراء وقوفاً على الأطلال ولنرافق القافلة لنرى كيف يكون ترتيب المسير. ففي المقدمة يسير السلف وخلفه الأظعان أو (المظاهير) كما يسمونها ومفردها مظهور، ويبقى الاتصال بالنظر مؤمناً بين السلف والأظعان خوفاً من إغارة الأعداء عليها.

ويتألف السلف من الفرسان على الخيل والركاب ويسير معهم الرجال ماشين أو ردفاء لأهل الركاب. فإذا كانت الأرض المقصودة بعيدة ويستغرق الوصول إليها عدة أيام يسمى هذا النوع من المسير حولة والقوم فيه محيلون، وفي هذا قال الشيخ جديع بن قبلان:

يا صاحبي عينت لي صاحباً لي مع الجهامة اللي على الطرق حال

وحال: من الحولة كما يسمونها، أي ارتحل إلى مسافة بعيدة وسار عدة مراحل متتابعة ليس فيها استراحة إلا مبيت الليل، ويستمر المسير حتى الساعات الأخيرة من النهار، ويسمى مسير يوم كامل مرحلة، وفي نهاية المرحلة يتوقف السلف وينتقي كل منهم مكاناً لنزول أهله فيه فيغرز فيه رمحه، وعند وصول الأظعان يستقبل أهله ويقودهم إلى المكان الذي اختاره لهم، وتفك الرحال عن الإبل، ولا تبنى الخيام، ويبيت القوم (حطي) أي يبيتون في العراء.

وصباح اليوم التالي يتابعون المسير فإذا وصلوا الأرض المقصودة تفرق السلف لينتقي كل منهم منْزلاً لأهله، وينبغي أن يكون الانتقاء هنا دقيقاً لأن الإقامة ستطول فيجتنبون منخفضات الأرض ويختارون الأماكن المرتفعة قليلاً والتي يسمونها (عدوة) ليتّقوا خطر السيول عند هطول الأمطار، فإذا وصلت الأظعان استقبل السلف أهلهم بالفرح، وأنزلوهم في الأماكن التي اختاروها، فتدقّ الأوتاد وترتفع بيوت الشعر على الأعمدة، وتنتظم الخيام إما على هيئة صفوف إلى جانب بعضها بعضاً أو متفرقة هنا وهناك جاعلين فتحتها بعكس اتجاه الريح وهكذا يصبح المكان حياً جميلاً يعج بالحركة والحياة بعد أن كان منذ دقائق قفراً موحشاً خالياً من السكان ويعمد كرماء القوم إلى حفر حفرة في الربعة على شكل مستطيل أبعاده من 1-1.5 م، ويجمع ما يستخرج من التراب على الطرف الشرقي منها على شكل كومة صغيرة وتسمى هذه الكومة (النثيلة) ثم توقد النار في الحفرة وتجهز القهوة، وعلى صوت النجر (المهباج) يجتمع الرجال القريبون من أهل الحي، وبعد أن تدار القهوة يؤتى بالطعام، ويعدّ تقديم الطعام عندهم ضرورة

يعاب عليها من يهملها في حالتين:

الأولى، عند الاجتماع على قهوة الصباح، والثانية عند الاجتماع على قهوة ما بعد الرحيل في المنزل الجديد، لأنه قد يأتي من لم يتناول طعام الإفطار عند أهله أو قد يأتي من أجهده التعب وعضه الجوع بعد مسير يوم طويل.

مشاتي البدو:

وإذا اشتد عليهم البرد في الشتاء اتخذوا لأنفسهم منازل على أطراف الأودية وفي التلاع المتجهة نحوها، فهذه الأماكن المنخفضة تقيهم شدة الرياح فينعمون فيها بقليل من الدفء طوال فصل الشتاء كونها كثيرة الشجر، وتعدّ مساتر طبيعية لا يُرى النازل فيها إلا من مسافة قريبة. والبادية السورية إجمالاً أكثر دفئاً من السهول الداخلية، وفي مثل هذه التلاع ومفردها تلعة كان الأقدمون من العرب أهل البادية يبنون خيامهم وفيها قال طرفة بن العبد:

ولست بحلّال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد[1]

وطرفة بن العبد هنا يأنف أن يحل في التلاع لئلا يقال إنه خاف الأعداء، وهو إنْ حل بها فلدفئها ولكثرة شجرها، وفي الحماد منخفضات ينتهي في كلٍ منها وادٍ أو عدة أودية يسمونها: فيضة، وهي ذات تربة خصبة ومكتظة بشجر الشيح والرمث والأيتون، وينبت فيها مبكراً نوع من العشب يسمونه الخافور يعانق شجر الشيح طولاً في بعض الأحيان، وهو مرتع خصب للخيول ومرعى محبب لها، ومن الرمث والأيتون يوقد البدو نيرانهم، وهي الوسيلة الوحيدة للتدفئة عندهم.

وفي هذا الفصل تهيج فحول الإبل لأنه موعد إخصابها وزمن ولادتها وتصبح هذه الفحول خطرة على أهلها حين هيجانها، فقد يعض الفحل إذا هاج صاحبه أو أي إنسان آخر يقترب منه عضة تكون مميتة أحياناً، ويتخبطه بأخفافه السميكة.

ويعض الفحل على أضراسه فيصدر عنه صرير مزعج، ويطلق صوتاً من فمه يسمى الهدير، ويخرج من فمه عند هديره كتلة حمراء منفوخة تشبه الكرة تسمى الهدارة، فإذا انتهى الهدير عادت إلى فمه فلم تعد لترى. ومن أجل اتقاء شر هذه الفحول يضعون الهجر في قوائمها ومفرد الهجر هجار، وهو حبل تربط به يد الجمل إلى رجله من أحد جنبيه، فيحدّ من سيره فلا يستطيع اللحاق بأحد فيؤذيه.

---

[1] معلقة طرفة بن العبد.

وقد اشتكت البدوية أهلها حين أهملوا فحول إبلهم، ولم يضعوا الهجر في قوائمها، فقالت:

الزمل[1] هياج وعذب بي[2]   والهجر[3] بالبيت عيّوا به[4]

وفي هذا الفصل يمتار بدو البادية الشامية التمر لأهلهم من محطة الرطبة على الحدود العراقية السورية، ويشكلون قافلة قوامها بعير أو بعيران من كل بيت يسمونها القفل، فإذا حل الربيع كان أكثر طعامهم التمر ولبن الإبل، ويقلّ استعمال الخبز عندهم وأكثرهم يخيطون أفواه عدول الطحين في هذا الفصل ويقتصرون على هذين النوعين من الغذاء: التمر واللبن ويسخنون لبن الإبل في الشتاء حتى يغلي ويضيفون إليه قليلاً من الملح ويسمونه السخينة ويصبح طعامهم: (تمرة ولبن عمرة) والعمرة هي الناقة.

وفصل الشتاء هو أقسى فصول السنة وأشدها على البدو لما يعانون فيه من شدة البرد، والنار هي الوسيلة الوحيدة للتدفئة عندهم، فيحفرون حفرة في مجلس الرجال (الربعة) وحفرة في مجلس النساء (المحرم)، توقد فيها النار يجلسون حولها على شكل دائرة والقريب من كومة الحطب يوقد النار كلما خبت.

ويحفر سكان صحراء النفوذ من البدو حفراً في الرمل يسمونها دحاميل ومفردها دحمول، ويغطون أنفسهم بالرمل حتى أكتافهم ليتقوا به البرد وفي الصباح ينفضون ثيابهم وكأن شيئاً لم يكن لأن الرمل لا يلتصق بالثياب، ويزيد تقلب الرياح في الطين بلة لأن بيت الشعر مغلق من جهة الرواق ومفتوح من الجهة الأخرى، فإذا كانت الريح غربية أغلق من جانبه الغربي وبقي الشرقي مفتوحاً وتنعكس الآية إذا كانت الريح شرقية، وقد يضطر البدوي إلى تغيير اتجاه بيته عدة مرات في الليلة الواحدة تبعاً لتقلبات الريح، وبإمكان المرء أن يتصور صعوبة الأمر في ليلة شديدة البرد اختلط ريحها بالثلج والمطر، وعلى الذين يقومون بهذه المهمة من أهل البيت أن يأووا إلى أماكن نومهم بثيابهم التي يكون قد بللها المطر لأنهم لا يملكون غيرها في أغلب الأحيان.

وتلف الريح الثلج فتذروه داخل البيت بسهولة، وكثيرة هي الليالي التي أصبحنا فيها فوجدنا غطاءنا مكسواً بالثلج، وقد اعتاد البدو هذا النوع من المعاناة، ولذلك فهم يتقبلونه بصبر ورحابة صدر، ويعللون أنفسهم بقدوم أيام الربيع الجميلة المقبلة، وأحياناً يرتحلون في الأيام الباردة الممطرة إذا أجدبت الأرض أو

---

[1] فحول الإبل، وهياج: هائجة.

[2] عذبني.

[3] جمع هجار.

[4] امتنعوا عن إعطائه.

قلّ الماء، وكذلك فإنهم يقومون بغزو أعدائهم من العشائر الأخرى في هذا الفصل إذا تطلب الأمر ذلك.

الصميل عند البدو:

وإذا كان الماء بعيداً يشكلون عند وردهم قافلة قوامها بعير أو بعيران أو ثلاثة من كل بيت وحسب حاجة كل منهم للماء، وتسمى هذه القافلة (الصميل) والرجل فيها يسمى (صمّال) والمرأة (صمّالة) والجميع يسمى (الصماميل)، وقد تذهب النساء مع الرجال في هذه القافلة، فإذا كان الماء بعيداً ولا يستطيعون العودة في اليوم نفسه الذي ذهبوا فيه يبيتون قبل الماء بمسافة قصيرة ثم يردونه في الساعات الأولى من الصباح، ويدعى هذا النوع من الورد (القرب)، ويصدرون منه في اتجاه أهلهم فيصلونهم وقد انتصف النهار، أما إذا وردوا الماء ليلاً، وباتوا عنده وصدروا في الصباح فيسمون هذا النوع من الورد: الخمير.

وكثيراً ما يجدون الماء متجمداً من شدة البرد في الشتاء، فيضطرون إلى كسره والخوض فيه ليملؤوا رواياهم وقربهم.

وأكثر مصادر الماء صعوبة في الورد هي الخبرا، لأن ماءها ضحل، وعلى من يريد الاغتراف منه أن يخوض فيه بضعة أمتار حتى يستطيع أن يغترف دون أن يصل القدح إلى القاع فيجلب معه الكدر والطين، وحول أطراف الخبرا أرض صلبة مغروسة بصغار الحصى فتبدو وكأنها المسامير، ويقاسي الرواة كثيرا من هذه الحصيات وهم يطؤونها حفاة ويسمونها (حصيوات الخبرا)، والخبرا منخفض من الأرض تصب فيه مياه المرتفعات القريبة منه، وقد أوردنا وصفاً لها عند حديثنا عن مصادر المياه في البادية ومنها الغدير والحيوية والعاقولة والصنع وجميع هذه المصادر يصبح ماؤها في أواخر الربيع آسناً وسيء اللون والمذاق وتشرب الحيوانات من الماء وتبول فيه، وتستقبل الوارد رائحة العطن من مسافة بعيدة ويستطيع بسهولة أن يميّز طعم البول فيه إذا شربه والبدو لا يأنفونه لأنهم قد اعتادوه حيث لا يوجد سواه.

والربابة هي وسيلة اللهو الوحيدة عند البدو في مجالسهم وهم يعزفون عليها في سهرهم وسمرهم وينشدون القصائد التي تخلد أيامهم المشهورة وأكثر رؤساء العشائر ورؤوس القوم فيها يحسنون العزف على الربابة والغناء على ألحانها، وكان الشيخ رشيد بن سمير أشعر رؤساء عشائر ضنا مسلم وأمهرهم عزفاً على الربابة وكذلك كان عبد الله الفاضل وطراد الملحم.

ويحفر البدوي حول بيته خندقاً صغيراً اسمه النؤي أو (النيا) كما يسمونه، وقد ورد وصف لهذا النؤي

والأثافي التي توضع تحت القدر في شعر زهير بن أبي سلمى[1]:

أثافي سفع في معرس مرجل ونؤي كحرف الحوض لم يتهدم

وفي هذا النؤي تجري بعيداً مياه الأمطار الآتية نحو البيت من المنحدرات وكذلك تجري فيه المياه الدالفة من شفا البيت الأمامي.

ويسمي البدو الأثافي: الهوادي، وهن ثلاث حجارة يرتكز عليهن القدر فوق النار.

وتضع البدوية شجر الشيح تحت فراش أولادها لتقيهم رطوبة الأرض، ويطرقهم الطارق ليلاً فيرحبون به ويزيدون النار اشتعالاً عند دخوله لينعم بدفئها، والنار خير ما يقدمه المضيف لضيفه في الشتاء وهي كذلك أول بند من بنود إكرام الضيف عندهم لأنها تدلّ على حسن الاستقبال وكرم الضيافة، فالذي يجود بالحطب على قلته في الشتاء يجود بالزاد أيضاً والبدو يقولون في أمثالهم: (النار خير من المعزب الفاين) والمعزب هو المضيف والفاين هو النذل البخيل ويعنون أن هذا النوع من الناس لو لم يقدم لضيفه إلا النار لعدّ ذلك فضلاً منه.

وهم يقدمون لضيفهم أفضل ما يملكون من الزاد، فإذا كان الطعام متواضعاً أقسموا أنهم لا يملكون غيره، ومن أقوالهم المأثورة (احلف ورى الموجود دين المعازيب) ويعنون أقسم لضيفك أنك لا تملك غير هذا الزاد.

وتسرع البدوية إلى عدلها عند قدوم الضيف، فتهيل منه الطحين وتعدّ الخبز لضيفها أولاً بأول فالبدو لا يخبزون إلا في موعد وجبات الطعام أو عند قدوم الأضياف.

وليس ثمة رائحة أطيب من رائحة الخبز وهي تفوح من الجانب الآخر للبيت بالنسبة إلى الضيف الجائع.

والطحين نعمة أنعمها الله على الذين اقتربوا من الحاضرة من البدو، أما بدو شمال شبه الجزيرة العربية وأعماق البادية الشامية، فيمتارون القمح غير مطحون.

وتقتني ربة البيت رحى صغيرة، فإذا جاءها الضيف أخرجت رحاها وطحنت كفايتها من الدقيق، وطبيعي ألا يكون الدقيق في هذه الحالة ناعماً بما فيه الكفاية ولذلك فإن الخبز كثيراً ما يكون قليل الجودة ولكنه يسد حاجتهم إلى الطعام على كل حال.

ولا يأكل البدو اللحم في فصل الشتاء إلا ما ندر وخاصة أهل الإبل منهم إلا ما يصطادونه من الحباري والأرانب والقطا بواسطة وسائل الصيد المتوفرة عندهم: كالصيد بالصقر أو بكلب الصيد السلوقي، أو

---

[1] معلقة زهير بن أبي سلمى.

البندقية، وينحر الموسورون منهم صغار الإبل إذا ضافهم أحد شيوخ العشائر أو وجهاء القوم البارزين، أما من يقتنون الشاء منهم فيذبحون لمن يستحق الذبيحة، وقد اعتادوا العيش بالبسيط من الطعام فيكتفون أحياناً بالخبز والبصل كوجبة للغداء وأحياناً الخبز فقط إذا لم يتوافر البصل، ومن يقتنون الشاء منهم يدخرون السمن لفصل الشتاء، ويعدّ الخبز والسمن وجبة دسمة ومحببة إليهم، ويدخر القريبون منهم من الحاضرة الدبس مؤونة للشتاء فيغمسون الخبز بالدبس والسمن وهو من أفخر الأطعمة عندهم ويفضلونه على أي وجبة أخرى.

وإذا كانت طبيعة المعيشة في الصحراء أو الظروف المناخية فيها قد حرمت البدو من التمتع بأنواع الخضر والفواكه كما هو الأمر عند أهل الحضر، فإن الله تعالى منّ عليهم بكثير من نعمه التي جعل أرض الصحراء منبتاً خصباً لها كالكمأة والفطر، وهما من أفضل الأطعمة وأرغبها حتى عند أهل الحاضرة، وينبت في الحماد أنواع من الحشائش (كالجرجير) الذي يأكلونه نيئاً، وهو قريب الشبه من الخس، و (المشع) وهو ذو جذور تشبه جذور الجزر، وله أوراق رقيقة تؤكل مطبوخة، و (التويس) وله جذور تشبه جذر البصل إلا أنها أصغر حجماً يأكلونه مشوياً على النار، وكذلك (الشحوم) يشبه التويس ويأكلونه مشوياً أيضاً، أما (القعفور) فإنه يؤكل نيئاً وهو ذو جذر واحد يشبه جذر البطاطا ويزيد حجمه قليلاً عن حجم حبة البندق.

ونادراً ما يطبخ البدو في وجبة الغداء ولكنهم يطبخون في وجبة العشاء لأنه موعد عودة الرعاة ووقت قدوم الأضياف، ويتألف العشاء من البرغل أو الرز أو التّمن أو القمح المهروس مضافاً إليه منقوع الشنينة المصفى اليابس، ويثردون به الخبز ثم يعلونه بالسمن فيصبح وجبة ساخنة شهية.

وتحرك البدوية العيش في القدر بعصا مستطيلة بطول الذراع تسمى (المسواط)، ومن نوادر البدو التي يحكونها عن بعض نسائهم أنها تحرك عيشها بالقدر بمسواطها وتهوي به على كلبها إذا اقترب منها.

ويشعلون النار بقدح الزناد على حجر الصوان، فيتطاير منه شرر يشعل فتيلاً أو رقعة بالية، ومن هذه الفتيلة أو الرقعة يشعلون نارهم، وإذا افتقدوا وسيلة إشعال النار يقبسون النار من جيرانهم، فيقول الرجل لأهل بيته اقبسوا لنا من بيت فلان ناراً، قال الله تعالى في كتابه الكريم على لسان نبيه موسى عليه السلام أثناء عودته من مدين إلى مصر وقد رأى ناراً في ظلام الليل: ﴿فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾[1].

[1] سورة طه – الآية 10.

ويسمون عود الحطب المشتعل الذي يأتون به من جيرانهم المقباس، ولعل المقباس هو الملقط الذي يمسكون به الجمرة أو العود المشتعل أما الجمرة نفسها فهي القبس، ويشعل الرعاة النار ويصفون فوقها صغار الحصى ويسمونها الرضاف وفوق هذه الرضاف يضعون أقراص العجين ثم يغطونها بالجمر فيحصلون على خبز شهي لو ذاق طعمه أهل الحضر لقدّموه على خبزهم.

مرباع البدو:

ولنخرج الآن مع البدو من مشتاهم إلى مربعهم، ومن فصل قست عليهم الطبيعة فيه ببردها وزمهريرها، فكانت معاناتهم فيه قاسية ومرّة، وعيشهم فيه شظيف، إلى فصل ينعمون فيه بالدفء والخير الكثير، فإلى الربيع في البادية:

وليس هناك أجمل من البادية وهي تزهو بثوبها القشيب الموشى بما صنعته يد الله جلّ وعلا، من أنواع الأعشاب والورود التي تقر العين بمنظرها وتنعش القلب بطيب عبقها، فإن المرء ينظر إلى حيث ينتهي طرفه، فلا يرى إلا خضرة قد اختلطت بأصفر وأحمر وأبيض فبدت دقة يد الصانع العلي القدير في حبك هذا النسيج الجميل الفريد ليتكوّن منه لوحة يعجز البيان عن وصفها ويقصّر خيال فحول الشعراء عن مجاراتها، ولا يساوي بيت أبي تمام شيئاً عندما قال:

تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر

أمام جمال البادية في ربيعها وزينتها.

ولأعشاب البادية وورودها مسميات يعرفها البدو، فلم يتركوا وردة ولا عشبة صغيرة أو كبيرة إلا لها اسم عندهم، فمن هذه الورود: الأقحوان والأربيان والقريص والشقارة والبختري، ومن الأعشاب: النفل، وهو ذو رائحة زكية، والنّزع والخافور وأبو شويرب ورجل الغراب أو الصمعا...

ولا يستطيع المرء أن يتخيل كم الجلسة جميلة في فلة من الأصحاب على أرض نقية طاهرة كأرض الصحراء وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج وعبق زهرها من حولهم، والظباء العفر ترتع مع صغارها على مرأى منهم أو تمر بهم سراعاً قد انتظمت من خلف مسحلها نظماً.

وفي جداء هذه النعمة المهداة مما تنبت الأرض، نعمة أخرى هي الأساس في حياة البدو وعليها اعتمادهم، تلك هي الإبل، فإذا قارب النهار على الانتصاف وشبعت الإبل قام الرعاة إلى الحلائب منها فاحتلبوها وملأوا صملانهم فيشربون ويسقون من يمر بهم، ويقتني كل راع قربة صغيرة من جلد الماعز أو

الغزال يسمونها الصميل ويملأ راعي الإبل في فصل الربيع صميله باللبن وهو يعترضك ويدعوك للشرب منه ولو لم تسأله ذلك، إذ يقول لك: (الحق **للبن**) وتمتلئ أضرع الخلفات باللبن حتى أنها تضيق به فيتدفق منها على الأرض أحياناً.

وتُعزل الحيران (صغار الإبل) وحدها تلعب وتستن كما يفعل الخراف والجديان وأولاد الظباء. فتلك هي الطبيعة كما خلقها الله تعالى بأرضها وإنسانها وشجرها وحيوانها.

وإذا نظرت بعيداً ترى بحراً من السراب المتلاطم الأمواج، وفي لجة هذا البحر تسير الإبل بطيئة متهادية فتبدو لك من بعيد كأنها السفن العائمة، في ذلك البحر الكبير اللامتناهي، فإذا أمعنت النظر جيداً في هذا المنظر الجميل أدركت لماذا سمي البعير سفينة الصحراء.

وتبدو بيوت الشعر من بعيد كأنها منصات ركبت فوق أمواج ذلك البحر الوهمي. والبدوي يسير في هذا الفضاء الرحب حراً طليقاً يتجه كيف يشاء ويبني خيمته أين يريد، ويسرح بإبله حيث يعجبه المرعى، ويصعد على المرتفع من الأرض ويرسل النظر إلى حيث ينتهي طرفه فلا يحجزه حاجز ولا يعكره دخان معمل أو غبار آلة فيشعر أن كل ما حوله هو ملك له.

والبدوي بطبيعته لا يقبل الضيم، فإذا رأى من جاره أو قريبه ما يكره ولم يكن قادراً على الرد عليه، هدم خيمته ورحل حتى إذا حالت بينه وبين من يكره الأودية والمرتفعات اختار مكاناً جديداً لخيمته فبناها، ويكون بذلك قد بدل الدار بدار والحال بحال، وإذا جارت عليه العشيرة هجرها بكاملها وارتحل إلى عشيرة أخرى ينزل بجوارها فيبقى ما شاء الله له البقاء بعيداً عن عشيرته، حتى إذا زالت أسباب ارتحاله ونزوحه بصلح أو دفع مغرم أو استرجاع حق عاد إلى أهله وعشيرته، وقد تطول فترة الاغتراب فينسى أبناء الأبناء انتسابهم إلى عشيرتهم الأولى، ويصبحون من تعداد العشيرة التي يقيمون فيها، وينسبون إليها.

مغراب البدو (التغاريب):

ولكن الربيع لا يدوم وكل نعيم لا بد زائل ولكل أمر نهاية، وما أقصر أيام الربيع لأنها أجمل الأيام، وينتهي الربيع في البادية في أوائل شهر أيار، فييبس العشب ويصبح ما بقي من المياه آسناً لا يطاق تأنف منه حتى الحيوانات، وعليهم حينئذ البحث عن مصادر أخرى للماء وأماكن جديدة للرعي، فيبدأ بدو البادية الشامية بالاتجاه غرباً نحو الديرة حيث أماكن اصطيافهم، وهنا تبدأ فترة (التغاريب) كما يسمونها أو المغراب، فإذا كانت بداية هذا المغراب من أماكن قريبة يكون الأمر سهلاً لأن مصادر المياه من الآبار

قريبة منهم على الأطراف الغربية للبادية، وهم لا يبذلون جهداً كبيراً في الوصول إليها عند ذلك، وهي في بادية حمص والشام تكاد تكون منتظمة من الجنوب إلى الشمال تباري سلسلة الجبال الشرقية، وتبدأ من: السبع بيار، بئر البطمي، بئر المحسة، آبار الهلباء والعليانية، وبئر البصيري وبئر الباردة، وعين أم القلايد عند بلدة القريتين.

أما إذا توغلوا شتاء في أعماق البادية حتى الحدود العراقية وتأخروا في المغراب وجب عليهم حينئذ السير نحو عشرة أيام حتى يصلوا إلى منابع المياه، وهنا يصبح الأمر خطيراً إذا لم يجدوا في طريقهم مصدراً للماء مما بقي من غدران أو خبارى، أو ما يتجمع من المياه في الأودية الرملية، ويسمون هذا المصدر الحسو، وعليهم في هذه الحالة أن يجدّوا السير كل النهار وجزءً من الليل قبل أن يفكوا الرحال، ولا تبنى الخيام ويبيتون في العراء (حطي) وهنا تبدأ الحولة من جديد كما ذكرناها في مرحلة المشراق حتى إذا وصلوا إلى أطراف المعمورة توزعوا حسب مناطق اصطيافهم، فمنهم من يفك الرحال في الهلبا والعليانية والباردة والبصيري والمحسة وعين أم القلايد في القريتين كعشيرة الروله، ويتوغل بعضهم حتى القمقوم والجباه وحفير، ويصطاف قسم من الروله في أبو الجرادي وعلى ضفاف بحيرة عتيبة وفي عدرا وضمير، أما الولد علي فيصطافون في النقرة كما يسمونها وتقع في الطرف الجنوبي الغربي من سهل حوران حيث قرية عين ذكر التي يمتلكها آل السمير رؤساء عشيرة ولد علي.

مصايف البدو (المقيظ):

ويصطاف المصاليخ في حفير وجيرود والناصرية والحميراء وقسم منهم يتوغل قريباً من حمص، والحسنة على ضفاف بحيرة قطينة شرقي نهر العاصي جنوب حمص، أو في قراهم شرقي حمص في البوير وبرزة والشيخ حميد، وترعى إبلهم في منطقة الشعيرات والحمرات والمنزول، وكانوا يسمون هذه البقعة من الأرض (النقعة) لأنها أرض صخرية منبسطة ذات تربة خفيفة تمسك الماء فيتجمع على سطحها في فصل الشتاء مشكلاً ما يشبه المستنقع، ولكنه لا يدوم طويلاً، وهي منبت خصب لشجر الروثة ويسمونه: الحمض، وهو طعام محبّب للإبل تماماً كالحمضيات من الفواكه بالنسبة للإنسان، وفي هذه النقعة كانت تشن الغارات على قطعان إبل الحسنة من قبل أعدائهم من الموالي وبني صخر وأهل الجبل (الغياث والمساعيد)، وكانت تأتي النجدات سريعة من خيل الحسنة التي كانت ترابط على أطراف النقعة فتسترد الإبل وتهزم الأعداء، ومن أجل ذلك سمي الحسنة: أسود النقعة، وكانوا يسمون أيضاً: حماة الشنبل: وهي منطقة حمص وحماة،

ريفها وباديتها، لأن أهلها يكتالون الحب بالشنبل، وهو ما يساوي اثني عشر مداً من القمح أو الشعير أو الذرة.

وفصل الصيف بالنسبة للبدو هو فصل استراحة واستجمام يستريحون فيه من عناء الارتحال والخبط في البراري، ونادراً ما يبدلون أماكن خيامهم في هذا الفصل، فقد يمضون الصيف كله في مضرب واحد، ويكون القوم في مثل هذه الحال (قطين).

وتتفشى الأمراض في الأماكن المزدحمة بالخيام التي يقطنها مجموعات كبيرة من البدو في هذا الفصل، فيموت منهم ناس كثير لفقدان العناية الطبية في ذلك الوقت، وتبعد مراعي الإبل عادة عن أماكن الاصطياف، فلا تستطيع أن تسرح وتعود في اليوم نفسه لذلك فهي تبيت في أرض مرعاها أربعة أو خمسة أيام ثم تعود بعدها لترد الماء فإذا عادت بعد أربعة سمي الورد ربعاً، وإذا عادت بعد خمسة سمي الورد خمساً، ويعاني الرعاة كثيراً الجوع والعطش في هذا النوع من الورد لنفاذ الماء والطعام في نهايته عندهم لكنهم يعوضون عن ذلك بلبن إبلهم.

الجنب ومتى يرافق الإبل:

وتشن الغزوات والغارات على الإبل في مراتعها في هذا الفصل كونها بعيدة عن أهلها، واحتياطاً للأمر ترافق الإبل مجموعة من الخيالة تسمى: الجنب، وربما جاؤوا بكلمة الجنب من المجنبة، وهي القوة التي تفرزها الجيوش في أثناء المسير على إحدى المجنبات لتأمن خطر مفاجأة العدو لها.

ويتناوب فرسان العشيرة الخروج في الجنب فتقسم الخيل إلى مجموعات، كلما انتهت مجموعة حلت محلها مجموعة أخرى وتعود الأولى إلى الحي، ويبقى الجنب قريباً من الإبل في الأماكن التي لا يرى فيها من بعيد كبطون الأودية أو خلف المرتفعات على أن يبقى الاتصال بالنظر مؤمناً بينهم وبين قطعان الإبل، فإذا أغار الأعداء على الإبل فاجأهم الجنب بغارة صاعقة وشتت شملهم، وربما أوقع فيهم الإصابات وكسب منهم، وتنعكس الصورة أحياناً إذا كان الغزو كبيراً أو الجنب ضعيفاً، ولطالما تغنى العذارى البدويات بالجنب وفرسانه مشيدات بشجاعتهم وإقدامهم كقولهن:

تهزعوا للبل شمالٍ وقبله مرعي جنب للبل قلبي طرب له

وتهزعوا: اذهبوا أيها الرعاة أينما شئتم وارتعوا حيث يعجبكم المرعى أينما أردتم شمالاً أو جنوباً فلا خوف عليكم ما دام مرعي جنباً للإبل معكم، ومرعي هذا هو مرعي الخضير المقبل أحد فرسان الحسنة

الشجعان الأشداء، والبيت من قصيدة قالتها النساء فيه.

ويسعى البدو في هذا الفصل لتأمين مؤونة الشتاء وأهمها الدقيق، ولأجل ذلك فإن بدو بادية حمص ودمشق يجلبون الملح من بلدة القريات في المملكة العربية السعودية ويقايضونه على القمح لأهل الحضر في مناطق اصطيافهم، أما غيرهم من بدو البادية الشامية فلهم طرق أخرى يسلكونها لتأمين معيشتهم، كأن يبيع بعضهم من إبله أو من غنمه إذا كان ممن يقتنون الأغنام، ويعمل بدو محافظة حمص ودمشق ودرعا وكذلك بدو جبل الدروز برجاد الزرع من قرى حوران لقاء مقدار من القمح لكل بعير.

وتغزل النساء الصوف في هذا الفصل وينسجنه ليصنعن منه العدول والأروقة والخروج وغيرها من اللوازم، وتسمى آلة النسيج التي تستعملها البدويات: النطو، وسنورد وصفاً للنطو عند الحديث عن المرأة البدوية ومعاناتها لاحقاً بإذن الله، أما فيما عدا ذلك فيجلس الرجال يحتسون القهوة ويتزاورون ويتسامرون.

وليس لدى البدو صناعة ولا هم من أهل هذه الحرفة ويحتقرون من يزاولها والذين يشتغلون في الصناعات من البدو هم جماعات يسمونهم (الصنّاع) يقومون بتركيب أحذية الخيل وتبييض القدور وصنع الأخلة التي يشبك بها الرواق ببيت الشعر ويصنعون الخناجر وغيرها ويستهجن البدو هؤلاء الصناع ولا يصاهرونهم، ولا ريب أن هذه نزعة جاهلية يحملها البدو معهم منذ عهودهم الأولى وهي نزعة رفضها الإسلام ومقتها، وأكثر ما يشتغل به البدوي لكسب عيشة هي الرعاية والقليل منهم يمارس التجارة، أما الميسورون منهم فلا يعملون ولا يتاجرون.

وفي نهاية فصل الصيف يمتارون لأهلهم كل حسب حاجته من القمح وغيره مما يحتاجونه من مؤونة الشتاء، وهي في العادة مؤونة بسيطة لا تتعدى الدقيق والتّمن والقليل منهم ممن يتسوقون من المدن يحصلون على بعض أنواع الحلوى كالدبس والقطر والزبيب وغيره إضافة إلى ما يحتاجونه من لباس.

ويتألف لباس البدو من ثوب وقليل منهم يلبس السراويل، وهم عادة الخيالة من الرجال، أما النساء فلا يلبسن السراويل وترتدي المرأة عادة ثوباً أسوداً فوق ثيابها، وبعضهن يلبسن القطنية، وهي لباس ليس له أردان محشو بطبقة خفيفة من الوبر يستر الأكتاف والظهر والبطن حتى الوركين، وتعصب رأسها بمنديل أسود وتحت العصابة تلبس الملفع، وأما الفتيات اللواتي لم يتزوجن بعد فتغطي الواحدة منهن رأسها بمنديل وتلف طرفيه حول عنقها وتربطهما.

أما الرجال فيرتدون الفروة شتاء والمسح صيفاً، ويضع الرجل على رأسه منديلاً وفوقها العقال، وينتعل برجليه نعلين من الجلد والقريبون من المعمورة ينتعلون الأحذية.

بر الوالدين عند البدو:

والبدوي برّ بوالديه وحوادث العقوق نادرة جداً في المجتمع البدوي، والعاق لوالديه منبوذ في العشيرة ويسمونه (قطعي) ويعنون بها أنه قاطع رحم، ويتحاشون مصاهرته خوفاً من أن يرزقوا بأولاد قاطعي رحم (قطعيون) أو (قطعيين)، ومن يعتدي على والده بالضرب يجتمع عليه أهل الحي ويفرش على رأسه عباءة حتى لا يعرف من يضربه، ويشترك المجتمعون جميعاً بضربه، وللأب في مال ابنه حق مطلق يأخذه متى شاء وعندهم قاعدة تقول: يحق للأب أخذ مال ابنه سبع مرات كلما جمع مالاً أخذه منه، ولعل هذا يرجع في أصله إلى العمل بقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لأحد المسلمين: (أنت ومالك لأبيك)، على أن هذا ولو لم يكن معمولاً به عند البدو وهو أمراً نادر الحدوث إلا أنه يدل على مدى حق الآباء على الأبناء عندهم.

وعند البدو قصة مشهورة يروونها ويضربونها مثلاً لاحترام الابن لأبيه، هي أن أحدهم حمل والده الشيخ الكبير على ظهره وذهب به ليقضي حاجته في الرمضاء، ولما وضعه على الأرض ومسّ خصيا الشيخ الكبير رمل الصحراء الكاوي ولاحظ الابن ذلك وضع يده تحت خصيي أبيه ليقيهما الحر ففاجأ الشيخ ابنه بلطمة من يده على وجهه، وسأل الابن أباه – مستغرباً – عن السبب، فقال له: لأنك غلبتني في هذه، فإنني يعلم الله كنت باراً بجدك ولكنني غفلت عن فعل مثل هذا له.

ومن آداب الابن مع أبيه عندهم ألا يأكل التمر معه في وعاء واحد، فقد يتناول الابن تمرة تحلو في عين أبيه، إلا أن هذا ليس قاعدة عامة يعمل بها عند الجميع ولكنه مثل يروونه في مجالسهم، وقد يعمل به بعضهم والذي لا يعمل به يزيده تأدباً واحتراماً لوالديه.

وإنني لا أنسى ما عمله أبناء ذلك الشيخ الكبير هزاع المدحلي في مرضه الذي توفي فيه، وكان لا يطيق ركوب البعير أثناء الرحيل، رأيت بأم عيني أبناءه الثلاثة: يونس وخليفة وخليف يتناوبون حمله على ظهورهم كلما تعب أحدهم حمله الآخر حتى يحط القوم رحالهم في نهاية اليوم!! أليس هذا عملاً رائعاً من أعمال بر الوالدين؟

والبدو يخافون الأمراض الفتاكة المعدية، وأكثر ما يخيفهم مرض (الجدري) لأنه مرض قاتل في أغلب الأحيان لبعدهم عن الحاضرة ولفقدان الطب والتطعيم عندهم، لذلك فإن من يصاب به منهم يبنون له بيتاً بعيداً عن المضارب ويعتني به من أصيب بمرض الجدري واكتسب مناعة ضده، وكثيراً ما يقع أمثال هؤلاء المرضى المنفردين فريسة للضباع وسباع الوحش، وإذا رأوا أن حالة المريض بالجدري ميؤوس منها

واضطروا إلى الرحيل رحلوا وتركوه في الديار وحيداً، وكثيراً ما حدث مثل هذا لعزيزٍ غالٍ عندهم أو شيخ كان رئيساً فيهم.

والعصبية العائلية والعشائرية هي أشد ما يربطهم ببعضهم لما تفرضه عليهم طبيعة العيش في البادية من تكاتف وتعاضد أبناء العشيرة لدفع الخطر عنهم وشدّ أزر بعضهم بعضاً على الحق والباطل تجاه العشائر الأخرى وهم يعملون بالحديث الشريف: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) على ظاهره، كما قال شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

أو كما قال دريد بن الصمة:

وما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

بهذه الروح، وعلى هذه الطريقة تنصر العشيرة أخاها وينصر الفرد عشيرته.

والبدوي حذر تجاه الغرباء، فإذا سئل عن اسمه واسم عائلته أو عشيرته لا يبوح بشيء منها حتى يعرف من السائل ومن أي العشائر هو، وهل هو عدو أم صديق، وإذا نزل في الحي عندهم وافد غريب كمستجير بهم أو نزيل بجوارهم وسأل عنه سائل ينكرون وجوده بينهم حتى يتأكدوا من هوية السائل وماذا يريد.

حرمة الجوار عند البدو:

والبدوي حريص على حرمة جاره حرصه على ماله وعرضه، وهم يتبارون ويتفاخرون بإكرام الجار وصيانة عرضه ويسمونه القصير، ويقولون بذلك الأشعار، منها قولهم:

قال عروة بن الورد:

وإن جارتي عصفت رياح ببيتها   تعاميت حتى يستر البيت جانبه

وقال حاتم الطائي:

أعمى إذا ما جارتي برزت   حتى يواري جارتي الخدر

وقال شاعرهم:

جارٍ لجيرانه بخترى ونوار[1]	وجارٍ لجيرانه صفاة[2] محيفه
الله ولك الله مع هذا لنا كار[3]	عن جارنا ما قط نخفي الطريفه[4]
نرفا خمالة رفية العش في الغار	ونودع له النفس الثقيلة خفيفه
نبغي ليا بدل الدار بديار	كلٍ بجيرانه يعد الوصيفه[5]

إنهما صورتان مختلفتان على نقيض بعضهما: فالصورة الأولى روضة غناء خضراء مزهرة تشرح الصدر وتنعش القلب، والصورة الثانية صورة موحشة لصخرة صماء قاحلة لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، وهم مع اتخاذهم من الصورة الأولى مثلاً وطبعاً لا يخفون على جارهم صغيرة ولا كبيرة لكيلا يشعروه أنه غريب بينهم، وهم إلى جانب ذلك يصلحون ما ارتكب الجار من أخطاء فيرفونها ليجعلوا منها شكلاً جميلاً تماماً كما يرفو الطير في الغار عشه ليجعل منه مكاناً ناعماً جميلاً يحنو فيه على صغاره، لماذا؟ لكي إذا بدل جارهم الدار بدار، والجوار بجوار تحدث بما سمع ورأى من كرم الجيرة وطيب الصحبة، والسرقة من الجار جريمة مشينة يدفع من يرتكبها أربعة أضعاف ثمنها.

وحق الجوار من الحقوق التي حرص عليها العرب وحفظوها وصانوها منذ جاهليتهم، ثم جاء الإسلام، فحث عليها وربطها بحبل عقيدته السمحة إلى مبادئه السامية التي بنى على أساسها تصوره للمجتمع المسلم المتماسك كالجسد الواحد يشدّ أزر بعضه بعضاً.

قال عليه الصلاة والسلام: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)، والإسلام حض على صون حرمة الجار، أيّ جار، هكذا بمعناها المطلق لا فرق بين أن يكون قريباً في النسب أو بعيداً مسلماً كان أم كافراً.

لما سأل أحد المسلمين الرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً: يا رسول الله لي جيران إلى أيهم أهدي؟ قال له: إلى أقربهم إليك باباً.

وهم يعشقون الحرية المطلقة، وتنبع حريتهم من كونهم طلقاء الصحراء الواسعة يخبطون فيها كيف

(1) نوعان من العشب لهما رائحة زكية.
(2) صخرة صماء.
(3) لنا عادة.
(4) الخبر الغريب.
(5) الصفة.

يشاؤون، وامتلاكهم لهذا النوع من الحرية وحرصهم عليها يجعلهم يكرهون النظام ولا يطيقون التسلط، لذلك فإنهم إذا أحسّوا بتعرّض السلطة في الحاضرة لحريتهم وإخضاعهم للنظام مالوا إلى الصحراء أمهم الحنون ودنياهم الواسعة وملجأهم الأمين.

وبما أن البدو كلهم أميّون فإنهم يجهلون تعاليم الإسلام، فقليل منهم يصلّون ويحجون، وأكثر مايؤدونه من فرائض الإسلام الصيام، أما الزكاة فتكاد تكون معدومة عندهم، ولكن بعضهم يتصدقون، وإذا أقسموا الإيمان يقسمون (بصلاة محمد)، أو (وحياة العود وسليمان ابن داود)، هذا عند العامة منهم، أما في مجالس القضاء فيقسمون بالله العظيم، ولكنهم حريصون على أيمانهم فلا يحلفون كاذبين، ومن يثبت عليه أنه حلف يميناً كاذبة لا تقبل شهادته ويقولون عنه: (مقموع الشهادة)، أو يقولون العبارة التالية: (أنت قرب امرأتك معلقة عليك أو معلقات عليك)، وفي الوقت الذي لا أجد فيه تفسيراً دقيقاً لهذه العبارة، فإنني أرى أنه ما دام يحمل قرب زوجه على ظهره فإنه لا يستطيع أن يحمل معها حملاً آخر، لأن الشهادة تعد هي الأخرى حملاً ثقيلاً على كاهل من يؤديها.

وهم مع ذلك أقرب إلى الهدى، وأكثر قبولاً للحق وأسرع استجابة لنداء الدين لسلامة فطرتهم، ونقاء معدنهم وخلو طباعهم من اعوجاج الملكات وسفاسف الأخلاق.

شيخوخة البدوي وكيف ينتهي:

وإذا بلغ البدوي من الكبر عتياً، وأصبح شيخاً هرماً، يعفى من جميع الأعمال، ويوضع له فراش في الربعة قريباً من النار ودلال القهوة، فيتكئ على وسادته ويؤتى له بطعامه وشرابه، ويقوم أهل بيته بخدمته، وإذا كان من ذوي الحكمة والرأي السديد يؤخذ رأيه في الأمور الهامة ويستشار ويجتمع حوله الأقرباء والأحفاد فيستمعون إلى أحاديثه وتجاربه في الحياة خلال تلك السنين الطويلة من عمره، هذا إذا كان من وجهاء القوم أو من الموسرين منهم أو من أصحاب الرأي فيهم أو من كان له ماض في تاريخ العشيرة بالشجاعة والبلاء في الأعداء، أما إذا كان من العامة لا هذا ولا ذاك، فيجلس في بيته مع زوجته وأحفاده ويتردد على المجالس القريبة منه.

والبدو يحترمون كبار السن فيهم، فيقام له ويجلس في المكان المناسب لكبر سنه. وقد يسند لهؤلاء الشيوخ الكبار مهمة القضاء لأن لديهم الخبرة من تجاربهم السابقة ومجالستهم لعوارف البدو.

وإذا مات البدوي كفن بقطعة من القماش إن وجدت وإلا لفّ بثيابه فقط، وتنوح عليه نساؤه وكذلك

نساء الحي إذا كان ممن لهم الشرف والسيادة في العشيرة، ويحمل نعش الميت على أكتاف الرجال إلى مرتفع من الأرض قريب منهم يشرف على أحد مصادر المياه كغدير أو خبرا أو حوية إن وجد مثل هذا قريباً منهم، وتحفر له حفرة في الأرض ليست عميقة ويوارى فيها دون أن يصلى عليه لأن البدو كلهم أمّيون يجهلون كيفية الصلاة على الميت، ويقولون (ربه يصلي عليه) ثم يهيلون عليه التراب حتى يساووا به الأرض ويحيطون قبره بسور من الحجارة مصفوفة واحدة إلى جانب الأخرى، ويغطونه بطبقة من الحجارة الصغيرة ويجعلون وجهه باتجاه الكعبة ويغرسون عند رأسه وعند قدميه حجرين مستطيلين يرتفعان عن السور المحيط بالقبر يسميان النصايب، وينقشون بحجر على أحدهما وسم العشيرة التي تسم به إبلها حتى إذا مرّ به عابر سبيل يعرف من علامة الوسم من أي العشائر صاحب هذا القبر.

وتمر الأيام وتعصف الرياح بالرمال فتغطي سور الحجارة الصغيرة وتنطمس معالم القبر وتبتلع الأرض جسداً من أبنائها طالما درج عليها، ويطوي النسيان فارساً أو شاعراً أو سيداً في قومه، وتستمر القافلة بمسيرها مشرقة ومغربة، وتدوس الإبل بأخفافها دون أن تعلم بقايا جسد بال ربما ذاد عنها بسيفه أو رمحه في يوم من الأيام ضد غارة من الأعداء فحمى لها ماءها ومرعاها، وإذا كان شاعراً أو فارساً يتناقلون أخباره وأفعاله جيلاً بعد جيل ويكون مبعث فخر واعتزاز أسرته ضمن العشيرة ومفخرة لعشيرته بين العشائر.

ما قيل في البدو للأمير عبد القادر الجزائري:

سئل مرة الأمير عبد القادر الجزائري: هل البدو أفضل أم الحضر ؟ فقال[1]:

يا عاذراً لامرئ قد هام في الحضر ... وعاذلاً لِمحبِّ البدو والقفر

لا تذممنّ بيوتاً خفّ محملها ... وتمدحنّ بيوت الطين والحجر

لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني ... لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر

أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً ... بساط رمل به الحصباء كالدرر

أو جلت في روضة قد راق منظرها ... بكلِّ لونٍ جميلٍ شيّق عطر

تستنشقن نسيماً طاب منتشقاً ... يزيد في الروح لم يمرر على قذر

[1] ديوانه ص 44 – تحقيق د. ممدوح حقي.

أو كنت في صبح ليل هاج هاتفه علوت في مرقب أو جلت بالنظر

رأيت في كل وجه من بسائطها سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر

فيا لها وقفة لم تبق من حزن في قلب مضنى ولا كدر لذي ضجر

نباكر الصيد أحياناً فنبغته فالصيد منا –مدى الأوقات– في ذعر

فكم ظلمنا ظليماً في نعامته وإن يكن طائراً –في الجوِّ– كالصقر

يوم الرحيل إذا شدّت هوادجنا شقائق عمّها مزن من المطر

فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى مرقعات بأحداق من الحور

تمشي الحداة لها من خلفها زجل أشهى من الناي والسنطير والوتر

ونحن فوق جياد الخيل نركضها شليلها زينة الأكفال والخصر

نطارد الوحش والغزلان نلحقها على البعاد وما تنجو من الضمر

نروح للحيِّ –ليلاً– بعدما نزلوا منازلاً ما بها لطخ من الوضر

ترابها المسك بل أنقى وجاد به صوب الغمائم بالآصال والبكر

نلقي الخيام – وقد صفّت بها فغدت مثل السماء زهت بالأنجم الزهر

قال الألى قد مضوا قولاً يصدقه نقل وعقل وما للحقّ من غير

أنعامنا أن أتت عند العشي تخل أصواتها كدويّ الرعد بالسحر

سفائن البرِّ بل أنجى لراكبها سفائن البحر كم فيها من الخطر

لنا المهارى وما للريم سرعتها بها وبالخيل نلنا كل مفتخر

فخيلنا –دائماً– للحرب مسرجة من استغاث بنا بشّره بالظفر

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً وأيّ عيش لمن قد بات في خفر

لا نحمل الضيم ممن جار، نتركه وأرضه، وجميع العز في السفر

وإن أساء علينا الجار عشرته نبين عنه بلا ضرٍّ ولا ضرر

نبيت نار القرى تبدو لطارقنا فيها المداواة من جوع ومن خصر

عدوّنا ما له ملجأ ولا وزر وعندنا عاديات السبق والظفر

أموال أعدائنا في كل آونة نقضي بقسمتها بالعدل والقدر

ما في البداوة من عيب تذمُّ به إلاَّ المروءة والإحسان بالبدر

وصحة الجسم فيها غير خافية والعيب والداء مقصور على الحضر

من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى فنحن أطول خلق الله في العمر

بنية المجتمع البدوي:

القبيلة هي أكبر تشكيل للمجتمع البدوي، ومن القبيلة يتفرع العشائر، والعشائر إلى أفخاذ، والأفخاذ إلى فصائل، والفصائل إلى بيوت أو قوم، فالبدو يقولون عن أسرة ما قوم فلان، ولا يقولون بيت فلان.

وتشكل عدة عشائر ضنا أو بني، مثل: ضنا مسلم وضنا عبيد من قبيلة عنِزة.

فيتألف ضنا مسلم من: الروله والمحلف وبني وهب، ويتألف ضنا عبيد من: السبعة والفدعان والعمارات، ومسلم وعبيد هما أبناء بشر بن عنز بن وائل.

وبما أن أبناء العشيرة يرجعون في نسبهم إلى جد واحد فإنهم يشعرون بالتساوي فيما بينهم بالنسب ليس لأحد منهم فضل في نسبه على سواه من العشيرة.

والذي يميز هذه الأسرة عن غيرها من الأسر هو بروز رجال شجعان أو حكماء أو كرماء منها يسودون عشيرتهم، فيجتمع إليهم الأمر وتؤول إليهم الرئاسة، وعلى هذا الشكل نشأت المشيخات، وقد يمتد الأجل بالأسرة الشائخة أو الشايخة زمناً طويلاً أو قد تتفوق عليها أسرة أخرى من العشيرة بعدد رجالها وشجعانها فتأخذ السيادة منها.

ويطلقون على أقرب الأسر نسباً إلى أسرة الشيخ اسم (كراع) مثل: كراع شعلان، كراع ملحم... الخ، ولذلك نجد من هم في هذا الموقع من النسب ينكرونه ويتعدون عنه تخلصاً من هذا الكراع المبارك.

ورئيس العشيرة هو الحاكم المطلق في السلم، وقائد العشيرة في الحرب والغزو، وهو الرئيس الأعلى للقضاء ويعاونه في إدارة شؤون العشيرة رؤساء الأفخاذ، فيأخذ بآراء ذوي الحكمة والمعرفة منهم.

وحول رئيس العشيرة مجموعة من العبيد الذين يقومون على خدمته ويتولون تنفيذ أوامره في جمع الودي والمراسلات وإقامة الحد على المذنبين، وقد يبرز من هؤلاء العبيد فرسان أشداء يذودون عن شرف العشيرة، وأمناء مؤتمنون على مال سيدهم وعرضه.

وعلاقة هؤلاء العبيد بأسيادهم علاقة تستحق الإكبار وتستدعي الوقوف عندها بما تتميز به من إخلاص وشرف وعفة في علاقة هؤلاء الناس العبيد والأسياد ببعضهم فتبدو وكأنها صلة رحم حقيقية لما يكتنفها من غيرة كل منهم نحو مال الآخر وعرضه.

كان سليم البخيت عبداً للشيخ طراد الملحم مضرب المثل في الأمانة والعفة وشدة الغيرة على نساء العشيرة، فإذا سمع صوت إحداهن وهو في مجلس الرجال استدار إليها وأنّبها وتوعدها إن هي عادت

لذلك، وكان جميع نساء العشيرة يخشينه، فإذا أقبل عليهن في مجالسهن جلسن باحتشام وأصلحن من شأنهن.

وكان حول أبناء فاضل ومن بعدهم أبناء مزيد مجموعة من العبيد الدهاة الأشداء الذين كانوا يشكلون لهم سنداً قوياً في فترات ضعفهم، وبلغ من إخلاص هؤلاء العبيد لأعمامهم أن بعضهم كان إذا أحس من عمه الشيخ خوراً يزجره ليستجيش حماسه ويجدد عزيمته، وكانوا يتقبلون ذلك منهم ويفسرونه على أنه حسن نية وسلامة قلب، ولكنه لم يكن دائماً كذلك، بل كان الأمر أحياناً يبلغ من الجدية والخطورة حداً لا يمكن تجاهله أو السكوت عنه، ففي مشادة كلامية بين سيّد من الجهيّم وعبد له، قال الأخير لسيّده: (والله لولا أن تصل أخبارها إلى ابن رشيد لهشمت رأسك)، مما جعل الرجل يستنصر بالعيط[1] العرفج لإيقاف العبد عند حدّه، فأقسم العيط ليقطعنّ رأس العبد، ولكن العبد استجار بأحد أقارب العيط، فأفتى لهم رجل من آل الرفاشي فتوى طريفة للخروج من ذلك المأزق، هي أن يقبض العيط على شعر رأس العبد من أعلاه ويقطع الشعر بالسيف، وهكذا كان وتحلل العيط من يمينه.

وكان محمد البخيت من فرسان الحسنة الذين يضرب بهم المثل بالشجاعة والقوة وله أفعال خالدة في معارك الحسنة مع أعدائهم، وهو الذي قتل أحمد بيك أمير الموالي عندما غزا الحسنة ليستخلص منهم عنوة (حربة) الفارس الملحم.

والحرة تعدّ عبدها من محارمها[2]، حتى أنها تقبله عند عودته من غيبة طويلة، ويرافقها كمحرم في سفرها وهو إلى جانب هذا حاميها والذائد عنها بسيفه إذا هاجمها الأعداء، وزغرودة تنطلق للعبد من حنجرة عمته في القتال يجعله ينسى الموت، ويندفع نحو الأعداء اندفاع الليث.

وعلى أعمام العبيد كسوتهم وتسليحهم، والعبد يقول لسيده يا عمي ولا يقول له يا سيدي، وهو أمر متفق عليه عندهم، وهذا ما يضفي على العلاقة بينهما ظلاً من التكافؤ والمساواة والود الحنون.

هذا فيما مضى، أما الآن فالعبيد أصبحوا أحراراً، ولله الحمد والمنة، وهم مع أعمامهم إخوة وأبناء عشيرة لا تفاضل بينهم إلا في الأعمال والأخلاق.

---

[1] هو العيط بن رشود وهو العيط الأول.

[2] إن هذا يستند إلى قاعدة شرعية تتيح للعبد أن يرى من سيدته الحرة ما يراه منها أخوها أو أبوها، جاء ذلك في الآية 31 من سورة النور في قوله تعالى [وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها] إلى قوله تعالى [أو ما ملكت أيمانهم] وهؤلاء هم العبيد إذ كانوا يعدون ملك يمين ونحن نذكر ذلك لكي يرى العالم كيف كنا نعامل العبيد فيما مضى، وكيف كان يعاملهم من يفرضون الآن وجودهم على البشرية كوجه حضاري مشرق، ولكي يروا أننا في بداوتنا بالأمس أكثر إنسانية منهم في حضارتهم اليوم.

ويوجد في العشيرة أحياناً أسرة أو أكثر نزحت إليها من عشائر أخرى لسبب من الأسباب ونزلت بجوار أحد أفخاذها، وقد يطول المقام بهذه الأسرة الوافدة فتصبح كأنها واحدة من أسر ذلك الحي، تحمل إذا حملوا، وتعطي إذا أعطوا.

وقد تفقد هذه الأسرة انتماءها إلى العشيرة الأم فتنتمي إلى العشيرة التي تقيم فيها، فتكون بذلك من لواحق ذلك الفخذ من العشيرة الذي نزلت بجواره ويسمونها (لحقه)، ولكنهم عندما يفصّلون ويفرعون يعيدون كل شيء إلى أصله.

والبدوي لا ينظر إلى رئيس العشيرة على أنه حاكم مستبد يخافه ويتقي شره، ولكنه يرى فيه ابن عم، مسؤولاً عنه، يثق بقيادته ويدافع عن حقه، فإذا لحق به حيف فزع إلى الشيخ يشكو إليه أمره، وعلى الشيخ إنصافه وإيصاله إلى حقه، فإذا كانت الظلامة عند الشيخ أو عند أحد رجاله يستطيع أي فرد في العشيرة مقاضاته وأخذ الحق منه، ولا يأنف الشيخ من مقاضاة من يدعي عليه من أفراد عشيرته إذا طلبه (للحق) كما يسمونه، ويعنون به الجلوس للقضاء عند العارفة.

هذا ما ينص عليه العرف والقانون عندهم، وهو لا يعني بالضرورة أن يكون الشيخ ملزماً به إذا كان ممن يأنفون الإذعان للحق، ولكن ذلك يسيء إلى سمعته في العشيرة ويقوض مكانته فيها، وقد يطفح الكيل بالشيخ فيبغي على قومه ويصبح ظالماً متسلطاً، إلا أن هذا الأمر نادر الحدوث لأن طبيعة البدو لا تقبل هذا النوع من الممارسات.

وإذا خاطب أحدهم الشيخ يبدأه قائلاً: يا طويل العمر، وهو دعاء للشيخ بطول البقاء.

ويرث ابن الشيخ الأكبر الشيخة من أبيه وإذا كان غير كفء لها يرثها الذي يليه من إخوته، أما إذا لم يكن للشيخ إلا ولد واحد ولم يكن كفءً للرئاسة في العشيرة يوكل الأمر إلى أكفأ الرجال من الذين يلونه في النسب، فيبقى هذا الابن الضعيف شيخاً اسماً فقط بينما يكون قريبه الموكل إليه الأمر هو صاحب السلطة والأمر والنهي في العشيرة.

وربما يستحوذ هذا الأخير على كل الأمور اسماً وفعلاً ويصبح هو الشيخ الوحيد في العشيرة ويرث ابنه الشيخة من بعده.

وكثيراً ما تعصف الفتنة في الأسرة الواحدة أو بين أسرتين من أجل الشيخة، فيقتل القريب قريبه والأخ أخاه وتسيل الدماء وتسحق أسرة أسرة أخرى وتستولي على الأمر.

وتمر الأيام والسنون، وتتعاقب الأجيال، ويطوي النسيان الأحقاد في النفوس، ويعود الوئام بين أبناء

العشيرة، ويصبحون كلاً واحداً متراصاً يشدون أزر بعضهم بعضاً، لأنهم أبناء رجل واحد ولا غنى لهم عن بعضهم.

ولدى الشيخ مجموعة من العبيد ذوي الاختصاصات المتعددة، فمنهم من يهيئ القهوة ويقدمها ويسمى القهوجي، ومنهم من يجمع الحشائش علفاً للخيل ويسمى (الحشاش)، ومنهم من يجلب الماء من المنهل ويسمى (الروّاي أو الصمّال)، ومنهم من يرافق الشيخ في تنقله ويقوم على حراسته، كذلك فإن لدى وجهاء القوم والأثرياء فيهم مجموعة مصغرة من هذا التشكيل كالقهوجي، والروّاي والدّواش (وهو خادم من غير العبيد).

القضاء عند البدو:

يخضع القضاء عند البدو للعرف والعادة، ويتوارثه الأبناء عن الآباء، ويسمى القاضي (عارفة)، وابن العارفة يرث المعرفة بالقضاء عن أبيه باكتساب الخبرة من مجالسة أبيه وحضور البت في القضايا التي تعرض عليه، وتعدّ مجالس القضاء عند البدو مدارس يتخرج منها القضاة الذين يحرصون على حضورها، والقضاء عندهم مستمد في أساسه من الشريعة الإسلامية، بيد أنه مع مرور الزمن أدخل عليه كثير من العادات والتقاليد والأعراف الموروثة، ولكنه لا يخلو من التنظيم ويبقى قريباً من المعقول في بعض أحكامه.

وشيخ العشيرة هو الرئيس الأعلى للقضاء، فإن أراد فصل من لدنه في الأمور المتنازع عليها، وإن شاء ساق أصحاب القضية إلى أحد القضاة (العوارف) ليحتكموا إليه.

وفي القضاء البدوي قضاة مختصون، فهناك قاض للجنايات وقاض للحقوق وقاض للنساء والخيل يسمونه (قاضي المقلدات)، ويعنون بالمقلدات الخيل والنساء، فكل منهما توضع في رقابها القلائد للزينة، ويختص ابن سمير في ضنا مسلم بالقضاء الجنائي ويسمونه (مقطع الدموم) بينما يختص ابن جندل بالحقوق والنساء يسمونه (قاضي المقلدات).

وفي القضاء البدوي ما يشبه الاستئناف والتمييز كما في المحاكم المدنية، فيحقّ لأحد الخصمين أن يطلب من القاضي السماح له بعرض القضية أمام قاض آخر إذا رأى أن في المسألة غبناً له، وهذا ما يشبه الاستئناف، فيقول للقاضي: سقني على غيرك، وهنا يختار القاضي الأول قاضياً آخر يتوسم فيه المعرفة والقدرة على البت في هذه القضية ويقول له: (سقتك على فلان)، ويذكر له اسم العارفة، وفي هذه الحالة أيضاً يحق لأحد الطرفين المتقاضيين أن يطلب من القاضي الثاني إحالة القضية إلى قاضٍ ثالث بالعبارات نفسها التي رددها عند القاضي الأول، وهذا ما يشبه التمييز في القضاء المدني، وهنا يكون الحكم قطعياً وغير قابل للاعتراض بعد البت في القضية من القاضي الثالث.

ولكل من الخصمين الحق بتوكيل من ينوب عنه بعرض قضيته أمام القضاء والدفاع عنه إذا كان ضعيف الحجة لا يحسن شرح قضيته أمام القاضي، فيختار رجلاً ممن يحسنون الدفاع والمحاجة ويقول له العبارة المتعارف عليها عندهم (أنا ملبسك عباتي)، ونادراً ما يقابل هذا الطلب بالرفض وهذا بديل عن المحامي في القضاء المدني إلا أنه لا يتقاضى أجراً في معظم الأحيان، وللقاضي حق معلوم من مال أو حلال إذا بت في المسألة من عنده، ويساوي هذا الحق ثلث قيمة القضية إذا كانت القضية مالية، أما إذا كانت

غير ذلك فله فيها مبلغ يتفق عليه، ويسمى ما يأخذه القاضي (الرزقة) أما جلسة القضاء فتسمى (الطلابة).

ويبدأ عرض القضية أمام القاضي بوجود كل من الخصمين المتقاضيين أو من ينوب عنهما، فيدلي كل منهما بحجته عارضاً قضيته بعبارات واضحة وصريحة مذكراً القاضي بالله، وإن عليه توخي العدل وإحقاق الحق مردداً إحدى الجمل التالية: (وش عندك يا بن فلان واذكر الله يا بن فلان) مثال: (وش عندك يا بن جندل واذكر الله يا بن جندل) أو (وش عندك يا عارفة العرب يا فكاك النشب) ويحضر الشهود الجلسة إذا استدعى الأمر ذلك، ولا تقبل شهادة من سبق له أن حلف يميناً كاذبة، ويستمع القاضي ومن بمجلسه لأقوال الطرفين، فإن كانت القضية من القضايا المعروفة لدى القاضي في كيفية الحكم فيها أو سبق له أن مرت عليه مثيلة لها بت فيها بالحكم بعد أن يختار كل من الخصمين كفيلاً لضمان حقه، وإن اختلط الأمر على القاضي ولم يستطع إيجاد حل للقضية، يطلب من المدعي البحث عن قضيتين مشابهتين لهذه القضية وكيف قضي فيهما ليقضي له على قياسهما، وهذا ما يشبه القياس في القضاء المدني وكذلك القضاء الشرعي.

وقبل النطق بالحكم يطلب أحد الخصمين من خصمه الآخر السماح له. أن يختار كفيلاً يضمن له حقه، فيقول لخصمه (هدني على كفيلي) فيقول له خصمه (هديتك) أو (أنا مهدك)، ويعني أنه سمح له أن يختار الكفيل الذي يريد، وينتقى الكفيل عادة من الرجال ذوي النفوذ في العشيرة، فيقول (أنا منهد على فلان)، ويسمي اسم الكفيل، وليس بالضرورة أن يكون الكفيل حاضراً وعليه في هذه الحال أن يقوم بجميع الالتزامات المترتبة على هذا الكفال أو (الكفالة) متى علم بذلك، فإن امتنع الخصم عن تأدية ما حكم به القاضي عليه يكون الكفيل مسؤولاً عن تحصيل الحق منه وإجباره على دفع جميع ما حكم به القاضي لموكله ولو احتاج الأمر إلى استعمال القوة.

وفي القضايا الجرمية يعين من أجل ذلك كفيلان أحدهما يسمى كفيل (دفا) والثاني يسمى كفيل (وفا)، فكفيل الوفاء لتحصيل الأمور المالية، وكفيل الدفا (الدفيء) لضمان عدم مطالبة أهل المقتول أو الذين وقع فيهم الجرم بحقهم في القصاص أو الثأر، وتعدّ هذه المسألة من المسائل الهامة التي تلقى احتراماً من قبل الجميع، لما لها من أهمية في حياة مجتمع لا تحكمه سلطة منظمة، وهي ضمانة جيدة وقوية لعدم تكرار الجريمة، فلو حصل أن قام أهل المقتول أو الذي وقع فيهم الجرم بالتعدي بالقتل أو القصاص من الطرف الآخر، هبّ الكفيل وأهله وعشيرته لتطبيق الإجراءات المترتبة على الإخلال بشروط الاتفاق

بكل قوة وبلا رحمة، ومن بعض ما يحق للكفيل أن يفعله في هذا الحال الإغارة على المعتدي سبع مرات يسيل في كل مرة منها دماء من المعتدي أو أهله أو عشيرته.

وإذا ادعى شخص على شخص آخر ورفض المدعى عليه الإذعان للحق أو القضاء لضعف خصمه أو قلة عشيرته، ففي مثل هذه الحالة يلجأ الخصم الضعيف إلى أحد الرجال الأقوياء ذوي النفوذ في العشيرة، والذي يرى أنه يستطيع التأثير في خصمه، فيعقد أحد طرفي منديله ويقول له: (أنا بوجهك على الحق) ويشرح له ظلامته، ومن المعيب على الملتجأ إليه رفض الطلب، وعندئذ يرسل هذا الأخير إلى المدعى عليه يطلب منه الإذعان للحق ومقاضاة صاحبه، فإذا حصل ورفض الخصم التقاضي، فإن المستجار به يجيره على الإذعان للحق بالقوة، ومن جملة الإجراءات المتخذة في مثل هذه الحالة، أن يستاق المجير إبل الخصم فيحتجزها، ويضع العقل في أيديها حتى يذعن الخصم للحق، ويعدّ هذا مثالاً رفيعاً على نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم.

ولا يحكم القاضي عندهم بالإعدام على القاتل، لأن أهل المقتول لا يقيمون دعوى في مثل هذه الحال، ويقومون بتحصيل حقهم وأخذ الثأر بأيديهم، ولو أقيمت دعوى من هذا القبيل، وحكم القاضي على القاتل بالقتل، فإن ذلك غير ممكن ويستحيل تنفيذه لأن أهل القاتل وعشيرته يشدون أزره ولا يسلمونه ظالماً أو مظلوماً، ونادرة جداً هي الحالات التي يحكم فيها بالقتل على القاتل، ولا تحدث إلا عندما يهدر دمه من قبل العشيرة بكاملها، كأن يرتكب الجاني أعمالاً مشينة تمس شرف العشيرة وسمعتها.

والزانية تقتل، والذي يقوم بتنفيذ القتل هم أقرب الناس إليها نسباً كأخيها أو أبيها، وقد ينفذ الحكم في المتزوجة زوجها أو يطلقها ويترك مسؤولية تنفيذ الحكم لذويها، أما الزاني فيعامل معاملة القاتل ويلاحق فيقتل إذا تمكن منه.

وليس للمرأة صداق مؤجل، وصداقها كله مقدم، ويعاد صداق الناشز إلى زوجها إذا طلقها، ويسمونها (طموح)، ويسمون الصداق (سياق)، وإذا كان أهل المرأة الناشز لا يملكون القدرة على إعادة المهر إلى زوجها يقولون له (سياقك بشليلها)، والشليل النهاية السفلى للثوب مما يلي الأرض، ويعنون بقولهم (بشليلها): أي بعد زواجها لأنه لا يكشف شليل المرأة إلا زوجها.

وليس من اليد سلامة عندهم، والذي يقتل إنساناً خطأً يدفع الدية ولا يقتل، ولكن عليه أن يتوارى عن الأنظار في بداية الأمر، ويدفع من يحدث في إنسان عاهة مستديمة كبتر اليد أو الساق أو فقدان النظر في إحدى العينين نصف دية شخص، ومن يحدث تشويهاً في وجه إنسان آخر ويسمونها (سطوة) يدفع

مبلغاً يقدره القاضي عند عقد الصلح بين الطرفين حسب نوع التشويه ومكانه من الوجه، ومن يقتل حيواناً خطأ يغرم بثمنه ومن يقتله عمداً يغرم بأربع أمثال ثمنه.

وأعجبني مجلس للقضاء حضرته عندهم، كان القاضي فيه فرج بن مشهور الشعلان، أما المتقاضيان فكان أحدهما تاجراً جاء ببضاعة من بغداد إلى الشام، وفي الطريق تعطلت الشاحنة التي تحمل البضاعة في أرض خالية من السكان وليس فيها وسائط نقل، وبينما هو على هذه الحال مرّ به صاحب إبل يريد الشام، فطلب منه التاجر أن يحمل له البضاعة لقاء أجر معلوم، ولكن الرجل استغل حراجة موقف التاجر فطلب منه أجراً يزيد عشرة أضعاف ما تستحقه البضاعة، ووافق التاجر مضطراً على طلبه خوفاً على بضاعته من الفساد، وحملت البضاعة إلى دمشق، وهناك رفض التاجر إعطاء الرجل الأجر الذي كانا قد اتفقا عليه ودعاه للقضاء، ووقع الخيار على ابن مشهور، وهكذا عقدت الجلسة وأدلى كل من الخصمين بحجته حسب ما ورد في سياق القصة، فعدّ القاضي الاتفاق الذي تم بين التاجر والرجل باطلاً لأنه تم في ظروف غير عادية بالنسبة للتاجر ووافق عليه مكرهاً، وحكم لصاحب الإبل بأجر معقول يتناسب مع ما تستحقه البضاعة في الأحوال العادية.

وعند المصالحة تذهب مجموعة من الرجال تسمى (الجاهة) بناء على طلب من ارتكب الجرم أو أهله أو عشيرته، وينتقى رجال الجاهة من وجهاء القوم ومن ذوي الحلم والنفس الطويل، لأنه قد توجه إليهم الإهانات ممن وقع فيهم الجرم في بعض الحالات إذا كانوا لا يرغبون في الصلح، وربما يقوّضون البيت ويغادرونه عند قدوم الجاهة، أو يذري النسوة التراب في وجوه رجال الجاهة أحياناً. على أن هذه حالات نادرة ولا يفعلها إلا السفهاء، ولكنها تحدث أحياناً، وعلى رجال الجاهة أن يتجاوزوا مثل هذه الحالات بصبر وأناة، فيعيدون الكرة مراراً حتى يلين جانب الذين وقع فيهم الجرم، فإذا وافقوا على الصلح تجري المفاوضات للاتفاق على الدية (المدّى) ـ كما يسمونها ـ وتوافق الجاهة على كل ما يطلبه ذوو المجنى عليه حتى إذا عقد الكفال (اهدوا على الكفيل) يعيدونهم إلى ما يجيزه لهم القانون في القضاء البدوي، لأن مقدار الدية معروف عندهم في العشيرة وخارجها، فعند ضنا مسلم مقدار الدية ضمن العشيرة إذا قتل القريب قريبه: خمسون بعيراً و (السلع): ويعنون بها الفرس أو الذلول، والسيف أو البندقية، ويحمل التبعة مع القاتل ضمن العشيرة أقاربه حتى الجدّ الخامس سواء كان طالباً أو مطلوباً، أما بعد الجدّ الخامس فلا تبعة عليهم وأول ما يترتب عليه من إجراءات يقوم بها القاتل وذووه ـ في حال وقوع الجرم ضمن العشيرة ـ هو الجلاء إلى عشيرة أخرى بعيدة عنهم في النسب، فمثلاً إذا كان الجاني من ضنا مسلم فلا يحق له

الجلاء إلى أية عشيرة من ضنا مسلم وإنما يجلى إلى ضنا عبيد، أو قبيلة أو عشيرة أخرى، ويعطى الجاني مهلة ثلاثة أيام وثلث اليوم كي يصل إلى مأمنه يكون خلالها في جيرة أحد رؤوس القوم من عشيرته ويسمون هذه المهلة الزمنية (عطوى) أما إذا وقع الجرم خارج العشيرة فإن الجاني لا يجلى وتحميه عشيرته.

البشعة:

وهي كاسمها بشعة كل البشاعة، وطريقة شيطانية محرّمة، يلجأ إليها ضعيفي الإيمان بالله تعالى من المدعين في قضية ما، فلا يقبلون من المدعى عليه اليمين ظناً منهم أن في البشعة إظهاراً للحق أكثر من القسم، كذلك يلجأ إلى هذه الطريقة إذا كان المدعى عليه ممن يشك في صحة شهادتهم، أو ممن سبق له أن شهد شهادة زور، أو أقدم على حلف يمين كاذبة.

ويقوم بهذه العملية رجل اسمه (المبّشع) فإذا ما اتفق الطرفان ـ المدعي والمدعى عليه ـ على اللجوء إلى البشعة، حينئذ يصاحب مجموعة من رجال المدعي ومجموعة من رجال المدعى عليه صاحبيهما إلى المبشع الذي يحذر بدوره من يلحس البشعة بخطورتها عليه فقط إذا كان مذنباً، فإذا ما عزم صاحبه على البشعة، يقوم المبشع بإحماء حديدة مستديرة صغيرة لها ذراع تمسك به حتى تحمّر، ثم يكمّد لونها، ثم يأمر صاحبه بإخراج لسانه من فمه إلى الأمام، وبمهارة فائقة يضع الحديدة المحماة (البشعة) على لسانه بخفة، ثم يرفعها بأسرع ما يستطيع، فإذا ما تركت أثراً في لسان الرجل المحلف عدّ مداناً، وإذا لم تترك أثراً كان بريئاً.

ويلعب العامل النفسي دوراً كبيراً في هذه المسألة لأن الجاني في هذه الحالة يكون خائفاً، والمعروف أن اللعاب يجف في فم الخائف، في حين ينعكس الأمر بالنسبة للبريء، وبما أن اللعاب مادة ممتصة للحرارة ومخففة لها، فإن البشعة في هذه الحالة لا تضر البريء الذي لا يجف لعابه بطبيعة الحال، بينما تفتك البشعة بلسان المذنب الذي لا تكسو لسانه طبقة لعاب تحميه من البشعة، وعلى كل حال فإن اللجوء للبشعة أمر نادر الحدوث، وفي حالات خاصة جداً.

الوساقة:

هي إحدى طرق تحصيل الحقوق عند البدو، ويلجأ إليها حين يكون لأحدهم على الآخر شيء من دين أو حلال أنكره عليه أو ماطل به، ولم تجد الوسائل السلمية في الحصول عليه، عندها يلجأ الدائن أو

صاحب الحق إلى الإغارة على إبل خصمه أو غنمه فيأخذ منها ما يساوي ماله عنده، ثم يطلبه للجلوس أمام القضاء عند أحد العوارف للفصل بينهما.

ويقوم الطرف الأول بوضع ما أخذه في وجه أقرب شخص يلتقي به، أو أقرب بيت يصل إليه من الحي، ولا يحقّ له الاحتفاظ به، وإلا عدّ مغيراً ناهباً حكمه حكم العدو الغازي.

الجيرة عند البدو (الوجه):

الجيرة عند البدو من الحرمات التي يدافع عنها البدوي بكل ما يملك، ولو كلفه ذلك ماله ودمه، ضعيفاً كان أم قوياً، رجلاً كان أو امرأة، حتى ولو كانت هذه المرأة وحيدة ليس لها رجال، فلبيتها حرمته وحصانته أمام أقوى الناس وأعزهم شأناً، وقصة العرفجية التي قتلت أبناء عمها السبعة، لأنهم انتهكوا حرمة بيتها، وقتلوا من استجار بها، (قطعوا وجهها) من القصص المشهورة عند البدو، وسنأتي على ذكرها إن شاء الله بالتفصيل في حينها.

ويسمون الجيرة: الوجه، لأنه أكرم جزء في جسم الإنسان فالذي يعتدي على من أجرت كأنما لطمك على وجهك، وعار على مَنْ انتهكت جيرته، وعار على أهله وعشيرته إذا لم يأخذ بحقه من المعتدي، فكيف والعرب بدوهم وحضرهم اشتهروا بإغاثة الملهوف وعوذ الجاني وغوث الطريد، وتاريخ العرب يطفح بمثل هذه الأخبار فكانت لطائم النعمان تسير محملة بالبضائع من بلاد العراق إلى اليمن في كل عام، لا يرافقها جند ولا قوة تحميها، وإنما كانت تجار من قبل زعماء العرب فمنهم من يجيرها على كنانة، ومنهم من يجيرها على مضر، ومنهم من يجيرها على أهل الشيح والقيصوم (ويعنون بها كل العرب).

وأجار ابن الدغنة، الحارث بن يزيد رئيس الأحابيش أبا بكر الصديق رضي الله عنه يوم أخرجه قومه مهاجراً بدينه إلى الحبشة، فأعاده إلى مكة، وأبلغ قريشاً أن صاحبهم في جيرته، ومكث أبو بكر زمناً في مكة، محمياً بجيرة ابن الدغنة، ولكن حينما اشتد أذى قريش له، ورأى أبو بكر أن في الأمر إحراجاً لصاحبه، طلب منه أن يتخلى عن هذه الجيرة، فأعلن الحارث أنه في حلّ من جيرته لأبي بكر، والحلّ من الجيرة أمر متعارف عليه حتى الآن عند البدو، فعندما يعجز المجير عن القيام بالتزامه تجاه من استجار به، كأن يكون المستجار منه قوياً لا طاقة له به، أو أن يكون المجار قد أخلّ بالشروط المتفق عليها للجيرة، ففي مثل هذا الحال يقول المجير: (هذا حدي وحديدي عن جيرتك يا فلان) موجهاً كلامه للشخص

الذي أجاره، وحينها يبحث المستجير عن رجل آخر في العشيرة يجيره أو يرحل إلى عشيرة أخرى.

وقد يطلب المستجير نفسه من المجير أن يتحلل من جيرته له، فيقول له: (انفض عني) وهذا حين يرى أن المجير عاجز عن حمايته، أو حين يرى منه تحيزاً لخصمه.

وأجار المطعم بن عدي رسول الله صلى الله عليه وسلم عند عودته من الطائف، بعد أن خذلته ثقيف إثر وفاة عمه أبي طالب، فتقلد المطعم وأبناؤه الستة سيوفهم، وساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، فطاف حولها بحمايتهم، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام يوم أسارى بدر: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألني في هؤلاء النقباء لوهبتهم له) وكان المطعم يومها قد توفي قبل معركة بدر.

وللجيرة (الوجه) أشكال متعددة، وهما كلمتان مختلفتان لفظاً ومتفقتان معنى فالجيرة هي الوجه في أغلب الأحيان، والوجه هو الجيرة كذلك فالذي يقول لك (أنا بوجهك) فهو في جيرتك، والذي يلتجئ هارباً من عدوه إلى بيتك هو في جيرتك، ويرد الوجه أو الجيرة بأشكال متعددة، منها الوجه عن بعد كأن يقول أحدهم (أنا بوجه فلان) وربما لا يكون فلان هذا حاضراً، ولكن عليه القيام بجميع الالتزامات المترتبة على الوجه بعد علمه بذلك.

وهناك الوجه عن قرب، كأن يطرد الخصم خصمه، فيستجير المطرود بأقرب الناس إليه ويقول له: (أنا بوجهك) ويعني أنا بجيرتك.

والحالة الثالثة: أن يضع الرجل وجهه (جيرته) بين اثنين أو مجموعتين من الناس، أو حيين من العشيرة يقتتلان، فيقول: (وجهي بينكم) وفي هذه الحالة على الباغي تدور الدوائر، وعلى الطرفين الالتزام بالهدوء وإيقاف القتال حتى يتبين الرشد من الغي، ويحسم الخلاف بالطرق السلمية، فإذا بغى أحد الطرفين على الآخر كان المجير (صاحب الوجه) وأهله وعشيرته على الفئة الباغية، حتى توقف القتال وتذعن للحق.

ولا يقدم على هذا النوع من الوجه إلا ذوو الشأن، وأصحاب المهابة في العشيرة ومن هم في ثروة من قومهم يشدون أزرهم.

وهناك جيرة النسب وهي أن يجير الرجل ابنة عمه أو قريبته، حين يتقدم للزواج منها من هو أبعد نسباً منه عنها، فيقول أمام عدد من الرجال: أشهدوا أن ابنة عمي (مجيورة)، فلا يجرؤ أحد عندئذ على طلب يدها، وسيّان وافقت هي على الجيرة أم رفضتها وعليها وعلى أهلها القبول والطاعة، وقد يجير عليها من هو أكبر منها سناً بكثير، أو من هو أصغر منها كذلك، فيجير الرجل ابنة أخيه الراشدة لابنه الصغير حتى يكبر، وقد يطول الانتظار سنوات عدة حتى يبلغ الصغير سن الرشد، وتبلغ الفتاة مرحلة اليأس ولا

حول لها ولا قوة، وإذا رفضت المرأة الزواج ممن أجارها فإنها تبقى كالمعلقة حتى توافق على الزواج، أو يتنازل من أجارها عن جيرته، وهي كما نرى جيرة ظالمة وتختلف هنا عن الوجه كما تختلف عن المعاني الإنسانية الحميدة لأصل الجيرة عند العرب.

ولا يستعمل إلا فيما يرى المقسم أن فيه خيراً لمصلحة الطرف الآخر، كأن يقول الجالس للراكب: عليك الجيرة أن تترجل وتشاركنا الطعام، أو يقول الرجل لزائره: عليك الجيرة لا تخرج حتى تأكل الطعام أو أن تدخل أنت وصديق لك إلى مطعم في المدينة فتأكلان وتقول له عليك الجيرة لا تدفع من ثمن الطعام شيئاً.

وقد يساء أحياناً استعمال هذا القسم، كأن يقول المقسم: عليّ الجيرة لأفعلن كذا وكذا، وهذه إحدى عيوبها، إضافة إلى أن هذا النوع من القسم باطل، ولا يجوز استعماله أو القسم به وهم يفعلون ذلك جهلاً منهم بمساوئه، وجهلاً منهم بأن كل قسم بغير الله باطل.

الدخيل (الطريد):

قال المتنبي:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد

وهو أن يطرد الخصم خصمه، فيلتجئ إلى أقرب شخص أو بيت شعر يستجير به، ويسمونه الدخيل، وعلى المستجار به هنا أن يشهر سيفه ويذود عن دخيله، وإذا احتاج الأمر إلى الانتصار بعشيرته انتصر بهم فيهبون للوقوف دونه، والعرف والعادة عندهم أن لا يعتدى على الطريد متى استجار بأحد منهم أما إذا يمم الطريد شطر أحد بيوت الشعر، فإن للبيت حرمة تتعدى المساحة من الأرض التي يشغلها البيت إلى عشرات الخطا، فإذا أدرك الخصم خصمه المطرود قبل وصوله إلى البيت وفتك به، تقاس عندئذ المسافة بين مكان الاعتداء وبين بيت الشعر، ويقيسون المسافة بطريقة طريفة، فيأخذ أحد الرجال الأقوياء (ميجمة أو ميجنة) ويقف أمام البيت، ثم يقذفها باتجاه مكان الحادث، فإذا وصلته، كان المطرود ضمن حمى البيت، وإن لم تصله كان خارج الحمى، وحقّ المستجار به هنا المطالبة بدم الطريد إذا قتل بحماه، أو القصاص ومقاضاة الطارد إذا اعتدى على الطريد بالضرب، ولبيت الشعر عند البدو حرمته مهما كان شأن صاحبه، ضعيفاً، أو قوياً، رجلاً كان أو امرأة.

ولبيت الشعر حرمتان: حرمة خارجه عشرات الخطى كما أسلفنا، وحرمة داخله، أما الحرمة خارجه فكما علمنا وأما الحرمة داخله، فلا يجوز لأحد من الجالسين في المجلس، ضمن البيت أن يعتدي على غيره ممن في المجلس بالضرب أو بالكلام فإذا حدث شيء من هذا رفع صاحب البيت صوته قائلاً: (البيت) منبهاً أن عليهم الالتزام بآداب المجلس واحترام وجودهم في بيته. وعلى الطرفين أن يكفا عن الشجار أو المشاحنة وإلا فإن صاحب البيت يلجأ إلى القوة للفصل بينهما ومن ثم مقاضاتهما وأخذ حق البيت منهما.

حق الملحة:

ويعنون بالملحة الطعام فإذا ضافك ضيف غريب وأكل من زادك، فإنه يبقى في حماك بعد خروجه من بيتك ثلاثة أيام، فإذا اعتدي عليه خلال هذه المدة فلك حق المطالبة بحرمتك وحرمة بيتك وحرمة ملحتك، ولها حقوق معروفة عندهم، أما كيف جعلوا حق الملحة ثلاثة أيام فيعزون ذلك إلى ابنة أحد عوارفهم التي وضعت المغر (صبغة حمراء) في طعام ضيوف أبيها، وقالت لهم: أنتم في جيرة أبي ما دام المغر يخرج منكم، فوجدوا أنه ظل يخرج منهم لثلاثة أيام، وقد تروى الحكاية على شكل آخر ولكن النتيجة تبقى واحدة.

جيرة العبد راشد:

وهي جيرة يحترمها البدو ويحرصون على إبرارها، فإذا أقسمت على أحد منهم بجيرة العبد راشد، كأن تقول له: (عليك جيرة العبد راشد) أن تفعل كذا كان عليه إبرار الجيرة والإذعان، وهي لا تستعمل غالباً إلا في مجالات الكرم وإطعام الطعام والأفعال التي تحمد عقباها، ولجيرة العبد راشد هذه قصة طريفة يرويها البدو في مجالسهم، لا نعرف تفاصيلها، ولكنها على كل حال تحتوي على عمل أو فعل له علاقة بمكارم الأخلاق، ولهذا جعلوا له هذه الجيرة تخليداً لذكره.

حق الصحبة (الخوي):

أوصى الله جلّ شأنه بالصاحب والرفيق بالسفر، والبدو يقدرون هذه الصحبة بفطرتهم، فالصاحب في الطريق يمنع صاحبه مما يمنع منه ماله ونفسه ولو لم يكن بينهما سابق معرفة، وإنما جمعتهم المصادفة في

الطريق فحسب والتخلي عن الصاحب (الخوي) أمر مشين لا يقبل عند الكرام منهم ولا يفعله إلا كل جبان ويسمون من يتخلى عن رفيق سفره: (سويد الوجه) أو أسود الوجه.

قال أحدهم يوصي صاحباً له برفيقة سفر لهما بينما كانوا يجتازون حفاة أرضاً ذات شوك كثير:

على المهل دار أريش[1] العين يا حسين واقطع لها من طرف ردنك ليانة[2]

اترك حثاث[3] القاع وامشِ على الهين واسلك لها يا حسين درب الليانة

وإن شلتها[4] يا حسين ترى ما بها شين ترى الخوي[5] يا حسين مثل الأمانة

يقول لصاحبه سر الهوينى وترفق بصاحبتك لأنها لا تطيق ما يطيقه الرجال وكنى عنها بـ (أريش العين) وهي صفة يطلقونها عادة على المرأة ذات العينين الجميلتين، طويلات الأهداب، وكأن أهدابهما ريش الطير، ثم يوصيه أن يقطع لها من ردن ثوبه شيئاً ليناً تلفه على قدميها علَّه يقيها شوك الأرض وحصاها، ويوصيه أن يتجنب عثرات الطريق، وتعرجات الأرض، ويسلك

لصاحبته سبيلاً ليناً سهلاً، وإذا اقتضى الحال أن يحملها فليفعل، وليس عليه في ذلك سبة لأنها صاحبة سفره (خويته)، والصاحب مثل الأمانة، فكما أنه يجب على المرء الحفاظ على أمانته إلى أن يؤديها إلى أهلها، فكذلك ينبغي عليه أن يحافظ على رفيق سفره فكلاهما في ذمته، والحرّ حريص على هذه الذمة.

وتضطر البدوية للسفر مع الرجال ضمن القافلة، حين لا تجد من يكفيها مشقة هذا السفر، وهي تسافر إما لتمير أهلها أو لجلب الماء من مكان بعيد ومنهم من يتحدث عن رفيقة سفر له في ليالي الشتاء الباردة، التحف معها فروته وعباءته بعد أن أدار كل منهما ظهره للآخر، فلا يشعر نحوها إلا ما يشعره الأخ نحو أخته!

---

(1) المرأة طويلة أهداب العينين.

(2) الشيء اللين.

(3) وعورة الأرض.

(4) حملتها.

(5) رفيق السفر.

قصة العرفجيّة:

العرفجيّة امرأة من مدينة حائل في شبه الجزيرة العربية، لم يكن لها أب ولا أخ ولا ولد ولها سبعة أبناء عم ذوي بأس شديد، ومن رؤوس القوم في حائل، وفي أحد الأيام رأوا رجلاً لهم عليه ثأر، فلمّا همّوا به التجأ إلى بيت العرفجية ابنة عمهم، ولم يراعوا حرمة البيت فاقتحموه عليه وقتلوه، وكانت العرفجية امرأة على جانب كبير من الدهاء والحيلة، فأخفت غضبها، وتظاهرت بالرضا، حتى إذا مضى على المسألة زمن طويل، حفرت في أساس البيت خندقاً صغيراً وملأته بالبارود، ثم أعدّت طعاماً، ودعت أبناء عمها إليه، فلما جلسوا إلى المائدة أشعلت البارود فتفجر، وانهار عليهم البيت وقتلهم جميعاً، فثأرت للمستجير بها وشفت غلّ قلبها، وقالت في ذلك قصيدة منها:

سبعة ذبحناهم من شـيوخ حايـل هـذا منى قلبي ولا شـفيناه

تسعين حوطة عفتهن بأرض حايل كله ولا تسوى دخيلٍ يقول آه

والحوطة: الحائط من النخيل.

وواضح من البيت الثاني، أنها هجرت مدينة حائل بعد هذه المجزرة الرهيبة، مخلِّفة وراءها تسعين حائطاً من النخيل وهي غير نادمة وكل ما تركته لا يعادل في نظرها كلمة (آه) واحدة أطلقها دخيلها حينما اعتدي عليه، وأصبحت العرفجية مضرباً للمثل في الشجاعة والإباء.

وربما تروى القصة على غير هذا النحو من الرواية، ولكن الغاية تبقى واحدة ـ على كل حال ـ وهي إظهار مدى خطورة انتهاك حرمة البيت وما يترتب عليها من نتائج خطيرة.

قالت إحداهن تعيب على زوجها الصبر على الذل والاستكانة وهبوط همته عن الأخذ بثأره، وتستجيش همته ليشهر سيفه فيرويه من دم الأعداء:

لا عاد ما ترويه من دم الأضداد وديه يم العرفجيـة ترويه

والضمير في ترويه عائد إلى سيف زوجها وتقترح عليه إرساله إلى العرفجية لترويه من دم الأعداء إذا كان عاجزاً عن إروائه.

المرأة في المجتمع البدوي:

كان للمرأة العربية دورها في حياة الرجل على مرّ التاريخ بدوياً كان أم حضرياً فهما شطران يكمل كل منهما الآخر ولا يحسبنّ أحد أن المرأة عند البدو ـ في عصورهم الأولى ـ كانت مهانة لا شأن لها ولا قيمة بل كانت مكرمة مسموعة الكلمة عند وجهاء القوم وكرامهم، ولا يذلها إلا سوقةٌ لئيم، وهي لا تفارق مخيلة الرجل في حله وترحاله أو في سعته وضيقه.

فذكرها في لحظات أنسه وصفائه فقال:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والأفق طلقٌ ووجه الأرض قد راقا

وذكرها في أحرج لحظات القتال وهو يواجه الموت والسيوف تقطر من دمه، فقال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

واغتمَّ وركبه الهم والحزن على بعدها وفراقها، فقال:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيَّم إثرها لَم يفد مكبول

ووقف باكياً مستبكياً على رسوم ديارها، فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وهي توقد نار الحرب وتطفِئها، وتستعرضُ القوات وهي في هودجها على ظهر بعيرها قبل نشوب الحرب، وتذكي حماس المقاتلين إذا حمي الوطيس بزغاريدها التي كانت تفعل في نفوس المقاتلين ما لا تفعله أعظم وسائل الإعلام في أيامنا هذه.

ويقف النساء خلف المقاتلين وبأيديهن الأعمدة يضربن بها مَن يفر مِن المعركة من رجالهن ويقلن له: قاتل مع قومك، وتلاميذ التاريخ يذكرون المواقف الشجاعة للنساء العربيات في معركة اليرموك ومعهنّ خولة بنت الأزور وهند زوجة أبي سفيان وهنّ يشاركن في القتال ويقفن خلف الصفوف يقرعن بالأعمدة رؤوس المنهزمين.

ومطاوي التاريخ مستفيضة بأخبار النساء العربيات اللواتي بذذن الرجال حكمة وبعد نظر. فتعال معي نستمع إلى هذا الحوار الصريح العجيب الذي دار بين أوس بن حارثة الطائي وبين بناته وزوجته يوم جاءه الحارث بن عوف خاطباً وانظر ما فعلته بعد ذلك بهيسة بنت أوس فأصلحت بين قبيلتي عبس وذبيان، بعد أن طحنتهما الحرب عشرات السنين، فحققت بذلك ما عجز فحول الرجال عن تحقيقه:

جاء في كتاب الأغاني[1] – الطبعة المصورة – عن طبعة دار الكتب المصرية ج /10/ ص /294/:

قال: حدثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال:

قال الحارث بن عوف بن أبي الحارثة: أتراني أخطب إلى أحدٍ فيردني ؟ قال: نعم، قال: ومن ذاك ؟ قال: أوس بن حارثة بن لأم الطائي، فقال الحارث لغلامه: ارحل بنا، ففعل، فركبا حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده فوجداه في منْزله، فلما رأى الحارث بن عوف، قال: مرحباً بك يا حار، قال: وبك، قال: ما جاء بك يا حار ؟ قال: جئتك خاطباً، قال: لست هناك، فانصرف ولم يكلمه، ودخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت: من رجلٌ وقف عليك فلم يطل ولم تكلمه ؟ قال ذاك سيد العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّي، قالت: فما بالك لم تستنزله؟ قال: إنه استحمق، قالت: وكيف ؟ قال: جاءني خاطباً، قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال: قد كان ذلك، قالت: فتدارك ما كان منك، قال: بماذا ؟ قالت: تلحقه فتردّه، قال: وكيف وقد فرط مني ما فرط إليه؟ قالت: تقول له: إنك لقيتني مغضباً بأمرٍ لم تقدم فيه قولاً، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت فانصرفْ ولك عندي كلّ ما أحببت، فإنه سيفعل، فركب في أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فو الله إني لأسير إذ حانت مني التفاتة فرأيته، فأقبلت على الحارث ما يكلمني غمّاً فقلت له: هذا أوس بن حارثة في أثرنا، قال: وما نصنع به! امض، فلما رآنا لا نقف عليه صاح: يا حار، اربعْ عليّ ساعة، فوقفنا له فكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً، فبلغي أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته: ادعي لي فلانة (لأكبر بناته) فأتته، فقال: يا بنيّة، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب، قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت: لا تفعل، قال: ولم ؟ قالت: لأني امرأة في وجهي ردّة – الردة: القبح مع شيء من الجمال – وفي خلقي بعض العهدة – العهدة: الضعف – ولست بابنة عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ من ذلك ما فيه، قال: قومي بارك الله عليك، ادعي لي فلانة (ابنته الوسطى) فدعتها، ثم قال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل جوابها وقالت: إني خرقاء وليست بيدي صناعة، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم وليس بابن عمي فيرعى حقي، ولا جارك في بلدك فيستحييك، قال: قومي بارك اله عليك، ادعي لي بهيسة (يعني الصغرى) فأُتي بها فقال لها كما قال لهما، فقالت: أنت وذاك، فقال لها: إني قد عرضت ذلك على

[1] جمهرة النسب لابن الكلبي ص 113.

أختيك فأبتاه، فقالت: - ولم يذكر مقالتهما – لكني والله الجميلة وجهاً، الصناع يداً، الرفيعة خلقاً، الحسيبة أباً، فإن طلقني فلا أخلفَ اللهُ عليه بخير، فقال: بارك الله عليك، ثم خرج إلينا فقال: قد زوجتك يا حارث بهيسة بنت أوس، قال: قد قبلت، فأمر أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له، وأنزله إياه، فلما هُيئت بعث بها إليه، فلما أدخلت إليه لبث هنيهة ثم خرج إليّ، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت: وكيف ذلك ؟ قال: لما مددت يدي إليها قالت: مه ! أعند أبي وإخوتي! هذا والله ما لا يكون، قال: فأمر بالرحلة فارتحلنا ورحلنا بها معنا، فسرنا ما شاء الله، ثم قال لي: تقدم، فتقدمت، وعوَّل بها عن الطريق، فما لبث أن لحق بي، فقلت: أفرغت؟ قال: لا والله. قلت: ولمَ؟ قال: قالت لي: أكما يُفعل بالأمة الجليبة أو السبيّة الأخيذة! لا والله حتى تنحر الجزور، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل لمثلي.

قلت: والله لأرى همّة وعقلاً، وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله، فرحلنا حتى جئنا بلادنا فأحضر الإبل والغنم، ثم دخل عليها وخرج إليّ، فقلت: أفرغت؟ قال: لا. قلت: ولم؟ قال: دخلت عليها أريدها، وقلت لها قد أحضرنا من المال ما قد ترين، فقالت: والله لقد ذكرت من الشرف ما لا أراه فيك، قلت: وكيف؟ قالت: أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها (وذلك أيام حرب عبس وذبيان)، قلت: فيكون ماذا؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك، فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، ولقد قالت قولاً.

قال فاخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى، فيؤخذ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين فانصرفنا بأجمل الذكر، وقال زهير بن أبي سلمى فيه قصيدته منها:

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم[1]

فأصبح يجري فيهم من تلادكم[2] مغانم شتى من أفال المزنم[3]

والمرأة في المجتمع البدوي عاملة وشريكة للرجل في أكثر أعماله، وحياتها في معظمها كحياة الرجل:

---

[1] منشم: امرأة عطارة تحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها ليتحرموا به فقتلوا جميعاً فتشاءمت العرب به، يقول: صار هؤلاء بمنزلة أولئك. وفي الشرح آراء كثيرة.

[2] كرم سعيكم.

[3] التزنيم: علامة كانت تجعل على ضرب من الأيل وهو أن يسحى ظاهر الأذن فيقشر ثم يفتل فيبقى زنمة تنوس. والآفال فصلان الإبل (صفارها).

شظف عيش وخشونة مطعم، وصراع مع طبيعة الصحراء، تصفو حيناً، وتكدر حيناً، يقمر ليلها، ويصحو نهارها زمناً وتشتدّ ظلماؤها ويحتد بردها وتعصف رمالها زمناً آخر، وهي إلى جانب تربية الأطفال والعناية بأمور الأسرة من إعداد الطعام، وترتيب بيت الشعر من الداخل تجمع الحطب من مسافات بعيدة أو قريبة بعد أن تقتلعه بالفأس من الأرض، لذلك فيداها قويّتان وكفّاها قاسيتان، وبعد أن تجمعه تحمله على ظهرها مربوطاً بحبلٍ أو معبأ بعباءة، لتعود به إلى البيت، ويستغرق هذا العمل ساعات طويلة إذا كان مكانه بعيداً، وتصطحب طفلها إذا لم يوجد في البيت من يعتني لها به، فتحمل الحطب على ظهرها والولد في حجرها، وتجلب الماء بالقربة على ظهرها من مسافات مختلفة بعيدة أو قريبة حسب بُعد المنهل عن البيت، وإذا كان المنهل بئراً عليها أن تستخرج الماء منه بالدلو بمفردها أو بالتعاون مع مثيلاتها أحياناً، وتشترك كذلك في جلب الماء من المسافات البعيدة على ظهور الإبل أو الحمير معبأ بالقرب أو بالروايا...

ويسمى هذا النوع من ورد الماء من مسافات بعيدة (الصميل) ويتطلّب المسير إليه الإسراء ليلاً، وقد تقدّم وصف الصميل عند الحديث عن البدو في مشاتيهم، وتشارك المرأةُ الرجلَ هذا العمل الشاقّ في معظم الأحيان، ولا يخفى ما في ذلك من مشقّة على المرأة في ليالي الشتاء الباردة.

وتخبز المرأة البدوية خبزها بيديها، وتقوم بهذا العمل يوميّاً، وتغزل وتنسج كثيراً من تجهيزات البيت من الصوف والوبر والشعر فتصنع منه العدول والبسط والحدائج وأجزاء بيت الشعر، وتستغرق عمليّة الغزل والنسج شهور الصيف بكاملها، وتسمى آلة النسج (النطو)، والنطو عبارة عن نول صغير يمتد عشرات الخطى طولاً، يربط من بدايته بوساطة عصا مثبتة إلى الأرض بوتدين، ويرتفع بعد البداية أمام المرأة التي تقوم بالحياكة بعصا مثبتة إلى ركيزتين من الخشب يرتفعان بمقدار (50) سم، وتسمى الواحدة منهما (مركابة) لأنها تركب عليها العصا التي تحمل النطو، ويشد النسيج مجمعاً بـ (المنساج)، وهو عبارة عن قطعة من خشب الجوز في أغلب الأحيان يتجاوز طولها المتر بقليل وعرضها نحو (20) سم وسماكتها من (1-1.5) سم وأحد طرفيه حادّ قليلاً، وتدخل الخيوط داخل النسيج عن طريق عصا طولها نحو (75) سم، يلف عليها الخيط تسمى (الميشع)، وتشد الخيوط إفرادياً بالصيصاة أو الصيصة، وهي من قرن الغزال أو الماعز، ولصوتها في أثناء العمل بها إيقاعٌ خاصّ لا يدركه إلاّ مَن سمعه، وقد وصفه دريد بن الصمّة عندما استغاث به أخوه في إحدى المعارك وقد شرع القوم رماحهم به فقال:

غداة دعاني والرماح ينشنه كوقع الصياصي في النسيج الممدد

والصياصي: جمع صيصة أو صيصاة، وهي شوكة الحائك التي يسوّي بها السداة واللحمة، والنسيج الممدد هو النطو، ومن بعض أسماء الصيصة عند البدو: (المنقادة).

وتساعد نساء الحي بعضهن في هذا العمل، فتنسج كلّ واحدة منهن يوماً لصاحبتها، وتحلب المرأةُ الغنمَ في موسم الحليب، فتشبك رؤوس الماشية إلى بعضها بحبلٍ مجدولٍ من الصوف يسمى الشباق أو الشباك، وتغلي الحليب على النار وتخثره وتخضّه بالممخض أو (الشكوة)، وتُصنع الشكوة من جلد الماعز أو الغنم تعالج بالدباغ مدّة معيّنة ثم تخيطها البدويّة بيديها، وتستخرج الزبدة من الممخض بعد عملية الخض التي تستغرق نحو الساعتين، ومن الزبدة تستخرج السمن.

وتشارك المرأة في تحميل الأثاث على ظهور الإبل عند الرحيل، كما تشارك بتنْزيله عند التّزيل، وتقوم بنصب بيت الشعر بعد دقّ الأوتاد في الأرض بالميجنة، ويتراوح عدد أوتاد البيت ما بين (8–12) وتداً، ويزداد هذا العدد مع طول البيت طرداً، وتكون الأوتاد من الحديد أو الخشب، ويبلغ طول الواحد منها (40) سم، ويعدّ تثبيتها في الأرض بالميجنة عمل شاقّ.

كذلك تقوم المرأة بتغيير وجهة البيت في ليالي الشتاء الباردة المتقلّبة الرياح، وربّما تقوم بهذا العمل غير مرّة في الليلة الواحدة، فتدير الرواق من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية وبالعكس، ويساعدها الرجل أحياناً، وتحفر حول البيت خندقاً صغيراً (النؤي)، وقد تقدّم وصف النؤي عند الحديث عن البدو في مشتاهم.

وترعى البدوية الإبل إذا لم يكن لها رجلٌ يكفيها هذا العمل الذي هو من مهمة الرجل أصلاً عندهم، ولذلك تجدها شاكية متألّمة من هذا العمل الشاقّ، وبلغ بها التذمّر إلى حدّ الشكوى إلى عدوّ أهلها مستنجدة به ليشنّ الغارة على قطيعها الذي ترعاه ويريحها منه، فتقول:

ما تويق[1] يا شين[2] يا دبي على المحينات لك نوبه[3]

الزمل[4] هيّاج وعذّب بي والهجر بالبيت عيوبه

فهي تشكو إلى دبي، ومَن هو دبي؟ إنّه أحد رؤساء المجموعات الذين ذاع صيتهم واشتهروا بشنّ الغارات الصاعقة على إبل الأعداء، وشكواها من أهلها الذين ظلموها برعايتها الإبل، وهي إبل خليط من إناثٍ وفحول، ومعلومٌ أن فحول الإبل تهيج في فصل الشتاء ويصبح من العسير السيطرة عليها، لذلك يلجأ

---

(1) تويق: تطلّ.

(2) يا شين: كلمة تستخدم عندهم للحثّ على الإقدام.

(3) نوبة: مرّة.

(4) الزمل: فُحول الإبل.

البدو إلى ربط رجل الفحل إلى يده بحبلٍ يسمى (الهجار) وجمعها عندهم (هجر)، ولكن أهل هذه المرأة ظلموها وتركوا فحول إبلهم طليقة دون هجر، وامتنعوا عن إعطاء هذه الهجر وخبّؤوها، ومن أجل هذا، فهي تستحثّ عزيمة دبي وتغريه لشنّ الغارة ولو مرّة على إبل أهلها ويريحها من هذا العذاب وهذه المعاناة.

ومن الطريف أن دبي قد لبّى دعوة تلك المرأة، فجهّز خيلاً وأغار بها على إبل المحينات، ووجد المرأة ما تزال فيها، فدار بينهما هذا الحوار القصير الطريف:

قال دبي: ما اسمك أيّتها المرأة، ومن هم أهلك؟

قالت: أنا صالحة ابنة المحينات، وأنت ما اسمك أيّها الفارس الشهم الشجاع؟

قال: أنا دبي الذي دعوت وقد أجبتُ، اعقلي بعيرك الذي تركبين يا صالحة، وسأريحك من الباقي.

فعقلت صالحة بعيرها وذهب دبي بباقي الإبل، ويُقال إن دبي أُعجب بصراحة المرأة وفصاحتها، فقال فيها:

يا صالحة يا أُم دواره[1]	**عين الغزيّل[2] اليا سجي[3]**
ما أنت من البيض[4] مكاره	**أصدق من اللي نهج حجي[5]**
يا بطن حمرا مع الغاره[7]	**حواية[7] البوش[8] لا هجّي**

ينادي دبي صالحة، وينعتها بذات الوجنة الحمراء، والعين السوداء كعين الظبي الصغير الذي يسير الهوينى خلف أُمّه، ويثني على براءتها وصراحتها، وبُعدها عن مكر النساء: (ما أنت من البيض مكاره) أي لستِ من النساء الماكرات، والبدو يُطلقون اسم البيض على النساء جميعاً لغلبة البياض على أجسادهنّ، ويقول لها إنّك أصدق ممن سار يريد الحج، لأنّه في هذه الحالة أبعد ما يكون عن الكذب وأكثر طلباً للصدق ثمّ ينعتها بضمور البطن فيشبّهها بالفرس الأصيلة الحمراء الكريمة النسب في طليعة الخيل المغيرة على إبل الأعداء فتحويها وتكسبها.

---

(1) الدواره: الحمرة في الخد.

(2) الغزيّل: تصغير غزال.

(3) سجي: مشي الهوينى.

(4) البيض: العذارى.

(5) نهج حجه: ذهب إلى الحجّ.

(7) حمرا مع الغارة: تعني الفرس الحمراء في مقدّمة الخيل المغيرة.

(7) حواية: اسم فاعل للفعل حوى يحوي.

(8) البوش: الإبل.

والجدير ذكره أنّ أُسرة المحينات لها فروع في أكثر من قبيلة، أحدها في الحسنة من قبيلةِ عِنِزة، والأخر متفرقات، ولا أحد يعرف بالتأكيد من أيّ الأسر كانت تلك المرأة، ولو أن البعض يرجحون أن تكون من أسرة المحينات الشمرية.

أما نساء شيخ العشيرة فمعفيّات من الأعمال حتّى طعامهنّ يؤتى إليهن جاهزاً، ففي بيت الشيخ حشد من العبدات اللواتي يعملن على خدمة نسائه، ويقمن بجميع أعمال البيت من الداخل.

ولا تحمل زوجة الشيخ أو بناته قربة الماء على ظهرها، كما نراها في المسلسلات التي يزعم مؤلّفوها أنّها تمثّل حياة البداوة.

أما مقابلة ابنة الشيخ لمن تحبّ في مكان منفرد بمعزل عن عيون الرقباء ـ كما تصوّره تلك المسلسلات ـ فذلك ضرب من المستحيل، فكرم نسبها، ومكانة أبيها في العشيرة، وحرصها الشديد على شرفه من المساس، وما يسلّط عليها من أضواء، وكثرة الرقباء حولها من خدم وعبيد، كل هذه العوامل تبعدها عن مجرّد التفكير في مثل هذه الأُمور.

وإنّه لقبيح بنا أن نفتري على أُصولنا مثل هذه الصور المزيّفة الممسوخة لنمتّع بها أنظار الأعداء والساخرين.

وليس للبدوية أي حق في صداقها، فهو لوليّ أمرها، ولا تزوّد عند زفافها من بيت أهلها إلى بيت الزوجيّة بشيءٍ يُذكر، وثياب الزفاف بسيطة، وهي ثوبان أو ثلاثة، حسب إمكانات الزوج، وليس للمرأة البدوية حق الاعتراض على الزوج الذي يختاره لها وليّ أمرها، ومن النادر جداً أن تُستشار، والأقربون أولى بالزواج منها، فإن كان للفتاة ابن عمٍ فإنّه يستطيع منع أيّ رجل من خطبتها، حتى ولو كان ابن العم هذا متزوّجاً بأن يلجأ إلى (الجيرة) فيقول لمن يتقدّم لطلب يد ابنة عمه (ابنة عمي مجيورة)، ويكفي هذا لجعله يعدل عن هذا الأمر، ولا شكّ أن الجيرة في هذه المسألة من الأمور الظالمة والقاسية على المرأة، وقد تكون من مخلّفات الجاهلية التي عادت إلى الظهور بين القبائل بعد أن بَعُد الناس عن الإسلام، على أنه قد يحدث أحياناً بعض التجاوزات لهذه القاعدة، حين يكون ابن العم ضعيفاً، لا يستطيع منع زواج ابنة عمه بالقوة، بيْدَ أن هذا الأمر نادر جدّاً وله محاذيره التي لا تُحمد عقباها فقد يدفع الضعيف إلى ارتكاب الجريمة بتحريض الآخرين، وعلى كل حال فإن مبدأ الجيرة في هذه المسألة عرف سائد ومقبول عند البدو.

وزواج الشغار عادة معمول بها عندهم، ويسمّونه (البديلة)، وهو أن يزوج الرجل أخته أو ابنته أو من يكون

هو وليّ أمرها لرجلٍ آخر على أن يزوجه الثاني ابنته أو أخته دون صداق يدفع لكلٍّ منهما. ولا يخفى ما في هذا الزواج من جور، لأنه يجعل من المرأة سلعة تُدفع مقابل سلعة أُخرى. ويحرمها من حق الاختيار ومن حقها في الصداق، وأسوأ ما فيه أنّه إذا طلّق أحد الزوجين زوجته فإنّه يقوم باسترداد أخته أو ابنته من زوجها حتى ولو كان الأخيران متّفقيْن.

والمرأة البدوية عفيفة شريفة مرهفة الإحساس، والحياء عندها فطريٌّ اكتسبته من بيئة الصحراء الصافية النقيّة، والبدويات يتفاخرن بالخصال الحميدة، ولكن البدوية أُمِّيَّة جاهلة كجهل أمها وأبيها، ولو تهيّأ لها معرفة أمور دينها وشيءٌ من التعليم على ما فيها من مزايا خلقيّة رفيعة، لكانت في القمة على نساء العالم شرفاً وعفّة، وهي غالباً نحيلة الجسم دون سرف، ممشوقة القامة، رقيقة الحديث، هامسة الحوار، في صوتها نعومة ورقّة، فإذا حدّثت أختها حدّثتها بصوتٍ منخفض لا يسمعه الرجال القريبون منها لأن الفاصل بين مجلس النساء ومجلس الرجال حاجزٌ من الصوف أو الوبر يقسم بيت الشعر إلى شطرين، ويُسمع الصوت من خلاله بسهولة، والشاعر البدوي تعجبه هذه الرقّة في الصوت، لذلك يقول:

**قلبي يحبّ دقيقات الحسوس		هرج الخفى ما هو معارط بعارين**

والحسوس: الأصوات، والدقة بالصوت نعومته، والشاعر يفضّل هذه الدقّة ويتغنّى بها، ويكره الأصوات الخشنة ويصفها بأنها كأصوات البعارين، وهو يريدها أن تكون هامسة ذات صوت ناعم رقيق فيه غُنّة وليس خشناً كصوت البعير.

والبدوية جميلة بغير سرف، فهي كما خلقها الله، لم يُخالط جمالها زينة الحضارة وطراوتها تماماً كما قال المتنبي:

**ما أوجه الحضر المستحسنات بها		كأوجه البدويّات الرعابيبِ**

**حسن الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ		وفي البداوة حسنٌ غير مجلوبِ**

وتنقع البدويّة القرنفل والمحلب وتتعطّر بمائهما، وعندها من أدوات الزينة المرآة والمكحلة تحملهما في مخبأتها، وتهدي المكحلة إلى من تحبّ أحياناً، وتزيّن وجهها ومعصمها بالوشم الأزرق، وتزيّن البيضاءُ منهن صدرها ونهايتي ساقيها بالوشم أيضاً، وتضع البدوية الأقراط أو الحلق في أذنيها، وتزيّن جيدها بالقلائد والعقود من الخرز، وتخرم أنفها وتضع فيه (الزميّم) وتزيّن ساقيها بالحجول، هذا عند بعضهنّ، وقد لا يملك البعض الآخر شيئاً منه، ولا أخال في كلّ هذا شيء من التطرية، ولطبيعة الصحراء ومناخها أثر كبير في لون وجهها ويديها وقدميها.

البدوية شاعرة:

وقد تكون شاعرة أيضاً تعبّر عما يُخالج صدرها بشعرٍ وجدانيّ رقيق ويذخر تاريخ البدو بكثيرٍ من الشعر الجميل لشاعراتٍ بدويّاتٍ، ونعجز في هذا المقام عن إحصاء شاعرات البدو، ونذكر منهن على سبيل المثال الشاعرة مويضى.

كانت مويضى زوجة لجديع بن هذال، فطلّقها وتزوّجها غيره، ثم سمعت أنّه جريح في ساقه في إحدى المعارك وهو بعيدٌ عنها، فقالت:

يا راكب اللي حداها[1] أشهب اللال	**أيضاً ولا فوقة رديفٍ محنها[2]**
اقطع لها من غابة اللوز محجان[3]	**واستدنها باللايذة من ثفنها[4]**
أوّل نهارك خلها بس ذومال[5]	**وتالي النهار تطير الربخ عنها**
ملفاك بيت صويجي زين الأمثال	**لا جيت ابن هذال ثم فك عنها**
تلقى فطورك سحةٍ[6] عقب فنجال	**وحايل[7] ثمان سنين يندى صحنها**
يا ليت همك ينقسم بين الأنذال	**يا رب رِجل صويجي عف عنــها**

فهي تستفتح قصيدتها بكلمة: يا راكب، مخاطبة راكب الناقة الذي أوكلت إليه مهمة توصيل الرسالة إلى من كان شريكاً لحياتها في يومٍ من الأيام، والناقة التي يركبها حامل الرسالة من النوع السريع المطيع، تشبه السراب بسرعتها، فكما أن السراب لا يدركه طالبه، فهي أيضاً لا يدركها طالبها وكثيراً ما يستفتح شعراء البدو بهذه الكلمة: (يا راكب)، مثال:

يا راكباً من فوق حمرا ردوم ... أو ... يا راكباً من فوق مومي العلوقي.... وهكذا.

وليس فوق ناقتها هذه رديف لراكبها فيتعبها في سيرها ثمّ تحدّد له نوع العصا الذي يستعمله لحثّها على السير، فهي من شجر اللوز، وهذا النوع من العصي يتيمّن به البدو رجالاً وركباناً، ثم تعلّمه كيف يستعمل هذه العصا، وأين هو المكان الذي يغري ناقته بالسير.. إنّه ثفنة الناقة، وهو مقدمة المفصل ما

---

[1] ساقها: وهو الحادي.

[2] أتعبها.

[3] هي العصا التي ينتهي رأسها بما يشبه الكلاّب.

[4] مقدمة المفصل ما بين الفخذ والساق.

[5] نوع من ركض الإبل.

[6] تمرة.

[7] ليس في بطنها ولا يتلوها ولد.

بين الفخذ والساق، ثم تحدّد له نوع السير؛ ففي أول النهار سيرهُ (ذومال) وهو نوعٌ من ركض الإبل يشبه الخبب عند الخيل، ثم إنه آخر النهار سيذهب (الربخ) عن ناقته، والربخ هو البطنة والسمنة التي تكتسبها الإبل والخيل عندما تُترك مدة طويلة دون أن يُجرى لها تمارين في الركض والسير.

ثمّ تقول له أين يذهب، وتحدّد له نوع الهدف وأين هو، إنّه بيت صاحبها القديم جديع بن هذال، وهناك أمام بيت الشعر الكبير ينيخ ذلوله، ويفكّ عنها القتب بعد هذا السفر الطويل، ثم يتناول فطوره من الرطب الجني بعد أن يحتسي فنجاناً من القهوة، وإذا كان وقت الغداء، فإن غداءه سيكون ذبيحة سمينة يقطر صحنها دهناً، لأنها تعرف مدى إكرام ابن هذيل للضيف، ولطالما أتعبها فيما مضى من الأيام إعداد مثل هذه الولائم عنده، كل هذا من أجل أن ينقل إلى صاحبها وزوجها القديم مشاعرها وودّها وتمنّياتها له بالشفاء العاجل، ذلك ليعلم أنها لم تنس العشرة والصحبة وأنّ حبل المودّة بينهما لم ينقطع بعد.

ومن شاعرات البدو: الدقيس أو (الدكيس) من عشيرة الصليب، وقد أحبّت ابن عمٍ لها، فقالت:

أنا ذبحني واحد من هل القور[1] هو عشقتي[2] من ناقلين الدفاقه[3]

عنق الظليم[4] ليا تذير[5] من الخور[6] دم القرى ينقط على عظم ساقه

هو صار لي عوقٍ[7] وأنا صرت عاثور[8] الكلّ منّا صار حبه شفاقه[9]

يلعب بقلبي لعبة الغوش[10] بالكور[11] وإلا العصا يومي بسير العلاقه[12]

من لا يستشيرك لا تراويه[13] بالشور ومن لا يودّك عز عينك فراقه

---

[1] القور: الأرض ذات المرتفعات البسيطة الملطّخة بالبياض.

[2] عشقتي: حبيبي.

[3] الدفاقة: البنادق.

[4] الظليم: ذكر النعام.

[5] تذير: نفر وابتعد.

[6] الخور: الإبل.

[7] عوق: أعاق.

[8] عاثور: حجر عثرة.

[9] شفاقة: حسرة في القلب.

[10] الغوش: الصبية الصغار.

[11] الكور: الكرة.

[12] العلاقة: سير من الجلد تعلق بها العصا من مقبضها.

[13] تراويه: لا تبدي له رأياً ولا نصيحة.

وقالت إحداهنّ:

يا ونتي ونة ثلاثٍ عجافِ	**على جلود عيالهن هل مبوّاه**
حنن حنين وبدلن باهترافِ	**لا ما غداً مثل المقوط المطواه**
عمي يا وطبان شفي خلافي	**شفي غلامٍ تقطر السمن يمناه**
شفي خلف زبن العواد المقافي	**زبن الهليب ليرتخي سير علباه**
بالقيظ يهفوفٍ وبالبرد دافي	**ولا هو هلباجي عريضٍ محقاه**
عز الجمل ينقل جهاز السنافي	**ما هو حلال جدود حوشة بيمناه**

والعجاف: الضعيفات الهزيلات، وهنّ عكس السمان. والضمير عائد للنياق. قال الله تعالى في كتابه الكريم على لسان ملك مصر لما قصّ رؤياه على الملأ من قومه: ﴿**إنّي أرى سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عِجافٌ**﴾[1].

ومبوّاه: أي صنعت ليكون الواحد منها بواً، والبو هو جلد ولد الناقة الصغير إذا سُلخ عنه بعد ذبحه وحُشِي بالقش أو هشيم الأرض فتحسبه الناقة ولدها وترامه، فإذا أرادوا حلبها قرّبوا إليها هذا البو ومسحوا ضرعها، فتقف عليه وتدرّ اللبن، وقد اشتهرت هذه النوق التي فقدت صغارها بشدة الحنين، وحنينها يشبه إلى حدٍّ بعيد الآهات التي تطلقها الأمّ الثكلى عند ندبها ونواها على ولدها الغالي وحنين النوق أبلغ وأشدّ أثراً في النفس، ولا يدركه إلاّ من استمع إليها، وهي تُطلق ذلك الحنين المؤثر الطويل في الهزيع الأخير من الليل وهي في مباركها، والونة التي تعنيها الشاعرة هي (الآه) التي تطلقها على فقدها من تحب...

وشبّهت آهاتها هذه وأنينها بحنين النوق التي فقدت أبناءها وقولها في البيت الثاني (بدلن باهتراف) أي ركضن بعد الحنين حتى تعبن فهزلن حتى أصبحن (كالمقوط المطواة)، والمقوط: جمع: جمع مقط، وهو ما يشدّ الرجل أو المرأة وسطه به من خيطٍ أو حبل أو خرقة بالية من ثوبٍ عتيق ومطواة: مطويّة.

وهكذا أصبحت نياق الشاعرة التي شبّهت نفسها بهنّ كالخيوط أو الحبال المطويّة لشدّة هزالهنّ وضعفهنّ.

ثمّ تخاطب في البيت الثالث عمّها وطبان وتسرُّ إليه بما في قلبها شاكيةً إليه وجدها على من تحبّ، فتنعته بأنه غلام تدفق السمن يمناه، وهي كناية عن الكرم، فالكريم هو من يصبّ السمن بسخاء على طعامه

[1] سورة يوسف – الآية 43.

عند قدوم الأضياف، ثمّ تبوح له في البيت الرابع عن اسم من تحبّ:

شفي خلف زبن العواد المقافي زبن الهليب ليرتخي سير علباه

وشفي: بغيتي، والعواد: كبيرات السن من الخيل، المقافي التي أديرت بفرسانها منهزمة طلباً للنجاة بفعل سيف خلف بغية الشاعرة، والهليب من الخيل: هو الجواد الذي يبقى في مؤخّرة الخيل إذا أغارت أو أدبرت، فإذا أدرك صاحبه الطلب من الأعداء وأسروه، عمدوا إلى الجواد، فاجتزُّوا خصلة من شعر ذيله يسمونها الهلب وهم حين يدعون على خيلهم يقولون (يا مال الهلب) أي يتمنون لها أن يستحوذ عليها الأعداء، فيقطعون من شعر ذيلها، وهو دعاء مَن يملّ صحبة فرسه من البدو، وقد حاز خلف جميع المزايا الحميدة من كرم وشجاعة وخفّة ظلّ ورشاقة جسم، فهو إلى جانب كرمه وشجاعته:

بالقيظ يهفوفٍ وبالبرد دافي ولا هو هلباجي عريضٍ محقاه

واليهفوف: ريح الصيف الباردة، والهلباجي: ضخم الجثة، كثير اللحم، والمحقا هو نطاق من جلد الغزال بعرض الكف، يشد الرجل به وسطه تحت الثياب ليبقى رشيقاً ضامراً ممشوق القوام.

هذا هو صاحبها خلف: كريم، شجاع، بارد صيفاً دافئ شتاء، خفيف الظل، ليس بالضخم ولا السمين، إنها صورة جميلة وكناية بليغة ولكنها غريبة، وإلاّ فأيّ مخلوق من البشر فيه هذه الميزة الخلقية، من البرودة صيفاً، والدفء شتاءً؟ ثم تتمنى له في البيت الأخير جملاً يحمل متاعه وثياب عرسه وأن يكون هذا الجمل من كسبه هو، لم يرثه عن آبائه وأجداده، بل جاء به من تعب يمين وعرق جبين:

عز الجمل ينقل جهاز السنافي ما هو حلال جدود حوشه بيمناه

السنافي: هو حسن الخلق وطيب المعشر.

والفتاة البدوية لا تزجر من يغازلها حتى ولو كانت غير راغبة فيه، بل تردّه ردّاً جميلاً فيه من اللباقة والطرافة أحياناً ما لا يخطر على بال، وما ذلك إلاّ تأدّباً منها ورقّة وتجنّباً لفحشاء القول، وفيما يلي واحد من هذه الردود:

انسل الشيخ الوسيم من بيته ليلاً، وطرق خيمة إحداهن مستغلاً فرصة غياب أهلها، والمخيم يغرق في نوم عميق، ولما أيقظها رحبت به أجمل ترحيب وبسطت له أحسن فراش عندها وأجلسته عليه، وظنّ صاحبنا أنه سينال منها ما يريد، ولكن سرعان ما خاب ظنه حين عمدت المرأة إلى كومة من الحطب فوضعتها على النار وأضرمتها، ولما سألها عما تفعل قالت: كيف وقد زارنا شيخنا الغالي الجليل، فو الله لأولمنَّ لك ولأدعون أهل الحي فيأكلون الطعام على شرفك، وقبل أن تتم كلامها اندفع الرجل راكضاً

متوارياً وسط الظلام مخافة أن يكشفه ضوء النار لأهل الحي فيفضحه، وما كان لقوةٍ في العشيرة ـ مهما بلغت ـ أن تخرجه على ذلك الشكل المضحك الفريد لولا حكمة المرأة ودهاؤها.

الهوى العذري عند البدو:

وإذا أحبّت البدوية، فإنّ حبّها عفيف شريف في أغلبه، والعفّة عندها سجيّة لا صناعة أو تكلّف، يساعدها على ذلك ترفّع من تحبّ عن رخيص الطلب، لأنّها غالباً ما تحسن الاختيار، وهي على بساطتها حريصة على شرفها، فلا يستطيع صاحب الحيلة الحاذق الإيقاع بها.

وكثيرة هي قصص الهوى العذريّ التي تُروى عن محبّين من البدو ماتوا ولم يحصلوا على قبلة من حبيباتهم، والرواة من البدو يروون قصصاً لأصحاب هوى عذريّين منهم، على نمط ما قرأناه عن قيس بن الملوح وصاحب ليلى الأخيليّة وغيرهم، ونورد فيما يلي واحدة منها:

أحبّ شاب فتاةً من عشيرته، وبادلته هي الحب نفسه، وكان حبّاً شريفاً عفيفاً خالياً من الدنس، وتناقلت قصة حبهما الألسن، ولما تقدّم الشاب لخطبة حبيبته رفض أبوها الطلب وهذه عادة متّبعة عندهم، إذا اكتشفوا قصة الحب بين اثنين، وإمعاناً من والد الفتاة بالرفض نزح إلى عشيرة أُخرى وساءت حال الشاب العاشق مع مرور الأيام وهزل جسمه، وأخيراً قرّر البحث عن حبيبته التي لا يدري في أرض أصبحت... وبعد أيّام طوال من البحث المتعب والجهد المضني الطويل وجد أهل حبيبته في عشيرة أُخرى وبجوار أحد رؤساء القوم فيها، فلم يُرِهم نفسه وحلَّ ضيفاً على جارهم، ولما هجع الناس، ونامت الأعين، انسلَّ إلى بيت حبيبته، وأحسّ به صاحب البيت، فتوشّح سيفه واقتفى أثره خوفاً منه على جاره، ولما رآه يتّجه نحو ركن النساء، عرف أنّه صاحب هوى، فجلس خلف الرواق يسترقّ السمع، فكان بين ضيفه وابنة جاره الحوار التالي:

قالت الفتاة للشاب: كيف حالك بعدنا؟

قال: ما زلت عليلاً منذ رحيلكم عنّا.

قالت: أما التمست لعلّتك دواءً؟

قال: دواءها قبلة منك.

قالت: لا والله لن تنالها إلاَّ بما أحلّ الله.

قال: ويحك إذاً سأموت.

قالت: وإن يكن ذلك فلن تنالها بحرام.

وهنا انكفأ الرجل آيباً إلى أهله، فالمسألة حوار بين عاشقين عفيفين، ولا خوف على جاره كما كان يظنّ.

وأخذت شمس اليوم التالي ترتفع رويداً رويداً في السماء، بينما كان الرجل يعدّ القهوة لضيفه الذي لا يزال ساكناً تحت الغطاء في الزاوية البعيدة من البيت، وعلى صوت المهباج (النجر) توافد رجال الحي ليحتسوا قهوة الصباح، وكلّما دخل واحدٌ منهم نظر باستغرابٍ إلى الضيف النائم، فالبدوي نادراً ما ينام حتى الضحى وهو في أهله، فكيف إذا كان ضيفاً.

تحلّق الرجال وسط الربعة حول النار ودلال القهوة، منتعشين بعبقها الفائح من بخارها المتصاعد بينهم.

انتهى الرجل من إعداد القهوة، وقام يديرها على الحضور، وهو يردّ ببرود على أسئلة الفضوليّين منهم عن سبب نوم ضيفه حتى هذه الساعة.

أصبح الآن الوقت ما يسمونه عندهم بـ(الضحى العالي) وهو منتصف الوقت بين الظهيرة وشروق الشمس، ورأى صاحب البيت أن من الضرورة إيقاظ ضيفه، فناداه ولكنه لم يجب، ولما اقترب منه وحرّكه وجده قد فارق الحياة.

كان المنظر ذا شجون بالنسبة للرجل، وتذكّر ما دار بين ضيفه وصاحبته من حوار، وقوله لها: (ويحك إذاً سأموت) فقال محدّثاً نفسه: ويحها قتلت ضيفي، فهو وإن كان حريصاً على حرمة جاره وشرفه، فإنه حريصٌ على حياة ضيفه أيضاً، فحرمةُ الضيف لا تقلّ عن حرمة الجار عندهم، وفكّر بطريقةٍ يختبر فيها صدق حبّ الفتاة لصاحبها، فنادى نساءه وأمرهنّ أن ينحن على ضيفهنّ فاجتمع أهل الحيّ كباراً وصغاراً على صوت النواح، وتحلّقوا حول جثّة الرجل والكلُّ يسأل عن سبب موته.

كان واحد فقط بين ذلك الحشد من الناس يعرف السبب، وبينما كان الكلُّ ينظرون بفضولٍ إلى الضيف المسجّى تحت الغطاء، ارتفع صوت صاحب البيت قائلاً: افسحوا لها الطريق، وعندما استداروا ليروا من هذه التي سيفسحون لها الطريق، أدهشتهم رؤية ابنة جارهم الغريب، وقد تزيّنت وتطيّبت وارتدت أجمل ثيابها، فبدت وكأنّها هيّأت نفسها للحظة زفافها، تتقدّم بخطى وئيدة وقورة، وألقت بنفسها على جثّة الشاب المغطاة وهنا شاهد الحضور تصرّفاً غريباً من قريبهم صاحب البيت، إذ امتشق سيفه ووقف متحفّزاً إلى جانب الفتاة والشاب.

أرسلت الفتاة نحيباً حزيناً طويلاً، ثم صمتت، فلمّا حرّكوها وجدوها هي الأخرى قد فارقت الحياة عندها أغمد الرجل سيفه وقال: والله لو لم تمت لقتلتُها، لأنها هي التي قتلت ضيفي، وعلى مرتفع صغير قريب

من الخيام، حفروا قبرين متجاورين واروا في أحدهما جثة الشاب وفي الآخر جثة الفتاة.

ولا نغالي فنقول إنّ الحبّ عندهم كلّه نقيٌّ خالٍ من العيوب، ولكنّه في مجمله يغلب عليه طابع الحياء والترفّع، والبدويّة حريصة على شرف أهلها وسمعتهم، وأفراد العشيرة جميعاً يعرفون بعضهم ويعرفون أنسابهم، ولذلك فهي لا تريد أن يُقال عنها فعلت ابنة فلان كذا، مما يسيء إلى أهلها أو يلحق بهم العار، وبما أن عقوبة الزنا عندهم القتل، فإنّه من النادر جدّاً الوقوع في مثل هذه الخطيئة القاتلة.

مركب البدوية في الرحيل (الظعن):

وللمرأة ـ ربّة البيت ـ عندهم بعيرٌ خاص، تركبه وتحمل عليه رحلها، وتضع فوق الرحل الهودج (العبيط) أو الحواية، حيث تستقرّ البدوية بارتياح فوق بعيرها، وهو يتهادى بخطاه الوئيدة وسط الظعن في أثناء الرحيل، ويتألّف الهودج (العبيط) أو (القن) ـ كما يسمونه ـ من أربع قوائم خشبيّة من الأعلى والأسفل والوسط، وتنتهي من الأسفل بقاعدة خشبيّة تثبت على ظهر البعير فوق الرحل وتثبت بالعارضتين الأماميّة والخلفيّة من الجانبين قوس من الخشب تتّجه إلى الأسفل وترتفع من القاعدة حتّى منتصف القائمتين، وتسمى (الحنية)، وتستر المرأة (الحنيتان) ببساط أو سفع ليواريها داخل الهودج، وفي أركان الهودج (العبيط) تحمل معها أطفالها... وهو حيّز ضيّقٌ يتّسع بصعوبة لشخصين، وفي هذا الهودج ركب امرؤ القيس مع حبيبته، يوم عقر للعذارى مطيّته، وبدلاً من أن يجلس كلّ واحدٍ منهما بشقٍ من شفيّ الهودج (العبيط) ليتوازن الرحل، تجاوز الفاجر الضليل شقّه إلى شقِ صاحبته، مما جعل الهودج يميل بهما معاً، فيعقر البعير، وتصرخ صاحبته قائلة: (ويحك، انزل عقرت بعيري)، والشاعر ينقل لنا صورة حيّة من ذلك الموكب الماجن العجيب، فيقول على لسان صاحبته:

قالت وقد مال العبيط بنا معاً   عقرتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانْزِلِ

وبدلاً من أن ينْزل، راوغ ولجأ إلى الحيدة في الإجابة، فقال:

فقلت لها سيري وأرخي زمامه   ولا تمنعيني من جناك المعللِ

أما الحواية: فهي سفع أو بساط أو لحاف يُدرج ويُجعل على شكل دائرة صغيرة تثبّت على ظهر البعير فوق الرحل، وداخل هذه الدائرة تجلس المرأة وإلى جانبها أطفالها، وهناك: (المقصر)، وهو يشبه الهودج ولكنه أكبر حجماً.

ويستعمل نساء الشيخ (القتب) أو (الكتب) وهو أكبر حجماً من الهودج والمقصر، وتزيّن أجنابه بالمرايا

وريش النعام، والأهداب الملوّنة، أما الرحل نفسه فيتألّف من عدلين كبيرتين من الوبر أو الصوف الملوّن يسمّيان (المكافيت) جمع (مكفته) تضع فيهما المرأة فرشها ولحفها وملابسها وملابس زوجها وأطفالها، وغيرها من الأشياء الأخرى الخاصّة بها.

بيت الشَّعر:

بيت الشعر هو مسكن البدوي الذي يحتوي زوجته وأولاده، خفيف الحمل، سهل البناء، يُهدم بدقائق ويُنصب بمثلها، إذا ضاقت على صاحبه الأرض اقتلع أوتاده بسهولة ورحل، وخفّة وزنه وسهولة حمله وبنائه، من العوامل التي ساعدت ابن البادية على الاحتفاظ بمزيّة عدم قبول الحيف، فلا ينْزل إلا في أرض يُمارس فيها حرّيّته، ويحفظ فيها كرامته، فإذا رأى من أحدٍ ما يكره، ولم يكن قادراً على الردّ، أسرع إلى بيته فطواه واحتمله على بعيره، وترك أرض الذّلّ ومَن فيها، وفي هذا البيت ينام البدويُّ ويأكل ويستقبل الأضياف والزوّار.

ويقسم بيت الشَّعر إلى قسمين، يفصل بينهما ستار من نسيج الصوف أو الوبر أو كليهما معاً يسمّى (الساحة) أو القاطع، فالقسم الأول من البيت لجلوس الرجال، وفيه يستقبل البدويُّ زوَّاره وأضيافه ويقدم فيه الطعام، وينام فيه الأضياف، ويسمى (الربعة)، وفي الربعة توجد دلال القهوة والمحمصة والنجر (الجرن) وتحفر في وسط الربعة حفرة مستطيلة توقد فيها النار، وتوضع فيها الدلال، ويوضع بالقرب منها النجر والمحمصة، ويوضع ناتج الحفر من التراب على شكل كومة شرق الحفرة يسمّونها (النثيلة) يتّكئون عليها، وحول هذه الحفرة يجلس الرجال يحتسون القهوة، ويقضون أوقات سهرهم وسمرهم، وليس بالضرورة وجود دلال القهوة في كل بيت، وإنّما حسب استطاعة صاحب البيت وحالته الماديّة، على أن كرام القوم لا بدَّ لهم من اقتناء أدوات القهوة حتّى ولو كانوا فقراء، فالكريم لا غنى له عن القهوة، لأنها من أولويّات إكرام الضيف عندهم.

ويسهر الرجال في الربعة ليلاً على ضوء القمر أو على ضوء النار التي توقد بالحطب وعند إقامة الولائم يأكل الرجال الطعام في الربعة بأيديهم دون ملاعق، ولكنهم يغسلونها، وأحياناً يغسلون اليد اليمنى فقط، فإذا انتهوا من طعامهم عمدوا إلى الطرف الخارجي من الربعة الذي يسمّونه (الرفّة) فمسحوا فيه أيديهم من أثر الطعام، ويفتخر كرام البدو بكثرة الدهن على رففهم، لأنه يدلّ على كثرة الولائم وتقديم الطعام، وجاءت تسمية الربعة من كون الرجال يجلسون فيها ويتربّعون.

ويسمى القسم الآخر من بيت الشعر (المحرم)، وفيه يجلس النساء وتنام الأسرة وتكدّس المؤونة ويحفظ أثاث البيت ويُعَدُّ الطعام، ويغتسل أهل البيت، ولا يدخل المحرم إلاَّ المحارم من الرجال والأقارب الأدنين.

أنواع بيت الشَّعر:

ليس ثمة أجمل منظراً ولا آنس مجلساً من بيت الشَّعر في أيام الربيع الصافية، وفي ليالي الصيف المقمرة، لأنه مفتوح للشمس والهواء من جميع أركانه، لا سيّما إذا شدَّت أطنابه بعناية، وارتفع من كلّ جوانبه على رؤوس الأعمدة في روضة غنّاء لا يؤذيها دخان معمل ولا يعكّرها بخار آلة.

وكم تغنّى الشعراء ببيت الشَّعر وجمال وطيب مجلسه، قال المعري:

الحسن يظهر في بيتين رونقه بيتٍ من الشِّعر أو بيتٍ من الشَّعْر

ولبيوت الشعر أنواع من حيث حجمها، فمنها المسوبع والمخومس والمروبع والمثولث والمقورن والقطبة والخربوش وهو أصغرها حجماً.

فالمسوبع: هو ما ارتفع على سبعة أعمدة في الوسط ما عدا عمودي الطرفين، ولا يبنيه عادةً إلا رئيس العشيرة أو ذوي الثروة من أقاربه، وهذه الأخيرة حالة نادرة.

أما المخومس: فهو ما رُفع على خمسة أعمدة في الوسط ما عدا الطرفين.

وهكذا: المروبع ما رُفع على أربعة، والمثولث ما رُفع على ثلاثة، والمقورن ما رُفع على اثنين، والقطبة والخربوش ما رُفع على واحد.

أجزاء بيت الشَّعر:

يتألف بيت الشعر من البيت نفسه الذي يُقام على الأعمدة، ومن الرواق الذي يستر مؤخّرة البيت، وهو متحرك يُوصَل مع البيت بوساطة الأخلة، ويُدار حسب اتجاه الريح، ويتألّف البيت نفسه من شطرين: شطر أمامي وشطر خلفي ويتألّف كلّ شطر من عدد من قطع نسيج الشعر أو الصوف أو الوبر يتراوح عددها ما بين أربع إلى خمس قطع، وتختلف أطوالها بحسب طول بيت الشعر، ويبلغ عرض الواحدة منها ما بين (50-60) سم، وما بين الشطرين يرتفع عمودٌ في الوسط بشكل قائم يسمى الواسط، وهو نقطة الارتكاز الرئيسة في البيت، وتستقرّ على النهاية العليا للواسط عصا معترضة بطول الذراع يستند عليها البيت تسمى القبص، وتقي البيت من الاحتكاك برأس الواسط قطعةٌ من نسيج الصوف والشعر تسمى الطريقة، ويبلغ عرضها نحر عشرين سنتيمتراً، وتمتدّ عرضانيّاً من مؤخّرة البيت حتّى مقدّمته، وتنتهي من كلّ طرف بعصا قصيرة تزيد عن عرضها قليلاً تثبّت بها بإحكام، وفي هذه العصا يثبت الخرب، والخرب من الحديد أو الخشب، وهو على شكل نعل فرس مفرّغ من جهة الداخل وإليه يُشَدّ الحبل، وفي النهاية البعيدة للحبل يُربط الوتد والحبل من الكتان أو الشعر أو الصوف أو الوبر، ويختلف طوله باختلاف حجم البيت،

فيزداد طرداً بازدياد حجمه ويسمى (الطنب)، فالبيوت الكبيرة تكون حبالها طويلة، والصغيرة حبالها أقصر، أما الوتد فهو من الحديد أو الخشب يُدَقّ في الأرض بوساطة الميجنة ويُشدّ إليه الحبل والميجنة من الحديد إذا كانت الأوتاد حديديّة، ومن الخشب إذا كانت الأوتاد خشبية، ويبلغ وزن الحديديّة منها (2-3)كغ ويُسمى الحبل عند اتّصاله بالخرب من الجهة الأماميّة للبيت (المقدم) ويُسمى من الجهة الخلفية (الميخر)، وكذلك يُسمى العمود الذي يُرفع به البيت من النهاية الأماميّة للطريقة (المقدم)، ويُسمى العمود الذي تُرفع فيه النهاية الخلفيّة للطريقة (الميخر)، ويُسمى كل من نهايتي البيت الطويلتين من الطرفين في الوسط (الكاسر)، والنهايتين الأخيرتين المقابلتين للكاسر من الأمام والخلف (الطارفتين)، فتُسمى الأماميّة (الطارفة الأماميّة)، والخلفيّة (الطارفة الخلفيّة)، ويُعدُّ ارتفاع الكاسر وعلوّه من مفاخر كرام البدو ورؤسائهم، قال الشيخ رشيد بن سمير في قصيدةٍ موجّهة إلى محمّد الملحم:

يلفن على محمّد زبن النواميس وبالعون زبن الوانيه و القحوم

فنجال بن ولازمٍ يقرط الكيس وعمال كسره للطراريش يومي

ويقرط الكيس: يرميه، وهو كيس التبغ الذي لا يقتنيه إلاّ كرام القوم، لأنّهم يقدّمون لضيوفهم التبغ مع القهوة إذا كانوا ممن يشربونه (يتعاطونه) والطراريش جمع طارش وهو المسافر، وقد شبَّه رشيد كاسر محمّداً برجلٍ بيده علمٌ يرفعه عالياً ليراه من بعيدٍ الطراش والضالّون عن الطريق، فيميلون إليه ليجدوا القهوة والطعام والجود والكرم.

أما النهايتان اللتان تتدلّيان من الكاسر أو (الكسر) إلى الأرض واللتان تستران جانبي البيت من نهايتيه الطوليّتين، فتُسمى الواحدة منهما (الرفة)، وتكون الرفة إمّا متصلة بنهاية بيت الشعر، وتكون جزءاً منه، وهي بهذه الحالة امتداد لنهايات القطع النسيجية التي يتألف منها بيت الشعر أو تكون منفصلة وتوصل بنهاية البيت عند الإقامة وتُفصل عند الرحيل، وبهذه الرفة يمسح البدو أيديهم بعد أن ينتهوا من الطعام.

الرواق: وتُسدّ به الناحية من البيت التي يأتي من وجهتها الريح، وهو جزء متحرّك يوصل بالبيت بمجموعة من القضبان الحديديّة الرفيعة لا يتجاوز طول الواحد منها الشبر تسمى: الأخلة ومفردها خلال ويجمع الأخلة إلى بعضها خيطٌ طويل من الصوف أو الشعر أو الوبر يسمى الجرير، ويُشدّ الرواق عرضانيّاً تحت كل ميخر من البيت بقطعة نسيج لا يتجاوز عرضها الشبر تُربط بالخرب الخلفي بخيط يُلفّ على الطريقة مكان اتّصالها بالخرب، وتثبت من الأسفل في الأرض بوتد يُدقّ لتثبيتها، وتُسمى الشبّاح.

محتويات بيت الشعر من الداخل:

يتألف بيت الشعر من الداخل: من العدول والحدائج، (جمع حداجة) وأوعية الطبخ، وقرب الماء، ومخمر العجين والصاج، والرحى، والروايا ومفردها راوية، وتتألف كل راوية من جلد بعير كامل، بعد أن يعالج بالدباغة، ثم يخاط، وتجعل فتحة الراوية من مكان سنامه.

وتتألف العدل من قطعتين من الصوف أو الوبر، تخاطان إلى بعضهما بإحكام بطريقة العصام، ويستعمل من يستخدمها مخيطين، وهو بهذه الطريقة يعصم العدل، ويحمل البعير على ظهره عدلين يضع فيهما البدوي زاده من البر أو التمر ومن أجل أن يشبك العدلان ببعضهما على ظهر البعير، يربط في الطرفين العلويين لكل عدل عروتين من المرس أو الصوف أو الوبر، تثبت العروة إلى العدل بحجر صغير مستدير بحجم البيضة يولج في الطرف الأعلى من العدل قبل نهايتها يشير واحد، ويلف حوله بإحكام طرفا العروة المتدليان، ويسمى هذا الحجر (القلوة) وفي نهاية أحد هذين الطرفين المتدليين من العروة تربط عصا رفيعة لا يتجاوز طولها الشبر تسمى هذين الطرفين المتدلين من العروة تربط عصا رفيعة لا يتجاوز طولها الشبر تسمى (الشظاظ)، ويشبك الشظاظ عروتي العدلين المتقابلتين على ظهر البعير بإدخاله بينهما، ولذلك طرق ثلاث، هي: بسالم، بثلاث، بأربع، ويتوقف ذلك على ثقل الحمل أو خفته.

أما الحداجة، فتتألف من الصوف أو الوبر، وتحشى بالتبن أو الشيح أو خشيم الأرض، وتطوى على شكل نعل فرس، ويجمع طرفيها إلى بعضهما من الأمام قنيب من الخشب يسمى: رأس الحداجة وتقي الحداجة ظهر البعير من الرحل.

وتُصَفُّ العدول إلى جانب بعضها داخل البيت، بين الربعة والمحرم، على رصيف من الحجارة وتوضع فوق العدول الفرش واللحف وبعض أثاث البيت، وتسمى هذه المجموعة من العدول والفرش وغيرها: النضيدة، وبين النضيدة والربعة تعلق الساحة لتفصل مجلس الرجال عن مجلس النساء، وتتألف الساحة من ثلاث أو أربع قطع من نسيج الصوف أو الوبر الملون، ويترك في الساحة فراغات صغيرة تسمى ثقوب الساحة، ويستطيع النساء أن يرين من خلال هذه الثقوب الرجال في المجلس دون أن يرونهن، وهذا كله في الجزء من البيت المسمى المحرم.

ويوجد في الربعة دلال القهوة، والمحمصة والنجر وجراب القهوة وبعض البسط أو قطع من نسيج الوبر والصوف، تفرش على الأرض ليجلس عليها الرجال، كذلك يوجد بعض الوسائد والحدائج والشداد

ليتكئوا عليها. ويعلق من يحسن العزف منهم على الربابة ربابته في أعلى العمود في الربعة، وهذا الأثاث في الربعة ليس من الضرورة أن يوجد في كل بيت، ففي البيوت الصغيرة والأسر الفقيرة لا يوجد مثل هذا.

الخيل عند البدو:

تعدّ الخيل القوة الرئيسة في القتال عند البدو، ويعدّ الفرسان على ظهور الخيل القوة الضاربة في الحروب والغزوات عندهم.

قال الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[1]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة)).

وللخيل عند البدو أنساب معروفة بها، وتختلف أثمانها باختلاف أنسابها، فمنها: العبية والصقلاوية والحمدانية سمرى والحمدانية وكروش وأم جنوب والسبيلية والخرساء والدهماء والنواقية، والمعتقية والهدباء.. الخ.

وقد أتت هذه التسميات من أسماء المقتنين الأوائل لهذه الأنواع من الخيل، فالحمدانية مثلاً، أصلها من خيول بني حمدان مؤسسي الدولة الحمدانية في حلب واختص باقتناء الهدباء عشيرة الفواعرة، وعرفت عندهم، ويقال لخيلهم: الهدب (جمع هدباء)، وتنسب الدهماء إلى خيل عامر بن الطفيل، ويقال لها دهماء عامر.

ونظم فرسان البدو وشعراؤهم القصائد بخيلهم أو بجياد الخيل التي رأوها وعشقوها أو سمعوا عنها.

قال دبجان الرفاشي من فرسان الحسنة مبدياً رغبته في اقتناء فرس شقراء عند رجل يقال له: الأقيرب، وأنه سيدفع ثمناً لها كرام ذوده وقد أقسم على ذلك لو أن صاحبها قبل البيع، قال:

شقرا الأقيرب يا مهنا زهت[2] لي — والله لسوق[3] الذود لو فيهن جراس

تصلح لجدوع[4] والله لمثلي — قرم يعنيها على كل متراس[5]

ولماذا يريدها دبجان؟ أنه يريدها من أجل أن:

أبغي عليها ليطريح التفتت لي — أقول له لعينك لا تقطع الياس

أردها يا خوي عتلٍ وفتلِ — لو هي على الأروام قطاعة الرأس

---

[1] سورة الأنفال – الآية 60.

[2] زهت لي: أعجبتني.

[3] أسوق: أدفع الثمن.

[4] تصلح لجدوع: تليق به.

[5] متراس: مكان دفاع العدو.

لهذه الغاية يريد دبجان هذه الفرس الشقراء، ولمثل هذا الموقف يدفع خيار نياقه وكرام ذوده، إن التاريخ يعيد نفسه، والفارس العربي هو هو.

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه لما سمع أحد المسلمين في معركة اليرموك يقول: ما أكثر الروم وما أقل المسلمين، عندها قال سيف الله: بل ما أقل الروم وما أكثر المسلمين والله لوددت أن فرسي الشقراء معافاة وأنهم ضعف ذلك.

وقال أحد فرسان البدو في فرسه كروش لما طلبها منه أحد رجال الدولة في زمانه:

يا بيك أنا لكروش ما أهدي ولا أبيع قبلك طلبها فيصلٍ وابن هادي

ما طول راسي بالرياض الضعاضيع للحشر ما يفارق سواده سوادي

وقال غيره في العبية:

يا روح ما مضيتها بالتجاير وليا تجرت أمنى بكثير الخسائر

القلب وجعان وحزين الضماير على طراد فوق بنت العبية

الرب يعطيني عليها مرادي قبل اللحد ومصلفحات الهوادي

لا بد لعمرٍ من الموت غادي لو سكروا صندوق شيخٍ عليه

وقال جديع بن قبلان في فرسه الصفراء:

أقود صفراء والظعن مردف لي من فوق حمرا مثل عنق الغزال

ويفاخر فرسان البدو بخيلهم وغلاء أثمانها، قال الشيخ رشيد بن سمير مفاخراً بفرسه وخيل عشيرته بأن سرعتها كسرعة البرق:

حنا على اللي كنهن لمعة البرق وانتم على اللي مثل روس المهابيشْ

حنا ثمنهن نطرقه بالعصا طرق وأنتم ثمنهن خمسمية وتناويشْ

ويعني بقوله (حنا ثمنهن نطرقه بالعصا طرق) كناية عن كثرة عدد الإبل التي يدفعونها ثمناً للفرس من خيلهم، وهذا كناية عن أصالتها وسرعتها.

وامتدح شعراء البدو جياد الخيل وغالوا في مدحها، وجعلوا الحصول عليها أغلى أمانيهم.

قال الوضيحي في حضرة الجربا متمنياً على نفسه جواداً سريعاً ليغزو عليه مع قومه قبيلة عنِزة، وتمنى لذلك فرساً صفراء، ووضع لها أوصافاً هي أوصاف أجود الخل وأكرمها، وتمنى أن يقابل ويناجز على ظهر هذا الجواد فرسان عنِزة ومنهم: مجول والدريعي، فقال:

نبغي نتمنى والمنى بوبهاني[1]	**مثل الهوى مع كل ريع**[2] **يضيع**
نبغي نتمنى أن كانها بالتماني	**صفرا**[3] **صهات**[4] **اللون قبا صنيعي**[5]
توحي ضريس[6] **رحيها**[7] **بالعناني**	**ضريس هرشٍ**[8] **حادى**[9] **له قطيع**
وابغي لياحق الطلب[10] **له غواني**[11]	**والخيل معها مجولٍ والدريعي**[12]
ثم أضربه لعين صافي الثماني[13]	**من المعرقة**[14] **ياتيك للقاع ريعي**[15]

وقد حقق له الجربا هذه الأمنية وأعطاه الفرس التي تمناها، صفراء سريعة لا تدرك وغزا الجربا قبيلته عنِزة، وغزا مع خيله الوضيحي. وكان للشاعر ما تمنى والتقت الخيل بالخيل، وفي مقدمة خيل عنِزة فرسان الروله مجول والدريعي، ولكن الشعراء كما قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿يقولون ما لا يفعلون﴾، ولم يك الوضيحي صادقاً فيما قال فانهزم، ولولا سرعتها لأدركه الموت المحتم، ومن الطريف أن ابن رشيد أمره أن يغسل الفرس سبع مرات بالصابون ليزيل عنها العار الذي ألحقه بها الوضيحي، فانظر كم يحترم العرب الخيل ويقدرونها!

---

(1) بوبهاني: لا قيمة له ولا ثمن.

(2) ريع: الوادي.

(3) صفرا: الفرس البيضاء.

(4) صهات: خالصة البياض.

(5) قبا: مرتفعة القطات. صنيعي: كأنها صنعت كما يريد الشاعر.

(6) ضريس: صرير أضراسها.

(7) رحيها: أضراسها، ومفردها رحى.

(8) هرش: فحل الإبل.

(9) حادى: سائق.

(10) الطلب: الخيل التي تلحق الإبل لتخلصها من الأعداء(النجدة).

(11) غواني: له غناء.

(12) الدريعي: من فرسان الرولة.

(13) الثمان: مقدمة أسنان المرأة الثمانية. أربعة من الأعلى وأربعة من الأسفل. وصاف الثماني: اصطلاح يعنون به المرأة الجميلة.

(14) المعرقة: السرج.

(15) ريعي: سرير.

حدثني والدي قال: ضللنا الطريق ونحن على ظهور خيلنا في ليلة ممطرة باردة من ليالي الشتاء، فقررنا المبيت حتى الصباح في العراء، فنزع رفاقي أغطية خيلهم عن ظهورها، وتغطوا بها ليتّقوا البرد، أما أنا فقد آثرت فرسي على نفسي، ولم أنزع غطاءها عن ظهرها، وبتّ ليلتي مقروراً حتى الصباح وهذا مثال رفيع على إيثارهم خيلهم على أنفسهم.

والبدو يفضلون من الخيل ما كانت طويلة، عريضة الصدر، واسعة المنخرين (فتحتي الأنف)، فتلك لها قدرة على تحمل الجري لمسافات طويلة، كذلك ما كان حافرها مستديراً كبيراً والمسافة ما بين مفصل الرسغ والحافر قصيرة وهم يتيمنون بالفرس المحجلة من قوائمها الثلاث ما عدا اليد اليمنى ويسمونها (محجلة الثلاث طلق اليمين) وخاصة ما كان لها غرة بين عينيها ويسمون الشعر الذي في أعلى رقبة ا لفرس: المعارف، ويسمون شعر الذيل: السبيب، وهم يتطيرون من بعض الخيل، وللتطير علامة يعرفونها بها.

ولشدة تعلقهم بخيلهم، فإن أحدهم إذا با ع فرسه لا يبيعها كلها، بل يبيع النصف منها، ويبقى النصف الآخر له (صاحبها الأول)، على أن هذا لا يمنع أن تباع الفرس بكاملها، والفرسان الأبطال من البدو لا يقتنون إلا الجواد الكريم السريع، فإذا كرّوا على الأعداء أثخنوا فيهم، وإذا فروا طاردهم الأعداء فلم يدركوهم، ولا ينْزو على الفرس الأصيلة إلا الحصان الأصيل كريم النسب، وهم يعرفون الأحصنة التي تصلح لهذا الغرض ويعرفون أنسابها ويقولون عنها: (هذا الحصان يشبّا) و (هذا لا يشبّا).

والحصن التي تشبّا هي: الصقلاوي جدراني، المعنقي السبيلي، والنواقي، وعبيان، والإخدلي، ودهمان عامر والحمداني وكروش.

ألوان الخيل وأعمارها:

الصفراء: وهي ذات اللون البيض.

والشقراء: وهي ذات اللون الأشقر.

والحمراء: وهي ذاتُ الشعر الأحمر

والشعلاء: وهي ما اختلط لون الحمار فيها بالسواد.

والزرقاء: وهي ما اختلط لون السواد فيها بالبياض.

والسوداء: هي ذات الشعر الأسود.

والدهماء: هي ما اختلط لون السواد بالبياض وكان السواد هو الغالب.

وأما أعمارها فهي:

الوليدة منها تسمى فلوه، والذكر فلو، فإذا أتمت عامها الأول، ودخلت عامها الثاني فهي مهرة فإذا أكملت عامها الثاني ودخلت في عامها الثالث فهي جذعة، وإذا دخلت عامها الرابع فهي رباع، وهم يفضلون الفرس الأنثى على الحصان، لأنها أصبر على قطع المسافات البعيدة في الغارات.

وورد في العقد الفريد[1] في الخيل ما يلي:

قال النبي ρ في صفة الخيل: أعرافها أدفاؤها وأذنابها مذابها، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وقال النبي ρ: عليكم بإناث الخيل، فإن بطونها كنز وظهورها حرز وأصحابها معانون عليها، وسأل رجل النبي ρ فقال: إني أريد أن أشتري فرساً في سبيل الله، فقال له: اشتره أدهم، كميتاً أقرح أرثم[2] أو محجلاً مطلق اليمين ،فإنها من ميامن الخيل ،وكان رسول اللهρ يستحب من الخيل الشقر وقال: (لو جمعت خيل العرب في صعيد واحد ما سبقها إلا أشقر).

وأرسل مسلم بن عمر لابن عم له بالشام يشتري له خيلاً، فقال له: لا علم لي بالخيل فقال: ألست صاحب قنص؟ قال: بلى، قال: انظر كل شيء تستحسنه في الكلب فاطلبه في الفرس، فأتى بخيل لم يكن في العرب مثلها.

سأل المهدي مطر بن دراج عن أي الخيل أفضل؟ قال: الذي إذا استقبلته قلت نافر وإذا استدبرته قلت زاخر[3] وإذا استعرضته قلت زافر، قال: فأي هذه أفضل؟ قال: الذي طرفه أمامه وسوطه عنانه.

وقال آخر: الذي إذا مشى ردى[4] وإذا عدا دحا[5] وإذا استقبل أقعى، وإذا استدبر جبّى، وإذا استعرض استوى.

وسأل معاوية بن أبي سفيان صعصعة بن صوحان: أي الخيل أفضل؟ قال: الطويل الثلاث، والقصير الثلاث، والعريض الثلاث، الصافي الثلاث، قال: فسِّرْ لنا، قال: أما الطويل الثلاث، فالأذن والعنق

---

[1] ج1 ص 152 (طبعة دار الكتاب العربي – بيروت).

[2] والأرثم: من الرثم وهو كل بياض أصاب الشفة العليا.

[3] زاخر الكفل: أي ممتلئة.

[4] الرديان أي يرجم الأرض رجماً بين المشي الشديد والعدو.

[5] دحا: أي يرمي بيده لا يرفع سنبكه عن الأرض أي يدحو دحواً.

والحزام، وأما القصير الثلاث فالصلب والعسيب والقضيب، وأما العريض الثلاث فالجبهة والمنخر والورك، وأما الصافي الثلاث، فالأديم والعين والحافر.

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن معدي كرب: كيف معرفتك بعراب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده، فأمرَ بأفراسٍ فعرضت عليه، فقال: قدموا إليها الماء في التراس[1] فما شرب ولم يكتف[2] فهو من العراب، وما ثنى سنبكه فليس منها.

قلت: (والكلام لابن عبد ربه) إنما المحفوظ أن عمر شك في العتاق والهجن فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره، فأمر سلمان بطست من الماء فوضع على الأرض، ثم قدم إليه الخيل فرساً فرساً، فما ثنى سنبكه وشرب هجّنه، وما شرب ولم يثن سنبكه عربه[3]. (انتهى ما جاء في العقد الفريد).

وتسمع الخيل وترى في الليل لمسافات بعيدة ولكنهم وصفوها بالكذب، وقد يكون السبب في ذلك كونها ترى أبعد بكثير مما يراه أصحابها ليلاً، ويبحثون عما تنظر إليه أو تنفر منه فلا يجدون شيئاً فقالوا أكذب من الخيل بالليل، وتداولوها مثلاً.

ويوضع على ظهر الجواد السَّرج ويسمونه (المرشحة) وتُحشى المرشحة بالوبرِ، ويكون ظاهرها من الجلد وداخلها من اللباد، وتسمى الخشبة التي في مقدمة المرشحة عندهم (الكربوس) أو (الكربوز)، ويعلق في كل جانب من جانبي المرشحة الركاب وتشد إلى ظهر الجواد بالحزام وفي النهاية الخلفية العلوية للمرشحة يوضح حلقتان صغيرتان يربط في كل واحدة خيط ويسمى الخيطان (السماط) يربط بهما الفارس بعض أشيائه الخاصة، ويغطى ظهر الجواد شتاء باللباد أو بنوع سميك من القماش يقيه برد الشتاء، ويقاد الجواد بالرسن، ويتألف الرسن من العذار والرشمة والمقود ويوضع في رأسه العنان ليكون أطوع لراكبه عند الغارة أو في حلبات السباق.

---

[1] التراس: جمع ترس.

[2] كتف الفرس ارتفعت فروع كتفه.

[3] وذلك لأن في أعناق الهجن قصراً فهي لا تنال الماء في تلك الحالة حتى تثني سنابكها وأعناق العناق طوال.

الشعر عند البدو:

الشعر من الوسائل التعبيرية الرئيسية عند البدو، التي يسجل فيها البدوي ما يخالج نفسه من مشاعر، وما يمر به من أحداث هامة في حياته.

وهم يقولون الشعر إما لتخليد معاركهم وأيامهم المشهودة مع أعدائهم، وإما للتحدي ورد النقا على الأعداء، وإما توجّد على حبيب مات، أو صاحب فارقوه، وامتدت بينهم وبينه المسافات، أو يشكون مما أصابهم من جور الزمان عليهم، كشكواهم من الفقر أو المرض أو القحط أو شكوى أحدهم مما يحب، أو شكواه من ظلم أهله وعشيرته.

وكثيراً ما تكون قصائدهم رسائل يبعثون بها لطلب نجدة، أو متضمنة الأغراض التي ذكرناها آنفاً، وهم يختارون لحمل هذه الرسائل أجرأ الرجال، وأشجعهم، وأعلمهم بمجاهل الطريق، ويختارون لهؤلاء الرسل خير النياق، وأصبرها، وأسرعها، وأجسرها على السير ليلاً.

ولم نر في أشعارهم من يختار لرسوله فرساً أو سواها من وسائط النقل، وإنما كانوا يختارون لهم كرام الهجن، لأنها الأقدر على السير في الصحراء والصبر على تحمل الجوع والظمأ، وأكثر البدو يقرضون الشعر، لكنهم يتفاوتون في قدراتهم الشعرية، وكذلك الشعراء فيهم ليسوا سواء فمنهم الفحول ومنهم الوسط، ومنهم دون ذلك، ولا ننصفهم إذا أخذنا شعرهم كله حجة عليهم فهم كشعراء الفصحى منهم من يغرف من بحر ومنهم من ينحت من صخر.

والشعر المعتمد عندهم هو الذي يسمونه (قصيد) وهو ما يماثل البحر البسيط عند شعراء الفصحى، أما المسمى عندهم: الحداء، والهجيني، والسامري، فهو للتسلية فحسب، يحدون به في أثناء ركوب الخيل أو الإبل ولا يعتمدونه في تخليد مناسباتهم أو ما يمرون به من أحداث ذات أهمية في حياتهم، وهم يطرقون في شعرهم كافة المواضيع التي يطرقها شعراء الفصحى من مديح وهجاء وفخر ورثاء وغزل... الخ.

ولم ينصفهم المتكلمون عن أشعارهم من كتاب الحضر فاستخفّوها واستهجنوها ما عدا القليل منهم من الذين ألقوا عليها نظرة عابرة من الرضا، وربما يرجع هذا في أساسه إلى عدم فهمهم للَّهجة البدوية فهماً يجعلهم يدركون ما تنطوي عليه من تشابيه وكنايات ومعان، لو قورنت بشعر شعراء الفصحى لكان بعضها في مصاف ما أورده الفحول منهم.

هذا فيما جاء من تشابيه وكنايات وأفكار أوردوها في أشعارهم، أما المادة اللغوية التي صاغوا منها هذه الأشعار فقد جاءت مشوبة باللحن مخالفة لقواعد اللغة.

ولا يظنّنّ أحد أنني أرفع شعراء البدو بعاميتهم إلى مستوى شعراء الفصحى، فتلك لغة القرآن التي لا تساويها لغة ولكنني ألتمس لهم العذر لأنهم يصوغون أشعارهم بلغة قومهم، ولو أن قومهم يتكلمون الفصحى لتكلموا هم بها ولأجادوا كما أجاد أسلافهم من شعراء البدو القدامى يوم كانت الفصحى لغتهم.

ومن العجب أن بعض المتكلمين عنهم والمدّعين أنهم عايشوا البيئة البدوية، يخلطون بين شعراء البدو وشعراء النَّوَر، حيث أورد الأستاذ وصفي زكريا في كتابه عشائر الشام ما معناه أن شعراء البدو هم من النَّوَر فقط ومن عشيرة صليب.

ونحن مع تقديرنا للجهد المشكور الذي بذله الأستاذ وصفي زكريا فإننا لا نعلم من شعراء البدو إلا من كان شيخاً رئيساً في قومه أو فارساً أو كريماً ذا شأن في عشيرته، أما الشعراء من الدهماء فلا يشكلون إلاّ نسبة قليلة في قومهم ، ونظرة عابرة إلى هوياتهم الشخصية تغنينا عن كثير من الكلام للدفاع عنهم، فعبد الله الفاضل كان شيخاً وشاعراً، ودبجان الرفاشي كان فارساً وشاعراً، وخلف الأذن كان فارساً وشاعراً وجديع بن قبلان كان شيخاً وشاعراً وفارساً ومحمد الدوخي كان شيخاً وفارساً وشاعراً ورشيد السمير كان شيخاً وشاعراً وفارساً ومحمد الملحم كان شيخاً وشاعراً... الخ، ولو استطردنا في استقصاء الشعراء من الفرسان ورؤساء القوم لضاقت بهم صفحات هذا الكتاب ولكننا نكتفي بهذا القدر وهو غيض من فيض وبالله التوفيق.

ولعل الأستاذ وصفي زكريا رأى شعراء النّور الجوّالين الذين يطوفون على البدو، أهل الأغنام القريبين من الحاضرة فهؤلاء لا يمثلون البداوة الحق، فقد أضاعوا منها الشيء الكثير لاختلاطهم بالحضر.

أما موضوع بحثنا فهو عن البداة الذين اتخذوا من البادية منتجعاً دائماً لهم، وخير مثال لمادة هذا البحث في بلاد الشام هو قبيلة عنِزة.

وسنورد فيما يلي نماذج من أشعارهم، والموضوعات التي عالجوها في هذه الأشعار، فهم يبدؤون أغلب قصائدهم بذكر الله سبحانه وتعالى، ويختمونها بالصلاة على نبيه ρ، كما في قول جديع بن قبلان:

بالله يا والي على كل والي	**يا خالق الدنيا عليك التدابيرْ**
يا عالماً بالغيب واللي جرا لي	**يا الله تبدل ساعة الشر بالخيرْ**

والمقصود بقوله واللي: يعني به الذي فهم يقولون عن الذي: اللي، وعن إذا: إليا كمن يلفظ الجيم ياء، فمثلاً يقولون عن الجمل: يمل، وهذا أمر متعارف عليه عندهم في اختلاف لهجاتهم منذ عهودهم الأولى في جاهليتهم، ولا تزال قبيلة شمر وعرب الخليج يلفظون الجيم ياء حتى يومنا هذا.

وقال الشيخ رشيد بن سمير:

يا الله يا رزاق ربعٍ مفاليس تجلي صدا صدري وباقي الهمومِ

وقال غيره:

يا الله يا مدير الهبايب والأمطار شانك عسى تصريف شانك لطيفهْ

وقال الشيخ طراد الملحم:

يا الله يا خلاق ما في وطاها يا خالق الخرسا وباسط سهلها

أنت الذي علاّم ما في خفاها تعلم خفي النفس أيضاً وعملها

وهو استفتاح ندي جميل يحسن بشعراء الفصحى أن يأخذوا به بدلاً من النسيب والوقوف على الأطلال، وهل أجمل من أن يبدأ العبد كلامه بذكر ربه والتوجه إليه يستمد منه العون والفرج، ويسأله التوفيق والسداد ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[1].

وللبدو قصائد لو قربت إلى الفصحى وأُخضعت للإعراب، لكانت في مستوى المعلّقات، ومن جيّد ما قالوه القصيدة المسماة عندهم (الشيخة) للشاعر مقحم الصقري، ولو أن لهم معلقات كما للعرب في جاهليتهم لكانت هذه إحدى معلقاتهم لما تحويه من حسن الوصف والفخر والحثِ على مكارم الأخلاق وصيانة مال الجار وعرضه، وقال مقحم الصقري في قصيدته الشيخة:

يا الله يا المطلوب يا والي الأقدار أنت الذي مدات جودك لطيفهْ

يا الله يا المعبود عاون هل الكار تحل شطاتاً عليهم كليفه

اللي مجالسهم بها بن وبهار ونجرٍ يصوت للهجافا رجيفه

ومكارم للضيف عدلات وكبار ومفلطحات في صحونٍ نظيفة

يا مزنة غرا من الوسمْ مبدار اللي جذبنا من بعيد رفيفهْ

ترمي على كل المفالي بالأمطار وتصبح بها قيعان ربيعي مريفهْ

---

[1] سورة الرعد، الآية 28.

صبح المطر فاحت بها ريح الأزهار تخالف النوار مثل القطيفهْ
ترعى بها وضحا من الذود معطار غبوقة الخطار عجلاً عطيفهْ
يبني عليها بنية اللبن لجدار عقب الضعف راحت ردوماً منيفهْ
ترعى بها قطعاننا سر وجهار تقطف زهر مرباعها مع مصيفهْ
ترعى بحد السيف قصاف الأعمار في ظل مروين الغرب والرهيفهْ
قطعاننا ما يرعن دمنة الدار يرعن صحاصيح الرياض النظيفهْ
في ضفة الله ثم جيرٍ وجبار خيالةٍ يوم الملاقا عنيفهْ
ما هي حكايا مسردٍ عقب ما نار اللي شرد وأطراف رمحه نظيفهْ
إن سو هجوا عنها قليلين الأبصار من دونها نروي السيوف الرهيفهْ
الصبر مفتاح الفرج عند الأذكار ومن لا صبر تصبح حواله كسيفهْ
وخطو الولد مثل البليهي اليا ثار زودٍ على حمله نقل حمل اليفهْ
وخطو الولد مثل النداوي اليا طار صيده من الجزلات ما هي ضعيفه
وخطو الولد يربض على موتة النار مع العرب يشبه خطات الهديفهْ
حنا كما مشخص على الصرف ما بار بالوزن يرجح والمصاري خفيهْ
الا ومع ذلك لك الله لنا كار عن جارنا ما قيل نخفي الطريفهْ
حنا نسامح زلة الجار لو جار نضحك حجاجه بالعلوم اللطيفهْ
نرفا خماله رفية العش بالغار ونودع له النفس القوية ضعيفهْ
ما نبدي الخافي اليا صار ما صار يفلح قصير البيت لو بان حيفه
جار على جاره بختري ونوار جار على جاره صفاة محيفهْ
نكرم سبال الضيف حقاً وتعبار لا من ولد اللاش شح برغيفهْ
نبغي ليا بدل الدار بديار كلٍ بجيرانه يعد الوصيفه

بعد هذا النداء الجميل: يا الله، يطلب الشاعر من ربه أن يمد يد العون لأولئك النفر الكرام، فيفرج عنهم ما هم فيه من ضيق وشدة، وهذا ما يعنيه بقوله (تحل شطات عليهم كليفة) والشطات جمع شطة وهي الشدة.

وفي مجالس أولئك القوم تفوح رائحة الهيل والبن، فتنعش الجلوس بعبقها الذكي، ومذاقها الطيب فيجتمعون حولها آتين من كل حدب وصوب، يجذبهم صوب النجر الذي ينادي للهجافا، والهجافا: الطّراق راكبو الهجن، وفي رباع أولئك القوم طيب القرى وشهي الطعام، من الذبائح السمينة، وكنى عنها: بالمكارم مسطحة في جفان كبيرة نظيفة.

ثم يخاطب تلك المزنة الغراء المبكرة في مجيئها، والتي جذبه عن بعد برقها اللامع في طياتها، ويطلب من ربه أن يعم وابلها المدرار جميع أرض قومه فيخضر روضها، ويتفتح زهرها، حتى تصبح في جمالها وتعدد ألوانها كالقطيفة الموشاة التي انتهى منها لوقته صانع حاذق خبير، وقد اعتاد البدو مراقبة المزن لأن فيها الغيث المدرار، مصدر حياتهم وحياة أنعامهم، فإذا قدروا على أي أرض هطلت، شدّوا إليها الرحال فيصلونها وقد اخضر روضها وامتلأ غديرها، فإذا رتعت فيها تلك الناقة الوضحاء سمنت ودرت اللبن، فهي سريعة الاستجابة لحالبها.

والمعطار: التي تسمن بسرعة، والغبوق: شراب المساء، والعطيف: الأدرار، والردوم: الكوماء السمينة، ومنيفة: مرتفعة، والخطَّار: جمع خاطر وهو الضيف.

وفي تلك الرياض التي تهطل عليها تلك المزنة الغراء، ترعى قطعاننا سراً وجهاراً بحد السيف قاصف الأعمار في أكفّ رجالنا الأبطال، مروين الغرب والرهيفة من دم الأعداء، والغرب: الرماح، والرهيفة: السيوف.

وهذا كله بعون الله لنا ثم بحماية فرساننا جبر وجبار العنيفين الأشداء عند اللقاء، وهو التفاف جميل من الشاعر حين عزا النصر إلى الله تعالى أولاً، ثم إلى رجاله ثانياً، فالشعراء غالباً ما يغفلون عن مثل هذا لأنهم أهل ادِّعاء عريض.

هذه هي أفعال رجالنا (لا أقوال مسرد بعد ما نار، وأطراف رمحه نظيفة) والمسرد: الكذاب، ونار: هرب من المعركة، وأطراف رمحه نظيفة: كناية عن جبنه، وهي تشبه الكناية التي عناها شاعر الفصحى حين قال ينعت قوماً بالبخل:

بيض المطابخ لا تشكو إماؤهم جلي القدور ولا غسل المناديل

وإن فرّ من المعركة الأنذال الجبناء وتركوا القطعان بلا حماية فنحن نذود دونها ونروي السيوف الرهيفة من دم الأعداء دفاعاً عنها، واصبر فإن الصبر مفتاح الفرج، وسوء العاقبة للملول الذي لا يطيق الصبر.

وهنا يصنف الشاعر الشباب، فمنهم من يشبه البليهي في صبره وشدة تحمله وعلو همته، والبليهي: فحل الإبل، وبعضهم يشبه النداوى لا يقع إلا على الصيد الثمين، والنداوى: الصقر، وبعضهم يشبه الكلب الهديفة، هابط الهمة، خمول كسول لا نفع يرجى منه، والكلب الهديفة: هو الذي لا أهل له، يطوف على بيوت الحي فهذا يضربه وذاك يزجره.

ونحن كما الذهب يرجح في الميزان، والعملة الورقية تخف وترتفع فيه، ومع هذا كله فإن من عاداتنا أن نصون حرمة الجار، ونتجاوز عن سيآته ونرفوها كما يرفو الطير عشه في الغار ليصنع منه بيتاً جميلاً لصغاره يحنو عليهن فيه، وهنا يصنف الجيران أيضاً، فمنهم: روضة مزهرة لجيرانه مليئة بالبخترى والنوار.

والبخترى: عشب ذكي الرائحة ينبت في الصحراء والنوار: الزهر، وجار لجيرانه صخرة صماء لا خير فيها فلا تنبت عشباً ولا تمسك ماء، إنهما صورتان مختلفتان.

ونحن من عاداتنا إكرام الضيف وإطعامه إذا بخل النذل الشحيح بطعامه، فإذا ارتحل عنا الجار، وبدل الدار بدار تحدث عما رأى من حسن الصحبة وطيب الجوار.

وقال أحدهم ينصح ابناً له اسمه دخيل:

دخيل افطن جايب لك مثالهْ	**مثالةٍ ما يفهمه كل رجال**
المرجلة بالك تدشر حباله	**وبالك تعيل ولا تراخى لمن عال**
بعدك عن اللي ما يودك جماله	**لا عاد ما أنت للمسة الخشم حمال**
الحمَّرة تدرك معيشة عيالهْ	**لا عاد ما أنت محصلٍ حال من حالْ**
لو ربع ساعة مقعدك بالجلالة[1]	**تسوى حياة عايشينٍ بها أنذالْ**

وقوله تعيل: تبغي والعلة عندهم هي: البغي والجهل، ولمسة الخشم: يعنون بها الإهانة والمذلة والحمّرة: بتشديد الميم طائر صغير من طيور الصحراء، والمرجلة: الشجاعة.

والشاعر يوصي ولده بالشجاعة، ويوصيه ألا يعتدي وألا يسكت إذا اعتدى عليه: (بالك تعيل ولا تراخى لمن عال)، قال تعالى ﴿ومَنِ اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[2].

ثم يوصيه أن يترك دار الذل والهوان ولا يسكت على جور، فأرض الله واسعة، ولا يضيق ذرعاً بالرزق، فالله يرزقه إذا سعى كما يرزق الحمّرة الصغيرة قوتها وقوت عيالها.

---

[1] بالعزة والكرامة.

[2] سورة البقرة الآية 194.

وقال عبيد الرشيد في الحزم وعدم التردد:

اضرب على الكايد[1] ليا كنت بحلانْ[2]   وعند الولي وصل الرشا وانقطاعهُ

إما تجي بعقود ليلو ومرجانْ   وإلا فهي لإبليس طار بشعاعهْ

الرشا: الحبل الذي يربط به الدلو.

وهي دعوة إلى نبذ التردد والتوكل على الله عند الإقدام على صعاب الأمور، فهو الذي يصل ويقطع ويعز ويذل ويرزق من شاء بغير حساب، فإذا عزم العبد على أمر ما فليجتهد، والباقي على الله فهو إن شاء كانت النتائج لؤلؤاً ومرجاناً، وإن شاء ذهبت النتائج أدراج الرياح.

وقالوا في اجتناب المرء ما لا يعنيه:

لا شفت ظول الناس بالك تعسّه[3]   وإن جنبك شر المخاليق خلهْ

وظول الناس: يعنون بها المجموعة من الرجال اجتمعوا لأمر ما كمشاجرة أو خلاف على مسألة ما، وقد علت أصواتهم، فهؤلاء يحذر الشاعر من يراهم عن بعد، وينصحه ألا يذهب إليهم لأنه ربما يجد عندهم ما يكره.

وقالوا في نفاذ القدر:

سهم مجنب لو تبينت مخطيك   وسهم مصيبك لو تخفيت ما أخطاك

وفي خيبة الأمل فيمن يظن به المرء الخير والسداد، قال الأمير محمد السديري:

لا خاب ظنك بالصديق الموالي   ما لك مشاريهٍ على باقي الناس

يا ليت قصر ما لحيطه ظلال   ينهد من عالي مبانيه للساسْ

والصديق الموالي: هو صاحبك وأقرب الناس إليك فإذا خذلك وتخلى عنك في ساعة الشدة وأنت أحوج الناس إليه، فلا تعتب على غيره إذا تخلى عنك أيضاً، والقصر الذي يعنيه الأمير السديري ليس القصر المشيد من البنيان فقط، فقد يكون هذا القصر أخاً أو صديقاً أو قريباً بالرحم أو ذا مركز وسلطان، فهذا يضفي بظله على من لهم به حاجة، ويرعاهم في كنفه، ويقضي حاجاتهم، وينصفهم إذا ظلموا، ويخفض لهم جناح الذل من الرحمة، فذاك ظله الذي يعنيه الشاعر.

---

[1] الأمر الذي تحتار فيه.

[2] محتار.

[3] تقترب منه لتستطلعه.

أما إذا لم يكن فيه ملاذ لمستجير ولا نصرة لضعيف ولا عون لذي حاجة، فذاك هو القصر الذي يتمنى له السديري أن يتقوض بنيانه من أعلى لبنة فيه حتى آخر لبنة، وأن تجتث جذوره من أصولها ما دام لا خير يرجى منه ولا نفع فيه.

وقالوا في وصف القهوة:

قمْ سوّ فنجالٍ[1] على البرد صافي — من شغل ابن كسران[2] عليه توصيف

حمّسها[3] وزين حمسها يا السنافي[4] — ويا عيد نسفها على النجر تنسيف

واحرصْ عليها من سريب المصافي — ومن قولة الشراب يا حيف يا حيف[4]

لا شفّها[5] الشفاف بين الشفافٍ — تقل يتقطع من شفافه شفاشيف

وهذا كناية عن جودتها وزيادة نسبة القهوة فيها وكثرة طبخها، حتى أصبحت رائبة لزجة، إذا تناولها شاربها تكاد شفتاه تلتصقان ببعضهما، فإذا تذوقها وتباعدت شفتاه عن بعضهما فكأنما تنقطع إحداهما من الأخرى.

وقالوا في القهوة أيضاً:

احمس ثلاثاً يا نديمي على ساق — واعرض على جمر الغضا يفضح السوق[6]

ليا اصفر لونه ثم بشت بالعراقْ[7] — صفرا كما الياقوت يطرب لها الموق[8]

دقة[9] بنجر يسمعه كل مشتاقْ — راعي الهوى يطرب ليا دق برموق[10]

وردة بدلّه مولعه كأنها ساقْ — شامية مجليةٍ تقل غرنوق

---

(1) فنجان من القهوة.

(2) هو أحد كرام البدو الذين اشتهروا بجودة قهوتهم.

(3) الضمير عائد للقهوة.

(4) الرجل الطيب المعشر الحسن الخلق.

(4) هي كلمة تأسف يستعملونها إذا وجدوا في الشيء نقصاً ومذمة.

(5) تذوقها، والشفاف شارب القهوة.

(6) يعرف الجيد من الرديء.

(7) عرفت.

(8) بؤبؤ العين.

(9) اطحنها.

(10) بنغم.

وليا اندفق فنجالها تقل شبراقْ دمان قلبٍ وانقطع منه معلوق

والمقصود بقوله: أحمس ثلاثاً يا نديمي على ساق: تكرار التحميص، ثم يدقها ويطبخها، ثم يعيد الكرة ثلاثاً، والغرنوق: صغير الغزال (الخشف).

وإذا حمصت القهوة أو عرضت على النار عرف الجيد منها من الرديء، فالجيد منها بصفرّ ويعرق، والرديء يكمد لونه ويجف.

ثم بعد أن يدقّها بذلك الجرن ذي الصوت الرنان الذي يطرب له شاربو القهوة فيتوافدون من كل حدب وصوب عند سماعه، وبعد أن يصبها في تلك الدلة الشامية المجلية والتي بدت كأنها الغرنوق، تدفقت تلك القهوة بفنجانها سوداء مشوبة بحمرة وكأنها دم قلب انقطع شريانه لكثرة طبخها والعناية بها!

وقال الشيخ جديع بن قبلان في نظرته إلى الدنيا وفي ردّه على نمر بن عدوان:

دنياك يا نمر غمام مظلي ركب على روس العوالي وزالي

دنياك يا نمر كل عليها مولي متروحةٍ يا هيه يا هم ملالي

وقال جديع الثاني أيضاً في فلسفته للحياة ونظرته للدنيا، وزوال نعيمها وما يكسبه العبد منها:

دنياك ما به مكسب غير ثنتين الطيبات الفاخرات الغوالي

كسب الثنايا خوى والبادي الدين والعبد ما له غير زين العمالي

المال مال الله مالي منه شين غير الثنا والحمد من المال مالي

المال مال الله وحنا المساكين معك خبر ما شافت العين زالي

وسنأتي على شرح هذه الأبيات عند الحديث عن الشيخ جديع بن قبلان بإذن الله.

وقالوا في الأم:

أمي لا شافت خيالي تهلي[1] كم ليلة همي عن النوم عزاه[2]

ثلاث سنين وديدها[3] سقوةٍ[4] لي واركب على المتنين وأقول يا ياه[5]

---

[1] تقول أهلاً.

[2] أذهب النوم عن جفنيها.

[3] ثديها.

[4] سقاء أشرب منه اللبن.

[5] يا أماه.

إنه قلب الأم الهش الحاني العطوف الذي يعطي ويعطي ابداً بلا مقابل ولا يسعها حين ترى فلذة كبدها إلا أن تقول أهلاً، وكم من ليلة أطار النوم عن جفنيها مرض ألمّ به أو سفر أبعده عنها، والشاعر يقدّر لأمه هذا العطاء ويحفظ لها هذا الجميل الذي ليس في وسع أحد من البشر أن يوفيه لأمّه مهما بالغ في برّها وتمرّغ تحت قدميها، وهو لا ينسى ذلك المنهل العذب الممتلئ دائماً باللبن الطيب المذاق الذي كان يرده متى شاء بلا تذمر منها ولا منّة، ولا ينسى يوم كان كتفاها مركباً له وهو يردد ذلك النداء الحبيب: يا ياه (يا أماه).

وقلت هذه التوسيلة أسأل الله أن ينفعني بها:

يا الله يا اللي خالق الإنس والجانْ	**يا رب يا معطي العطايا الجزيلةْ**
اجعل لنا من زين الاعمال سلطانْ	**واجعل من التقوى لنفسي نخيلةْ**
والطف بنا يا خالق الكل بإحسانْ	**يا رب عفوك عن ذنوبٍ ثقيلةْ**
وليا انفخ بالصور من الأركانْ	**والقاع ماجت بالجبال الثقيلةْ**
وليا انسجر موج البحر صار نيرانْ	**سعايرٍ عالي سناها طويلةْ**
وليا انطمس نور القمر قط ما بانْ	**والشمس عثمه والكواكب هزيلةْ**
وقمنا حيارى نتعثر بالأكفان	**وزاغ البصر وأنكر خليلٍ خليلةْ**
وليا تجلّى عالياً رب الأكوانْ	**واشرق ثراها بالأنوار الجليلةْ**
يا رب تعطيني كتابي بالأيمانْ	**يا الله يا معطي العطايا الجزيلةْ**
واجعل حسابي نجوةٍ سر كتمانْ	**بيني وبينك غيرنا ما دري لهْ**
واطفي ظماي بصافي الكاس مليانْ	**ممزوج بالكافور من سلسبيلةْ**
ولا تحرمن يا رب تكحيل الأجفانْ	**بنظرةٍ من نور وجهك جليلةْ**

يا الله: إنه النداء الندي الجميل الذي يلجأ إليه العبد في ساعة الشدة، فينادي ربه هكذا مباشرةً بلا وساطة أحد، فهو سبحانه إله الكل والكل محتاجون لعونه ومدده، فلا ملجأ إلا إليه ولا مفرّ إلا إلى جناب علاه.

وماذا يريد هذا العبد الفقير الذي ينادي ربه؟.

إنه يريد العفو والمغفرة عما اقترفه من كبار الذنوب وصغارها، والتي ينوء كاهله بحملها، فهو لا سواه يغفر الذنب، ويقبل التوبة، وهو الغفور الرحيم الذي كتب على نفسه الرحمة.

والكل إنسهم وجنهم، لا بد منتظمون في قافلة الزمان المتجهة نحو ذلك اليوم الذي يقفون فيه جميعاً أمام ربهم، حيث لا حول لهم يومئذٍ ولا قوة، فمن شاء رحمه، ومن شاء عذبه: ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على لك شيء قدير﴾[1] .

فإذا نُفِخَ في الصور واختل نظام الكون فماجت الأرض وارتجت، واقتلعت الجبال من أماكنها فكانت كثيباً مهيلاً، وتطايرت كأنها القطن المندوف، واشتعلت البحار وارتفع سنا لهيبها، وأحاطت بالخلائق من كل اتجاه، واصطفت الكواكب ببعضها، وخبا نورها واضمحل، وكسفت الشمس وخسف القمر، وأظلم الكون، فلا نور يومئذٍ ولا ضياء.

وفي هذا الموقف الرهيب وهذا المشهد المرعب حيث يفر فيه المرء من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه: أسأل الله سبحانه وتعالى عندما يتجلى نوره في علاه فينير الأرض، وتزهو بضياء نوره البهي الجليل، ويوضع الكتاب وتصطف الخلائق للحساب: أن يعطيني كتابي بيميني ويسبغ عليّ رحمته وأن يجعل حسابي سراً بيني وبينه، ولا يفضحني على رؤوس الأشهاد فإن من فضحه الله في الحساب عذبه ومن أسرّ له الحساب رحمه، قال تعالى:

﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾[2].

في تلك الساعة التي تجف فيها الحلوق، ويشتد فيها الظمأ بالعباد، أسأله سبحانه وتعالى أن يسقيني من مائه القدسي شربة لا أظمأ بعدها أبداً، وخير من هذا كله نظرة عجلى من نور وجهه البهي يختم بها نعمته، وجزيل فضله على عباده، وهي آخر ما يدّخرها الله من نعمة لخلقه المشمولين برحمته.

ولو أجزنا لأنفسنا المقارنة بين ما قاله شعراء الفصحى وما قاله شعراء البدو، لوجدنا التشابه بيّناً في إيراد المعاني وتوارد الأفكار والغاية المنشودة من وراء القصيد.

فانظر معي إلى ما قاله زهير بن أبي سلمى في معلقته.

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

---

(1) سورة البقرة الآية 284.

(2) سورة الزمر – الآية 68.

وقارنه بما قال الدسم:

من واخذ الشيطان حقه غدي به ومن هاب دشات الملاعيب ما هيب

فإنك ترى التشابه بيّناً في الغرض الذي قصده الشاعران، فكلاهما يدعو إلى الوقوف بجانب الحق وعدم التفريط به، ولا بد لهذا الحق من أن تدعمه القوة لئلا يستفحل الباطل ويطغى عليه.

وما قصده زهير بن أبي سلمى في بيتيه واضح للأخ الكريم لغلبة الفصحى عليهما، أما ما عناه الدسم في قوله: (من واخذ الشيطان حقه غدى به) فهو السكوت على الضيم، والتفريط بالحق، والتغاضي عن الظالم مرة إثر مرة، خوفاً من عواقب الأمور، فهذا يؤدي إلى ضياع الحق، وانتفاش الباطل.

وفي قوله: (من هاب دشات الملاعيب ما هيب): هو من بالغ كثيراً في خوفه من عواقب الأمور، وأحجم عن الدخول في ميادين الحياة المختلفة، سواء أكانت هذه الميادين ميادين السباق في الأفراح والمناسبات أم الدخول في المساجلات الكلامية في المجالس والنوادي أو ميادين القتال لصدّ الأعداء ودفع الظلم، حيث يتطلب الأمر الشجاعة والإقدام، فمن ابتعد عن هذه الميادين وخاف من ولوجها فإنه يستهجن ويضيع حقه وتسقط مهابته.

والناظر إلى ما قاله حاتم الطائي لواقده الذي يضرم النار ليلاً ليراها الأضياف عن بعد، فيهفون إليها ليجدوا الدفء والطعام:

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا موقد ريح صر

عسى يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وإلى ما قاله أحد كرماء البدو لواقده:

يا كليب[1] شب النار[2] يا كليب شبهْ عليك شبه والحطب لك يجابِ

واعرض عليها من هشيم بخبهْ ياتيك ربعٍ[3] من بعيد تعابِ

واهرج[4] لهم يا كليب هرج المحبة لا ما يتطلق ناظرٍ[5] به شذابِ[6]

---

(1) هو اسم الخادم الذي يوقد النار.

(2) أوقدها.

(3) جماعة.

(4) تحدث.

(5) الجبين.

(6) كدر أو زعل.

بشرقيةٍ يا كليب عجلٍ مهبهْ متروحين عقب ما هم غياب

فإنه يرى أن الغاية واحدة والهدف واحد، من إضرام النار، فكلاهما يريد من واقده أن يزيد في اشتعال النار ليلاً ليستقدم الطراق التائهين في الصحراء.

وفيما جعل حاتم إعتاق عبده مكافأة له إذا جلب ضوء النار التي يوقدها ليلاً أحد الأضياف، نجد الآخر يطلب من واقده أن يزيد في إيقاد النار للغاية نفسها، ويزيد عليها التحدث إلى أولئك الطراق، والتودد إليهم وملاطفتهم ومداعبتهم، حتى يدخل السرور إلى قلوبهم، ويذهب الهم والحزن عنهم لما لا قوه من عناء السفر ومشقة الطريق.

وانظر إلى قول شاعر الفصحى:

لعمرك ما الرزية فقد مالٍ ولا فرسٌ يموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد حرٍ يموت لموته خلق كثير

نعم، ليست المصيبة في ذهاب المال والحلال، فهذا مما يعوِّضه الله على عبده إذا جد واجتهد، والرزق يذهب ويعود، ولكن الرزيّة هي ذهاب الكريم الذي يعيل الأرامل والأيتام والفقراء، فهذا وأمثاله إذا ذهبوا، لن يعودوا، وبموتهم يجوع ويشقى وقد يموت من كانوا يعيلون.

وقارنه بقول شاعر البادية:

الطير يا أبو الليش ما هو فقيدة وإن ما مات الطير لا بد غادي

ما هو فقيده غير خطاة الوليدهْ ذباح حيل النوق بقران حادي

والفقيدة هو الذي يفتقد عند غيابه، ويترك فراغاً لا يملأه سواه، والوليدة صاحب الخصال والمزايا الحميدة، وقران حادي: أول شهر من أشهر الشتاء، وهو الذي يقترن فيه الهلال بالثريا فيصبحان بجوار بعضهما وهذا ما يسمونه القران، ويقترن الهلال بالثريا في حساب البدو خمس مرات من بداية فصل الشتاء إلى بداية فصل الربيع ، وهذه المرات هي : قران حادي ويقترنان في الحادي عشر من كانون الأول وقران تاسع ويقترنان في التاسع من كانون الثاني وقران سابع ويقترنان في السابع من شباط وقران خامس ويقترنان في الخامس من شهر آذار وقران ثالث ويقترنان في الثالث من شهر نيسان.

والشاعر يخاطب رجلاً اسمه أبو الليش أضاع طيره (صقره) فحزن عليه حزناً شديداً، فيقول له مخففاً عنه: ليست المصيبة يا أبا الليش بفقدان الطير، فالطير إما أن يموت أو أن يضيع والطيور غيره كثيرة، ولكن المصيبة فقدان الشهم الكريم الذي ينحر سمان النوق للفقراء والأيتام والمساكين، الذين يعيشون في كنفه

ومتى؟ في أوج فصل الشتاء، وهو أشد الأوقات وأقساها على البدو في صحرائهم حيث يشتد البرد وتقل المؤونة عندهم، ويقارب ما ادخروه على النفاد. (إنه قران حادي).

أو لم يؤد الشاعر الثاني الغرض الذي أداه الشاعر الأول، فكلاهما يسعى لهدف واحد وقد أصاب كل منهما ما يريد ووصل إلى الغاية التي سعى إليها.

والتشابه بينهما بيّن في إيراد المعاني في التشابيه، ورسم الصور التي تقرب لمخاطبيهم إدراك ما يعنون.

وانظر إلى ما قاله مالك بن الريب:

وإني لعطاف إذا الخيل أدبرت   سريع منادابي إلى من دعانيا

وما قاله دبجان الرفاشي في فرسه:

أبغي عليها ليا الطريح التفت لي   أقوله لعينيك لا تقطع اليأس

أردها يا خوي عتلٍ وفتلٍ   لو هي على الأروام قطاعة الراسْ

والذي يعنيه مالك بن الريب أنه: إذا أدبرت خيل أهله وعشيرته منهزمة، والأعداء يقتلون ويأسرون عندئذ يعطف ابن الريب جواده نحو من يندبه من الفرسان الذين اقترب منهم الخطر، وأحاط بهم الأعداء.

وهو سريع في رده على الداعي قريب منه، وهي صورة حية من صور عمليات الكر والفر التي كانت تحدث بين العرب في جاهليتهم، ومالك بن الريب بهذا البيت ينقل لنا صورة تشبه ما أصبح عليه البدو في عهودهم المتأخرة والذين نعنيهم في بحثنا هذا.

ولا تختلف الصورة التي رسمها لنا دبجان في بيته عن الصورة التي خلّدها لنا مالك ابن الريب. والضمير في قوله: عليها في بيت دبجان، يعود إلى فرسه الشقراء، فعلى صهوة ذلك الجواد كان دبجان يحمي مؤخرة قومه، وهو يريدها إذا حمي الوطيس ودارت الدائرة على خيل عشيرته، وولت مدبرة بفرسانها وركب الأعداء ظهورهم، عندئذ يعطف دبجان جواده على من يقع جريحاً من فرسان عشيرته وكنّى عن الجريح بالطريح، لأنه يطرح أرضاً عند إصابته، وتكفي التفاتة من ذلك الطريح نحو دبجان، دون أن يدعوه ليثنيها دبجان عليه وينتشله من بين الأعداء حتى ولو كانوا من فرسان الروم الذين يضرب بهم المثل في الغلطة وشدة البأس.

ويرى القارئ الكريم أن ما جاء به دبجان يزيد عما جاء به مالك، لأن مالكاً يجيب نداء الداعي عندما يدعوه مستغيثاً به، وهذا من شأنه إثارة الحماسة في النفس، وإثارة النخوة في الرأس، وعارٌ عند العرب على من يندب في الملمات ولا يجيب.

أما دبجان، فيكفيه التفاتة من الطريح الملقى على الأرض دون أن يناديه، ليثني عليه وينقذه، وهذا يعني أن دبجان كان يحمي قومه بسيفه وعينيه، ولم يعطهم ظهره، وإلا فكيف يرى من يلتفت منهم إليه.

وانظر ما قاله كعب بن زهير في وصف الناقة:

عيرانة قذفت في اللحم عن عرض مرفقها عن بنات الزور مفتول

والعيرانة أنثى حمار الوحش إذا سمنت واكتنزت لكنها مع ذلك لم تفقد جمال الصورة التي يجب أن تكون في كرائم الهجن، فهي مفتولة المرفق بعيد مرفقها عن زورها، فلا يحتك به في أثناء السير وهذا ما يستحب ويستحسن في النجائب من الإبل.

ثم قارنه بما قاله محمد بن سعود في وصف الهجن:

بتر الفخوذ مدملجات[1] اليماني وأكواعهن[2] لازوارهن[3] ما ينوشن[4]

وبتر الفخوذ: قصيرات لحم الفخوذ أي أن لحم أفخاذهن لم يستطيل فيمتد مع الفخذ كله، بل تجمع في أعلى الفخذ في أماكن ارتكاز العضلات، وهو كناية عن قوتهن وجمال أجسامهن.

ومدملجات اليماني: يعني أن أخفاف أيديهن اليمنى مستديرة سميكة، ثم أن أكواعهن بعيدة عن أزوارهن لا تحتك بها أثناء السير وهذه نفس الصفة التي أرادها كعب بن زهير لناقته ولا يخفى ما في بيتي الشاعرين من تشابه، وإن امتاز كعب رضي الله عنه باستعماله الفصحى لهذا الغرض مما يدل على أن القصيدة البدوية القديمة هي أمّ للقصيدة البدوية الحديثة على الرغم من طول العهد واتّساع البعد بينهما.

وانظر إلى ما قاله الشاعر أبو ركبان في وصف الهجن أيضاً:

عوصٍ[5] عراميص[6] مراميص شغموم[7] هجن عمانيّات وجنٍ هجينِ

---

[1] مدملجات: مستديرات سميكات.

[2] أكواعهن: مرافقهن والضمير عائد للركاب.

[3] أزوارهن: جمع زور.

[4] ينوشن: لا يلامسن.

[5] عوص: شديدات.

[6] العرمص: الناقة الصلبة.

[7] شغموم: الناقة الطويلة المليحة.

**هجنٍ عمانيّات من نسل علكومِ		ياطن ويطون العشر ليلتينِ**

وما قاله كعب بن زهير:

**غلباء وجناء علكوم[1] مذكرة		في دفها سعة قدامها ميل**

وهنا تبدو لنا مسألة تستحق الوقوف عليها، فكعب رضي الله عنه شاعر بدوي، وشاعرانا الآخران بدويان أيضاً إذاً فمن أين جاء هذا الاختلاف في اللغة؟

ونحن نعلم أن البدو في باديتهم ـ وخاصة الذين لم يختلطوا بالحاضرة منهم ـ ما يزالون على نقائهم منذ أيام كعب وحتى زمننا هذا لم يخالطوا غيرهم من الأمم، ولم يحتكّوا بغيرهم ممن تسرب إليهم اللحن في اللغة كأهل المدن مثلاً.

فهل هو لحن جلبوه معهم في أسفارهم؟ أم تراهم لحنوا بكلمة ثم بعد حين لحنوا بالثانية ثم الثالثة فالرابعة وهكذا حتى عمّ اللحن معظم لغتهم؟ أم أنهم بمرور الزمن فسدت فطرتهم فأضاعوا قواعد اللغة التي كانوا ينطقونها عفواً، فانحدرت لغتهم إلى الحال التي نراها عليها الآن؟

إن الجواب على مثل هذه الأسئلة وغيرها يبقى ضرباً من الظن، ونتركه للمشتغلين بهذه الصنعة من علمائنا، علّهم يجدوا لنا جواباً يفسر هذا التباين بين لغة البدو في عهودهم الأولى ولغتهم اليوم وهم على ما هم عليه من ظروف اجتماعية وجغرافية واقتصادية، اللهم إلا ما جاء به الإسلام على أن هذا لم يبدل شيئاً في اللغة، بل زادها ثروة وأغناها بما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

وعلى أية حال فإن لغة أهل البادية الأقحاح، الذين لم يختلطوا بالحاضرة، سواء قبائل شبه الجزيرة العربية أو قبائل بلاد الشام والعراق، وأخص منهم عشيرة الروله، فهي مثال حي للبداوة الأصيلة لاعتمادها البادية منتجعاً دائماً لها، فهؤلاء لا يتكلمون إلا ما كان مشتقاً من العربية الفصحى أو ما كان أصيلاً فيها.

وإنه وإن اختلف عندهم لفظ بعض الكلام، إلا أنه في حد ذاته عربي أصيل لا غبار عليه، ولهجتهم أقرب لهجات العرب قاطبة إلى الفصحى، وهم ينصبون المنادى المضاف فعندما ينادون (أبو زيد) يقولون (يا أبا زيد). وإذا ما أراد أحدهم أن يحذر الآخر وينهاه عن فعل أمر ما يقول له: إياي وإياك أن تفعل كذا وكذا.

[1] علكوم: الشديدة من الأبل.

ويقولون عن شراب الصباح: الصبوح، وعن شراب المساء: الغبوق، وعن الهجوم على الأعداء ليلاً: البيات، وعن الهجوم صباحاً: الصباح، وعن مقدمة القافلة في أثناء المسير من الخيالة والراكبين على الإبل: السلف، وعن مؤخرة القافلة: الساقة.

وقس على ذلك أسماء الهيئات الطبيعية في صحرائهم، فهم يسمون المنخفض العميق من الأرض حيث تجري المياه: (وادي) أو (شعيب) وروافد الوادي (فروع) ومفردها (فرع) وروافد الفرع (تلاع) ومفردها (تلعة)، والمنخفض من الأرض الذي يفيض فيه وادٍ أو عدة أودية: (مفيض) أو (فيضة) وجمعها (أفياض) أو (مفايض)، والمرتفع المستطيل من الأرض يسمونه (الحزم) وجمعها حزوم، والأرض المرتفعة قليلاً عما حولها تسمى (العدوة) ويتخذونها مكاناً يبنون فوقه بيوتهم في فصلي الشتاء والربيع، لتفادي خطر السيول. وكذلك أجزاء بيت الشعر عندهم. فمقدمة البيت من الأمام تسمى (الشفا) والعمود الذي يرتفع عليه البيت من الوسط (الواسط) وقد أوردنا تسميتها عند الحديث عن بيت الشعر عند البدو.

وكذلك أسماء الأشجار والأعشاب التي تنبت في صحرائهم.. الخ، وهي أسماء وجدت منذ أن وجد بيت الشعر إلى يومنا هذا، لم تتغير ولم تتبدل، فالشيح هو الشيح، والقيصوم هو القيصوم.

ففي مجلس من مجالس النعمان بن المنذر ضمّ بعض زعماء العرب، قال قائل: من يجير لطائم النعمان هذا العام وهي في طريقها إلى اليمن؟ فقال أحدهم: أنا أجيرها على كنانة.

وقال آخر: أنا أجيرها على أهل الشيح والقيصوم.

وما يزال شجر الشيح والقيصوم إلى الآن مرتعاً لإبلهم ووقوداً لنارهم، لم يتغير اسمهما وقس على هذا أعمار إبلهم وبقية أشيائهم.

ونحن نعلم أن علماءنا الأوائل، جزاهم الله عنا خيراً، يوم وضعوا لنا قواعد اللغة وأرسوا أسسها اعتمدوا في ذلك على مصادر ثلاثة هي:

1ـ القرآن الكريم

2ـ السنة النبوية الشريفة.

3ـ ما قالته العرب.

أما القرآن الكريم، فهو بين أيديهم كما أنزل على نبيهم ρ، لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد تعهده الله تعالى بحفظه منذ أن أنزل، حتى يرث الأرض ومن عليها.

وأما السنة الشريفة فهي كما رواها أصحاب رسول الله ρ عن نبيهم وهو الذي أنزل عليه القرآن وأطاع له البيان وأوتي جوامع الكلم، لا ينطق عن الهوى وقوله فصل الخطاب، وصحابته رضي الله عنهم حريصون على رواية حديثه كما سمعوه منه معنى ولفظاً، والذي أشكل عليهم لفظه أوردوه بتعبيرهم متحرين الدقة في ذلك ما أمكنهم، وهم أصحابُ محمدٍ ρ وتلاميذُه، وكلامهم حجةٌ في اللغةِ ما في ذلك من ريب.

وأما بخصوص ما قالته العرب، فقد خرجوا إلى البادية لينهلوا هناك من منابع اللغة الصافية حيث لا لحن ولا عجمة، فسألوا وكتبوا حتى جمعوا ما شاء الله لهم أن يجمعوه.

ولكن هنا سؤال يطرح نفسه: هل جمع علماؤنا كل شيء ولم يتركوا شاردة ولا واردة ولا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها؟ لا أعتقد أن أحداً من المشتغلين باللغة من علمائنا وكتابنا اليوم، يستطيع أن يقول جازماً: نعم.

وعليه فإنه لا يستطيع أحد أن ينكر على البدو شيئاً من لغتهم، لأنهم هم صانعوها ومصدروها وأصحاب الحل والربط فيها، وعنهم أخذت العرب، ولعل بعض ما ننكره عليهم نحن المتأخرين، هو مما كان قد أفلت من أيدي أولئك الباحثين القدامى.

على أن كلام البدو في مجمله لو أخضع لمصطلحات الإعراب وقواعده، لأزيلت عنه شوائب اللحن ولبدا جميلاً براقاً أصيل الجوهر.

وليت أصحاب الاختصاص في اللغة اليوم يضيفون قليلاً من الجهد إلى ذلك الجهد الكبير الذي بذله أولئك النفر من السلف الصالح، فيخرجون إلى البادية علّهم يغنون رصيد العربية بشيء خفي على من كان قبلهم والخوف أنهم لن يجدوا أحداً لأن الدعوة جاءت متأخرة.

وعلى كل حال، فإن من حق الفصحى علينا أن نأخذ بيدها ونقيها من السقوط فنرفع العامية إليها، لا أن نهوي بها إلا العامية، وليس من الوفاء للغة الضاد أن نقف واجمين حائرين نذرف عليها الدموع ونحن نرى العامية تبتلعها ولا نفعل شيئاً أو نقدم حلاً، فماذا علينا لو جعلنا الفصحى لغة المخاطبة في المدرسة بين المعلم وتلاميذه، وبين التلاميذ أنفسهم داخل الصف وخارجه، ثم نقلنا ذلك إلى معاهدنا وجامعاتنا، وبعدها إلى دوائر الدولة الرسمية، فجعلنا الفصحى لغة المخاطبة بين الرئيس والمرؤوس وبين المرؤوسين أنفسهم.

ثم أنشأنا لها الجمعيات ذات الكوادر المختصة، للدعوة إلى التكلم بالفصحى، وسخّرنا لها أجهزة الإعلام، وخصصنا لها من الإمكانات معشار ما نخصصه لكرة القدم، وأن ينطلق أعضاء هذه الجمعيات رسلاً للتشجيع والحضّ على التكلم بها، وأن يطوفوا على كافة المؤسسات والأحياء والأسر، ويعقدون لذلك الندوات حتى تصبح الفصحى لغة البيت والمدرسة والشارع، إننا لو فعلنا هذا لازداد قدرنا، وعظم شأننا، وكبرنا في عيون الناس.

ولو أن دولة من الدول العربية سلكت هذا السبيل، فإنه لن يمضي عليها بضع سنوات إلا عادت إليها الفصحى سليمة معافاة، يتكلمها جميع مواطنيها حتى الأميين منهم، ولكانت سابقة خالدة لها الفضل فيها وسوف يحذو حذوها بكل تأكيد جميع من تهمهم لغة الضاد.

إن هذه دعوة مخلصة صادقة فهل من مجيب؟؟

وتذكرة فهل من مُدَّكر؟.

الإبل عند البدو:

لا شيء أكثر خيراً وأعمَّ نفعاً، وأشد التصاقاً بحياة البدو اليومية، من البعير هذه النعمة التي أنعم الله بها على خلقه، في زمن لم تعرف فيه وسيلة نقل برية أفضل منها، لا سيما في الصحارى المترامية الأطراف، التي يصعب السير فيها على الحيوانات ذوات الحافر كالخيل والبغال والحمير، بينما يتهادى البعير فوق رمالها الناعمة العميقة بخفه الطري المستدير بسهولة ويسر، وكأن الله تعالى خلقه لمثل هذا النوع من الأرض، وعلى ظهر هذا البعير يضرب البدوي في الصحراء الواسعة، ويحمل عليه أثقاله ويتغذى بلبنه ولحمه، ويصنع من وبره متاعاً وبيتاً ولباساً، قال تعالى: ﴿أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿وآية لهم أنّا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾[2].

والمقصود بقوله تعالى: من مثله ما يركبون الإبل وغيرها من دواب الركوب، ومن أجل أن يكون البعير قادراً على حمل الأثقال إلى مسافات بعيدة، ولكي يزيد الله سبحانه وتعالى في قوة جسمه خلق ظهره على شكل قنطرة ليزيد فيه متانة وقوة، ولفت نظر العربي إلى التفكير في هذه الخلقة حين قال سبحانه وتعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾[3].

وفي الإبل مجال تفاخر البدو وتكاثرهم بالأموال، ومقياس ثروتهم وغناهم، ولا شيء أجمل وأمتع في نظر البدوي من قطيع الإبل وهو ينساب منتظماً صباحاً متجهاً نحو مراعاه، قال تعالى مخاطباً العرب وهو أعلم بما يسرّ خلقه وبما يسوءهم: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾[4].

وأحب العرب وخاصة البدو منهم، هذه النعمة المهداة من الله تعالى، فوصفها شعراؤهم بخير الوصف، وقالوا فيها أجمل الكلام، وبذلوا من أجلها المهج والأرواح، وشدوا إليها الرحال، ومن أجلها تشن الغارات على الأعداء لكسبها وإكثارها، ومن أجل حماية مائها ومرعاها توقد نار الحرب وتُربط الخيل، ويسمونها: (عطايا الله) جمع عطية.

ولشدة محبتهم لها وإعجابهم بها، شبهوا بها النساء الجميلات الأجسام، فشبهوا الفتاة الجميلة القوام الممتلئة الجسم بالبكرة (وهي الشابة من الإبل)، ويسمى البدو الكرائم من إبلهم بأسماء خاصة تعرف بها، مثال: شرهة، درجة، الرمانة، شعيلة، ريمة، الغزالة، الخ. ويعلقون في رقابها صغار الأجراس وفي ذراها وغواريها الزينة من الصوف الملون، أو ذيول الثعالب والنسيج المرّصع بالودع والخرز.

---

(1) سورة يس – الآيات 71- 73.

(2) سورة يس الآيات 41-42.

(3) سورة الغاشية الآية 17.

(4) سورة النحل الآية 6.

أعمار الإبل:

يسمى صغيرها بعد أن يولد: حوار، فإذا أتّم السنة من عمره سمي: مخلول وفي هذه المرحلة من السن يفصل عن أمه، ويمنع من الرضاعة، ومن أجل هذا يوضع في أنفه خلال من الخشب يرتكز قائماً في أعلى الأنف متجهاً إلى الأعلى، فإذا ما اقترب الفصيل من أمه ليرضعها، طعنها الخلال في بطنها قريباً من ثديها أو في ثديها نفسه فتنفر منه، وتمنعه من الرضاعة، ولهذا سمي الفصيل: مخلول لأنه يوضع في أنفه الخلال.

فإذا أتم السنتين سمي: مفرود كونه ينفرد نهائياً عن أمه ويبحث مستقلاً عن مرعاه، وإذا أتم ثلاث سنوات سمي: حق والأنثى حقه، وربما جاءت هذه التسمية كونه يحق لصاحبه أن يحمل عليه خفيف المتاع أو أن يركب عليه، فإذا أتم أربع سنوات سمي ثني والأنثى ثنيّة، وإذا أتم الخمس سمي رباع والأنثى رباعية، ثم الخماس وهكذا.

فإذا تقدمت الناقة بالسن وشاخت سميت (فاطر)، وإذا شاخ فحل الإبل سمي (هرش) ويسمون المفرود: حاشي وجمعها عندهم: (حشو) ويطلقونه على الذكور والإناث.

ألوان الإبل:

اللون المفضل للإبل عند البدو هو اللون الأبيض، وتسمى الأنثى البيضاء (وضحاء) والذكر (أوضح)، إلا أن لهذا اللون من الإبل محاذيره، لأنه يرى من مسافات بعيدة في الصحراء الخالية من الهييئات الطبيعية في أكثر أنحائها، وحيث ينتهي النظر إلى الأفق دون أن يعترضه حاجز مما يجعلها عرضة لغارات الأعداء، ولذلك فإنهم يتحاشون اقتناءها، ولا يقتنيها إلا الفرسان الأشداء الذين يستطيعون حمايتها من غارات الأعداء، وتغزّل بهذا اللون الجميل شعراء البدو وشبهوا به جميلات العذارى والبيض منهن، قال أحدهم شاكياً من يحب:

نحفت أنا وأنت تدري بي مثل الخشب بيد نجارة

يا شبه وضحا المواهيب ما رد ردوها على حوارة

حواره: فصيلها.

وقد عرفنا أن الوضحا من الإبل هي البيضاء، والشاعر يشبه من يحب بالبكرة الوضحاء التي لم تلد بعد ولم يتلوها حوارها، واشتهر فخذ المواهيب من عشيرة السبعة باقتناء هذا اللون من الإبل، ويسمى القطيع من النوق البيض (المغاتير) أو (مغاتير).

والحمراء: هي ذات الوبر الأحمر.

والشعلاء هي ذات اللون الشبيه بلون العسل (قليل من البياض يخالطه قليل من الحمرة).

والملحاء: وهي ذات اللون الأسود الشديد السواد.

والصفراء: وهي ذات اللون الأسود المشوب بحمرة فأصبح أسود قاتماً، وقد ورد في الذكر الحكيم وصف لشرر نار جهنم، أعاذنا الله منها، قال تعالى: ﴿**إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر**﴾[1].

والزرقاء: هي ما اختلط لون السواد في وبرها بالبياض وكان السواد هو اللون الغالب، والشقحاء: وهي ما اختلط لون البياض في وبرها بالسواد أو الحمار، وكان البياض فيها الغالب، والسحماء: وهي ما كان لونها خليطاً من السواد المشوب بحمرة.

أنواع الإبل:

الإبل كالخيل عند البدو، منها الأصيلة المعروفة النسب، ومنها غير ذلك، ومنها ما هو مخصص للركوب، وتسمى نياق الركوب (الهجن) ويقال للأنثى منها (حرة) وللذكر (حر)، ولها أنساب وأوصاف تميزها عن النياق المخصصة لحمل المتاع، فهي أصغر حجماً وأضمر بطناً وأصغر وأجمل رأساً من غيرها من الإبل وتمتاز بسرعة الجري والصبر على قطع المسافات الطويلة والجرأة على السير في الليالي المظلمة، ويقال للجريئة منها (جسرة)، ويسمون هذا النوع من الإبل أيضاً الذلول، لأنها سهلة القياد، مطيعة لراكبها يوجهها بالعصا أينما يريد.

قال امرؤ القيس وهو في طريقه من اليمين إلى ملك الروم بالقسطنطينية:

فدع ذا وسلّ الهمّ عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجّرا

تقطع غيطاناً كأن متونها ... إذا أظهرت تكسى ملاءً منشراً

كأن صليل المروحين تشذه ... صليل زيوف ينتقدن بعبقرا

وقال غيره:

وجسرة لا يكاد الطرف يدركها ... راحت تلاطم جلموداً بجلمود

ناديتها ووميض البرق يؤنسها ... والليل يجزع منه كل صنديد

(1) سورة المرسلات الآيات 31-32.

والجسرة من الإبل هي كما أسلفنا الحرة الجريئة على دلج الظلماء في الليالي الممطرة السوداء. والشاعر هنا يثني على ناقته لجرأتها على السير في ليلة ظلماء، يخاف السير فيها الشجاع القوي من الرجال، وليس لها مؤنس سوى وهج البرق الذي يضيء لحظة ثم ينقطع، فتتابع السير فيه غير هيّاب، وأصوات الجلاميد المتطايرة أمام خفيها تؤنس مسامع راكبها، وهي لسرعتها لا يكاد الطرف يدركها، وقد بالغ الشاعر في الثناء على ناقته على كل حال.

ولا أرى خيراً مما قاله كعب بن زهير في قصيدته التي امتدح بها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام واعتذر له فيها، وهو يصف الذلول التي توصله إلى أرض سعاد البعيدة:

أمست سعاد بأرض لا يبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيلُ
ولن يبلغها إلا عذافرة ... فيها على الأين أرقال وتبغيلُ
من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت ... عرضتها طامس الأعلام مجهولُ
ترمي الغيوب بعيني مفردٍ لهقٍ ... إذا توقدت الحزان والميلُ
ضخم مقلدها فعم مقيدها ... في خلقها عن بنات الفحل تفضيلُ
غلباء وجناء علكوم مذكرة ... في دفها سعة قدامها ميلُ
وجلدها من أطوم ما يؤيسه ... طلح بضاحية المتنين مهزولُ
حرف أخوها أبوها من مهجنة ... وعمها خالها قوداء شمليلُ
يمشي القراد عليها ثم يزلقه ... منها لبان وأقراب زهاليلُ
عيرانة قذفت في اللحم عن عرض ... مرفقها عن بنات الزور مفتولُ
كأن ما فات عينيها ومذبحها ... من خطمها ومن اللحيين برطيلُ
قنواء في حرتيها للبصير بها ... عتق مبين وفي الخدين تسهيلُ
تمر مثل عسيب النخل ذا خصلٍ ... في غارزٍ لم تخونه الأحاليلُ
سمر العجايات يتركن الحصى زيماً ... لم يقهن رؤوس الأكم تنعيلُ
شد النهار ذراعي عيطل نصفٍ ... قامت فجاوبها نكد مثاكيلُ

شرح القصيدة:[1]

المراسيل: الإبل الخفاف التي تعطيك ما عندها عفواً.

وكعب يقول: لا يوصلني إلى سعاد إلا مثل هذه النوق النجيبات العتاق، والعتاق: المكتملة البناء والتي لها قدرة على قطع المسافات البعيدة، والنجيبات: كرام الإبل المعروف نسبها والكريمة الطبع.

**ولن يبلغها إلا عذافرة		فيها على الأين أرقال وتبغيل**

العذافرة: الشديدة الغليظة، والأين: الإعياء، والأرقال: أن تعدو وتنفض رأسها، والتبغيل ضرب من الهملجة وهو مشي فيه سعي.

**من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت		عرضتها طامس الأعلام مجهول**

يقول: إن هذه الناقة لعرضة للسفر قوية عليه، والعرضة: الهمة، وطامس الأعلام المجهول من الطريق الذي لا علامة فيه يستدل فيها، وكأن هذه الناقة خلقت لمثل هذه المهمات الصعبة.

**ترمي الغيوب بعيني مفرد لهق		إذا توقدت الحزان والميل**

المفرد: الواحد من بقر الوحش الذي انفرد عن القطيع وضل الطريق، وهو يحدق النظر مشدوهاً، لعله يرى قطيعه فينضم إليه، ويعني أن هذه الناقة تشبه وقت ضربها في مجاهيل الصحراء الثور الوحشي الذي تخلّف عن أصحابه في حدة النظر وخفة الحركة والنشاط.

**ضخم مقلدها فعم مقيدها		في خلقها عن بنات الفحل تفضيل**

وضخم مقلدها: غليظة الرقبة حيث توضع القلادة، هكذا أرادها كعب رضي الله عنه، ولكن المستحسن من النجائب ما يدق مذبحها، ويعرض منحرها، ويرفع أعلى عنقها، والفعم الممتلئ والمقيد من الدابة هو الرسغ حيث يوضع القيد، وبنات الفحل هن النوق.

**غلباء وجناء علكوم مذكرة		في دفها سعة قدّامها ميل**

**وجلدها من أطوم ما يؤيسه		طلح بضاحية المتنين مهزول**

والغلباء: الغليظة، والوجناء: عظيمة الوجنتين، ومذكرة أي أنها في قوتها وعظم خلقها كذكر الإبل، وفي الشطر الثاني من البيت كناية عن طول عنقها، والأطوم: السلحفاة البحرية، ويؤيسه: يؤثر فيه، والطلح: القراد، ويعني أن جلدها قوي أملس لسمنها وضخامتها حتى أن القراد الهزيل من الجوع لا يستطيع

[1] أخذ الشرح من ديوان كعب بن زهير بتصرف.

الالتصاق بها لملامسة جلدها، وقد أراد كعب رضي الله عنه أن يجمع لناقته المتانة والقوة والسمنة مع السرعة في السير لتستطيع قطع هذه المفازة المخيفة، ثم يصف نسبها قائلاً:

حرف أخوها أبوها من مهجنّة وعمها خالها قوداء شمليل

القوداء: طويلة العنق، والمهجنة أي من إبل أصيلة النسب وأخذت من الهجان وهي الإبل البيض الكرام، والشمليل: الخفيفة. وحرف أخوها: أي أصيل أيضاً، والبدو يقولون عن الأصيل من الإبل: حر، والأنثى حرة، وربما اشتقت إحدى الكلمتين من الأخرى والمعنى أن أخاها الحر نزا على أمها فجاءت هذه الناقة حرة ابنة حرة.

ثم يصف نعومة وبرها وجلدها فيقول:

يمشي القراد عليها ثم يزلقه منها لبان وأقراب زهاليل

والأقراب: الخواصر جمع قرب، والزهاليل: الملس، واللبان: الصدر، فهي لنعومة جلدها مع متانته لا يستطيع القراد الذي ضرب به المثل بالالتصاق أن يمشي عليه.

عيرانة قذفت في اللحم عن عرض مرفقها عن بنات الزور مفتول

العيرانة: أنثى حمار الوحش التي سمنت واكتنزت ولكنها مع ذلك لم تفقد جمال الصورة التي يجب أن تكون في كرائم الهجن فهي مفتولة المرفق، بعيد مرفقها عن زورها فلا يلتطم به أثناء السير، وهذا ما يستحب في النجائب ويستحسن.

كأن ما فات عينيها ومذبحها من خطمها ومن اللحيين برطيل

والبرطيل: الحجر المستطيل، ولكن كيف تصور الشاعر هذا الحجر وكيف يريده أن يكون ليشبه به رأس ناقته، أهو حجر أبيض أملس ناعم ينحني من أحد طرفيه قليلاً ليشبه أنف البعير، أية ناقة هذه التي أرادها كعب؟

قنواء في حرتيها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل

قنواء: في أنفها كالحدب، وحرنيها: أذناها، والعتق: كرم الأصل، ويعني أن هذه الناقة لها صفات متميزة، فما أن ينظر إليها الخبير بالإبل، حتى يعرف كرم أصلها وفضلها على غيرها من الهجن.

تمر مثل عسيب النخل ذا خصل في غارز لم تخونه الأحاليل

الغارز: صفة للضرع أي أنه خالٍ من اللبن، والأحاليل: مجاري اللبن، ويريد أنها لم تلد فتحلب فيضر ذلك بقوتها.

سمر العجايات يتركن الحصا زيما لم يقهن رؤوس الأكم تنعيل

العجايات: عصب باطن اليد، وزيما: متفرقة وواحدتها زيمة، ويعني أنها تضرب الحصا بخفيها ومنسميها وباطن يديها، فيتطاير أمامها متفرقاً، محدثاً صوتاً له قرقعة، دون أن يكون لخفيها نعلين يقيانهما السير على رؤوس الأكم التي يكثر فيها الحجارة الصوانية في أغلبها.

قال امرؤ القيس يصف ناقته وهي تضرب الحصا بمنسميها:

كأن صليل المرو حين تشذّه صليل زيوف ينتقدون بعبقرا

ثم يصف كعب ذراعي هذه الناقة وهي تقطع البيد في حر ا لهاجرة بذراعي امرأة جاهلية نواحة تلطم بهما على صدرها وخديها فيقول:

شدّ النهار ذراعي عيطلٍ نصف قامت فجاوبها نكد مثاكيل

شد النهار: ارتفاع النهار بعد الضحى، والعيطل: الطويلة، والنصف: هي المرأة بين العجوز والشابة.

وكأن يدي هذه الناقة وقت الهاجرة وقد حميت رمال الصحراء وأوى كل حي إلى ظل يقيه حر الشمس فأنت إذ تنظر لا ترى إلا السراب الذي يغرق الآكام ويطفو بالسهل في هذا الجو المميت ترى ناقته تنهب الأرض بذراعيها، تتوقد خفة ونشاطاً غير متأثرة بالحر الشديد وكأنها خلقت لمثل هذا.

هكذا تكون النجيبة من الركاب: عتيقة، نجيبة، مرسال، قنواء، وجناء، علكوم، شمليل، لها قوة فحل الإبل، وخفة الفحل من حمر الوحش، ولها في الخلق فضل ومزية على بنات جنسها.

لا أعتقد أنّ هناك وصفاً للناقة الذلول يفوق أو يساوي هذا الوصف، ومن أجل ذلك أجده نموذجاً مثالياً للكريمة من الهجن، ومهما أسهب الشعراء وجاد خيالهم في انتقاء الكلم، فلا يجيئون بأفضل من هذا..

ووصف شعراء البدو هذا النوع من النياق واختاروا لها أحسن التشابيه بلهجاتهم البدوية، ولكنهم جميعاً يقفون بوصفهم عند عتبات البردة مهما جاد خيالهم وأسعفت قريحتهم.

وشعراء البدو يختارون في قصائدهم أفضل النجائب لتحمل رسائلهم إلى من يحبون، أو إلى صديق عزيز عليهم، أو تنقل لهم عبارات التحدي إلى الأعداء، ويختارون لها الركاب الأدلاء المهرة، الخبراء بالسرى

ومسالك الصحراء، حيث لا علامة يهتدي بها، وغالباً ما يرسمون لهم الطريق ويحددون لهم الهدف ويوضحون لهم المهمة.

فتعال معي نرى ماذا قال هؤلاء البدو ولك أن تقارن بين ما قالوه وبين ما قاله البدوي الصحابي كعب رضي الله عنه.

قال الشاعر أبو ركبان:

من بعد ذا يا راكب كنّس كومْ غير الأفيحج فوقهن الرديني

عوصٍ عراميصٍ مراميصٍ شغمومْ هجنٍ عمانيات وجنٍ هجيني

هجنٍ عمانيات من نسل علكومْ ياطن ويطون العشر ليلتين

يتلن دليلتهن من الدو ملظومْ دبوس ليل وبالمساري بطيني

عشوا[1] وعشن عدهن ربد[2] بجزوم[3] وتلافتن لعيونهن تقل تيني

والكنش: السمان، والكوم: مرتفعات السنام، ومفردها كوماء، والأفيحج والرديني: هو إشارة تكوى بها الإبل لتعرف منها ويسمونها الوس، والرديني: هو وسم إبل الشعلان من الرولة والعوص: الإبل المتان القوية، وهي جمع عوصاء.

وكلُّ الكلام في البيت الثاني هو صفات متميزة في هذه النياق، وفي الشطر الثاني من البيت ينسبهن الشاعر إلى بلاد عمان التي اشتهرت بهذا النوع الكريم من الهجن.

والوجن: عريضات الوجان ومفردها: وجناء، وترى التشابه واضحاً في بعض الأوصاف بين ناقة كعب رضي الله عنه ونياق أبي ركبان.

قال الشيخ طراد الملحم:

يا راكب اللي حوارها ما تلاها حرة نزاق ولا تداني فحلها

فوقها غلامٍ بسيره قداها قرمٍ وصاتي للجماعة نقلها

وفي قوله: حوارها ما تلاها، يعني أنها بكر لم ينزُ عليها الفحل بعد، ولم تلد ولم يتلوها حوارها، والحوار: صغير الناقة، ولماذا اختار طراد هذه الناقة الحرة التي لا تطيق الفحل لشراسة طبعها.

---

(1) أقاموا للعشاء.

(2) جمع ربداء: النعامة.

(3) بمرتفعات من الأرض مستطيلة.

إنه اختارها ليمتطيها هذا الغلام القرم العارف بمجاهل الطريق، فيوصل رسالته لأهله ومن بقي من عشيرته في الديرة، يستنهض هممهم للرحيل واللحاق به في الحماد.

وفي الرسائل المتبادلة بين نمر بن عدوان وجديع بن قبلان نرى هذا النوع من الاختيار للهجن وركابها، ففي إحداهها:

يقول نمر بن عدوان:

يا راكب اللي كنها المحظي والا الوضيحي يا حمد يوم ياضي

فوقها غلامٍ بالخلا لك يفضي بهلولٍ ما هو خطاة العكاظي

والوضيحي: البرق، كناية عن سرعة الناقة، ثم يصف في البيت الثاني راكب هذه الناقة الذي يحمل رسالته إلى جديع بأنه غلام واسع الخلق، كريم الصفات، مبتهج دائماً ليس بالنكود ولا بالزعول، يؤنس رفيقه في الطريق ويذهب الهم عنه، إنه بهلول.

وفي قصيدة أخرى يرسلها نمر إلى جديع بن قبلان يقول:

يا راكب اللي لها البعد قربِ حمراء سمردة تفوج السراب

حوران باليمنى ودع الشام غربِ بحمص وحماة تذكر منازل أحبابي

وفي قوله: لها البعد قرب: كناية عن سرعتها، فهي بذلك تقرب البعيد ثم نرى أنه حدد له الطريق في البيت الثاني، وعيّن له الهدف الذي ينبغي أن يصل إليه وهو: منازل الأحباب في حمص وحماة وهم الحسنة عشيرة جديع بن قبلان.

وقالت إحداهن في رسالة لها إلى جديع بن قبلان:

يا راكب من عندنا فوق عنسي عنسي ولد عنسيةٍ من عمانِ

تمد من الصمان بالشام تمسي والعصر في بيبان حمص الأدانِ

والعنسي: القعود الذلول الأصيل النسب من بلاد عمان التي فيها هذا النوع من الهجن السريعة وهنا أيضاً تتحدد الشاعرة لراكب القعود العنسي معالم الطريق، وتعين له نهاية الهدف وهو: أبواب حمص الدنيا..

والناقة التي يركبها راعي الإبل ويحمل عليها زاده ومتاعه تسمى: (الرحول)، وتنتقى عادة من النياق المتقدمات في السن واللواتي يألفهن القطيع، ويوضع على ظهر الرحول: الوثر وهو من نسيج الوبر أو الصوف محشو داخله

بالقش أو من هشيم الأرض أو الوبر ومطوي على شكل نعل فرس ليظهر منه سنام الناقة، وفوق الوثر يوضع اللبيد وهو ما يشبه الخرج، يضع فيه الراعي زاده ومتاعه وعقل الإبل وحينما يريد الراعي المسير بالقطيع نحو جهة معينة يركب الرحول، ويطلق حداء خاصاً يعرفه القطيع ويألفه ثم يسير بالرحول فينساب القطيع خلفه.

ولكل قطيع من الإبل حداء خاص يسمى (المشياع أو الشياعة) كأن يقول الراعي: شوعل بصوت عالٍ أو (يا ولد هيه) أو أية كلمة أخرى يرددها الراعي بصوت عالٍ فيعتادها القطيع، ويعتاد كذلك صوت الراعي، فإذا اختلطت قطعان الإبل بعضاً ببعض ركب كل راع رحوله وسار بها نحو جهة معينة، يطلق الحداء المخصص لإبله بصوت عال ملّحن، فينساب خلفه القطيع آتياً من كل حدب وصوب.

وتسمى الحلوب في الأشهر الأولى لولادتها: خلفة وجمعها خلفات، قال راعي الخلفة ساعة أغار عليه الأعداء ولم يكن بمقدوره الدفاع إلا عن بعير واحد وهو راجل فاختار الخلفة فعقلها وقاتل دونها الخيل، فكلما اقترب منها فارس ضربه بسيفه حتى حماها، وذهبت الخيل بباقي القطيع فقال:

حولت[1] عند الخلفة[2] أم الجمايلْ ... أبوي من دافي لبنها سقاني

وصدرت[1] عنها باللقا كل عايلُ[2] ... وربي على جدع[3] المجوخ[4] هداني

وهكذا حفظ راعي الخلفة الود واعترف بالجميل لخلفته، ولم ينس يوم كان صغيراً لبنها الطيب الدافئ الحلو المذاق، لما كان يأتيه به أبوه كل صباح، وها هو حين هاجمت الخيل قطيع إبله يرد لخلفته ذلك الجميل، فيذود عنها بسيفه تاركاً ما سواها من الإبل فهي أولى من غيرها به.

فإذا انتهى الصيف تسمى عشراء، والتي يموت ولدها بعد الولادة مباشرة تسمى (خلوج) وضرب بها المثل في الحزن والحنين على ولدها، وأحياناً تروم هذه الناقة راعي الإبل فتظنه ولدها فتقف عليه وتدر اللبن فيحلبها، ويسمى هذا النوع من النياق (المسوح).

وتسمى الناقة في بداية حملها (معشّر) فإذا تقدم بها الحمل تسمى (لقحة) وإذا اقتربت من الولادة تسمى (موطي) موطئ، ويذبح ولد الناقة الصغير للأضياف أو لأمر ما، فيسلخ جلده ويحشى بالقش

---

[1] ترجلت.

[2] الناقة الحلوب في الأشعر الأولى من ولادتها.

[1] هزمت عنها.

[2] باغي.

[3] قتل.

[4] الفارس الذي يرتدي ثياب الجوخ.

فيسمى (بوّ) وتقف الناقة على هذا البو الذي تحسبه ولدها فتدر وتحلب، وقد تشترك ناقتان في بو واحد فتقف الاثنتان عليه وتدران وتسمى كل واحدة منهما في هذه الحالة مجمعة لأنهما يشتركان في الإدرار على بوّ واحد.

وتحلب الناقة واقفة من الجانب الأيسر، ويمسك حالبها القدح بشماله ويحلب بيمينه، ولا تحلب من الجانب الأيمن، لأنها ربما تسير أو تحرك رجلها فتضرب القدح بثفنتها.

وقد يقول من تعجبه قوته وكثرة قومه (**مردود النقا على كل من حلبها من يسار**)، ويعني أنه يتحدى البدو جميعاً لأنه ما من بدوي إلا وحلب الناقة من اليسار.

المقهور: وعندما ينتشر قطيع الإبل في المرعى ويبتعد عن الراعي، يحتفظ الراعي بالحيران والمتقدمات بالسن من النياق ورحول الإبل وتسمى هذه المجموعة (المقهور)، وإلى هذا المقهور يعود القطيع مهما ابتعد لأنّ الخلفات يفتقدن صغارهنّ فيعدن إليها، ولأنّ للمتقدمات بالسنِّ (الفطر) المحتفظ بهن مع المقهور أبناء وبنات في جملة الإبل السارحة، وهذه تفتقد أمهاتها وتعود إليها.

ولتحديد أوقات رضاعة الفصيل من أمه هناك طريقتان:

1. الشملة.
2. الصر.

والشملة: قطعة من الخيش أو الوبر، تزيد مساحتها قليلاً عن مساحة ضرع الناقة، وهي على شكل مثلث قاعدته إلى الأمام، تغطي ضرع الناقة، وتربط من زاويتيها الأماميتين، بقطعة نسيج من الوبر بعرض إصبعين توضع معترضة على آخر ظهر الناقة تسمى (المطرق)، وتثبت الشملة من الخلف بخيط من الوبر يسمى (الشغار) يمر من بين فخذي الناقة ثم يرتفع ماراً بمؤخرة الذنب ويربط بوسط المطرق من الخلف، ولكيلا ينزلق المطرق من الخلف يربط بخيطين يمتدان على جانبي الناقة ويثبتان بحزام من نسيج الوبر بعرض إصبعين يسور وسط الناقة ما بين الكتف والسنام، وتسمى هذه المجموعة المؤلفة من الحزام والخيطين (العدة)، ويزين المطرق أحياناً بالوداع والخرز الأزرق والأهداب الملونة.

أما الصّر: فيتم بخشبتين صغيرتين رقيقتين يسميان (التوادي)، يثبت على أحدهما شطراً الضرع الأيمنان وعلى الأخرى الشطران الأيسران بوساطة خيط من الوبر يلف عدد من المرات حول الخشبة والشطر وتحدد أوقات رضاعة الفصيل، أو حلب الناقة ـ عادة ـ ثلاث مرات في اليوم واحدة صباحاً والثانية إذا انتصف النهار والثالثة مساء.

وتسمى عملية حل الشملة أو حل الصرار عند إدرار الناقة: (الإبهال)، فالبدوي يبهل على ناقته إذا أراد حلبها أو إرضاع فصيلها يقولون: (ابهل على الناقة).

وفي التوادي قال شاعرهم:

مرتع الفطّر عريضات التوادي يرتعنه وأبو من يزعل لعينا

وعريضات التوادي: كناية عن ضخامة شطورهن، لأن عرض التوادي يعني سماكة قطر الشطر. والفطّر: جمع فاطر وهن كبيرات السن من إناث الإبل ويعني أن نياقنا كبيرات السن، غزيرات اللبن، يرتعن حيث اعتدن، واللعنة على من يسوءه ذلك.

قال عنترة العبسي حين طلب منه أبوه أن يكرّ على الأعداء قبل أن يعتقه: أنا عبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلب والصر، فقال له: كر وأنت حر، فكرَّ عنترة ومزق صفوف الأعداء.

ويوضع على ظهر الناقة الذلول (الشداد)، وهو للبعير كالسرج للفرس، وهو قتب من الخشب، يتسع لراكب واحد ينتهي في أعلاه من الأمام ومن الخلف برأسين طول كل منهما نحو من شبر، أحدهما أمام سنام البعير والآخر خلفه، يسميان (الغزلان) وأحدهما (غزال الشداد)، يعلق الراكب فيه نجاد سيفه أو بندقيته ويتمسك الرديف بالخلفي منهما ويوضع فوق الشداد على ظهر الذلول (الخرج) وهو من النسيج الملون والمزين بالأهداب الملونة التي تتدلى على جانبي الذلول حتى حذاء ركبتيها.

وقد يستعاض عن الخرج (بالمزاهب) أو المزاود وهما عدلان صغيرتان تعلقان (بالشداد) واحدة من كل جانب ويزينان أيضاً بالأهداب الملونة وفي الخرج والمزاهب يضع الراكب زاده وحوائجه ويوضع على الشداد فوق الخرج: النطع، ويصنع من جلد الماعز أو الغنم أو الغزال وعلى كتف الذلول يوضع (الدويرع) وهو نسيج ملون مزين بالأهداب يغطي كتف الذلول وتتدلى أهدابه حتى ركبتيها، ويثبت الشداد على ظهر الذلول من الوسط (بالبطان) ومن الخلف (بالحقب)، ومن الأمام (باللبب) الذي يطوق الرقبة عند النحر وعلى مؤخرة ظهر الذلول مكان الرديف توضع (الميركة).

وتقاد الذلول بالرسن وفي حالات خاصة يخرم أنفها ويوضع فيه الخزام، وهو حلقة صغيرة من الجلد أو (الهلب) ـ (شعر كتف البعير) ـ لتكون أطوع لراكبها عند الغارة على الأعداء، ويقي ظهر الذلول من الشداد شيء من قماش أو نسيج يحشى بالقش أو الوبر.

ويقرن البعيران إلى بعضهما من رقبتيهما بحبل فيسميان: (القرن) ـ بفتح الراء ـ ويسمى الحبل الذي يقرنان به (القران) ويحدث هذا عندما يشتري أحدهم بعيراً، يخشى شروده وعودته إلى صاحبه الأول، فيقرنه إلى بعير أقوى منه حتى إذا ألف القطيع أطلقه.

ويسمون خف البعير (الفرسن)، ويسمى كتف البعير (الغارب)، وأعلى السنام (الذروة)، ويكسو الذروة والغارب إضافة إلى الوبر شعر متين يسمى (الهلب) يصنع منه خيطان متينة تستعمل وذماً[1] للدلاء.

ويسمون ركض الناقة الذلول (ذومال)، فإذا نقلت يديها ورجليها معاً أثناء ركضها يسمى هذا النوع من الركض (الربع)، فيقولون: الناقة تربع أو البعير يربع.

وإذا وردوا يوماً وأظمؤوا يوماً، يسمونه غباً وفي القول المأثور: زر غباً تزدد حباً، والغب هو ا ليوم الذي لا يردون الماء فيه، وإذا تألم البعير يرغي وإذا افتقد أليفه يحن ويقال لصوته (حنين) والمعشِّر من الإبل لا ترغي ولا تحن وتكتفي عند زجرها أو ضربها برفع رأسها وذنبها إلى الأعلى ولا نعلم تفسيراً علمياً لهذه الظاهرة، وإذا رفعت المعشّر ذيلها عند زجرها يقولون: (شولت).

وتنفرد الناقة عند ولادتها بعيداً عن القطيع وربما كان السبب ألم الولادة، فتلد منفردة في أغلب الأحيان، وهي في هذه الحالة تنْزع ويقولون: الناقة نزعت ومنها جاء قولهم: فلان أبعد النجعة وأطال النّزع، وإذا ضاع البعير وضلَّ طريقه في البادية، فيرتع منفرداً ويبيت منفرداً يسمونه (هامل) ويطلقونه على الذكر والأنثى.

أمراض الإبل:

أخطر أمراض الإبل خمسة هي:

الهمار: وهو نوع من الإسهال الإنتاني الشديد، يصيب الفصيل الذي أتم عامه الأول، إذا رضع من أمه وهي في بداية حملها، والهمار داء غير قابل للشفاء فلا يزال الفصيل يهزل شيئاً فشيئاً حتى يموت.

الجعام: ويصيب الإبل التي ترعى ما ينبت على ا لدمن (جمع دمنة)، وهي ما تجرفه السيول في بداية فصل الشتاء من أوساخ وروث الحيوان، وما يخلفه البدو في أماكن إقامتهم الطويلة في فصل الصيف، حيث تترسب هذه الأوساخ على أطراف الأودية والأماكن التي تفيض فيها فتشكل منبتاً خصباً للأعشاب إذ تستطيل زاهية مخضرة، تتميز عما حولها، إذا رأيتها يعجبك طلعها، فتجذب إليها الإبل

[1] هو الخيط الذي يربط الدلو إلى (العراقي) وهما الخشبتان المتصالبتان اللتان يربط بهما الرشأ.

وتلتهمها بنهم، ولكنها مرتع خبيث في منبت سيء تحتوي على الداء الدفين، وهذا هو التفسير اللغوي للحديث الشريف: ((إياكم وخضراء الدمن))، ويقال للبعير المصاب بالجعام (مجعوم) والجعام علّة غير قابلة للشفاء تنتهي بموت البعير.

الكلبة: هي داء داخلي يصيب البعير في أحد جنبيه قريباً من إحدى الكليتين، أو قريباً من السرّة ويأتي على شكل نوبات متقطعة من الألم ثم تزول لتأتي بعد حين، ويموت البعير في إحداها، وإذا بيع البعير أو الفصيل ثم ظهر عليه أحد هذه الأمراض الثلاثة (الهمار، الجعام، الكلبة) يعاد إلى صاحبه الأول ويسترد ثمنه، لأنه على علم بعلَّة بعيره سواء كانت بادية، أو أنها ستظهر بعد حين، فالذي رعت إبله ربيع الدمن هو على علم بذلك وكذلك من رضع فصيله من أمه بعد حملها، أو من كان بعيره مصاباً بداء الكلبة، لأن هذه الأمراض الثلاثة لا تظهر أعراضها إلا بعد شهور من بدايتها.

النحاز: هو سعال شديد تصاب به الإبل في فصل الشتاء، ويشبه في أعراضه السعال الديكي عند الآدميين، ولا خطر من الإصابة به إذ يشفى بعد فترة قصيرة، بيد أن البعير لا يسترد عافيته إلا بعد عام، ويعالج بحقن فمه صباحاً ومساءً بحساء ساخن يصنع لهذا الغرض يتكون من العدس، أو القمح المجروش، أو أي مادة أخرى من طعام أهل البيت.

الجرب: ويظهر على شكل حبيبات تنتشر على السطح الخارجي لجلد البعير، فيصاب بحكة شديدة تجعله يحتك بأي شيء يصادفه، فيحتك بأطناب البيت، أو بالأعمدة، أو بغيره من الإبل، فإذا لم يجد ما يحتك به يتمرغ على الأرض، والجرب مرضٌ مُعْدٍ ينتقل من البعير المصاب إلى البعير السليم بالملامسة، أو عن طريق الشمّ، أو بالتمرُّغ في مراغةٍ مرَّغُ فيها البعير الأجرب، وقد ينتقل الجرب من البعير إلى صاحبه الذي يركبه أو يداويه، وأكثر ما يصيب الإبل في فصل الشتاء، ويعالج البعير الأجرب بطليه بالقطران الأسود بعد إزالة الوبر عن جلده، ويفرد بعيداً عن القطيع، ويتحاشاه الرعاة، فيزجرونه ويرمونه بالحجارة حتى يبعدوه.

قال طرفة بن العبد لما أغرق في معاقرة الخمرة وهجره أبناء عمه وعشيرته:

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأُفردت أفراد البعير المعبّد

والبعير المعبد: هو البعير الأجرب المطل ي بالقطران الأسود، وقد يصاب القطيع بكامله بالجرب فيفرد عن باقي القطعان.

الأفراح عند البدو:

الختان (الطهور): أهم الأفراح عند البدو هي أفراح عملية الختان ويسمونها: الطهور، وتقام من أجل ذلك حفلة تستغرق سبعة أيام، وتبدأ الحفلة بصنع دمية من خشب، يضعون عليها الزينة من النسيج الملون المرصع بالودع والخرز، وينصبونها على شفا البيت الأمامي بين الربعة والمحرم يسمونها (المصنّع)، ويبدأ الاحتفال مساء كل يوم بعد أن يعود الرعاة إلى الحي، لأن أغلب شباب العشيرة يكونون نهاراً مع الإبل ولا يختلط الرجال بالنساء في أثناء الاحتفال، فالنساء يجتمعن أمام المحرم يغنين ويعقدن حلقات الدبكة، بينما يجتمع الرجال على شكل دائرة مفتوحة أمام الربعة، ويقف الشاعر في الوسط ويسمونه (القاصود أو القصّاد)، ويقف اثنان من المرددين عن يمينه واثنان عن شماله، ويبدأ القاصود بالغناء ويتبعه المردّدون، ثم يبدأ القوم التصفيق بالأيدي بطريقة منسقة وهم وقوف ويتمايلون على بعضهم مع كل تصفيق تبعاً لألحان القاصود، ويسمون هذا التصفيق: (الدّحة) ويختار القاصود مواضيع معينة لقصائده والتي تقال في مثل هذه المناسبات، كأن يقول:

شيمه عنها يا عويند شيمه عن عين الريميه
شيمه نبغي نلاعبها عسى باللعب نعجبها
نبغي من أبوها نخطبها ونشري للحاشي خاكية

ثم يتبعه المرددون قائلين: هلا هلا بك يا هلا ليا حليفي يا ولد، أو يقول:

حاشيي بكرةٍ شعلهْ واللاّ نواره بمحلهْ
نعمٍ بعيال الحسنة وليا ركبوا الأصايل

أو يقول:

قرونك[1] شقر وطوالِ سبيب[2] الحمرا المشوالِ[3]
راعيها حوّل بالتالي يوم المنايا قرّبنْ

---

(1) ضفائرك.

(2) شعر ذيل الفرس.

(3) التي إذا ركضت شولت.

يشبه الشاعر ضفائر المرأة (الحاشي) إذا نقضتها بشعر ذيل الفرس الحمراء كريمة النسب، والتي إذا ركضت رفعت ذيلها إلى الأعلى أي (شوّلت) فهي مشوال، وعلى ظهرها يحمي راكبها مؤخرة خيل عشيرته من الأعداء المهاجمين وبالتالي: المؤخرة إذا اقتربت المنايا وبلغت القلوب الحناجر.

وتأتي إحدى النساء تلبس العباءة وتضع اللثام، بيدها سيف أو عصا، ترقص[1] بها وسط حلبة الرجال يسمونها: (الحاشي)، ويراقص الحاشي أحد الرجال وسط الحلبة، وكلما حاول الاقتراب منها هوت عليه بالسيف أو العصا التي تحملها فيبتعد عنها، وقد يوجد في الحلبة اثنان من القصاد أو القواصيد، فيعقل أحدهم الحاشي بقصيدة ويطلقها الآخر بقصيدة مماثلة، وعلى الحاشي أن تعقل نفسها بالجلوس في الوسط والتوقف عن الرقص حين يعقلها الشاعر، ثم تواصل الرقص حين يطلقها الشاعر الآخر، ثم تخرج وتحل مكانها فتاة أخرى، وهكذا.. حتى الساعات الأخيرة من الليل.

وليس بالضرورة أن يرافق احتفال الرجال امرأة ترقص في الوسط، فقد يقوم بعض الرجال بمراقصة بعضهم بعضاً وسط الحلبة، ويستغنون عن الحاشي.

وفي نهاية الأسبوع تقام الحفلة ويسمونها (اللفحة)، فتذبح الذبائح، ويعد الطعام ويدعى إليه جميع أهل الحي، ويقدم رجال العشيرة المساعدات لأهل الفرح من الذبائح، فهذا يأتي بشاة، وهذا بكبش، ويهدي بعضهم جملاً إذا كان صاحب الفرح من وجهاء القوم، وتسمى هذه الهدايا (القود)، ويجتمع النساء على شكل حلقة وتنقض إحدى الفتيات ضفائرها وتقف في الوسط وتبدأ بتحريك شعر رأسها يميناً وشمالاً، ويسمونها (اللفاحة)، وتغني لها النساء الأغاني التي قيلت بالفرسان الشجعان من أهلها، فمثلاً إذا كانت الفتاة قريبة لشامان الملحم يقلن ما قيل في شامان من قصيد، مثال:

حطو على شامان حجاب السلامهْ　　　أبغيه عزٍ لي بتالي الجهامهْ

حطو على شامان حجابٍ عن الموتْ　　　أبغيه عزٍ لي ليا ذعذع الصوتْ

ويبدأ شباب العشيرة بوضع النقود على رأس اللفاحة، كلٌ حسب طاقته، ويسمونه (النقوط).

ثم يبدأ طراد الخيل، فينقض الرجال ضفائرهم ويرسلونها على أكتافهم، ويقومون بحركات على ظهور الخيل يعبّرون بها عن مهارتهم، وبعد الانتهاء من سباق الخيل يوضع الطعام. ويتألف من عدد كبير من مناسف

---

[1] لا يصاحب هذا النوع من الرقص هز للوسط والأرداف كما هو الحال عند الحضر، وإنما ترفع المرأة السيف من نهايتيه بيديها، ثم تسير بحركات منتظمة وتتمايل يميناً وشمالاً، ويسمون هذا النوع من الرقص: (اللعبة الشريفة).

الرز واللحم بما يكفي جميع المشتركين بالفرح، ثم يختن الصبي في نهاية الاحتفال، أو قد تؤجل عملية الختان إلى وقت آخر ريثما يجدون من يقوم بهذا العمل (الختان).

العرس عند البدو:

حفلات الأعراس عند البدو قليلة، وتتسم بالبساطة وقصر زمن الاحتفال، وأول مراسم الزواج عندهم: الخطبة، فيذهب مجموعة من الرجال الوجهاء إلى أهل الفتاة ويسمونهم (الخطابة أو الخطاطيب)، فإذا وافق ولي أمر الفتاة على طلبهم، يفاوضونه على المهر (السياق)، والمهر عندهم كله مقدم ولا يوجد للمرأة مهر مؤجل، ويكون المهر عادة عينياً من الإبل، وفي حدود ثلاث إلى أربع نياق كحد وسط وحسب استطاعة الزوج.

وقد يزيد هذا الرقم كثيراً بالنسبة إلى بنات الشيوخ ووجهاء القوم، وربما لا يكون هناك صداق، وإنما يتبادل الرجلان أختيهما أو ابنتيهما، فهذا يعطي ابنته أو أخته مقابل أن يزوجه الآخر أخته أو ابنته، ولا يدفع صداق لأيّ منهما، ويسمون هذا النوع من الزواج (البديلة)، ويسمى في اللغة (الشغار)، وهو أمر ينكره الإسلام، ولكنه لا يزال معمولاً به عندهم حتى الآن.

والفترة بين الخطبة والزواج قصيرة جداً، وقد تتم الخطبة والزواج في يوم واحد في بعض الحالات وتتم مراسيم الزفاف بتجهيز مجموعة من النساء على بعيرين أو ثلاثة أو أربعة يسمونهن (الفوارد) ومفردها فاردة ويرافق الفوارد عدد قليل من الرجال، وحين تصل الفوارد إلى بيت أهل العروس يصلحن من شأنها ويلبسنها ثياب الزفاف، وتكون عادة ثوبين أو ثلاثة ومنديل رأس وحذاء حسب إمكانات الزوج، ثم تعود الفوارد بالعروس وسط مباهج الفرح والغناء وإطلاق العيارات النارية. وعند وصولهم إلى الحي يدخلون العروس في البرزة وهي بيت صغير يبنى على بعد عشرات الأمتار عن بيت أهل العريس لينفرد فيه بعروسه.

ويبقى العروسان في البرزة سبع ليال ويصاحب العرس حفلة رقص (دبكة) في الليلة الأولى، وفي صباح اليوم الثاني تذبح ذبيحة أو عدد من الذبائح، على قدر استطاعة العريس، وتقام وليمة يدعى إليها أهل الحي بكاملهم، ويهدي أقرباء العريس وعشيرته الذبائح أو أكياس الرز أو التّمن صبيحة يوم العرس.

الراية:

وهي كالنذر، وأكثر ما تنذره النساء وتنذر لعودة غائب أو شفاء مريض أو قدوم مولود جديد ويعبرون بها عن شكرهم لله عندما يتحقق لهم واحد من هذه الأشياء، والراية رقعة بيضاء أو ملونة، توضع على رأس عصا بما يشبه العلم، وتغرز في وسط شفا البيت من الأمام ويحتفل النساء فقط بمراسيم الراية، فيغنين ويدبكن ويرقصن ليلتين أو ثلاث، وفي الليل فقط، ولا يشارك الرجال في هذا الفرح.

أسباب العداء بين العشائر:

أكثر ما ينجم من أجله الخلاف وتعلن بسببه الحرب، وتسفك الدماء عند البدو هو في أغلبه الماء والمرعى، وتجاوز عشيرة ما منطقة غيرها من العشائر، فلا تجد شيئاً أشد كرباً، وأدعى لضيق الصدر، وإثارة الفتنة عند البدوي من رؤية إبله تُزاحم على مائها ومرعاها، وأشدّ ما يغضبه أن يسبقه غيره إلى الماء فيشرب منه صافياً ويرده هو كدراً مطروقاً، فهو يفضل دائماً أن يكون أول الواردين وأول الصادرين لأن الإبل متى وردت الماء خاضت فيه وعكرته، ومن أجل هذا قال عمرو بن كلثوم:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

على أن هذا الورد المسبوق والمشترك مقبول بين أبناء العشيرة الواحدة، أما أن يأتي آخرون من عشيرة ثانية فيعكرون عليهم صفو مائهم، ويزاحمونهم على مرعى إبلهم، فهذا ما لا يقبلونه وهو ما يحدث حيت تجدب أرض عشيرة ما، فتميل هذه العشيرة على تلك، ومن هنا يقدح الزناد، فيتطاير الشرر ويحصل العداء بين العشيرتين، وربما استعرت الحرب، فإذا وصل الخلاف إلى أشده تبادل الطرفان (رد النقا)، فيرسل أحد رئيسي العشيرتين إلى الآخر من يقول له: (عليك مردود النقا) وهذه هي عبارة التحدي التي تسبق الحرب بين العشيرتين وهي نوع من التحذير كي لا يأخذوا بعضهم على حين غرة، ويسمونها الحرب على وضحا النقا. فإذا قبل الخصم التحدي يرد عليه بقوله: (وعليك أمرّ منه)، وهنا تؤخذ المسألة على محمل الجدّ، وتصبح الحرب بين العشيرتين أمراً واقعاً لا بدّ منه. عندها يجري تجميع للقوات بإرسال مبعوث من شيخ العشيرة يطوف على كافة الأحياء يسمى (المفزّع)، وحينما يكتمل عدد القوات ـ المؤلفة من جميع فرسان العشيرة ـ على ظهور الخيل، يجري استعراض لخيل العشيرة بكاملها، وهو ما يشبه العرض الذي تقوم به الجيوش لإظهار قوتها وإذكاء روح الحماسة عند المقاتلين، فتركب ابنة شيخ العشيرة أو إحدى بنات رؤوس القوم الجميلات على بعير يوضع عليه هودج مزين، ويمرّ أمامها فرسان العشيرة فارساً فارساً، كلّ شاهر سيفه، مردِّداً: (يا ما عندك يا راعية الجمل) أو يا راعية القتب، فإذا كان من عشيرة الروله يقول: (راعي العليا رويلي)، وإذا كان من الحسنة يقول: (راعي البوضا حسيني)، وإذا كان من السبعة يقول: (راعي العرفا سبيعي).. وهكذا الخ.

وقد ينفرد بعض فرسان العشيرة البارزين بذكر لقبه الذي اشتهر به، أو يذكر اسمه فقط، ففي استعراض لخيل الرولة أمام إحدى بنات الشعلان في هودجها قال فرحان ابن مشهور حين مرّ أمامها: يا ما عندك

يا راعية الجمل (راعي العليا وأنا أخو ربدا)، وحين مرّ أمامها سند بن دويرج قال: (يا ما عندك يا راعية الجمل راعي العليا سند).

فإذا كانت العشيرتان قريبتين من بعضهما يبدأ القتال (بالمناويخ) وهو أشد أنواع القتال عندهم، فتبني كل عشيرة خيامها أمام العشيرة الأخرى ثم تقابلها الثانية بالمثل، فيبدوان كأنهما معسكران متقابلان، ويبدأ القتال بين النجعين، كل فريق يقاتل وظهره إلى أهله وتتقدم (العطفة)[1] كلَّ فريق ويجري أشد القتال أمامها لأنها تمثل المحور الرئيسي للهجوم.

ويبدأ القتال بطراد الخيل بالكر والفر على مجموعات صغيرة وبالمبارزة بين الفرسان الخيالة، ويصطف الرجال خلف الخيالة وخلف الرجال النساء، ومعهن العمد يضربن بها من ينهزم من قومهن ويقلن له: (هش مع ربعك) أي قاتل مع قومك.

أما إذا تباعدت المسافة بين الفريقين فعندئذ يغزو أحدهما الآخر.

---

[1] هي ما يشبه الهودج أو صندوق من خشب مزين بالأهداب وريش النعام، ومرصع بالمرايا يوضع على ظهر بعير يقوده أحد الرجال الأشداء وهي بمثابة الراية للجيش.

الغزو: يجهز الغزو لأسباب عدة: إما للأخذ بالثأر، وإما للحصول على مكاسب وغنائم، أو للحالتين معاً، أو لمواجهة حالة من حالات التحدي بين رئيسي العشيرتين.

فإذا تقرر الغزو وحدد وقته، يجهز كل فارس نفسه، ويحضر ما يحتاج إليه من زاد وماء وعلف لفرسه، ويركبون النعال لخيلهم، ويستأجر كل فارس رجلاً معه بعير، ليحمل عليه الزاد والماء وعلف الفرس ويسمى هذا الرجل: (الزمّال) وجمعها (زماميل) ويعطى الزمّال أجراً: بعيراً واحداً من كسب صاحبه الغازي، أما إذا لم يكسب الغازي شيئاً فلا أجر له.

ويتألف الغزو من كامل رجال العشيرة القادرين على حمل السلاح، إما على ظهور الخيل، وإما على الركاب لمن لا يملكون الخيل وتبقى الخيل هي القوة الرئيسة الضاربة في الغزو، وتجتمع عدة عشائر أحياناً وتتفق على غزو عشيرة أخرى معادية.

ويعين للغزو قائد اسمه (العقيد) وهو عادة رئيس العشيرة في حال كون الغزو يتألف من عشيرة واحدة، أما إذا اشترك في الغزو عشائر عدة أو أكثر من عشيرة، فيختار أكبر الرؤساء قدراً وأكثرهم منعة وأغناهم ثروة في قومه، ويتم مسير الغزو بسريّة تامة كي لا يتسرب الخبر إلى الأعداء فيأخذوا حذرهم، وعندما يصبح الغزو على مسافة مسير يوم أو أكثر من الأعداء، يدفع عقيد الغزو أمامه مفرزة استطلاع قوامها مجموعة من الخيالة الشجعان الخبراء بالأرض، وينتقون ممن تكون خيلهم أجود الخيل وأسرعها، وتسمى هذه المجموعة: (العيون) ومهمتها تحديد أماكن منازل الأعداء وتقدير قوتهم وعددهم وأين تسرح إبلهم، وعليها أن تنفذ المهمة بمنتهى السرية وتعود بسرعة دون أن يشعر بها أحد، فإذا تمت المفاجأة ولم يعلم الأعداء بمسير الغزو إليهم يقرر عقيد الغزو الهجوم وتشن الغارة.

ويعود الزماميل أدراجهم من نقطة الانطلاق لئلا يدركهم الطلب من الأعداء، وتعين لهم نقطة انتظار على طريق العودة، يلتقون فيها مع خيلهم التي تكون قد عادت بعد تنفيذ المهمة.

أما إذا انكشف أمر الغزو وعلم به الأعداء، فللعقيد إلغاء فكرة الهجوم والعودة بالناس إلى أهلهم، لأن الخسائر ستكون كبيرة في هذه الحالة بين الطرفين ولأن الغاية من الغزو هي حيازة المكاسب وتنفيذ المهمة دون خسائر أو بأقل قدر منها.

أما إذا تم الهجوم، وكانت قوة الأعداء كبيرة، وحاقت الهزيمة بالمغيرين، فهنا تحل الكارثة وتبدأ المطاردة، لأن الغزو إذا انهزم لا يلوي على شيء ويطلقون الأعنة لخيلهم فتذهب تسابق الريح. وصاحب الجواد السريع هو الذي ينجو بنفسه، أما الذي يقصر به جواده ويدركه الأعداء (الطلب) يطلبون منه قبول

الأسر، فيعطي الفارس الطالب عهداً للمطلوب أن حياته بأمان إذا هو قبل الأسر، فيقول الفارس للآخر: (امنع يا خيال عند ابن فلان وعليك الله)، فإذا قبل المنع شدَّ عنان فرسه وترجل عنها وألقى سلاحه، فيرمي إليه الفارس الآسر منديله أو أي شيء من ثيابه ويقول له: إذا اعترض سبيلك أحد فقل له (أنا عند صاحب هذا المنديل أو صاحب هذا الغرض) أما إذا لم يقبل المنع[1] ولم يذعن للأمر، فعندئذ يحق لطارده أن يقتله أو يطعنه فيرميه ويسلبه جواده وسلاحه وملابسه، ويعود الأسير (المنيع) مع الطلب إلى أهلهم، ويحل ضيفاً على آسره، فيكرم مثواه، فيحضر له القهوة ويعدّ له العشاء، وإذا كان الأسير (المنيع) سيداً في قومه أو كان ممن يستحقون الذبيحة، ذبح له آسره شاة، ودعا القريبين من أهل الحي إلى الوليمة، ثم بعد ذلك يزوده بالماء والزاد ويوصله إلى نقطة خارج حمى العشيرة، ومن هناك يطلقه ويعود المنيع إلى أهله.

وهنا يبرز الدور العظيم الذي يقوم به الأبطال من الخيل المنهزمة في حماية مؤخرة خيلهم كلما اقترب الأعداء منها وتاريخ العشائر غني بأمثال هؤلاء الفرسان نذكر منهم من الحسنة: عقل العساف الملقب (ستر الجهامة)، وجدوع الغريان، وهزاع المقبل، ودبجان الرفاشي، ومحمد الفيصل الملحم، وسنتحدث عن كل منهم على حدة عند الحديث عن فرسان الحسنة إن شاء الله... ومن الرولة: خلف الأذن الشعلان وسند بن دويرج.

وإذا نجح الغزو وعادوا بالغنائم يطلقون الأغاني والزغاريد عند اقترابهم من أهلهم مثال: (جبنا الغنايم والعفن نايم).

وهم يغزون عادة ليكسبوا وليس ليقتلوا، ولذلك امتازت غزواتهم بالكر والفر تجنباً لإراقة الدماء، ويعدون عملية الغزو ضرباً من الفروسية وإثبات الذات، فالاشتراك في الغزو وكسب ناقة من الأعداء تعد من متممات الرجولة للفتى البدوي.

وفور عودة الغزاة إلى أهلهم بالغنائم ويسمونها (الكسب)، يجتمعون مع كسبهم أمام بيت الشيخ ليأخذ بعيراً من كل غازٍ، ويسمونه (العقبة) إذ يختار الغازي بعيراً من كسبه فيفرده، ثم يعقبه الشيخ فيختار لنفسه بعيراً مما تبقى من الكسب.

[1] يسمى الأسير (منيع) وتسمى الفرس التي يرمى عنها فارسها (قلاعة) وجمعها (قلايع).

طرق القتال عند البدو:

الصباح: وهو الهجوم مع أول ضوء على مضارب الأعداء وهو أشد ما يكون من أنواع القتال، وتقع فيه خسائر كبيرة بين الطرفين.. ويلجؤون إلى هذا النوع من الهجوم حين تبلغ العداوة أشدها بين عشيرتين أو حينما يراد به الأخذ بثأر لدم مسفوك.

البيات: وهو ما يعرف في التكتيك الحديث بالهجوم الليلي، ويسبقه استطلاع جيد لمضارب الأعداء نهاراً وليلاً لمعرفة نقاط الضعف عند العدو واستغلالها في الهجوم، ويسمون هذا النوع من الاستطلاع الليلي (السبر).

الكمين والمغير: إذ تنقسم الخيل المغيرة إلى مجموعتين: مجموعة تقوم بالإغارة على الأعداء، وأخرى تكمن في الأماكن المنخفضة وخلف السواتر الطبيعية لتفاجئ الأعداء من إحدى المجنبات، عندما يهبّون للنجدة في إثر الخيل التي أغارت على الإبل وانتهبتها.

الكرُّ والفرُّ: ويقوم بهما فارس أو أكثر فيحمل الفارس على الأعداء وهو على جواده، فيوقع فيهم الإصابات ثم يفر ليعود مرة ثانية وهكذا حتى يثخن فيهم.

السربة أو (السريّة):

هي صورة مصغرة للغزو قوامها مجموعة من الخيالة ما بين العشرة إلى العشرين فارساً، وقد يزيدون عن ذلك قليلاً أو ينقصون، وينتخب فرسان السريّة عقيداً لهم من بينهم ويكون أشجعهم أو أكبرهم قدراً وأصلبهم رأياً.

ولا ينفذ فرسان السرية مهمة قتالية إلا في حالات الدفاع عن النفس، وإنما يتحينون فرص الغفلة من الأعداء، ويشنون الغارة على الإبل في مراتعها بعيداً عن المضارب، فينتهبون قطيعاً من الإبل أو عدداً من النياق يساوي عددهم، ويعودون بسرعة قبل أن يدركهم الطلب من أهل الإبل، ويسرع راعي الإبل، أو صاحبها إذا كان معها ويسمى (المفزّع) نحو مضارب الحي، فيرتقي مرتفعاً مشرفاً عليه ثم يرفع منديله أو ثوبه على رأس عصا ويصيح بصوت عال: (والخيل والخيل)، فتأتيه النجدات سريعة من كافة أرجاء الحي، هذا على فرس وهذا راجلاً وهذا بسلاح وذاك دون سلاح، حتى إذا وصلوا إليه أخبرهم بما جرى له وكم عدد الخيل التي أغارت على الإبل وأين اتجهت، فيسرع الفرسان راكبي الخيل لإدراك الإبل قبل أن يصل بها الأعداء إلى مأمنهم وهنا تبرز أهمية الخيل عندهم وضرورة ارتباطها، لأنها الوسيلة الأسرع للنجدة في

مثل هذه الحال وتسمى هذه الخيل التي لحقت الأعداء (الطلب)، وبقدر ما يكون فرسان الطلب شجعان أشداء، وبقدر ما تكون خيلهم كريمة سريعة، يكون النصر لهم.

ولبعض العشائر ميزة خاصة في سرعة الطلب وإيقاع الهزيمة بالأعداء المغيرين، ومنهم فرسان الحسنة المضروب بهم المثل في قوة الطلب فيقال (طلب حسنة)، وكذلك فإن لعشيرة السردية باع في هذا المقام.

ويقدر فرسان السرية المغيرة قوة الطلب، فإذا كانت أكبر من قوتهم وليس لهم بها من طاقة، تخلّوا عن الإبل ولاذوا بالفرار، أما إذا كان عدد الطلب قليلاً، ووجدوا أن لديهم القدرة على صدّه، تصدوا له والغلبة للأقوى، فإذا كانت للطلب تحصل المطاردة وتتكرر العملية كما يحدث في الغزو حين ينهزم ويقع الأسر والقتل بالمغيرين، وإذا كانت الغلبة للغزو عادوا بالمكاسب إلى أهلهم.

الحنشل:

وهم مجموعة من الرجال دون العشرة يسيرون راجلين، وسلاحهم السيوف أو الخناجر، وقد يكون بعضهم مسلحاً بالبنادق أو ربما لا يوجد معهم سلاح قط سوى العصي في أيديهم، وهؤلاء يتتبعون مسارب الأرض، يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً، حتى إذا وجدوا راعياً منفرداً بإبله أو غنمه، هاجموه ليلاً، ووضعوا القيد في قدميه ويديه وأخذوا ما بحوزته وعادوا كما أتوا متسترين، حتى يصلوا إلى أهلهم ويختار الحنشل أكفأهم عقيداً لهم.

الأمثال عند البدو:

إن الأمثال عند شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، هي حصيلة تجارب هذا الشعب أو هذه الأمة في الحياة وفلسفتها فيها، وصورة عن تفاعلها مع الأحداث التي تمر بها، وما تتركه فيها من آثار.

والبدو على بساطة حياتهم، وخلّوها من التعقيدات، فإنهم لم يتركوا الأحداث تمر بهم دون أن يخرجوا منها بمواعظ وعبر، صاغوا منها أمثالهم، وهي تخضع في كثير من جوانبها، لتقاليدهم وعاداتهم، وما تمليه عليهم ظروفهم المعاشية في بواديهم.

وفي الوقت الذي لا أنكر فيه عجزي عن الإحاطة بالأمثال جميعاً عندهم، فإنني أرى فيما قدر الله تعالى لي من القليل المفيد غنى عن الكثير الممل ... وبالله التوفيق.

1ـ الطعن على قد اللحوق:

ويضربونه إذا أرادوا أن يقولوا: كلٌ يعمل على قدر استطاعته، وأصل المثل أنه خلال مطاردة الأعداء، إذا أدرك الفارس المنتصر خصمه المنهزم وطعنه بالرمح، فإن قوة الطعنة وعمقها تتوقف على مدى قرب الطارد من المطرود، فبقدر ما يكون الطارد قريباً من خصمه، تكون الطعنة أقوى وأمضى.

2ـ النشيط يلّوح:

والنشيط: القوي، يلوح: يثب على ظهر الجواد أو ظهر البعير، ويضربونه لمن يفعل الشيء عن مقدرة عالية.

3ـ العطشان يعرك الحوض:

ويعنون به: أن صاحب الحاجة أولى بالبحث عن حاجته، أو ضالته ويتوقف بحثه عنها على قدر ضرورة الحاجة إليها، والأصل في المثل أن الشاة العطشى تخوض الزحام لتصل إلى حوض الماء دون أن يدفعها صاحبها إليه.

4ـ يلعن راسٍ ما به عطاس:

ويضربونه لمن يفتقر إلى المروءة والحمية، أو للحضّ عليهما.

5ـ العليق عند الغارة لا ينفع:

ويضربونه لمن لا يعد للأمر عدة إلا عند وقوعه.

6ـ عقب السمين احترص يا راعي الغنم:

ويضربونه لمن لا يأخذ حذره إلا بعد وقوع الخطب.

7. الإبل على مهاويها سمان:

ويصربونه امن يطيل التردد على الأماكن التي يهواها قلبه، وأصل المثل أن الإبل إذا اعتادت السرح نحو أرض خصبة فإنها تسلك السبيل إليها عفواً دون هاد يقودها إليها.

8. من أخذ من قومٍ نام على دارهم:

ويضرب في معرض الحض على انتقاء الزوجة من المنبت الطيب، ذلك لأن الأبناء قد يشبهون أخوالهم، فيبنون داراً كدار أخوالهم، وفي المثل بعض المجاز يتعدى بناء الدار إلى بناء الأخلاق والطباع.

بيد أن الأمر لم يكن دائماً كذلك، فكم من متواضعات نسب أنجبن أبناءً بذوا بنبوغهم أقرانهم من الذين يفاخرون بشرف خؤولتهم، وانظر قول فارس عبس ابن زبيبة السوداء:

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفيتَ خيراً من معمٍّ مخولِ

9. خبلٍ ذهين:

الخبل: الغبي، والذهين: صاحب الحيلة، ويضرب لمن يبدو عليه الغباء ولكنه لا يخلو من الحيلة.

10. ما عطش من له بالقليب حادر:

الحادر: هو الرجل الذي ينْزلونه إلى قاع البئر عندما يشح ماؤها ليملأ منها الدلو غرفاً بوعاء آخر.

11. ما بين الظلفتين صالح:

ويضربونه لمن يريد أن يرتع بإبله وهي محملة، لأن الرحل على ظهر البعير يستند من الأمام على خشبتين متقابلتين يركبان على رأس الحداجة تسمى الواحدة منهما ظلفة، وعليه فإنه إذا أراد إكرامها فليلق أحمالها عن ظهورها، أو يجدّ السير حتى الوصول إلى الهدف.

12. العرق ينوس من سبع جنوس:

ويعنون به أن عامل الوراثة يكتسب حتى الجد السابع.

13. اطرقْ الحديد وهو حامي:

ويضربونه للاستعجال في الأمر، وهو ما يعنيه القول المأثور: خير البر عاجله.

14. إذا كنت الجود أنا وكاه:

وكاه: هو الوكاء: وهو الخيط الذي يربط به فم الجود أو القربة، ويقابله في الفصحى: إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً.

15. صبّح القوم ولا تماسيهم:

ولعله تفسير مبسط لجزء من حديث الرسول ρالذي نهى فيه أن يطرق الرجل أهله ليلاً.

16. من خلفت أختها ما خابت:

ويعنون به أن ابن الأخت يسدّ مسدّ الابن لخالته إذا لم تنجب خالته ولداً.

17. أبعد عن الداب وشجرته:

الداب: الثعبان، ويعنون به ابتعد عن مكان الشر ما استطعت.

18. الطيب يحذي بالمعرة:

الطيب: الحي، يحذي: يركب النعل لفرسه، المعرة: مدينة في أواسط سورية وهي معرة النعمان.

ويضرب لمن يكون في عجلة من أمره للوصول إلى بلد ما، ويطلب منه التزود بشيء يوجد منه بكثرة في تلك البلد، فيقول: هذا أجده أمامي، وأصل المثل أن خيلاً للموالي أغارت على الحسنة، ومعها بيطار[1]، فهزم الحسنة الخيل وأوقعوا الأسر في مؤخرتها ولما أوشك البيطار على الوقوع في الأسر، قال قائلهم: (بيطاركم يا الموالي)، فردّ عليه أحدهم قائلاً: (الطيّب يحذي بالمعرة)[2] فذهبت مثلاً.

19. لا ترص الذال على الجال:

الجال: الجرف، والذال: الخائف، ويعني أنه يجب أن يترك الخصم فرصة لخصمه إذا غلبه، فلا يشدد في حصاره ويضيق عليه، فإن لذلك محاذيره.

20. من خلَّف ما مات:

ويعني: أن بقاء الولد بعد موت أبيه هو استمرار لوجود ذلك الأب.

21. كل يعود لتلعته لو تتيلع:

وتتيلع: حلّ في تلعة إثر تلعة، والتلعة: أصغر مسيل ينحدر من المرتفعات، ويعنون به أن الطبع يغلب صاحبه ولو حاول أن يتطبع بطباع غيره، كما أنه من اعتاد الإقامة في تلعة معينة فإنه سيعود إليها مهما حل في غيرها من التلاع.

---

[1] الرجل الذي يركب النعال للخيل.

[2] هي معرة النعمان وحولها كان يقيم الموالي.

22.كل شاةٍ معلقة بكرعوبها:

وهو مثل مطروق عند العرب جميعاً، وخير منه قوله تعالى ﴿**كلّ نفس بما كسبت رهينة**﴾[1].

23. جاعت وأكلت جراها:

والضمير في جاعت عائد للكلبة أم الجراء الصغار، ويضرب للقوي الذي يبغي على قومه ويسلبهم حقهم فيكون كالكلبة التي تجوع فتأكل أبناءها.

24.كسر شداده والأرنب نايمة:

الشداد: هو للبعير بمثابة السرج للفرس، ويضرب لمن يسبق الحوادث، فيعد لها عدتها ثم تأتي الأمور عكس ما كان يتوقع، وأصل المثل أن أحدهم رأى أرنباً نائمة، فأناخ ناقته ونزع الشداد عن ظهرها فحطمه وأشعل النار فيه ليشوي الأرنب عليها، ثم أخذ حجراً ورمى الأرنب فأخطأها وولت هاربة.

25. الرديف أبو ضحكة:

هو الرجل تردفه خلفك على راحلتك حتى إذا عثرت أو أصابها سوء، ولم تعد قادرة على السير ضحك منك وتركك، ومثله في الحياة: من تشاركه في بضاعة، أو تجارة بلا رأس مال منه، حتى إذا كسدت بضاعتك، أو بارت تجارتك، سحب يده وتخلى عنك.

26.كم ناقة شربت بجلد ولدها:

ويضرب في العداوة تذهب وتنسى مع مرور الأيام، فيصبح العدو صديقاً، وأصل المثل أنّ الناقة تفقد ولدها، كأن يُذبح مثلاً فتبقى الأيام ذات العدد تحنّ عليه حنيناً حزيناً مؤثراً، وتمر الأيام وتنسى الأم ولدها ويصنع من جلده دلواً ينضح فيه الماء من البئر، فتشرب منه أمه، وهكذا تكون الناقة قد شربت بجلد ولدها.

27. أرنب مجحرة وأهلها مقيمين:

ويضرب في الأمر الذي لا يتطلب تنفيذه السرعة، ويقال للأرنب مجحرة إذا دخلت الجحر واستقرت فيه، ومقيمين عكس راحلين، والأصل أن الأرنب إذا طُردت وصادفت في طريقها جحراً تلجه، فإذا كان القوم ظاعنين خلوا عنها ومضوا في سبيلهم، لأن استخراجها من الجحر يتطلب وقتاً طويلاً، أما إذا كانوا مقيمين فمن السهل عليهم استخراجها، وقد يغلقون الجحر عليها ويتركونها ليعودوا إليها في اليوم التالي ويقولون: (أرنب مجحرة وأهلها مقيمين).

---

[1] سورة المدثر الآية 38.

28. ملحق القوم عباته:

ويضرب لمن يفقد شيئاً، ثم يذهب ليبحث عنه، فلا يجده ويفقد إثره شيئاً آخر، وملحق أخذت من الفعل ألحق، يلحق، والقوم: الأعداء.

وقصة المثل: أن أحدهم تتبع خيلاً للأعداء أغارت على إبله وأخذتها، يريد استرجاعها، ولكنه عاد خائباً بعد أن سلبوه عباءته وذهبت مثلاً.

29. عدّ رجالك ورد الماء:

ويضرب للأمر الذي يتطلب الكثرة في العدد، وأصل المثل أنه إذا شحت المياه – وخاصة الآبار منها – وقلّ عددها، واشتدّ الزحام عليها قد يحال بينها وبين من يبغي الورد عليها، فلا بد عندئذ من استخدام القوة للوصول إلى الماء، وبما أن القوة عندهم هي للأكثرين حصى، فقد قالوا: (عدّ رجالك ورد الماء).

30. طسّة حربي وحصانة:

ويضرب لمن ذهب ولم يعد، وأصل المثل أن رجلاً اسمه حربي غرق مع حصانه في حضوضاء، وحضوضاء: سبخة طينية تشبه بحيرة صغيرة تبتلع أي إنسان أو حيوان يخوض فيها.

مراحل الحياة الاجتماعية عند البدو في البادية السورية:

يمكن تقسيم مراحل الحياة الاجتماعية عند البدو في البادية السورية إلى ثلاث فترات:

الفترة الأولى: هي فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى والتي سبقت إعلان الثورة العربية الكبرى التي أعلنها الشريف حسين بن علي أمير مكة.

الفترة الثانية: هي فترة دخول الفرنسيين إلى سورية وفرضهم الانتداب عليها.

الفترة الثالثة: هي فترة انتهاء الاحتلال الفرنسي وعهد الحكومات الوطنية.

ففي الفترة الأولى، كان البدو في جهالة جهلاء، وأمية مطبقة وعصبية قاتلة، وشهدت هذه الفترة حروباً وغزوات بين عشائر عْنِزَة، كتلك التي حدثت بين ضنا مسلم وضنا عبيد.

كما بدأت في هذه الفترة هجرة عشائر عْنِزَة من شبه الجزيرة العربية إلى العراق وبادية الشام، ونتج عن هذه الهجرة حروب ومناوشات بين طلائع المهاجرين وغيرهم من العشائر التي كانت تقطن شرقي الأردن وسورية والعراق، كحربهم مع بني صخر في شرقي الأردن، والموالي في البادية السورية.

وقد تغلبت قبيلة عْنِزَة على جميع العشائر في بلاد الشام والعراق، وأصبحت هي سيدة البادية دون منازع، وفرضت الخوّة على العشائر المغلوبة وعلى القرى والمدن القريبة من أطراف البادية، ثم استقر بها المقام في العراق والبادية الشامية، وأصبح لكل عشيرة مصطافاً ومربعاً لا ينازعها عليه أحد، ثم انقلبت عشائر عْنِزَة على بعضها بعد أن استتب لها الأمر، وأخذت تتبادل الغزوات، فضنا مسلم يغزون ضنا عبيد، وضنا عبيد يغزون ضنا مسلم، ولا نظلم البدو إذا قلنا: إنهم كانوا في تلك الفترة في شبه ردّة جاهلية.

وبلغ من نفوذ قبيلة عْنِزَة أن الدولة العثمانية نفسها كانت تدفع لعشائرها الأموال لقاء حماية قوافل الحج وعدم التعرض لها، فكان لكل أسرة من العشيرة مبلغ من المال يُعطى لها سنوياً يُسمى: (الصر)، ويتفاوت مقدار هذا الصر بين أسرة وأخرى حسب قوة هذه الأسرة وتعداد رجالها، إلا أن هذا الصر لم يكن يدفع لعموم أسر العشيرة إلا لعشيرة الحسنة ـ كما أعلم ـ أما باقي العشائر فكان يدفع للشيوخ حصراً، وكان مركز توزيع الصر في سورية في محطة مزيريب بحوران.

وامتلكت عشائر عْنِزَة وكبير بيوتاتها الأراضي والقرى في أماكن إقامتها، فامتلك آل الدوخي رؤساء عشيرة ولد علي الأراضي شرقي الجولان في الجزء الجنوبي الغربي من حوران في قرية عين ذكر مقر إقامتهم في الصيف، وهي الآن ملك للشيخ متعب السمير، وامتلكت أسرة الشعلان أراضي في عذرا وعتيبة في

الجزء الشرقي من غوطة دمشق، وامتلكت عشيرة الحسنة الأراضي شرق حمص في قرى الشيخ حميد وبرزة والبوير، وما تزال تلك القرى بأيديهم حتى كتابة هذا البحث، وامتلكت عشيرة السبعة مناطق أسريا وأكديم في محافظة حماه، أما عشيرة الفدعان فكان نصيبها كثيراً من الأراضي على ضفاف الفرات والخابور، وإذا علمنا أن الدولة العثمانية لم تكن في ذلك الوقت تملك السيطرة إلا على المدن والأطراف القريبة من الأرياف، أدركنا ما كانت تتمتع به عشائر عْنِزَة من نفوذ في تلك الفترة.

وقسمت كل عشيرة القرى في مناطق إقامتها ـ صيفاً ـ فيما بين أسرها، وفرضت على هذه القرى الخوّة، وأصبح لكل أسرة قرية أو قريتان تدفعان لها الخوّة لقاء حماية هذه الأسرة لهما.

ولكن هذه الخوّة لم تكن تدفع دائماً لقاء الحماية بل كانت تسلطاً وتطاولاً في بعض الأحيان، ومع هذا فهم يرونها ضربة لازب يرثها الابن عن أبيه، ومن الطريف هنا أن نذكر مثالاً على ذلك قصة صبيح المهدي من عشيرة العمور، وكان صبيح هذا يأخذ الخوة من قرية صدد ومقدارها رطل قهوة على كل فلاح يحرث الأرض، والذي لا يدفع يسلبه صبيح دابته التي يحرث عليها، وفي إحدى السنين زاد صبيح في مقدار الخوّة لتصبح رطلاً من القهوة وعباءة وبر على كل فلاح، فشكا أهل صدد أمر صبييح إلى سعود الملحم، فأحضر صبيح بين يدي سعود وقال له: إن أهل صدد في جيرتي، وعليك أن ترفع الخوة عنهم، وإن عددت إليها لأقطعن رجلك، وجيء بكاتب من أهل صدد اسمه (الياس) ليكتب تعهداً على صبيح بتنازله عن الخوة.

وكان صبيح شاعراً ملهماً سليط اللسان، فارتجل بين يديّ سعود قصيدة انتقد فيها جيرة سعود وعدّها تجاوزاً منه وتدخلاً في شؤونه الخاصة، ومبيناً أن هذه الخوة حقّ له لا يستطيع أحد من الناس أن يمنعه من أخذها، قال:

يا الياس عجِّل بالقلم لا توني	**لا تأكلن النار وأنت تراعي**
يا سعود بالله تقصر الهرج عنا	**سلطان ما طلق مرة راعي**
بدلتنا بطنوس ما هو ثمنا	**ما يعادل البولاد ريش المعاعي**
ننحر أبو سليمان نقشط ظعنا	**ونأخذ حقنا والقبائل تراعي**
نضرب على سنجار عالي جبلنا	**ويلعن بلاداً بها الحق ضاعِ**

تراعي: تنظر، طنوس: نصارى صدد، المعاعي: ديك الدجاج، نقشط: نسوق.

ومن الطريف أن سعوداً بعد سماعه القصيدة، أخذ الصحيفة ومزقها، وأعلن أنه في حلّ من جيرة أهل صدد، وتركهم وشأنهم مع صبيح، على أن (سعود) كان قادراً على منع صبيح من أخذ الخوّة بالقوة، فهو رئيس عشيرة الحسنة التي كانت لها السيطرة على منطقة حمص وباديتها ولا يساوي صبيح أمامه شيئاً.

ولكن صبيح أقنع الشيخ بحقه في الخوّة التي كانت عرفاً سائداً في تلك الفترة، ولما لم يجد سعود في القانون السائد في تلك الأيام مادة تخوله إلغاء مثل هذا الحق، ولا يريد أن تكون بلاده بلاداً يضيع فيها (الحق) وتعمها لعنة صبيح، مزق الصحيفة وتخلى عن الجيرة!

واللافت للنظر أن لبلدة صدد مكانة خاصة عند الحسنة، وكانوا يسمونها (صدد العوصاء)، ولها امتيازات لم تكن لغيرها من البلدات والقرى منها أنهم لا يدخلون فيها أسيراً مغلول اليدين، فيطلقون وثاقه قبل الدخول فيها، وإذا دخلها بعيران مقرونان، حلّ صاحبهما قرانهما، فإذا لم يحله قطع الصديّون القران.

ولو أن البدو يهوون زراعة الأرض، لامتلكوا منها الشيء الكثير في هذه الفترة، ولكنهم كانوا يفضلون الإبل على الأرض، وحياة الترحال على الاستقرار، والسكن في بيوت الحجر، نجد هذا في قول شاعرهم طراد الملحم مخاطباً أهله وعشيرته أهل البويضا:

يا أهل البويضا جنبوا عن رداها   مساكنٍ بالحرث دوروا بدلها

هكذا كانوا يرون في الزراعة وحراثة الأرض مهانة ومذلة، ويرون في بيت الشعر يرتفع شامخاً على الأرض التي يريدون، حيث لا قيود لحريتهم ولا سلطة تفرض إرادتها عليهم غاية مناهم ومنتهى سعادتهم، فالإبل والخيل والطراد وشن الغارات على الأعداء هي رائدهم وأغلى شيء عندهم في تلك الأيام، كما قال شاعرهم وأحد رؤسائهم طراد الملحم:

مقعادكم يا عيال يشمت عداها   قعود القرايا ما بها إلا فشلها

دوروا بيوتٍ شامخة في وطاها   والخيل بالفرسان توحي صهلها

هذه علتهم وهذه جبلتهم التي فطروا عليها، والتي أطارت من أيديهم كثيراً من المكاسب لو أنهم تنازلوا عن شيء منها، فكان الواحد منهم يتخلى عن أهله وعشيرته إذا رأى منهم ما يكره، هكذا يقول رئيس إحدى أكبر عشائرهم (النوري الشعلان):

ما ينبكي حي وراه الفراقِ   ولا ينكره بعد الرفاقا ليغثوك[1]

وقالوا أيضاً:

---

(1) إذا أساؤوا إليك.

بعدك عن اللي ما يودك جماله[1] لاعاد ما أنت للمسة[2] الخشم حمَّالْ

وشهدت هذه الفترة كما أسلفنا حروباً بين عشائر عْنِزَة نفسها، ولكنها على كل حال لم تطل مدتها ولم يرق بها دم كثير.

كما شنت فيها غزوات جاهلية كان الغزاة ينتهبون فيها كل شيء، حتى النساء كن يسلبن ثسابهن ويتركن عاريات، وكان ابن رشيد يقيم في ديار القوم الذين يغزوهم ثلاثة أيام يكسو فيهن العراة، لأنه يعلم أن بعض أفراد جيشه كانوا يعرون النساء.

وفي غزو للعمارات على بادية الشام بقيادة الشيخ محروث بن هذال، عرّيت النساء، فأراد الشيخ طراد الملحم الرد على ابن هذال بعمل مماثل، وشكل من أجل ذلك جيشاً نواته من المرتزقة أسموهم (الزقرت) ومعهم طبل كبير اسمه الدمام، يقرعونه صباحاً إيذاناً بالرحيل، إلا أن الغزو –ولسبب ما – ألغي قبل أيام قليلة من بدء تنفيذه.

وأبرز رجال هذه الفترة هم: عبد الله الفاضل وجديع بن قبلان ومحمد الدوخي ابن سمير وحمود الشعلان وخلف الأذن ودبجان الرفاشي.

وكان محمد الدوخي شاعراً وفارساً سريع الغضب لا يبذل جهداً في حل الأمور بالطرق السلمية ويرى في السيف الحل الأفضل والأسرع، من أجل ذلك سمي (مسواط بقعا)، وبقعا هي المنية عندهم، والمسواط خشبة بطول الذراع تحرك بها البدوية عيشها في القدر، وكان له من رهطه آل الدوخي الذي اشتهروا بشجاعتهم وقوة بأسهم ما يجعله واثقاً من الحصول على ما يريد بالقوة، وفي القصائد المتبادلة بينه وبين ابن شعلان قال:

يا حمود ما نعطي دخيل نصانا لو جمعوا كل العساكر والأروام

ذبح المدرع من عوايد لحانا وقصيرنا ما هو قصير لسطام

وكان ابن شعلان قد طلب من محمد الدوخي أن يعيد إليه رجلاً من الشعلان قتل ابن عم له واستجار به.

وخلاصة القول، أن تلك الفترة كانت فترة ذهبية في تاريخ قبيلة عْنِزَة، فهي سيدة الموقف في البادية السورية وأريافها وقسم من البادية العراقية، بينما كان الحكم العثماني مريضاً متعباً يترنح في آخر أيامه

[1] جميل.

[2] الإهانة.

على أبواب الحرب العالمية الأولى، وكانوا يسمونه في الغرب الرجل المريض، ولم يكن الرجل المريض يملك من الأمر شيئاً في كثير من الأقاليم العربية التي كانت تحت حكمه اسماً، ولو كان في شيوخ القوم من عنده ذرة من حسن السياسة وسعة الأفق وعلو الهمة لاستطاع توحيدهم وتشكيل جيش منهم قوامه مائة ألف فارس يدق بهم أبواب القسطنطينية لو أراد، ولكان قد تغير وجه التاريخ في هذه المنطقة وانتهى الحكم العثماني فيها منذ زمن بعيد قبل أن يقتسم الغرب تركة الرجل المريض، لكن شيوخنا – أصلحهم الله– كانت هممهم هابطة، وتطلعاتهم محدودة، وأمانيهم صغيرة لا تتعدى حدود مشيخة العشيرة، وشن الغزوات، ورد النقا على بعضهم، والمفاخرة بإقامة الولائم، وما تسير به الركبان من أخبار تمجد أفعالهم وأقوالهم.

وجاء عبد العزيز آل سعود ...

وفي لجة هذه الظلمة الجاهلية، كان القدر يهيئ في مكان آخر، قائداً أراد الله أن يوقظ به الناس من غفلتهم، وينتشلهم من جاهليتهم التي عادوا إليها بعد أن بعدوا عن الإسلام، فكانت مشيئة الله تعالى، وجاء عبد العزيز آل سعود، الرجل المعجزة والقائد الفذ الذي لم يدرس في أكاديمية عسكرية ولم يتلقَ تدريباً استراتيجياً قط، فأشاد ملكاً، وأسس دولة مترامية الأطراف، أقام فيها شريعة الإسلام وحكم بما أنزل الله، كل ذلك بقليل من الزاد والرجال ضرب بهم عرض الصحراء وسط تلك المفازات المهلكة، أدلج الليل وأقام النهار حتى أناخ بهم حيث أراد الله أن يكون منه المنطلق، وأن ينبثق منه النور الذي بدد الظلام وأنار طريق الرشد والهدى.

كان حجم المهمة كبيراً، وكان القرار صعباً وينطوي على احتمالات كثيرة لإخفاقه، ولكن همة عبد العزيز العالية وعزيمته الصلبة كانت تصغر أمامها الصعاب هكذا:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وتعظمُ في عين الصغير صغارها وتصغرُ في عين العظيم العظائمُ

أجل فإن علوَّ الهمة وقوة العزيمة وسموّ الغاية التي من أجلها شدت الرحال، كانت تطغى على كل اعتبار، فإنها إحدى الحسنيين (النصر أو الشهادة)، فكان النصر من الله ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾[1] ولو لم يهيئ الله لهذه البقعة المباركة من الأرض هذا الرجل لكانت حتى الآن تشن الغارات وتجهز الغزوات بين العشائر وبرد النقا، أو لكانت شبه الجزيرة العربية الآن مجزأة إلى عشرات المشيخات الصغيرة المتقوقعة التي لا تساوي شيئاً.

وينبغي أن يعلم تلامذة التاريخ أن التاريخ الإسلامي لم يضم بين حناياه بعد صلاح الدين قائداً مثل عبد العزيز، رفع راية التوحيد، وجمع القبائل تحتها بعد أن كانت على شفا حفرة من النار، وأزال عن الدين غبش البدع والضلالات وأعاد للإسلام نقاوته وصفاءه كما أرادها الله وأرادها رسوله، وما زال يضرب بأكباد المطايا في كل اتجاه رافعاً راية القرآن، حتى إذا اكتملت قافلة الإيمان وانتظمت خلف حاديها وأصبحت على ضحضاح من الأرض عهد بها لبنيه من بعده فكانوا نعم الخلف للسلف، صانوا الأمانة، وأكملوا الرسالة، ما خلا سيد منهم إلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول.

[1] سورة الروم – الآية 47.

وبعد... هل هناك مجال للقياس والمقارنة بين عبد العزيز آل سعود وبين غيره من شيوخ القبائل في تلك الأيام؟ لا أعتقد أن عاقلاً يقول إنه يمكن إجراء مثل هذا، ولو أجزنا لأنفسنا وأجرينا هذا القياس، لبدا لنا أولئك الشيوخ أقزاماً أمام هذا الرجل العملاق.

ورب قائل يقول: إنك ظلمت القوم، وأعوذ بالله أن أكون ظالماً لهم– وهم أهلي وأبناء عشيرتي– ولكن ماذا يساوون من لا صلاة عندهم ولا صيام ولا زكاة ومن أحلّوا أموال بعضهم ودماءهم ودعوا بدعوة الجاهلية؟، فانظر إلى جهلهم وسفاهة أحلامهم في قول أحدهم وهو في طريقه إلى الحج مخاطباً ناقته ريمه:

ريمة[1] نحن وتقطع الدو بدّا[2] ماني على حنين ريمة بلايم[3]

يا واهني[4] من باع حجة بهدّه[5] بساعة والبيض[6] ترخى اللثايم[7]

أترى!! إنه يتمنى أن يبيع الحجة بهدّه، والهدّه: الكرة على الأعداء، ومن أجل ماذا؟ من أجل أن يرفع النساء اللثام عن أفواههن ويزغردن له، فهل بعد هذا الضياع من ضياع!؟

وانظر إلى قول أحدهم لأصحابه وقد همّوا برمي الجمار في أثناء تأدية مناسك الحج، قال: أطيعوني ولا تحصبوا هذا الرجل فلم يبق لكم صديق غيره، (ويعني بالرجل ابليس، لعنه الله)، وحتى لو فرضنا أنه كان مازحاً، فهل يجوز المزاح في مثل هذا المقام بين يدي الله وفي أثناء تأدية فريضة من فرائض الله؟ إنه إن دلّ على شيء فإنما يدل على اهتزاز العقيدة، وضعف اليقين، وسوء الأدب مع الله سبحانه وتعالى، بهذا النوع من السطحية والصفاقة والانحدار كانوا يعيشون ويفكرون ويحكمون، لم يحققوا فيما يرضي الله نصراً، ولم يتركوا أثراً، ولم يخلدوا ذكراً، ولم ينظروا إلى أبعد من أنوفهم، فهل بعد هذا لقائل إن يقول: إنهم ظُلموا؟

---

(1) ريمة: الناقة الذلول.

(2) بدّا: سريعة.

(3) بلايم: لا ألومها على حنينها.

(4) واهني: هنيئاً.

(5) بهدّه: الكرة على الأعداء.

(6) البيض: النساء.

(7) اللثايم: جمع لثام وهو ما تستر به المرأة ثغرها.

الفترة الثانية:

وهي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى واحتل فيها الفرنسيون سورية ولبنان، وتتميز هذه الفترة بدخول الآلة كواسطة للنقل، واستعمالها في خدمة الأمن وفرض سيطرة السلطة الحاكمة على البادية، فتقلصت فرص النجاة أمام العابثين بالأمن ومثيري الفتن وهواة الغزو، وشكلت قوات أمن البادية المسماة (الهجانة)، وهي قوات مسلحة محمولة على الجمال تجوب الحماد من أقصاه إلى أقصاه، واستطاعت هذه القوات التي كان معظم أفرادها من البدو بقيادة ضباط فرنسيين أن تقطع دابر عمليات الغزو والضرب بشدة على أيدي العابثين، وفتحت أمام العاطلين عن العمل من شباب البدو باباً للرزق والكسب الحلال بدلاً من التكسب عن طريق الغزو واللصوصية، وذلك بانتساب معظم هؤلاء الشباب إليها، وكان لها قيادات في الضمير وتدمر والسخنة ودير الزور.

ورب قائل يقول: إنك تمدح الفرنسيين، وأقول إن هذه حسنة واحدة لهم في مئات السيئات.

ولم يكن للبدو دور في الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي إلا القليل منهم الذين كانوا قريبين من الحاضرة مثل: عشيرة التركي في محافظة حماه، وبعض العشائر في الجزيرة، وما كان بعدهم عن المشاركة في العمل الوطني لضعف في الروح الوطنية عندهم، فهم وطنيون متحمسون تؤثر فيهم الكلمة وتلهب مشاعرهم، وهم مستعدون للتضحية في سبيل الشرف والكرامة، ولكن كان ينقصهم التنظيم والتوجيه والقيادة الواعية الحكيمة، ولو قدّر لهم رجال ينظمونهم ويقودونهم كما قدر لأهل المدن لتكوّن منهم قوة رديفة عجلت بجلاء المستعمرين عن سورية بكل تأكيد.

ولا أنسى ما قال أستاذنا في مادة التاريخ العسكري في كلية القيادة والأركان عندما قال يوماً: عجباً لأمر الحكومات العربية، عندها المادة الأولية للقتال وتهملها! ولما سألناه عما يعني قال: إنهم البدو، فهؤلاء لو نظموا ودربوا لكان منهم قوة لا تعرف الهزيمة، فأمام مثل هؤلاء انهزم الفرس والرومان، ومن بين صفوفهم برز القادة العظام الذين وصلوا إلى الصين شرقاً وعبروا نهر الوار إلى فرنسا غرباً.

وإن كان ثمة مسؤول عن بعد هذا القطاع الكبير من الشعب عن المشاركة في النضال القومي فهم: شيوخ العشائر على كل حال، وما من أحد يستطيع أن ينكر أن العشيرة تغضب لغضب الشيخ وترضى لرضاه، وإذا كان لهم من عذر، فهو انتجاعهم البادية وبعدهم عن الاحتكاك بالسلطات الحاكمة، الأمر الذي جعلهم لا يعانون ما يعانيه أهل الحاضرة من جور المستعمر وتسلطه وظلمه، إلا أن هذه تبقى أسباب مخففة، ولا تسقط عنهم مسؤولية المشاركة في العمل الوطني المقدس.

وفي نهاية هذه الفترة تمت المصالحة بين رؤساء العشائر في سورية على إثر اجتماع لهم في بلدة السلمية تحت إشراف ضباط فرنسيين، وحصل فيها دفن للحقوق والدماء من قبل جميع الأطراف المشاركين في الاجتماع ما عدا بعضهم الذين احتجوا بأنه مورس ضدهم نوع الضغوط لقبول شروط الصلح، بيد أن الأمر أصبح فيما بعد واقعاً لا بد منه، ولم تحصل بعده أية خلافات تذكر.

الفترة الثالثة (البدو في ظل الحكومات الوطنية):

تم جلاء المستعمرين الفرنسيين عن القطر العربي السوري بتاريخ 17 نيسان عام 1946، وحصلت سورية على الاستقلال وجرت أول انتخابات للمجلس النيابي السوري، وحصل رؤساء العشائر على مقاعد في البرلمان دون انتخابات، لأن رئيس العشيرة هو المرشح الوحيد في عشيرته، وبذلك عدّوا جميعاً ناجحين بالتزكية.

وكان نصيب قبيلة عْنِزَة أربعة مقاعد في المجلس من أصل عشرة مقاعد مخصصة للعشائر، شغلها: فواز الشعلان – تامر الملحم – النوري بن مهيد – وراكان المرشد، وصدر القانون رقم (53) الذي ينص على تشكيل مديرية عامة للعشائر مركزها دمشق، وتتبع لها قوّات الهجانة، وأوكلت إليها مهمة شؤون العشائر أمنياً واجتماعياً.

أما حياة أهل البادية ونمط معيشتهم، فلم يطرأ عليها أي تغيير، وظلوا أهل إبل وشاء يتنقلون بين الحماد والمعمورة، وينتجعون الحماد في فصل الشتاء وأحياناً يتوغلون في الوديان داخل الأراضي العراقية، ويعودون في أواخر الربيع نحو مناهل المياه في أطراف المعمورة مثل: ضمير وبحيرة عتيبة وأبو الجرادي والمحسه والقريتين والباردة والبصيري والقمقوم والجباه والسخنة وأسريا... الخ، وبعضهم يقتربون من المدن، ويصطافون في القرى التي يمتلكونها أو القرى التي كانوا فرضوا عليها الخوّة من قبل.

وتجمع نواب العشائر فشكلوا كتلة أسموها: (كتلة العشائر)، وكانوا يشكلون مع نواب حزب الشعب المتحالفين معهم ثقلاً كبيراً في مجلس النواب وأكثرية ذات نفوذ، ولو استغل رؤساء العشائر هذا النفوذ في مصلحة البدو وتوطينهم، وإنشاء المدارس في أماكن تجمعهم لحققوا الشيء الكثير، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، واكتفوا بأن استأجروا بناء في دمشق يجتمع فيه أعضاء الكتلة يحتسون القهوة ويتسامرون.

وعندما كانت بعض الأصوات في المجلس تطالب بتحضير البدو وتسجيلهم في سجلات الأحوال المدنية، كانت هذه الأصوات تلقى معارضة شديدة من قبل نواب العشائر، وحتى هذا التاريخ بقي البدو في أميّة شبه تامة، فإنك لا تجد في العشيرة من يقرأ الرسالة أو يكتبها إلا القليل النادر، وحتى رؤساء العشائر كان أكثرهم أميين، وفي العشائر الكبيرة كان رئيس العشيرة يستأجر كاتباً يسمى الخطيب يدفع له أجراً سنوياً، ولا أعلم من يجيد القراءة والكتابة من رؤساء عشائر قبيلة عْنِزَة في سورية سوى الشيخ طراد الملحم.

المعلم جمعة البياعي:

لعلّه من الإنصاف والاعتراف بالجميل أن نذكر في هذه الفترة الفضل الكبير لهذا المعلم الجاد المخلص، وأول معلم من قبيلة عَنْزَة في بلاد الشام يحصل على مؤهل من دار المعلمين الابتدائية في مدينة حلب.

عين المعلم جمعة البياعي بعد تخرجه معلماً لأبناء راكان المرشد والمقربين منه من العشيرة، وكان قد عاش هذا الواقع الأمّي المخيف بكل أبعاده، ولذلك أراد أن تتسع دائرة النور لتعمّ كل البدو في سورية، وبذل من أجل ذلك جهوداً مضنية لدى المسؤولين بوزارة المعارف من أجل إنشاء مدارس لأبناء العشائر في المدن والبلدات الواقعة على أطراف البادية، وأن تقوم هذه المدارس بتأمين السكن واللباس والطعام لطلابها تشجيعاً من الدولة للبدو كي يرسلوا أبناءهم إليها، وعندما احتج المسؤولون بأنه لا توجد اعتمادات مالية لمثل هذه المدارس اقترح عليهم أن يضاف مقدار خمس قروش سورية على كل رأس من الغنم أو الماعز أو الإبل، وتحصّل هذه المبالغ في أثناء جباية الضرائب من البدو، وقد وجدت هذه الفكرة استحساناً لدى السلطات المسؤولة فأُقرت وأصبحت عنصراً مادياً مساعداً في إنشاء مدارس العشائر.

وهكذا تم افتتاح مدارس داخلية لأبناء البدو في كل من ضمير وتدمر وأبو كمال ودير الزور، وأسندت مهمة إدارة مدرسة تدمر إلى المعلم محمد جمعة البياعي، وبذلك تحقق الأمل الذي طال انتظاره، وتم هذا الإنجاز الإنساني على طريق بناء أجيال متفتحة متعلمة لها دورها في البناء الحضاري، لا أجيال من الرعاة الأميين البسطاء.

إلا أنه كان لأكثر البدو نظرة متحفظة تجاه هذه المدارس، لأنهم كانوا يرون فيها خطراً على أبنائهم، لأنها تؤدي بهم في نهاية الأمر إلى الجندية الإلزامية إلى جانب حرمانهم منهم كرعاة للإبل والماشية، وهذا ما جعل المعلم محمد جمعة يواجه مهمة صعبة في اجتذاب التلاميذ البدو إلى مدرسته الجديدة، ونوّع المعلم الوسائل من أجل استقدام طلابه الجدد، فتارة يلجأ إلى الإقناع والمناقشة، وتارة أخرى إلى شيء من الإكراه والقوة، ومن أجل ذلك كان يستعين بقوات الهجانة، فيرافقهم في جولاتهم على مضارب البدو، وبالترغيب والترهيب كان يأتي بتلاميذه الصغار.

ومن الطريف ذكره هنا أن بعض تلاميذه كانوا يفرّون بدافع منهم أو بتحريض من أهلهم، وتبدأ المطاردة بين العلم والجهل، فالصغير أطلق ساقيه في الهواء فراراً من المعلم جمعة، والمعلم شمّر عن ساقيه يطارد صيده الثمين، حتى إذا أمسك به حمله في السيارة بمساعدة الهجانة.

وفي نهاية اليوم يعود جمعة إلى المدرسة بتلاميذه، فيدخلهم الحمام وينظفهم، ثم يلبسهم الثياب المدرسية الجديدة، ويقدم لهم الطعام الشهي، ويدل كل منهم على سريره المرتب المريح، فما يمضي يوم أو يومان حتى يألف التلاميذ جو المدرسة بعد أن يلمسوا الفارق الكبير بين الحياة في المدرسة والحياة عند أهلهم، ويأتي بعد أيام والد التلميذ ليطمئن على ولده فيجده نظيفاً جميلاً تبدو عليه آثار النعمة، محباً لمدرسته ومعلميه، فينقلب الرجل إلى أهله مسروراً ليزف البشرى إلى زوجته كي يطمئن فؤادها على ولدها، ويصف لها حالته كما رآه، ويصبح الأب بدوره داعية للمدرسة الجديدة ولمعلمها العطوف، فكثر الإقبال على المدرسة، وازدحمت بالتلاميذ من جميع أنحاء البادية.

وأعطى المعلم تلاميذه من جهده وعلمه وحنانه كل شيء، فكان يعلمهم كيف يغتسلون، وكيف يلبسون، وكيف يجلسون إلى الطعام، وكيف يتعاملون مع بعضهم بعضاً، حتى كان يعلمهم ما يفعل الواحد منهم عند قضاء حاجته، وقد تخرج على يده الرعيل الأول من أبناء البدو– وهم على قلة عددهم – حازوا مواقع متقدمة في المسؤولية، فمنهم ضباط كبار في الجيش والشرطة ومسؤولون في دوائر الدولة، إلا أن هذه المدارس لم يكتب لها أن تعمّر طويلاً، ووجدت معارضة قوية من قبل رؤساء العشائر لأنها سوف تخرج أناساً واعين متفتحين يشبهون جمعة البياعي الذي كان يتهمهم في كل مناسبة بالقصور والإهمال، وهم كما قال أحدهم: بجمعة واحد برمون ضائقة صدورهم، فكيف إذا أصبح في كل عشيرة عدد من الجمعات؟.

والوحيد الذي عارض إلغاء مدارس العشائر وطالب بالإبقاء عليها كان الشيخ ثامر الملحم، ولكنه في النهاية غُلب على أمره، وأُلغيت مدارس العشائر التي شعت بنورها على البادية السورية سنوات قليلة، ولكن هذه المدارس وإنْ لم تدم طويلاً، إلا أنها قرّبت بين أذهان البدو والعلم وحبَّبته إليهم، وأصبح المتخرجون الأوائل منها قدوة ومثالاً للأجيال التالية، فأقبل أبناءُ البدو على الدراسة في مدارس الدولة الرسمية والمدارس الخاصة، ثم صدر بعد ذلك القانون رقم (54) الذي نص على ضرورة تسجيل البدو في سجلات الأحوال المدنية، وارتباطهم بوزارة الداخلية من الناحية الأمنية، وحُلّت المديرية العامة للعشائر، وأصبحت قوات الهجانة تابعة للقيادة العامة للجيش والقوات المسلحة.

وفي مطلع الستينات من القرن العشرين أخذت الآلة تحل شيئاً فشيئاً مكان البعير في رحيل البدو وتنقلهم، وهكذا اختفى وجود الإبل في الحماد السوري نهائياً في مطلع السبعينات من هذا القرن، ويسير

المرء الآن من شمال الحماد إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه فلا يرى بعيراً واحداً، ولا يعرف على أي شاطئ رست سفن الصحراء.

قبيلة عنزة:

عنزة قبيلة عربية عدنانية قديمة ضاربة جذورها في أعماق التاريخ، يرجع نسبها إلى جدها عنز بن وائل بن قاسط بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلة والسلام، وقد توارثت المجد والشرف والمنعة خلال تاريخها الطويل، ومنها قبيلة بني شيبان التي أجارت النعمان بن المنذر من ملك الفرس، بعد أن اعتذرت منه جميع قبائل العرب، فهزمت الفرس في معركة ذي قار بقيادة هانئ بن مسعود الشيباني صاحب الخطبة المشهورة في التاريخ التي قال فيها قبل بدء المعركة:

((يا آل بكر، قاتلوا فما من المنايا بد، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في النحور خير منه في الأعجاز والظهور ..... إلخ)).

وكانت معركة غرة في جبين تاريخ العرب قبل الإسلام، وقال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم: ((هذا يوم انتصف فيه العرب من العجم))، وسنأتي على ذكر هذه المعركة بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله، ومنهم المثنى بن حارثة الشيباني الذي استخلفه خالد بن الوليد رضي الله عنه على جيشه في العراق عندما سار إلى بلاد الشام.

ويقول النسابون البدو إن جد عنزة هو عنز بن وائل، وهو أخو بكر بن وائل، وتغلب بن وائل، وإن بني وائل هم بطن من ربيعة العدنانية، وهم خلق كثير لا يكادون يحصون، وكل فرع منهم يماثل في عدده أكبر العشائر.

ومواطن عنزة في الأصل بين أواسط نجد وشمال الحجاز، وكانت عنزة وأسد متصلتين بحي ربيعة نسباً ومتجاورتين كل التجاور في شمالي وادي الرس، وكان الحاج من البصرة إلى المدينة يمر بأرض القبيلتين المذكورتين، وفي عام 325 هـ قامت عنزة بطرد بني كلب وحلفاءهم القضاعيين من الجزيرة، فاتجهوا إلى بلاد الشام، ومنهم قسم من السرحان الذين هاجروا إلى حوران، وتوسعت عنزة نحو الشمال باتجاه أراضي كلب.

وفي القرن الخامس الهجري طردت قسماً من بني كلب، فاندفعوا إلى البصرة، وألّفوا الإمارة الطائية فيها، وكذلك إلى ناحية الفرات وحوران وفلسطين، وأما في القرن السابع الهجري فقد طردوا بني صخر الذين هاجروا إلى الأردن وفلسطين، وأما في القرن العاشر الهجري فقد تقدموا باتجاه بلاد العراق والشام (عن كتاب عشائر الشام لوصفي زكريا).

وهكذا استقرت عنزة في بلاد الشام والعراق وشمالي الحجاز وغرب نجد، ومنها فروع تحضرت واستقرت في بلاد معينة من نجد وساحل خليج البصرة، وأكثر فروع عنزة ما زال على بداوته مثل: الروله والمحلف والعمارات والسبعة والفدعان وبني وهب (الحسنة والمصاليخ والخماعلة والفقرا وولد علي) حتى بداية القرن الرابع عشر الهجري.

وبعضها انتقل إلى حياة الحضارة في نجد وساحل الخليج، حيث قامت ثلاث عائلات حاكمة من أصل عنزي هي: الأسرة السعودية المالكة في نجد والجزيرة العربية، وأسرة آل الصباح أمراء الكويت، وأسرة آل خليفة في البحرين، والمتحضرون من عنزة يسكنون في نجد في العارض والحريق والحوطة والأفلاج والقصيم وبريده وعنيزه، وقسم كبير من عرب عنزة يسكنون الآن في شمال المملكة العربية السعودية في مدن: طريف وعرعر والحفر والقريات ومنطقة الجوف.

ويقول النسابون إن عنز بن وائل أعقب ولدين هما: مسلم وبشر، فمسلم هو أبو ضنا مسلم ولهذا لضنا بطنان: الجلاس والوهب، فمن الجلاس أفخاذ: عشائر الروله والمحلف، والمحلف هم عشائر الأشاجعة والعبد الله والسوالمة حلفاء الروله، ومن بطن الوهب أفخاذ عشائر: ولد علي والمنابهة، وبعض ولد علي في بلاد الشام (حوران)، وبعضهم في بلاد الحجاز واسمهم الأيدا في شمال الحجاز وغرب نجد، وعشيرة الحسنة من المنابهة وأكثرها في بلاد الشام.

ثم بشر وهو أبو ضنا بشر، ولهذا الضنا بطنان: عبد وعمارة، فمن بطن عبد عشائر: السبعة والفدعان وولد سليمان، والسبعة والفدعان في شمالي بلاد الشام، وولد سليمان في شمال الحجاز، ومن بطن عمارة عشائر العمارات التي انحازت إلى العراق وصارت تعد من عشائره (عن كتاب قبايل الجوف للشيخ عبد الرحمن آل كريع).

وفي عام 1239 هـ جالت السائحة الأنكليزية الليدي بلنت بين العشائر وكتبت:

((إن البيوت الشريفة في عشائر بادية الشام هي: ابن ملحم أمير الحسنة، وابن جندل أمير السوالمة، وابن الطيار أمير ولد علي، وابن هذال أمير العمارات، وابن سمير أمير ولد علي، ثم يأتي بعد هؤلاء ابن صفوك شيخ شمر الجربا، وشيوخ طي آل عساف، وابن هديب أمير الموايجة من السبعة العبدة، والمهيد أمير الفدعان، والمرشد أمير السبعة البطينات) (هذا كلام الليدي بلنت الإنكليزية).

جاء في كتاب تاريخ عشائر الأردن للكولونيل بيك، أن عنزة قدمت إلى بلاد الشام في حدود 1112 هـ، بينما ورد في الموسوعة الإسلامية وفي كتاب الغرر الحسان للأمير ملحم الشهابي أن مجيئهم كان قبل

ذلك بمئة عام، وأن طلائعهم الأولى كانت قبيلة بني وهب وفي طليعتها الحسنة، وقد توطنت في بادية حمص وحماه قبل عام 1224 هـ، وفي عام 1171 هـ وصلت طلائع قبيلة عنزة المؤلفة من الحسنة والمصاليخ والخماعلة عمود الحمى الذي نصبه أمير الموالي في البادية السورية جنوب البخرة، فاقتلعت العمود ودحرت الموالي من بادية حمص وحماه حتى أوصلتهم إلى حلب، وأخضعت باقي القبائل وفرضت عليها الخوة، ولم يستطع ولاة الترك صد هذه الموجة، فأصبح بنو وهب أسياد بادية الشام وحمص وحماه حتى الحدود العراقية.

وفي العام 1230 هـ قامت جموع من الفدعان والسبعة والعمارات بمهاجمة البادية السورية، فخرج إليهم والي الشام سليمان باشا السلحدار بجيش كبير، وجرت بين الطرفين معركة كبيرة حول بلدة سلمية استمر فيها القتال خمسة عشر يوماً انهزم على أثرها جيش سليمان باشا، وذكر صاحب الغرر الحسان أن خيالة العربان كانوا يرتدون الدروع، ويتسلحون بالبارود. (تاريخ عشائر الأردن للكولونيل بيك).

وفي عام 1267 هـ تحالف السبعة والروله ضد الحسنة، ولكن لم تحصل بينهم معارك دامية، ثم تنازعت الروله والسبعة فاستنجدت السبعة بالفدعان وانضوت تحت لواء فارس الفدعان جدعان بن مهيد، وكانت بين بطون عنزة من ضنا مسلم وضنا عبيد.

وقد بقيت قبيلة عنزة سيدة بادية الشام حتى تشكيل أول مجلس نيابي سوري، وكان يمثلها في هذا المجلس أربعة نواب من أصل عشرة مقاعد للعشائر وهم: فواز الشعلان، والنوري بن مهيد، وراكان المرشد، وثامر الملحم.

وفي كتاب العرب والعروبة للأستاذ عزة درزة، يقول عن قبيلة عنزة: ((هي أكبر قبائل الجزيرة العربية على الإطلاق، ومنها الملوك والأمراء والفرسان والقضاة والشعراء، منازلها من نجد حتى الحجاز ووادي السرحان والحماد والبادية السورية حتى حمص وحماه وحلب، وقد خلفت آل فضل في قيادة العرب وآلت إليها إمرتهم، ولا تزال حتى الآن)).

ويذكر القاضي حمد الحقيلي أن تغلب القبيلة العربية الشهيرة من أولاد وائل من ربيعة هي الآن مع عنزة وتسمى الآن: ضنا بشر، أما ضنا عبيد والعمارات وبني وهب فهم بني شيبان، وقبيلة بكر العربية التي هزمت الفرس في ((بور ذي قار)) هي: الروله والمحلف والأشاجعة والسوالمة، وقد أخطأ القاضي الحقيلي بدمجه بني وهب مع ضنا عبيد لأن بني وهب من ضنا مسلم.

ويذكر الشيخ عبد الرحمن بن عطى الشايع آل كريع، في كتابه (هدية الأصحاب في جواهر أنساب منطقة الجوف) أنساب قبيلة عنزة وفروعها باستثناء الروله على الوجه التالي:

إن قبائل بني حنيفة وبني أسد ينتسبون إلى وائل بن أسد بن ربيعة من العرب العدنانية، وقد دخل قسم كبير منها في عنزة في القرن الحادي عشر الهجري عندما سيطرت حركة التوحيد بقيادة قبائل عنزة على الجزيرة العربية، وكذلك دخل مع قبيلة عنزة قسم من بني عطية وهكذا تكاد قبيلة عنزة تجمع حالياً كل أولاد وائل بن ربيعة عند العرب ما عدا قلة بقيت في أماكنها أو كثيرة تفرقت منذ الفتوح الإسلامية في فارس والعراق وشمال إفريقيا، كما بين ذلك ابن خلدون في تاريخه الشهير.

وأول بطون قبيلة عنزة هي بطن مسلم (ضنا مسلم)، وهم كما قلنا بقايا قبيلة بكر التي كانت لها السيادة على بادية العراق وانتصرت على الفرس، وكانت من أهم القبائل العربية التي حاربت الفرس مع بني أسد في القادسية، وكان لها النفوذ الكبير حتى العصر البويهي، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي:

القسم الأول: الروله، وزعيمهم ابن شعلان، ويشكلون مع المحلف (السوالمة والعبد الله والأشاجعة) الجلاس.

القسم الثاني: بنو وهيب، ويتألفون من:

آ- ولد علي.

ب- المنابهة.

فروع ولد علي:

1- الحمامدة.
2- المشارقة، ومنهم: الطيايرة - المريخات - المحمد.
3- الجبارة: ومنهم التواجرة - العليان - الرموم.
4- الطلوح: ومنهم آل مسعر.

البطن الثاني من ولد علي[1] هم: المشطة، وهم عدة فروع: العواط ومنهم:

أولاً - آل الدوخي وآل سمير ومنهم الإمارة.

ثانياً - الدمحان ومنهم: النحران - السادي - السعايدة - الرواحلة.

ثالثاً - القطيفات ومنهم: القبق - الروسان - الطوالة - الوطبان - الجبارة.

---

(1) في الأصل بنو وهب وهو خطأ.

رابعاً – الجدالمة ومنهم: الوسامة – العزمة – الطلاح – آل مجبل – الدمجان.

خامساً – المريخات، وهؤلاء قسم كبير منهم في مطير ومنهم أمراء ومنهم أيضاً الجبارة والمجبل –الطوالعة – الربيلات.

البطن الثالث من بني وهب هم المنابهة، وفروعه:

1– الأيدا الشمالية وهم: المشادخة – الحمامدة – المشطة – ورئيسهم ابن الطيار.

2– الأيدا الجنوبية وهم: الشملان – الجريدة – العيادلة – ورئيسهم فرحان الأيدا.

وأرض الأيدا ومستقرهم شمال الحجاز وغرب نجد، وقد كان المنابهة يقيمون جنوب غرب تيماء، ثم انتقل قسم منهم إلى بادية الشام وهم: الحسنة – المصاليخ – الحجاج، وشيخهم ابن ملحم للحسنة، وابن الأعيس للمصاليخ، أما الحجاج فيتبعون ابن ملحم.

ما ذكره الشيخ عبد الرحمن آل كريع فيه كثير من المغالطات، بالنسبة إلى بطون بني وهب، وقد ذكرناه على سبيل الاستئناس مع تقديرنا لجهوده المبذولة بهذا البحث.

وفد بني شيبان إلى الحج[1]:

ورد في البداية والنهاية، لابن كثير ما رواه أبو نعيم والحاكم والبيهقي والسباق لأبي نعيم رحمهم الله، من حديث أدبان بن تغلب عن عكرمة عن ابن عباس حدثني علي بن أبي طالب، قال:

لما أمر الله رسولَه صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى، ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار، وإذ مشايخ لهم أقدار وهيئات، فتقدم أبو بكر فسلم، وقال عليّ: وكان أبو بكر مقدَّماً في كل خير، فقال لهم أبو بكر: فمن القوم؟ قالوا: من بني شيبان بن ثعلبة، فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عزة في قومهم، وفي رواية: ليس وراء هؤلاء غرر من قومهم وهؤلاء غرر في قومهم وهؤلاء غرر الناس.

وكان في القوم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصه، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق بن عمرو، وكان مفروق بن عمرو قد غلب عليهم بنانا ولساناً وكانت له غديرتان تصفان على صدره، فكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال له: إنا لنزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلّة، فقال له: فكيف المنعة فيكم، فقال: علينا الجهد ولكل قوم جد، فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم، فقال مفروق: إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله ها هو ذا، فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس، وقام أبو بكر يظلّه بثوبه فقال عليه الصلاة والسلام: أدعوكم لشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وأن تؤوني وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد، فقال له: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وقل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً... إلى قوله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾، فقال له مفروق: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش، فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القرى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم

[1] عن البداية والنهاية لابن كثير ج3 – منشورات مكتبة المعارف – بيروت.

تذكرون﴾، فقال له مفروق: دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قومٌ كذبوك وتظاهروا عليك.

وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال له هانئ: قد سمعتُ مقالتكَ يا أخا قريشٍ، وصدقتَ قولَك وإنّي أرى إن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لم نفكر في أمرك وننظر في عاقبة ما تدعو إليه زلة في الرأي وطيشة في العقد وقلة نظر في العاقبة، وإن ما تكون الزلة مع العجلة، وإن من ورائنا قوماً يكرهون أن نعقد عليهم عقداً، ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر.

وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش وأعجبني ما تكلمت به والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة وتركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا، وإنّا إنما نزلنا بين صريين أحدهما اليمامة والآخر السماوة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما هاذان الصريان، فقال له: أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك، فأما ما كان يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلناه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أسأتم الرَّد إذ أفصحتم بالصدق إنه لا يقوم بدين الله إلا من أحاطه من جميع جوانبه. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشكم بناتهم أتسبحون الله وتقدسونه، فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾، ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم قابضاً على يد أبي بكر، قال علي: ثم التفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ((يا عليّ! أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية؟ ما أشرفها، بها يتحاضرون في الحياة الدنيا)).

قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم، قال علي: وكانوا صدقاء صبراء، فسُرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم من معرفة أبي بكر رضي الله عنه بأنسابهم، قال: فلم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يسيراً حتى خرج إلى أصحابه، فقال لهم: ((أحمد الله كثيراً

فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس قتلوا ملوكهم واستباحوا عسكرهم وبي نصروا))، وقال وكانت الوقعة بقراقر إلى جنب ذي قار، وفيها يقول الأعشى:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلّتِ

هموا ضربوا بالحنو حنو قراقرٍ مقدمة الهامرز حتى تولتِ

فثاروا وثرنا والمودة بيننا وكانت علينا غمرة فتجلتِ

قال ابن كثير: هذا حديث غريب جداً كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم وفصاحة العرب، وقد ورد هذا من طريق أخرى، وفيه أنهم لما تحاربوا هم وفارس والتقوا معهم بقراقر مكان من الفرات جعلوا شعارهم محمد صلى الله عليه وسلم فنصروا على فارس بذلك، وقد دخلوا بعد ذلك في الإسلام.

– انتهى كلام ابن كثير–

معركة ذي قار[1]:

كان زيد بن عدي كاتباً عند كسرى وناصحاً له، ينقل إليه أخبار العرب، ويكتب رسائله إليهم، ويسدي إليه النصح والمشورة في شؤونهم، وكان النعمان بن المنذر ملك الحيرة قد قتل عدياً أبا زيد هذا، وكان لملوك الأعاجم صفة من النساء مكتوبة عندهم، وكانوا يبعثون في طلب من يكون على هذه الصفة من النساء، فإذا وجدت حملت إلى الملك غير أنهم لم يكونوا يطلبونها في أرض العرب ولا يظنّونها عندهم، ثم إنه بدا للملك في طلب تلك الصفة، وأمر فكتب بها إلى النواحي، ودخل إليه زيد بن عدي، وهو في ذلك القول: فخاطبه فيما دخل إليه فيه، ثم قال: إني رأيت الملك قد كتب في نسوة يطلبن له، وقرأت الصفة، وقد كنت بآل المنذر عارفاً، وعند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة.

قال: فاكتب فيهنّ، فقال: أيها الملك، إن شرّ شيء في العرب وفي النعمان خاصة أنهم يتكرمون – زعموا في أنفسهم – عن العجم، فأنا أكره أن يغيّبهن عمن تبعث إليه، أو يعرض عليه غيرهن، وإن قدمت أنا عليه لم يقدر على ذلك، فابعثني وابعث معي رجلاً من ثقاتك يفهم العربية، حتى أبلِّغ ما تحبه، فبعث معه رجلاً جلداً فهماً، وخرج به زيد، وجعل يكرم الرجل ويلاطفه حتى بلغ الحيرة، ودخلا على النعمان، فأعظمه زيد، وقال له: إن كسرى احتاج إلى نساء لنفسه وولده وأهل بيته، وأراد كرامتك بصهره، لأبعث إليك؟ قال: ما هؤلاء النسوة، فقال: هذه صفتهن قد جئنا بها.

وكانت الصفة أن المنذر الأكبر أهدى إلى أبي شروان جارية كان أصابها إذ أغار على الحارث الأكبر أبي شمر الغساني، وكتب إليه بصفتها، وبقيت هذه الصفة إلى أيام كسرى بن هرمز حتى أرسل بها النعمان مع زيد ورفيقه، وهي: ((إني قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق، نقية اللون والثغر، بيضاء قمراء، وطفاء[2] كحلاء دعجاء[3] حوراء[4]، عيناء[5]، قنواء[6]، شمّاء[7]، برجاء[8]، زجّاء[9]،

---

[1] كتاب أيام العرب في الجاهلية، ص /20/ طبع دار الفكر – بيروت.

[2] الوطفاء: غزيرة الأهداب وشعر الحاجبين.

[3] الدعج: شدة سواد العين وشدة بياض بياضها.

[4] حوراء: اسوداد العين كلها مثل الظباء، ولا يكون في بني آدم إلا على الاستعارة.

[5] العين: سعة العين.

[6] القنا: ارتفاع في أعلى الأنف، واحد يداب في وسطه، وسبوغ في أعلاه.

[7] الشمم في الأنف: ارتفاع القصبة.

[8] البرجاء: الجميلة الحسنة.

[9] الزجاء: دقيقة الحاجبين في طول.

أسيلة[1] الخد، شهية المقبّل، جثلة[2] الشعر، عظيمة الهامة، بعيدة مهوى القرط، عيطاء[3]، عريضة الصدر، كاعب الثدي، ضخمة مشاش[4] المنكب والعضد، حسنة المعصم، لطيفة الكف، سبطة البنان، ضامرة البطن، خميصة الخصر، غرثى[5] الوشاح، رداح[6] الاقبال، رابية الكفل، لفّاء[7] الفخذين، ريّا الروادف، ضخمة المأكمتين[8] مفعمة[9] الساق، مشبعة[10] الخلخال، لطيفة الكعب والقدم، قطوف[11] المشي، مكسال الضّحى[12]، بضة[13] المتجرد، سموعاً للسيّد، ليست بخنساء[14] ولا سفعاء[15] رقيقة الأنف، عزيزة النّفر، لم تعدّ في بؤس، حييّة رزينة، حليمة ركينة، كريمة الخال، تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها، وتستغني بفصيلتها دو جماع قبيلتها، قد أحكمتها الأمور في الأدب، فرأيها رأي أهل الشرف، وعملها عمل أهل الحاجة، صناع الكفين، قطيعة[16] اللسان، رهوة[17] الصوت ساكنته، تزين الوليّ، وتشين العدو[18]...)).

ولما قرأ زيد هذه الصفة على النعمان شقّ عليه، وقال لزيد، والرسول يسمع: أما في مها السّواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته، فقال الرسول لزيد بالفارسي: ما المها والعين؟

---

[1] الخد الأسيل: الطويل المسترسل الأملس.

[2] الجثل من الشعر: للكثيف الأسود.

[3] العيطاء: الطويلة العنق.

[4] المشاشة: رأس العظم الممكن المضغ.

[5] غرثى الوشاح: دقيقة الخصر.

[6] الرداح: العجزاء.

[7] لفاء: ضخمة الفخذين مكتنزة.

[8] المأكمتان: اللحمتان اللتان على رؤوس الوركين.

[9] مفعمة الساق: ممتلئتها.

[10] كناية عن السمن.

[11] الوصف من القطاف، وهو تقارب الخطو.

[12] المكسال: المرأة التي لا تكاد تبرح مجلسها، وهو مدح عندهم.

[13] البضة: الناعمة.

[14] الخنس: قريب من الفطس.

[15] السفع: السواد.

[16] قطيعة: ليست سليطة.

[17] رهوة: رقيقة.

[18] حذفت بعض العبارات المستهجنة.

فقال له بالفارسية: (كاوان) أي البقر، فأمسك الرسول، وقال زيد للنعمان: إنما أراد الملك كرامتك، ولو علم أن هذا يشق عليك لم يكتب إليك به، فأنزلهما يومين عنده، ثم كتب إلى كسرى: إن الذي طلب الملك ليس عندي، وقال لزيد: اعذرني عند الملك.

فعادا إلى كسرى، فقال زيد للرسول الذي قدم معه: أصدق الملك عما سمعت، فإني سأحدثه بمثل حديثك، ولا أخالفك فيه، فلما دخلا على كسرى قال زيد: هذا كتاب النعمان إليك، فقرأه عليه، فقال له كسرى: وأين الذي كنت خبرتني به، قال: كنت خبرتك بضنّتهم بنسائهم على غيرهم، وإن ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعري على الشبع والرّياش، وإيثارهم السموم والرياح على طيب أرضك هذه، حتى أنهم ليسمونها السجن، فسل هذا الرسول الذي كان معي عمّا قال، فإني أكرم الملك عن مشافهته بما قال، وأجاب به، فقال للرسول: وما قال؟ فقال الرسول: أيها الملك: إنه قال: أما في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا؟ فعرف الغضب في وجهه، ووقع في قلبه ما وقع، ولكن لم يزد على أن قال: ربّ عبد قد أراد ما هو أشدّ من هذا، ثم صار أمره إلى التّباب.

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان، وسكت كسرى أشهراً على ذلك، وجعل النعمان، يستعد ويتوقع، حتى أتاه كتاب كسرى: أن أقبل، فإن للملك حاجة إليك، فانطلق حين أتاه كتابه، فحمل سلاحه، وما قوي عليه، ثم لحق بجبلي طيء، وكان متزوجاً إليهم[1]، فأراد النعمان طيئاً على أن يدخلوه الجبلين ويمنعوه، فأبوا عليه خوفاً من كسرى، وقالوا له: لولا صهرك لقتلناك، فإنه لا حاجة بنا إلى معاداة كسرى، ولا طاقة لنا به.

فأقبل يطوف على قبائل العرب ليس أحد منهم يقبله، غير أن بني رواحة بن قطيعة بن عيسى قالوا: إن شئت قاتلنا معك– لمنّة كانت له عندهم – قال: ما أحبّ أن أهلككم، فإنه لا طاقة لكم بكسرى.

ثم أقبل حتى نزل في ذي قار في بني شيبان[2] سراً، فلقي هانئ بن مسعود[3] الشيباني – وكان سيداً منيعاً– فاستجار به فأجاره، وقال له: قد لزمني ذمامك، وأنا مانعك مما أمنع نفسي وأهلي وولدي منه، ما بقي من عشيرتي الأدنين رجل، وإن ذلك غير نافعك، لأنه مهلكي ومهلكك، وعندي رأي لك، لست أشير به عليك لأدفعك عما تريده من مجاورتي، ولكنه الصواب، فقال: هاته، فقال: إن كلَّ أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة، والموت نازل بكل أحد، ولأن تموت كريماً

---

[1] كانت عنده فرعة بنت سعد بن حارثة بن لأم، وكذلك عنده زينب بنت أوس بن حارثة.

[2] شيبان: بطن في بكر بن وائل.

[3] وفي رواية، إن هانيء بن سعود لم يدرك هذا الأمر، وإنما هو هانيء بن قبيضة بن هانيء بن مسعود.

خير من أن تتجرّع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك، هذا إن بقيت، فامض إلى صاحبك، واحمل إليه هدايا ومالاً، وألق بنفسك بين يديه، فأما إن صفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً، وأما إن أصابك فالموت خير من أن يتلعّب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها، وتأكل مالك وتعيش فقيراً مجاوراً أو تقتل مقهوراً، فقال: كيف بحرمي، قال: هنّ في ذمتي لا يخلص إليهنّ حتى يخلص إلى بناتي، فقال: هذا وأبيك الرأي الصحيح ولن أجاوزه.

ثم اختار النعمان خيلاً وحللاً من عصب[1] اليمن، وجوهراً وطرفاً كانت عنده، ووجّه بها إلى كسرى، وكتب إليه يعتذر، ويعلمه أنه صائر إليه، ووجّه بها مع رسوله، فقبلها كسرى، وأمره بالقدوم عليه، فعاد إليه الرسول فأخبره بذلك، وإنه لم ير له عند كسرى سوءاً.

فمضى إليه بعد أن استودع هانئ بن مسعود حلقته وأهله وولده وألف شكّة[2] حتى إذا وصل إلى المدائن[3] لقيه زيد بن عديّ على قنطرة ساباط[4]، فقال له: انج نعيم إن استطعت النجاء، فقال له: أفعلتها يا زيد؟ أما والله لئن عشت لك لأقتلنّك قتلة لم يقتلها عربي قطّ ولألحقنّك بأبيك. فقال له زيد: امضِ لشأنك نعيم، فقد أخَّيْتُ لك أخيَّةً[5] لا يقطعها المهر الأرن[6].

فلما بلغ كسرى أنه بالباب بعث إليه فقيده، وبعث به إلى سجن[7] كان له، فلم يزل به حتى وقع الطاعون هناك فمات فيه[8].

---

[1] العصب: نوع من برود اليمن يعصب غزله، أي يشد ويجمع ثم يصبغ وينسج.

[2] الشكة: السلاح.

[3] -المدائن: الموضع الذي كان مسكن الملوك من الأكاسرة، فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسماها باسمه، فسميت المدائن.

[4] ساباط: موضع بالمدائن لكسرى أبرويز.

[5] الأخية: عروة تربط إلى وتد مشقوق وتشد فيها الدابة

[6] الأرن: النشيط.

[7] وفي رواية لابن الكلبي: ألقاه تحت أرجل الفيلة فوطئته حتى مات.

[8] ولما نعى النابغة وحدث بما صنع به كسرى قال: طلبه من الدهر طلب الملوك، ثم تمثل:

مـــن يطلـــب الـــدهر تدركـــه مخالبـــه	والـــدهر بالـــوتر ناج غـــير مطلـــوب
مـــا مـــن أناس ذوي مجـــد ومكرمـــة	الا يشـــد علـــيهم شـــدة الـــذيب
حـــتى يبيـــد علـــى عمـــد ســـراتهم	بالنافـــذات مـــن النبـــل المصـــابيب
إني وجدت سهام الموت معرضة	بكل حنف من الآجال مكتوب

فلما قتل كسرى النعمان استعمل إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة وما كان عليه النعمان، وبعث إليه: أن يجمع ما خلّفه النعمان ويرسله إليه، فبعث اياس إلى هانئ بن مسعود يأمره بأن يرسل له ما استودعه النعمان من الدروع وغيرها، وقال له: لا تكلفني أن أبعث إليك ولا إلى قومك بالجنود تقتل المقاتلة وتسبي الذرية.

فبعث إليه هانئ يقول: إن الذي يلغك باطل، وما عندي قليل ولا كثير وإن يكن الأمر كما قيل فأنا أحد رجلين: إما رجل استودع أمانة فهو حقيق أن يردّها على من أودعه إياها، ولن يسلّم الحرّ أمانة، أو رجل مكذوب عليه، فليس ينبغي أن تأخذه بقول عدوّ أو حاسد.

فلما منعها هانئ غضب كسرى، ثم أخذت بكر بن وائل تغير في السواد[1]، فوفد قيس بن مسعود بن خالد بن ذي الجدين على كسرى، فسأله أن يجعل له أكلاً وأطعمة على أن يضمن له بكر بن وائل ألا يدخلوا السواد ولا يفسدوا فيه، فأقطعه الأبلّة[2] وما والاها، وقال: هي تكفيك وتكفي أعراب قومك، فكانت له حجرة[3] فيها مائة من الإبل للأضياف إذا نحرت ناقة أقيدت أخرى.

فكان يأتيه من أتاه من بكر فيعطيه جلّة[4] تمر وكرباسة[5]، حتى إذا قدم الارث بن وعلة والمكسّر بن حنظلة أعطاهما جلّتي تمر وكرباستين، فغضبا وأبيا أن يقبلا ذلك منه، وخرجا واستغويا ناسا من بكر بن وائل، ثم أغارا على السواد، فلما بلغ ذلك كسرى اشتد حنقه عليهم، وأرسل إلى قيس بن مسعود وهو بالإبلّة، وقال له: لقد غررتني من قومك، وزعمت أنك تكفينيهم، وأمر به فحبس في ساباط.

ثم أرسل إلى اياس بن قبيصة واستشارة في الغارة على بكر، فقال له: ماذا ترى؟ وكم ترى أن نغزيهم من الناس؟ فقال له إياس: إن الملك لا يصلح أن يعصيه أحد من رعيته، وإن تطعني لم تعلم أحداً لأي شيء عبرت وقطعت الفرات، فيروا أن شيئاً من العرب قد كربك، ولكن ترجع وتضرب عنهم، وتبعث عليهم

= ورثاه زهير بن سلمى فقال:

ألم تـــر للنعمـــان كـــان بنجـــدة	مـــن الشـــر لـــو أن أمـــراً كـــان باقيـــاً
فلـــم أر مخـــذولاً لـــه مثـــل ملكـــه	أقـــل صـــديقاً أو خليـــل موافيـــا
خـــلا أن حيـــا مـــن رواحـــه حـــافظوا	وكـــانوا أناســـاً يتقـــون المخـــازيا
فقال لهم خيراً وأثنى عليهم	وودعـهـم توديـع ألا تـلاقيـا

[1] السواد: ما حوالي القصبة من القرى.

[2] الأبلّة: بلد على شاطئ دجلة اليسرى.

[3] الحجرة: حظيرة للإبل.

[4] الجلة: وعاء من خوص يكنز في التمر.

[5] الكرباسة: ثوب من قطن.

العيون حتى ترى غرّة منهم، ثم ترسل حلبة[1] من العجم فيها بعض القبائل التي تليهم، فيوقعون بهم وقعة الدهر، ويأتونك بطلبتك.

فقال له كسرى: أنت رجل من العرب، وبكر بن وائل أخوالك، فأنت تتعصب لهم، ولا تألوهم نصحاً، فقال اياس: رأي الملك أفضل.

فقام إليه عمرو بن عدي بن زيد العبادي– وكان كاتبه وترجمانه بالعربية وفي أمور العرب – فقال له: أقم أيها الملك، وابعث إليهم بالجنود يكفوك.

وكان عنده النعمان بن زرعة التغلبي – وهو يحب هلاك بكر، فقال لكسرى: يا خير الملوك، أدلك على عدو يطلبهم، وعلى غرّة بكر، فقال: نعم، قال: أمهلنا حتى نقيظ، فإنهم لو قد قاظوا تساقطوا على ماء، يقال له ذي قار تساقط الفراش في النار، فأخذتهم كيف شئت، وأنا عندك إلى أن أكفيكهم، ومع ذلك فإن مطاليبهم في ذلك الوقت كثيرة، وذلك مما يوهن كيدهم ويكون أيسر على الملك هلاكهم.

فوافقه كسرى وأقرّهم، حتى إذا قاظوا جاءت بكر بن وائل فنَزلت بالحنو[2] حنو ذي قار، ولما بلغ كسرى نزولهم عقد للنعمان بن زرعة على تغلب والنمر، وعقد لخالد بن يزيد البهراني على قضاعة وإياد، وعقد لأياس بن قبيصة على العرب، ومعه كتيبتاه الشهباء والدوسر[3] فكانت العرب ثلاثة آلاف، وعقد للهامرز[4] على ألف من الأساورة، وعقد للختّابزين على ألف، وبعث معهم باللطيمة – وقد كانت تخرج من العراق فيها البزّ والعطر والألطاف توصل إلى باذان عامل كسرى باليمن – وأمر عمرو بن عدي أن يسير بها، وكانت العرب تخفرهم وتجيرهم حتى تبلغ اللطيمة اليمن، وعهد كسرى إليهم إذا شارفوا بلاد بكر ودنوا منها أن يبعثوا النعمان بن زرعة يخيّرهم بين ثلاث خصال: إما أن يعطوا ما بأيديهم فيحكم فيهم الملك بما شاء، وإما أن يعرّوا الديار، وإما أن يأذنوا بحرب.

وكان كسرى قد أوقع قبل ذلك ببني تميم يوم الصفقة، فالعرب وجلة خائفة منه، وكانت هند بنت النعمان في بني سنان، فلما علمت بمسير جموع كسرى قالت تنذر العرب:

---

[1] الحلبة: الدفعة من الخيل تجمع للسباق أو الغارة.

[2] الحنو: هو من ذي قار على مسيرة ليلة.

[3] الشهباء ودوسر: كتيبتان حربيتان، كان قد جعلها يزدجر ملك الفرس تحت تصرف النعمان بن المنذر ومن بعده، وكان رجال الشهباء من الفرس ورجال دوسر من عرب تنوخ.

[4] كان الهامرز على مسلحة كسرى بالسواد.

ألا أبلغ بني بكر رسولاً فقد جدّ النفير بعنفقير[1]

فليت الجيش كلهم فداكم ونفسي والسرير وذا السرير

كأني حين جدّ بهم إليكم معلّقة الذوائب بالعبور[2]

فلو أني أطقت لذاك دفعاً إذاً لدفعته بدمي وزيري[3]

فلما بلغ الخبر بكر بن وائل سار هانئ بن مسعود حتى انتهى إلى ذي قار، فنَزل به، وأقبل النعمان بن زرعة حتى نزل على ابن أخته مرّ بن عمرو، فحمد الله النعمان وأثنى عليه، ثم قال: إنكم أخوالي وأحد طرفيّ، وإن الرائد لا يكذب أهله، وقد أتاكم ما لا قبل لكم به من أحرار فارس وفرسان العرب، والكتيبتان: الشهباء والدوسر، وإن في الشر خياراً، ولأن يفتدي بعضكم بعضاً خير من أن تصطلموا[4]، انظروا هذه الحلقة فادفعوها، وادفعوا رهناً من أبنائكم بما أحدث سفهاؤكم، فقال له القوم: ننظر في أمرنا.

ثم بعثوا إلى من يليهم من بكر، وبرزوا ببطحاء ذي قار بين الجلهتين[5]، وأخذوا يرتقبون[6] من يأتي من قبائل بكر، لا ترفع جماعة إلا قالوا سيدنا في هذه، فرفعت لهم جماعة، فقالوا: سيدنا في هذه، فلما دنوا إذا هم بعبد عمرو بن بشر بن مرثد، فقالوا: لا، ثم رفعت لهم أخرى، فقالوا: سيدنا في هذه، فإذا هو

---

(1) العنفقير: الداهية.

(2) العبور: نجم في السماء يلي الجوزاء.

(3) الزير: ما استحكم فتله من الأوتار.

(4) تصطلموا: تستأصلوا وتبيدوا.

(5) جلهة الوادي: مقدمة وما استقبلك منه واتسع له.

(6) روي في الأغاني: أن مرداساً كان مجاوراً في بكر يومئذٍ، فلما رأي الجيوش قد أقبلت إليهم حمل عيالهم وخرج عنهم وأنشأ يحرضهم:

بلـــــغ ســـــراة بــــني بكـــــر مغلغلـــــة أني أخـــــاف علـــــيكم ســـــربة الـــــواري

السرية: الجماعة يغيرون، والواري :المتلهب

أني أرى ا لملـــــــك الهـــــامرز منصـــــلتاً يزجـــــي جيـــــاداً وركبـــــاً غـــــير أعيـــــار

المنصلت: المسرع، والأعيرا جمع عير وهو الحمار

لا تلقـــــط البعـــــر الحـــــولى نســـــوتهم للجـــــائزين علـــــى أعطـــــان ذي قـــــار

الأعطان: مبارك الإبل.

فـــــإن أبيـــــتم فـــــإني رافـــــع ظعـــــني ومنشـــــب في جبـــــال اللـــــوب أظفـــــاري

اللوب: هم النوب، وهم جيل من السودان

وجاعـــــــــل بيننـــــــــا ورداً غواربـــــــــه ترمـــــــي إذا مـــــــاربا الـــــوادي بتيـــــار

ربا ارتفع، و(ورداً غواربه) أراد البحر

جبلة عابث بن صريح اليشكري، فقالوا: لا، فرفعت أخرى، فقالوا: في هذه سيدنا، فإذا هو الحارث بن وعلة بن المجالد الذهلي، فقالوا: لا، ثم رفعت لهم أخرى فقالوا: في هذه سيدنا، فإذا فيها الحارث بن ربيعة بن عثمان التيمي في تيم الله، فقالوا: لا، ثم رفعت لهم أخرى أكبر مما كان يجيء فقالوا: لقد جاء سيدنا، وإذا رجل أصلع الشعر، عظيم البطن، مشرب حمرة، هو حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي، فقالوا: يا أبا معدان قد طال انتظارنا، وقد كرهنا أن نقطع أمراً دونك، وهذا ابن أختك قد جاءنا، والرائد لا يكذب أهله، وهذا هانئ بن قبيصة يهمّ بركوب الفلاة، ويقول لنا: لا طاقة لكم بجموع الملك[1].

قال حنظلة : فما الذي أجمع عليه رأيكم واتفق عليه ملؤكم[2]، قالوا: إن اللخى[3] أهون من الوهى، وإن في الشر خياراً، ولأن يفتدي بعضنا بعضاً خير من أن نصطلم جميعاً، فقال حنظلة: قبح الله هذا رأياً: لا تجرّ أحرار فارس أرجلها ببطحاء ذي قار وأنا أسمع هذا الصوت، ثم أمر بقبته فضربت بوادي ذي قار، ثم نزل ونزل الناس فأطافوا به.

ثم قال: لا أرى غير القتال، فإنَّا إن ركبنا الفلاة متنا عطشاً، وإن أعطينا ما بأيدينا تقتل مقاتلنا وتسبى ذرارينا، ثم قال لهانئ بن مسعود: يا أبا أمامة، إن ذمتكم ذمتنا عامة، وإنه لن يوصل إليك حتى تفنى أرواحنا، فأخرج هذه الحلقة ففرقها بين قومك، فإن تظفر فتردّ عليك، وإن تهلك فأهون مفقود، فأمر بها هانئ فأخرجت وفرقت في القوم، ثم التفت حنظلة إلى النعمان وقال: لولا أنك رسول لما أبت إلى قومك سالماً، فرجع النعمان إلى أصحابه فأخبرهم بما ردّ عليه القوم، فباتوا لَيلتهم مستعدين للقتال، وبكر يتأهبون للحرب[4].

فلما أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم يسيرون على تعبية[5]، ومعهم الجنود والأفيال عليها الأساورة، وكان نازلاً في بني شيبان ربيعة بن غزالة السكوني ثم التجيبي هو وقومه، فقال: يا بني شيبان، أما أني لو كنت منكم لأشرت عليكم برأي مثل عروة العلم[6]، فقالوا: أنت والله من أوسطنا فأشر علينا، فقال: لا

---

[1] قال في العقد الفريد: لم تر من هانئ سقطة قبلها.

[2] الملأ: جماعة القوم.

[3] اللخى: إعطاء المال، يريدون أن فقد المال خير من الهلاك.

[4] شهدت بكر جميعها هذه الحرب عدا حنيفة.

[5] عبي الجيش تعبية: أصلحه وهيأه.

[6] عروة العلم: أي العلم الذي يوثق به، وهو يريد الرأي السديد.

تستهدفوا لهذه الأعاجم، فتهلككم بنشابها[1]، ولكن تكردسوا كراديس[2]، فإذا أقبلوا على كردوس شدّ الآخر، فقالوا: قد رأيت رأياً.

ولما تقارب الزحفان قام حنظلة بن ثعلبة فقال: إن النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعاجلوهم اللقاء، وابدؤوهم بالشدة، ثم قام إلى وضين[3] راحلة امرأته فقطعه، ثم تتبع الظعن يقطع وضنهن[4] فسقطن على الأرض، فقال: ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته، ثم ضرب قبة على نفسه ببطحاء ذي قار، وآلى لا يفرّ حتى تفر القبة، وقطع سبعمائة رجل من شيبان أيدي أقبيتهم من مناكبها لتخفّ أيديهم لضرب بالسيوف، وقام هانئ بن مسعود[5] فقال:

((يا قوم! مهلك مقدور خير من نجاء معرور[6] وإن الحذر لا يدفع القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر أكرم من الطعن في الدبر، يا قوم! جدّوا فما من الموت بدّ، فتح لو كان له رجال، أسمع صوتاً ولا أرى قوماً، ويا آل بكر شدّوا واستعدوا، وإلا تشدّوا تردّوا)).

وقام شريك بن عمرو بن شراحيل فقال: (يا قوم، إنما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم، وكذلك أنتم في أعينهم، فعليكم بالصبر، فإن الأسنة تردى الأعنّة، يا آل بكر، قدما قدما[7])، وجعل الناس يتحاضون ويرجزون، فقالت امرأة من عجل[8]:

إن تَهزِموا نعانق ونفرش النمارق[9]

أو تُهزَموا نفارق فراق غير وامق

---

[1] النشاب: النبل.

[2] الكردوس: قطعة من الخيل.

[3] الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر، وقيل لا يكون إلا من الجلد.

[4] سمى حنظلة بعد ذلك مقطع الوضن.

[5] في الأمالي: هي لهانئ بن قبيضة الشيباني، ورواية الأمالي فيها اختلاف عما هنا.

[6] معرور: معاب.

[7] قدما: أي تقدموا.

[8] عجل: بطن في شيبان.

[9] النمارق: جمع نمرقة، والنمرقة الوسادة الصغيرة أو الميثرة، أو الطنفسة فوق الرحل.

وقال حنظلة بن ثعلبة:

قد جدّ أشياعكم فجدّوا ما علّتي وأنا مؤد[1] جلد
والقوس فيها وتر عردّ[2] مثل ذراع البكر أو أشد
قد جعلت أخبار قومي تبدو إن المنايا ليس منها بدّ
هذا عمير حيّة ألدّ يقدمه ليس له مردّ
حتى يعود كالكميت الورد خلّ بني شيبان فاستبدّوا
نفسي فداكم وأبي والجدّ

وقال يزيد بن حنظلة بن ثعلبة بن سيار:

من فر منكم فرّ عن حريمه وجاره وفرّ عن نديمه
أنا ابن سيّار على شكيمه إن الشراك قدّ من أديمه[3]
وكلهم يجري على قديمه من قارح الهجنة أو صميمه[4]

وقال عمرو بن جبلة اليشكري:

يا قوم لا تغرركم هذي الخرق ولا وميض البيض في الشمس برق
من لم يقاتل منكم هذا العنق[5] فجنبوه الراح واسقوه المرق

ووقف الجيشان متقابلين، فكانت بنو عجل في الميمنة بإزاء خنابزين وعليهم حنظلة بن ثعلبة، وبنو شيبان في الميسرة بإزاء كتيبة الهامرز وعليهم بكر بن يزيد بن مسهر، وأفناء بكر في القلب وعليهم هانئ بن مسعود، فخرج أسوار من الأعاجم في أذنيه درتان من كتيبة الهامرز يتحدى الناس للبراز، فنادى في بني شيبان فلم يبرز إليه أحد، حتى إذا دنا من بني يشكر برز له يزيد بن حارثة، فشدّ عليه بالرمح فطعنه ودقّ صلبه، وأخذ حليته وسلاحه[6].

---

[1] مؤد: ذو أداة من السلاح تامة، أي لا عذر لي.

[2] عرد: شديد.

[3] الشراك: سير النعل، وقد قطع، والأديم: الجلد المدبوغ.

[4] القارح: الحصان، والهجين: عربي ولد من غير عربي.

[5] العنق: الجماعة وهو مذكر.

[6] وذلك قول سويد بن أبي كاهل يفتخر:

ومنا يزيد إذ تحرى جموعكم فلم تقربوه المزربان المشهر

وخرج الهامرز يدعو إلى البراز فخرج إليه الحوفزان[1] فقتله، وفي ذلك الحين أرسلت إياد – وكانت في جيوش كسرى – سرّاً إلى بكر، وقال رسولهم: أي الأمرين أعجب إليكم، أن نطير تحت ليلتنا فنذهب، أو نقيم ونفرّ حين تلاقون القوم؟ قالوا: بل تقيمون، فإذا التقى الناس انهزمتم بهم.

وقال يزيد بن حمار السكوني – وكان حليفاً لشيبان – أطيعوني واكمنوا لهم كميناً، ففعلوا، وجعلوا يزيد رأسهم، وكمنوا في مكان يقال له الخبيء واجتلدوا، وحملت ميسرة بكر وعليها حنظلة على ميمنة الجيش، وحملت ميمنة بكر وعليها يزيد بن مسهر على ميسرة الجيش، وخرج عليهم الكمين من الخبيء وعليهم يزيد بن حمار، فشدّوا على قلب الجيش، وولت إياد منهزمة كما وعدتهم، وانهزم الفرس وتبعتهم بكر.

ولحق مرثد بن الارث النعمان بن زرعة فأهوى له طعناً، فسبقه النعمان بصدر فرسه فأفلته[2]، ولكن أسود بن بجير العجلي وضع يده في يده، ثم جزّ ناصيته، وخلّى سبيله، ثم اتبعت بكر الفرس وأحلافهم من العرب يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم حتى أصبحوا من الغد وقد شارفوا السّواد، ودخلوه في طلب القوم.

أما إياس بن قبيصة فكان أول من انصرف إلى كسرى بالهزيمة، وكان لا يأتيه أحد بهزيمة جيش إلا نزع كتفيه، فلما أتاه إياس سأله عن الخبر ، فقال : هزمنا بكر بن وائل، فأتيناك بنسائهم، فأعجب ذلك كسرى وأمر له بكسوة، ثم أستأذنه إياس فقال: إن أخي قيس بن قبيصة مريض بعين التمر فأردت أن آتيه[3]، فأذن له كسرى، فركب فرسه الحمامة[4] ولحق بأخيه، ثم أتى كسرى رجل من أهل الحيرة وهو

(تحرى: نازع الغلبة) وبارزه منا غلام بصارم حسام إذا لاقى الضريبة يبتر، الضريبة: ما ضربته بالسيف.

[1] اسمه الحارث بن شريك.

[2] وذلك قول مرثد

فأغرقت فيها الرمح والجمع محجم وخيل تبارى للطعان شهدتها

وفوق قطاة المهر أزرق لهذم وأفلتني النعمان فوت رماحنا

القطاة: موضع الردف من الدابة، واللهزم: كل شيء من سنان أو سيف قاطع.

[3] قال ذلك ليتنحى عنه.

[4] لهذه الفرس خبر ذكره صاحب الأغاني، وهو أن هذه الفرس كانت لأياس ثم أودعها عند رجل من تيم الله يقال له أبو ثور، ولما أراد اياس أن يغزو قومه أرسل إليه أبو ثور بها، فنهاه أصحابه أن يفعل، فقال والله ما في فرس اياس ما يعز رجلاً أو يذله، وما كنت لأقطع رحمه فيها، فقال اياس:

دخيس دواء لا أضيع غزاها يغزاها أبو ثور فلما رأيتها

دخيس: سمينة، والدواء: تسمين الفرس.

إذا أقبلت بكر تجرر شاها فأعددتها كفئاً لكل كريهة

بالخورنق، فسأل: هل دخل على الملك أحد؟ فقيل: نعم إياس، فقال: ثكلت أياساً أمه، وظن أنه قد حدّثه الخبر، فدخل عليه، وحدّثه بهزيمة القوم وقتلهم، فأمر به فنزعت كتفاه.

وفي ذلك اليوم[1] يقول أعشى قيس مفتخراً:

أما تميم فقد ذاقت عداوتنا وقيس عيلان مسّ الخزي والأسف
وجند كسرى غداة الحنو صبحهم منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململمة[2] شهباء يقدمها للموت لا عاجز فيها ولا خرف[3]
فرع نمته فروع غير ناقصة موفّق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم مثل الأسنّة لا ميل ولا كشف[4]
بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم جنّان عين عليها البيض والزغف[5]
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
قالوا : البقيّة[6] والهندي يحصدهم ولا بقية إلا السيف فانكشفوا
لو أن كلّ معد كان شاركنا في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أتونا كأن الليل يقدمهم مطبق الأرض تغشاها[7] بهم سدف
بطارق وبنو ملك مرازبة من الأعاجم في آذانها النطف[8]
من كل مرجانة في البحر أحرزها تيارها ووقاها طينها الصدف
وظعننا خلفنا تجري مدامعها أكبادها وجلا مما ترى تجف[9]
كأنما الآل في حافات جمعهم والبيض برق بدا في عارض يكف

---

[1] رأينا أن نعرض هنا بعض ما قيل في هذا اليوم من الشعر.

[2] كتيبة ملمومة وململمة: مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض.

[3] خرف الرجل: فسد عقله من الكبر، فهو خرف والأنثى خرفة.

[4] الكشف جمع أكشف وهو الذي لا ترس معه، كأنه مكشف غير مستور.

[5] جنان جمع جان، وهو من الجن والزغف: الدروع.

[6] العرب تقول للعدو إذا غلب: البقية، أي أبقوا علينا ولا تستأصلونا، وفي اللسان: قالوا البقية والخطي يأخذهم.

[7] في الديوان: تغشاهم لهم.

[8] النطف: الأقراط، وفي رواية: الشنف.

[9] تجف: تضطرب.

يحسرن عن أوجه قد عاينت عبرا ولاحها عبرة ألوانها كسف[10]

ما في الخدود صدور عن وجوههم ولاعن الطعن في اللّبات منحرف

لما أمالوا إلى النّشاب أيديهم ملنا ببيض فظلّ الهام يقتطف[1]

وخيل بكر فما تنفك تطحنهم حتى تولّوا وكاد اليوم ينتصف

وقال يمدح بني شيبان:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلّت

كفّوا إذا أتى الهامرز تخفق[2] فوقه كظلّ العقاب إذ هوت فتدلّت

أذاقوهم كأساً من الموت مرّة وقد بذخت[3] فرسانهم وأذلّت

فصبحهم بالحنو حنو قراقر وذي قارها منها الجنود فقلّت[4]

على كل محبوك[5] السّراة كأنه عقاب سرت من مرقب إذ تدلت[6]

فجاءت على الهامرز وسط بيوتهم شآبيب موت أسبلت فاستهلت

تناهت بنو الأحزاب إذ صبرت لهم فوارس من شيبان غلب فولّت

وقال أبو عبيدة: سئل أبو عمرو بن العلاء، وقد تنافر إليه عجلي ويشكري، فزعم العجلي أنه لم يشهد يوم ذي قار غير شيباني وعجلي، وقال اليشكري: بل شهدتها قبائل بكر وحلفاؤهم، فقال أبو عمرو: قد فصل بينكما التغلبي حيث يقول:

ولقد رأيت أخاك عمراً مرة يقضي وضيعه بذات العجرم[7]

في غمرة الموت التي لا تشتكي غمراتها الأبطال غير تغمغم

---

[10] قطعاً، أي أن ألوانها مختلفة.

[1] رواية العقد: ملنا ببيض لمثل الهام تختطف.

[2] في الديوان: تخنف، والخنف: الميل.

[3] بذخ: تطاول وتكبر، وفخر، وعلا وبذخ البعير: اشتد هدره فلم يكن فوقه شيء.

[4] روى هذا البيت في اللسان:

وهم ضربوا بالجو حنو قراقر مــقدمة الهـــامـــرز حتى تولـــت

[5] في الديوان: مجبول، والتصحيح عن اللسان.

[6] في اللسان: عقاب سرت من مرقب وتعلت.

[7]

وكأنما أقدامهم وأكفهم سرب[1] تساقط في خليج مفعم

سمعت دعاء مرّة قد علا وابني ربيعة في العجاج الأقتم

ومحلم يمشون تحت لوائهم والموت تحت لواء آل محلم

لا يصرفون عن الوغى بوجوههم في كل سابغة كلون العظلم[2]

ودعت بنو أمّ الرقاع فأقبلوا عند اللقاء بكل شاك معلم

وسمعت يشكر تدعى بحبيب[3] تحت العجاجة وهي تقطر بالدم

يمشون في حلق الحديد كما مشت أسد العرين بيوم نحس مظلم

والجمع من ذهل كان زهاءهم[4] جرب الجمال يقودها ابنا قشعم

والخيل من تحت العجاج عوابساً وعلى مناسجها[5] سحاب من دم

وقال العديل بن الفرح العجلي:

ما أوقد الناس من نارٍ لمكرمة إلا اصطلينا وكنّا موقدي النار

وما يعدّون من يومٍ سمعت به للناس أفضل من يوم بذي قار

جئنا بأسلابهم والخيل عابسة لمّا استلبنا لكسرى كلّ أسوار[6]

وقال أبو كلبة التّيميّ:

لولا فوارس لا ميل ولا عزل[7] من اللهازم[8] ما فظتم[9] بذي قار

---

[1] يقال وضعت عند فلان وضيعة، وفي التهذيب وضيعا، أي استودعته وديعة، ويقال للوديعة وضيع. والعجرمة شجرة من العضاة غليظة لها عقد كعقد الكعاب تتخذ منها القسي، والجمع عجرم يضم العين والراء وكسرهما، قال العجاج يصف المطايا: نواحلاً مثل قسي العجرم.

[2] العظلم عصارة شجر لونه كالنيل أخضر إلى الكدرة، والعظلم أيضاً: صبغ أحمر.

[3] الحبيب: الصاحب، والحباب: الشيطان، ويصح أن يكون تصغيراً لواحد منهما

[4]) زهاء الشيء: شخصه، واحده كجمعه، انشد ابن الأعرابي: دهماً كأن الليل في زهائها: شخوصها، يصف نخلاً يعني أن اجتماعها يرى شخوصها سواداً كالليل

[5] المنسج بكسر الميم: بمنزلة الكاهل من الإنسان.

[6] الأسوار بكسر الهمزة وضمها: قائد الفرس، وقبل: هو الجيد الرمي بالسهام، وقيل: هو الجيد الثبات على ظهر الفرس، والجمع أساورة وأساور.

[7] الأميل: الذي لا سيف معه، وقيل الذي لا رمح معه، وقيل هو الذي لا ترس معه، وقيل هو الجبان، وهو الذي لا يثبت على ظهور الخيل، وجمعه ميل. والعزل: الذي لا سلاح معه.

[8] اللهازم: بنو تيم الله بن ثعلبة.

[9] في بعض الروايات: نظّم، وفاظ الرجل: مات، وفي مهذب الأغاني: قظتم.

**إن الفوارس من عجل هم أنفوا		من أن يخلوا لكسرى عرصة[1] الدار**

**لاقوا فوارس من عجل بشكّتها[2]		ليسوا إذا قلصت حرب بأغمار[3]**

**قد أحسنت ذهل بن شيبان وما عدلت		في يوم ذي قار فرسان ابن سيّار**

**هم الذين أتوهم عن شمائلهم		كما تلبس ورّاد بصدّار[4]**

وقال الأعشى يجيبُه[5]:

**أبلغ أبا كلبة التيمي مألكة		فأنت من معشر والله أشرار**

**شيبان تدفع عنك الحرب آوانه		وأنت تنبح نبح الكلب في الغار**

وقال الأعشى يلوم قيس بن مسعود:

**أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد		وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل**

**أطورين في عام غزاة ورحلة		ألا ليت قيساً عرفته القوائل**

**لقد كان في شيبان– لو كنت عالماً–		قباب وفيهم رحلة وقبائل**

**رحلت ولم تنظر وأنت عميدهم		فلا يبلغنّي عنك ما أنت فاعل**

**فعريت من أهل ومال جمعته		كما عريت مما تمرّ المغازل**

**لعلك يوم الحنو إذ صبّحتهم		كتائب موت لما تعظك العواذل**

وكتب لقيط الإيادي إلى بني شيبان في يوم ذي قار شعراً يقول فيه:

---

[1] العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء، والجمع العراص والعرصات.

[2] الشكة: السلاح.

[3] رجل غمر: لا تجربة له بحرب ولا أمر، ولم تحنكه التجارب، وجمعه أغمار.

[4] رواية النقائض:

نحـــــن أتينــــاهم مـــــن عنــــد أشملهـــــم		كمـــــــــا تنـــــــــــبس وراد بصـــــــــــدار

[5] وفي النقائض: فلما بلغ الأعشى قول أبي كلبة قال: صدق، ثم قال معتذراً

متى تقرن أصم بحبل أعشى		بينها في الضلال وفي الخسار

فلست بمبصرٍ ما قد يراه		وليس بسامعٍ أبداً حوارى

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم أفزعوا، قد ينال الأمن من فزعا

وقلدوا أمركم، لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عضّ مكروه به خشعا

مازال يحلب هذا الدهر أشطره[1] يكون متّبعاً طوراً ومتّبعا

حتى استمرّ على شزر مريرته مستحكم الرأي لا قحماً[2] ولا ضرعا

وقال بكير أصم بني الحارث بن عباد يمدح شيبان:

إن كنت ساقية المدامة أهلها فاسقي على كرم بني همام

وأبا ربيعة كلها ومحلّما سبقا بغاية أمجد الأيام[3]

ضربوا بني الأحرار يوم لقوهم بالمشرفي على مقيل الهام

شدّ ابن قيس شدة ذهبت لها ذكرا له في معرق[4] وشام

عمرو وما عمرو بقحم دالف[5] فيها ولا غمر ولا بغلام

هذا ما قاله شعراؤهم الأوائل يوم كانت الفصحى لسانهم، أما ما قاله المتأخرون منهم فإنه وإن كان يؤجج الحماسة، ويهز الأعطاف، ويستجيش الذكرى والحنين، ويؤدي الغرض الذي تؤديه أقوال أسلافهم، إلا أنه جاء مغايراً في اللفظ مشوباً باللحن مخالفاً لقواعد الفصحى.

ولا ندري من أين جاء هذا الاختلاف وأعقاب بني شيبان ما يزالون في باديتهم، لم يختلطوا بعجم ولا حضر، ولم يطرأ على حياتهم أي تغيير، فالبادية منتجعهم وبيت الشعر مسكنهم، والبعير مركبهم ومأكلهم ومشربهم، والخيل والسيف عدتهم.

فانظر ما قاله أحد شعرائهم الأسمر الجويعان بعدما يقارب من ألف وخمسمائة عام معرجاً على معركة ذي قار:

يا الله يا مشفي الجسوم العليله ياللي خلقت من العدم كل وجدان

---

[1] حلب فلان الدهر أشطره: أي خبر ضروبه، ويعني أنه مر به خيره وشره وشدته ورخاؤه تشبيهاً بحلب جميع أخلاف الناقة، ما كان منها حفلاً وغير حفل ودارّاً وغير دار.

[2] القحم: الكبير من الإبل، وقال في اللسان: ولو شبه به الرجل كان جائزاً.

[3] في مهذب الأغاني: بغاية أفضل الأقسام.

[4] في رواية: مغرب.

[5] في الكامل: ولا داله.

خلقت مخلوقٍ وعينك تخيله ما بين كاف ونون كونت الإنسان

أنت الذي رزق الخلايق كفيله يا رافع سمك السماء دون عمدان

أدعوك بأسماك العظام الجليله يا الجود يا الماجود يا جزل الإحسان

يا واحدٍ ما غير عفوك وسيله لقدرتك عبدك فقيرٍ ومندان

حتى يصل إلى قوله:

وذي قار شاهدنا وغيره مثيله أرامل المنذر حماها ابن شيبان

المنذريه يوم جتنا دخيله[1] حنا زبنها يوم لوذات الأذهان[2]

جتنا تسوقها البلاوي[3] ذليله وعدنا لها مجد الشرف بعد الأحزان

حنا كسرنا جيش كسرى وفيله[4] وعما نوى حنا جزيناه حرمان

---

[1] دخيلة: مستجيرة.

[2] لوذات الأذهان: اللحظات الحرجة التي يغيب فيها الصواب عن كثير من الناس وأشد ما تكون إذا حمي الوطيس واشتد القتال بين المتحاربين

[3] البلاوي: المصائب الكبيرة.

[4] يقصد بفيله: الفيل الذي كان في مقدمة كتيبة الدوسر الفارسية في معركة ذي قار.

(فرسان بني شيبان):

المثنى بن حارثة الشيباني:

لما ندب أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد لنجدة المسلمين في بلاد الشام، أسلم خالد قيادة الجيش في العراق إلى المثنى بن حارثة، ولما علم الفرس بغياب خالد اغتنموا الفرصة وظنوا أنهم سيظفرون بالمسلمين من بعده، فبعثوا إلى نائبه المثنى جيشاً كثيفاً نحواً من عشرة آلاف عليهم هرمز بن حاديه، وكتب شهريار ملك الفرس إلى المثنى: (إنني قد بعثت إليك جنداً من وحش أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم)، فكتب إليه المثنى: (من المثنى إلى شهريار، إنما أنت أحد رجلين، إما باغٍ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي فأنكم إنما اضطررتم إليهم، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير).

قال: فجزع أهل فارس من هذا الكتاب ولاموا شهر يار على كتابه إليه واستهجنوا رأيه، وسار المثنى من الرحة إلى بابل، ولما التقى المثنى وجيشهم بمكان عند عدوة الصراة الأولى، اقتتلوا قتالاً شديداً جداً، وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرق خيول المسلمين فحمل عليه امير المسلمين المثنى بن حارثة فقتله وأمر المسلمين فحملوا، فلم تكن غلا هزيمة الفرس فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وغنموا منهم مالاً عظيماً، وفرت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شر حالة، ووجدوا الملك قد مات فملكوا عليهم ابنة كسرى (بوران ابنة أبو ويز) فأقامت العدل وأحسنت السيرة فأقامت سنة وسبع شهور، ثم ماتت، فملكوا عليهم أختها: (أزرميدخت زنان) فلم ينتظم لهم أمر، فملكوا عليهم (سابور بن شهر يار) وجعلوا أمره إلى الفرخذاوند البندوان فزوجه سابور بابنة كسرى (أزرميدخت) فكرهت ذلك وقالت: إنما هذا عبدٌ من عبيدنا، فلما كان ليلة عرسها عليه، همّوا إليه فقتلوه، ثم ساروا إلى سابور فقتلوه ايضاً، وملكوا عليهم هذه المرأة وهي (أزرميدخت) ابنة كسرى، ولعبت فارس بملكها لعباً كثيراً، وآخر ما استقر أمرهم عليه في هذه السنة أن ملكوا امرأة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة)، وفي هذه الوقعة التي ذكرنا يقول عبده بن الطيب السعدي، وكان قد هاجر لمهاجرة حليلة له حتى وقعة بابل هذه، فلما آسته رجع إلى البادية، وقال:

هل حبل خولة بعد البين موصول　　أم انت عنها بعيد الدار مشغول

وللأحبة أيام تذكرها　　وللنوى قبل يوم البين تأويل

حلت خويلـة في حي عهـدتهم دون المدينة فيها الديك والقيل

يقارعون رؤوس العجم صاخبة منهم فوارس لا عزل ولا ميل

وقد قال الفرزدق في مقره يذكر قتل المثنى ذلك الفيل:

وبيت المثنى قاتل الفيل عنوة ببابل إذ في فارس ملك بابل

ثم ان المثنى بن حارثة استبطأ أخبار الصديق لانشغاله بأهل الشام، وما فيه من حرب اليرموك، فسار المثنى بنفسه على الصديق، واستناب في العراق بشير بن الخصاصية، وعلى المسالح سعيد بن مرة العجلي، فلما انتهى المثنى على المدينة وجد الصديق في آخر مرض الموت، وقد عهد على عمر بن الخطاب، ولما رأى الصديق المثنى قال لعمر: إذ أنا متّ فلا تنسيني حتى تندب الناس لحرب أهل العراق مع المثنى، وإذا فتح الله على أمرائنا بالشام فاردد خالد على العراق فإنهم أعلم بحربه.

المعارك التي خاضها المثنى في العراق:

قدّمنا أن المثنى بن حارثة لما سار خالد من العراق بمن صحبه على الشام وقد قيل أنه سار بتسعة آلاف، وقيل بثلاثة آلاف وقيل بسبعمائة وقيل بأقل، إلا أنهم صناديد جيش العراق، فأقام المثنى بمن بقي فاستقل عددهم وخاف من سطوة الفرس لولا اشتغالهم بتبديل ملوكهم وملكاتهم، واستبطأ المثنى خبر الصديق فسار إلى المدينة فوجد الصديق في السباق فأخبره بأمر العراق، فأوصى الصديق عمر أن يندب الناس لقتال أهل العراق، فلما مات الصديق ودفن ليلة الثلاثاء أصبح عمر فندب الناس وحثهم على قتال أهل العراق، وحرضهم ورغبهم في الثواب على ذلك، فلم يقم أحد لأن الناس كانوا يكرهون قتال الفرس لقوة سطوتهم، وشدة قتالهم.

ثم ندبهم في اليوم الثاني والثالث فلم يقم أحد، وتكلم المثنى بن حارثة فأحسن، وأخبرهم بما فتح الله تعالى على يدي خالد من معظم أرض العراق وما لهم هنالك من الأموال والأملاك والأمتعة والزاد، فلم يقم أحد في اليوم الثالث، فلما كان اليوم الرابع كان أول من انتدب من المسلمين أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم تتابع الناس في الإجابة.

أمر عمر طائفة من أهل المدينة وامّر على الجميع أبا عبيد هذا ولم يكن صحابياً، فقيل لعمر: هلا أمّرت عليهم رجل من الصحابة؟ فقال: إنما أؤمّر ألو من استجاب، إنكم إنما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين، وإن هذا هو الذي استجاب بمثلكم، ثم دعاه فوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأن يستشير سليط بن قيس بأنه رجل باشر الحرب).

فسار المسملمون في أرض العراق (وهم سبعة آلاف) وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد إلى العراق، (فجهز عشرة آلاف عليهم هاشم بن عتبة وأرسل عمر جرير بن عبد الله البجلي في أربعة آلاف إلى العراق فقدم الكوفة ثم خرج منها فواقع هرقران المدار، فقتله وانهزم جيشه وغرق أكثرهم في دجلة.

فلما وصل الناس إلى العراق وجد الفرس مضطربين في ملكهم وآخر ما استقر عليه أمرهم أن ملكوا عليهم (بوران) بنت كسرى بعد ما قتلوا التي كانت قبلها (أزرميدخت) وفوضت بوران أمر الملك عشر سنين إلى رجل منهم يقال له رستم بن فرقزاد على أنه يقوم بأمر الحرب، ثم يصير الملك إلى آل كسرى، فقبل ذلك،

وكان رستم هذا منجماً يعرف النجوم وعملها جيداً فقيل له: ما حملك على هذا؟، يعنون وأنت تعلم أن هذا الأمر لا يتم لك، فقال: الطمع وحب الشرف.

وقعة النمارق:

بعث رستم أميراً له يقال له (جابان) وعلى مجنبته رجلان يقال لأحدهما (حشنس ماء) ويقال للآخر (مردانشاه) وهو خصي أمير حاجب الفرس، فالتقوا مع أبي عبيدة بمكان يقال له النمارق – بين الحيرة والقادسية – على الخيل المثنى بن حارثة، وعلى الميسرة عمرو بن الهيثم فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً وهزم الله الفرس وأسر جابان ومردانشاه، فأما مردانشاه فإنه قتله الذي أسره، وأما جابان فإنه خدع الذي أسره حتى اطلقه فامسكه المسلمون وأبوا أن يطلقوه، وقالوا: إن هذا هو الأمير وجاءوا به إلى أبي عبيدة فقالوا اقتله فإنه الأمير، فقال وإن كان الأمير فإني لا أقتله، وقد أمّنه رجل من المسلمين، ثم ركب أبو عبيد في آثار من انهزم وقد لجؤوا إلى مدينة كسكر التي لابن خالة كسرى واسمه نرسي، فوازرهم نرسي على قتال أبي عبيد فقهرهم أبو عبيد وغنم منهم شيئاً كثيراً وأطعمات كثيرة جداً، ولله الحمد، وبعث بخمس ما غنم من المال والطعام إلى عمر بن الخطاب بالمدينة، وقد قال في ذلك رجل من المسلمين:

لعمري وما عمري عليّ بهين	**لقد صبحت بالخزي أهل النمارق**
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم	**يجوسوهم ما بين درنا وبارق**
قتلناهم ما بين مرج مسلح	**وبين الهواني من طريق الندارق**

فالتقوا بمكان بين كسكر والسفاطية وعلى ميمنة نرسي وميسرته ابنا خاله يندويه وبيرويه أولاد نظام، وكان رستم قد جهز الجيوش مع الجالينوس، فلما بلغ أبو عبيد ذلك أعجل نرسي بالقتال قبل وصولهم فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت الفرس وهرب نرسي والجالينوس إلى المدائن بعد وقعة جرت من أبي عبيد مع الجالينوس بمكان يقال له باروسما فبعث أبو عبيد المثنى بن حارثة وسرايا أخر إلى متاخم تلك الناحية كنهر جور ونحوها ففتحها صلحاً وقهراً وضربوا الجزية والخراج وغنموا الأموال الجزيلة ولله الحمد والمنة، وكسروا الجالينوس الذي جاء لنصرة جابان وغنموا جيشه وأمواله وكرّ هارباً إلى قومه حقيراً ذليلاً.

وقعة جسر أبي عبيد ومقتل أمير المسلمين وخلق كثير منهم:

لما رجع الجالينوس هارباً مما لقي من المسلمين تذامرت الفرس بينهم واجتمعوا إلى رستم، فأرسل جيشاً كثيفاً عليهم ذا الحاجب (بهمس حادويه) وأعطاه راية أفريدون وتسمى ردفش كابيان وكانت الفرس تتيمن بها، وحملوا معهم راية كسرى وكانت من جلود النمور عرضها ثمانية أذرع، فوصلوا إلى المسلمين وبينهم النهر وعليه جسر فأرسلوا:

إما إن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم، فقال المسلمون لأميرهم أبي عبيد أأمرهم فلعبروا هم إلينا، فقال: ما هم بأجرأ على الموت منا ثم اقتحم إليهم، فاجتمعوا في مكان ضيق هنالك فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يعه مثله والمسلمون في نحو عشرة آلاف، وقد جاءت الفرس معهم بأفيلة كثيرة عليها الجلاجل قائمة لتذعر خيول المسلمين، فجعلوا كلما حملوا على المسلمين فرت خيولهم من الفيلة وما تسمع من الجلاجل التي عليها ولا يثبت منها إلا القليل على قسر، وإذا حمل المسلمون عليهم لا تقدم خيولهم على الفيلة ورشقتهم الفرس بالنبل، فنالوا منهم خلقاً كثيراً وقتل المسلمون منهم مع ذلك ستة آلاف، وأمر أبو عبيد المسلمين أن يقتلوا الفيلة أولاً، فاحتوشوها فقتلوها عن آخرها، وقد قدمت الفرس بين أيديهم فيلاً عظيماً أبيض، فتقدم إليه أبو عبيد فضربه بالسيف فقطع ذلومه فحمي الفيل، وصاح صيحة هائلة وحمل فتخبطه برجليه فقتله ووقف فوقه فحمل على الفيل خليفة أبي عبيد الذي أوصى أن يكون أميراً بعده فقتل، ثم آخر ثم آخر حتى قتل سبعة من ثقيف كان قد نص أبو عبيد عليهم واحداً بعد واحد، ثم صارت إلى المثنى بن حارثة بمقتضى الوصية أيضاً، وقد كانت دومة امرأة أبي عبيد رأت مناماً يدل على ما وقع سواء بسواء، فلما رأى المسلمون ذلك وهنوا عند ذلك ولم يكن بقي إلا الظفر بالفرس، وضعف أمرهم، وذهب ريحهم، وولوا مدبرين، وساقت الفرس خلفهم فقتلوا بشراً كثيراً وانكشف الناس فكان أمراً بليغاً وجاؤوا إلى الجسر فمر بعض الناس، ثم انكسر الجسر فتحكم فيمن وراءه الفرس فقتلوا من المسلمين وفرق في الفرات نحو من أربعة آلاف، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وسار المثنى بن حارثة فوقف عند الجسر الذي جاؤوا منه، وكان الناس لما انهزموا جعل بعضهم يلقي بنفسه في الفرات فيغرق، فنادى المثنى، أيها الناس على هينتكم فإني واقف على فم الجسر لا أجوزه حتى لا يبقى منكم أحد ههنا، فلما عدّى الناس إلى الناحية الأخرى سار المثنى فنزل بهم اول منزل، وقام يحرسهم هو وشجعان المسلمين وقد جرح أكثرهم وأثخنوا، ومن الناس من ذهب إلى البرية لا يدري أين ذهب، ومنهم من رجع إلى المدينة النبوية مذعوراً، وذهب بالخبر عبد الله بن زيد بن عاصم المازني إلى عمر

بن الخطاب فوجده على المنبر، فقال له عمر: ما وراءك يا عبد الله بن زيد؟ فقال: أتاك الخبر اليقين يا أمير المؤمنين، ثم صعد إليه فأخبره الخبر سراً، ويقال كان أول من قدم بخبر الناس عبد الله بن يزيد بن الحصين الخطمي، فالله أعلم.

قال سيف بن عمر وكانت هذه الوقعة في شعبان من سنة ثلاث (عشرة) بعد اليرموك بأربعين يوماً فالله أعلم، وتراجع المسلمون بعضهم إلى بعض وكان منهم من فرّ إلى المدينة فلم يؤنب عمر الناس بل قال أنا فيئكم وأشغل الله المجوس بأمر ملكهم، وذلك أن أهل المدائن عدوا على رستم فخلعوه ثم ولوه وأضافوا إليه الفيرزان، واختلفوا على فرقتين، فركب الفرس المدائن ولحقهم المثنى بن حارثة في نفر من المسلمين، فعارضه أميران من أمرائهم في جيشه، فأسرهما وأسر معهما بشراً كثيراً فضرب أعناقهم، ثم أرسل المثنى إلى من بالعراق من أمراء المسلمين يستمدهم، فبعثوا إليه بالإمداد، وبعث إليه عمر بن الخطاب بمدد كثير فيهم جرير بن عبد الله البجلي، في قومه بجيلة بكاملها، وغيره من سادات المسلمين حتى كثر جيشه.

وقعة البويب التي اقتص فيها المسلمون من الفرس:

فلما سمع بذلك أمراء الفرس، وبكثرة جيوش المثنى، بعثوا إليه جيشاً آخر مع رجل يقال له مهران فتوافوا هم وإياهم بمكان يقال له (البويب) قريب من مكان الكوفة اليوم وبينهما الفرات، فقالوا: إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم، فقال المسلمون: بل اعبروا إلينا، فعبرت الفرس إليهم فتواقفوا، وذلك في شهر رمضان، فعزم المثنى على المسلمين في الفطر فأفطروا عن آخرهم ليكون أقوى لهم، وعبأ الجيش وجعل يمر على كل راية من رايات الأمراء على القبائل ويعظهم ويحثهم على الجهاد والصبر والصمت، وفي القوم جرير بن عبد الله البجلي في بجيلة وجماعة من سادات المسلمين، وقال المثنى لهم: إني مكبر ثلاث تكبيرات فتهيؤوا، فإذا كبرت الرابعة فاحملوا، فقابلوا قوله بالسمع والطاعة والقبول، فلما كبر أول تكبيرة عاجلتهم الفرس فحملوا حتى غالقوهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، ورأى المثنى في بعض صفوفه خللاً، فبعث إليهم رجلاً يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: لا تفضحوا العرب اليوم فاعتدلوا، فلما رأى ذلك منهم – وهم بنو عجل – أعجبه وضحك، وبعث إليهم يقول: يا معشر المسلمين عاداتكم، انصروا الله ينصركم.

وجعل المثنى المسلمين يدعون الله بالظفر والنصر فلما طالت مدة الحرب جمع المثنى جماعة من أصحابه الأبطال يحمون ظهره، وحمل على مهران فأزاله عن موضعه حتى دخل الميمنة، وحمل غلام من بني تغلب نصراني فقتل مهران وركب فرسه، كذا ذكره سيف بن عمر.

وقال محمد بن اسحاق بل حمل عليه المنذر بن حسان بن ضرار الضبي فطعنه واجتزّ رأسه جرير بن عبد الله البجلي، واختصما في سلبه، فأخذ جرير السلاح وأخذ المنذر منطقته، وهربت المجوس وركب المسلمون أكتافهم يفصلونهم فصلاً، وسبق المثنى بن حارثة غلى الجسر فوقف عليه ليمنع افرس من الجواز عليه ليتمكن منهم المسلمون، فركبوا أكتافهم بقية اليوم وتلك الليلة، ومن أبعد إلى الليل، فيقال إنه قتل منهم يومئذ وغرق قريب من مائة ألف ولله الحمد والمنة، وغنم المسلمون مالاً جزيلاً وطعاماً كثيراً وبعثوا بالبشارة والأخماس إلى عمر رضي الله عنه، وقد قتل من سادات المسلمين في هذا اليوم بشر كثير أيضاً وذلّت لهذه الوقعة رقاب الفرس وتمكّن الصحابة من الغارات في بلادهم فيما بين الفرات ودجلة فغنموا شيئاً عظيماً لا يمكن حصره، وجرت أمور يطول ذكرها بعد يوم البويب وكانت هذه الواقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام، وقد قال الأعور الشني العبدي في ذلك:

هاجت لأعور درا الحيّ أحزانا واستبدلت بعد عبد القيس حسّانا

وقد أرانا لها والشمل مجتمع إذ بالنخيلة قتلى جند مهـرانا

إذ كان سار المثنى بالخيول لهم فقتل الزحف من فرس وجيلانا

سما لمهران والجيش الذي معه حتى أبادهم مثنى ووحدانا

وتوفي المثنى بن حارثة على إثر انتقاض جرح كان أصيب به في إحدى المعارك وهو تحت قيادة سعد بن أبي وقاص وكان ذلك في السنة الثالثة عشر للهجرة قبيل معركة القادسية.

معن بن زائدة الشيباني:

وهو واحد من رجالات العرب الذين اشتهروا بالشجاعة والحلم والكرم، وقد ضربت بكرمه وحلمه المثال، فمما قيل في كرمه عند رثائه بعد موته:

قفا على معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعاً بعد مربعا

أيا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا

وما روي عن حلمه أن شعراء تراهنوا أيهم يستطيع أن يغضب معناً، فقال أحدهم: أنا أغضبه، وجعلوا له شيئاً إن هو استطاع ذلك، فذهب إلى معن وكان أميراً على اليمن، فاستأذن بالدخول عليه، ولما وقف أمامه قال:

أنا والله لا ألقي سلاماً ... على معن المسمى بالأمير

فقال له معن: السلام لله يا أخا العرب إن سلمت رددنا عليك وإلا فما لنا وما لك، فأردف الشاعر قائلاً:

اتنسى إذ قميصك جلد شاة ... وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال له معن: نعم أذكر ذلك ولا أنساه يا أخا العرب.

فقال له الشاعر:

وفي يمناك عكاز طويل ... تهش بها الكلاب عن الهرير

فقال له معن: لعلها كعصاة موسى.

فقال الشاعر:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً ... وخوّلك الجلوس على السرير

فقال له معن: هو الله يا أخا العرب يرفع من يشاء ويضع من يشاء.

قال الشاعر:

فعجل يا ابن ناقصة بمال ... فإني قد عزمت على المسير

فأمر له معن بجائزة كبيرة، فزاد الشاعر معناً هجاء وزاده معن في العطاء، حتى اضطر الشاعر إلى مدح معن في نهاية الأمر.

وكان معن قد عين أميراً على اليمن، في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي، ثم استدعاه إلى بغداد لكثرة ما قيل عنه من عطائه للشعراء وذوي الحاجات، ومكث فترة في بغداد مستشاراً لأمير المؤمنين المعتصم وجليساً له ثم أعيد إلى إمارة اليمن.

ومن بلاغته ما جاء في العقد الفريد (ج2، ص270):

دخل معن بن زائدة على المنصور يقارب خطوه، فقال المنصور: أراك كبرت سنك، قال: في طاعتك، قال: إنك لجلد، قال: على أعدائك، قال: أرى فيك بقية، فقال: هي لك.

هجرة قبيلة عْنِزَة من شبه الجزيرة العربية:

لا يعرف بالضبط التاريخ الذي بدأت فيه هجرة عْنِزَة من شبه الجزيرة العربية باتجاه الشمال، ولا الأسباب الحقيقة التي أدت إلى هذه الهجرة، ولكنها على كل حال ليست الهجرة الأولى ولا الزحف الأول لعْنِزَة نحو بادية الشام والعراق، فقد سبقتها موجات من بطون هذه القبيلة منذ الجاهلية، فمعركة ذي قار حدثت في عهد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان بنو شيبان مع بكر وفروع من عْنِزَة على ضفاف نهر الفرات في غرب العراق ولم يصلهم الإسلام بعد، ثم تبعتها موجات أخرى مع الفتوحات الإسلامية باتجاه العراق وبلاد فارس، كما رافقت موجات أخرى الجيوش الإسلامية في فتوحاتها باتجاه مصر وبلاد المغرب، ولكن على إثر كل موجة من هذه الموجات كان يبقى للقوم بقية في موطنها الأصلي في شبه الجزيرة العربية، ثم تنمو هذه الجذور وتتكاثر حتى إذا ضاق بها المكان تدفقت نحو الشمال والشرق من جديد.

أسباب هجرة قبيلة عنزة:

يدور خلاف بين المؤرخين على تاريخ آخر هجرة لهم نحو العراق وبادية الشام، وأسباب هذه الهجرة، وأما عن تاريخها، فهذا ما يصعب تحديده بدقة، وأقرب زمن له هو نهاية القرن الحادي عشر الهجري، وأما الأسباب فمن المرجح أنهما سببان:

أولهما: القحط الذي أصاب شبه الجزيرة العربية سنين متتالية والذي أتى على كثير من المورد الأساسي لقبيلة عْنِزَة الممثل بالإبل وكان لا بد من البحث عن مكان آخر يتوافر فيه الماء والكلأ فكانت الهجرة.

وثانيهما: حربها مع غيرها من القبائل على أثر نشوء دعوة التصحيح الإسلامية التي دعى إليها الشيخ محمد عبد الوهاب وتبنّي الأسرة السعودية العنزية هذه الدعوة، وما تلا ذلك من آثار الحملة التركية ضد هذه الدعوة، والتي تم على إثرها نزوح الأسرة السعودية إلى الكويت أمام ضغط الأتراك بالتعاون مع آل الرشيد.

ويبقى السبب الأول هو الأرجح، أما السبب الثاني فقد يكون من جملة العوامل المحرضة على الهجرة وليس سبباً رئيساً فيها.

وأول من هاجر من قبيلة عْنِزَة هم المنابهة (الحسنة – المصاليخ- الخماعلة)، وكانت هجرتهم نحو بادية الشام حيث (بلاد الشيح وهبوب الريح) كما قال أحد روادهم للمنطقة، وأول زحف لهم كان إلى منطقة

الجوف[1]، فأخرجوا منها السردية وحلفاءهم بني صخر وتديّروها فترة من الزمن، ثم تقدموا شمالاً فأزاحوا بني صخر وحلفاءهم من شرقي الأردن، ثم أكملوا زحفهم باتجاه البادية السورية، فاقتلعوا عمود الحمى الذي نصبه أمير الموالي وأكملوا سيرهم حتى ضفاف الفرات، وأخيراً استقر بهم المقام في (ديرة الشنبل)، وسيمر معنا فيما بعد تفاصيل لهذه الهجرة إن شاء الله.

وتبعهم بعد ذلك الولد علي فاستقروا في سهل حوران، وامتلكوا فيه الأراضي، ثم تتابع تدفق بقية قبائل عنزة نحو العراق وسورية، وأصبح لكل عشيرة مقيظ من الأرض ومشتى ومربع لا ينازعها عليه أحد كما ذكرنا سابقاً.

وفي نهاية القرن الرابع عشر الهجري، جرت هجرة معاكسة لقبيلة عْنِزَة نحو منبتها الأصلي في شبه الجزيرة العربية، فاستقبلت المملكة العربية السعودية العائدين من الأهل وأبناء العشيرة بالحب والترحاب، فمنحتهم حق المواطنة، وأغدقت عليهم القروض السكنية، فاستبدلت بيوت الشعر بالمباني الشاهقة، والإبل بالسيارات الفارهة، وشيدت لهم المدارس، وسهلت لهم سبل التعليم، فأصبح التحصيل العلمي ـ لا ردّ النقا ـ مجال تفاخرهم وتنافسهم، وانضوت قبيلة عْنِزَة مع غيرها من القبائل تحت لواء الإسلام في ظل شريعة القرآن، فأصبحوا إخواناً متحابين في أسرة واحدة، لا فضل بينهم لابن البيضاء على ابن السوداء إلا بالتقوى والعمل الصالح، وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أَلَّفْتَ بين قلوبهم، ولكن الله أَلَّف بينهم﴾(2).

---

[1] كان هذا الزحف ابتداءً من خيبر.

[2] سورة الأنفال – الآية 63.

هــجـرة المنــابــهــة

الحســـــنة

هم فرع من المنابهة وبطن من بطون بني وهب، وهم وأبناء عمهم المصاليخ أبناء صاعد بن منبه بن وهب، وذلك أن جدهم وهب أنجب ثلاثة أبناء هم: علي ـ منبه ـ شرعب الكبير.

فمن علي جاء: ولد علي.

ومن شرعب الكبير جاء: شراعبة وهب

ومن منبه جاء: صاعد وخمعل وفقير وشرعب الثاني (شرعب الصغير).

فمن شرعب الثاني جاء: شراعبة المنابهة.

ومن فقير جاء: الفقرا.

ومن خمعل جاء: الخماعلة.

ومن صاعد جاء: حسن وحسين

فمن حسن جاء: المصاليخ.

ومن حسين جاء: الحسنة.

وعليه فإن الحسنة والمصاليخ هم أقرب فروع المنابهة إلى بعضهما نسباً، ولذلك نجدهما أكثر أحياء المنابهة التصاقاً ببعضهما، وهذا ما جعل تاريخهما واحداً على مرّ الأيام، فإن كان غزو فالحيّان معاً وإن كانت هجرة هاجرا معاً، وإن كانت مواجهة مع الأعداء فهما في الأمر سواء.

وشعار الفريقين في الحرب: الصواعد، وإن غلب على الحسنة شعار أهل البويضا[1]، ويشكل المنابهة مع ولد علي قبيلة بني وهب، وهم مع الرولة والمحلف يشكلون ضنا مسلم، أما الجلاس فهم الرولة والمحلف.

والحسنة كغيرهم من العشائر لا نعرف تفاصيل عن ماضيهم البعيد لانعدام التأريخ عندهم، وتاريخهم وأخبارهم هو ما يتناقله الرواة منهم جيلاً بعد جيل.

وقد يزيد هؤلاء الرواة أو ينقصون، وكذلك فإن الرواية تختلف من راوية إلى آخر، ومع نهاية كل جيل يسقط كثير من عناصر الرواية، كما تختفي روايات بكاملها وتذهب مع ذهاب رواتها، حتى لا يبقى في نهاية المطاف إلا نبذ من هنا وهناك عن سير وأخبار مشاهير فرسان العشيرة وشعرائها وبعض غزواتها التي

[1] يقال إنها صخرة بيضاء في منطقة الحجر شمال المملكة العربية السعودية، حفرت في أعلاها جفنة واسعة ربما كانوا يستعملونها في المناسبات.

تترك أثراً بيناً في تاريخها، ولولا أنني التقيت بهؤلاء النفر الستة الذين اعتمدتهم كمراجع رئيسة في بحثي هذا والذين لم يبق منهم سوى اثنين على قيد الحياة وأنا أضع اللمسات الأخيرة على نهاية هذا العمل المتواضع، أقول لولا أنني التقيت بهم لضاع كل شيء، فإن وفقت فالفضل لهم، والجهد مني، ولله تعال الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى فلكل قوم جد ولكل قلم جهد، ومن الله سبحانه وتعالى التوفيق

وعلى أية حال فإن ما جمعته في هذه الصفحات القليلة وأطلقت عليه اسم (الحسنة حماة الشنبل وأسود النقعة)، لا يزيد في تقديري عن حجم أحداث سنة واحدة في تاريخ الحسنة الطويل، ولكن كيف السبيل لمعرفة تاريخ طويل مراجعه حكايات تحكى وتنسى، ورواة يهرمون ويموتون، وليس فيه حبر على ورق؟

ولم يكن الحسنة بأسوأ حظ من غيرهم في التأريخ، بل هذا شأن البدو جميعاً، ما عدا أولئك الذين حالفهم الحظ باستضافة بعض الباحثين الأجانب ـ كعشيرة الرولة ـ وحتى هؤلاء الباحثين الذي كتبوا عن الرولة لم يكتبوا إلا عن الفترة التي عاشوها معهم، أما عن تاريخ الرولة البعيد والذي لا ريب أنه حافل بالأحداث وغني بالأخبار والسير فذاك ما أكل عليه الدهر وأصبح في عالم المجهول.

ومما يزيد في الأمر غموضاً في تاريخ العشائر والقبائل، أن أسماءها قد تغيرت على مر الأيام، فلو عدنا إلى الوراء نقلب صفحات التاريخ، فإننا لا نجد فيها شيئاً اسمه بني وهب ولا الحسنة ولا المصاليخ، وكذلك الأمر فيما يخص أكثر القبائل والعشائر.

وأقصى ما يعرف عن الحسنة أن موطنهم كان في مدينة الدرعية الواقعة في هضبة نجد، وكانوا أهل إبل ونجعة، منتجعهم البادية في الشتاء والربيع، ومستقرهم الدرعية في فصل الصيف، وهم على قلة عددهم، لهم ماض مشهود لهم فيه بالشجاعة والمنعة وقوة البأس، وتاريخ حافل بالمكارم والمجد التليد، ومنهم الشعراء والفرسان الأبطال الذين خلدتهم الأجيال وسارت بأخبارهم الركبان أمثال: دبجان الرفاشي، وعقل العساف، وجدوع الغريان، فهؤلاء لم نسمع بمثيل لأفعالهم إلّا ما سمعناه عن عنترة العبسي ودريد بن الصمّة وغيرهما من أبطال العرب.

فبسيوف هؤلاء الأبطال وأمثالهم شق الحسنة طريقهم عبر الأردن وسورية حتى وردوا نهر الفرات، وفرضوا الخوة على قراها وعشائرها، وكانت قوتهم تكمن في رباط الخيل، فكل من يستطيع حمل السلاح منهم كان يقتني فرساً، ولذلك كانوا أكثر عشائر ضنا مسلم خيلاً.

ولما تدفقت طلائع بني وهب باتجاه شمال شبه الجزيرة العربية، كان الحسنة في مقدمتها، فاحتلوا بلدة خيبر، وأخذوا يقرعون النخل بالرماح ويستهمونه[1] فيما بينهم، فكان نصيب الفارس منهم نخلتين أو ثلاث، وجاء ابن محينة متأخراً وقد ذهب القوم بالنخل ولم يبق منه شيء، فاحتوى هو وعبيده عين الماء وسوّروها ومنعوا الماء عن النخل، فجعلوا له قنواً من التمر عن كل نخلة يصلها الماء فكان أكثرهم سهماً. وهكذا امتلكوا خيبر وزرعوها، ولكنهم ظلوا أهل إبل ونخل، ثم انتقلوا إلى جنوب غرب تيماء، ومنها إلى منطقة الجوف فأجلوا عنها السرحان والسردية وتديروها فترة من الزمن، ثم إنه مرت عليهم سنون عجاف أهلكت الزرع والضرع، وكان لا بد لهم من البحث عن مكان آخر يلتمسون فيه العيش لهم ولإبلهم، فأرسلوا روّادهم نحو الشمال، وما لبث هؤلاء الروّاد أن عادوا إليهم بالبشرى ببلاد الشيح وهبوب الريح والماء الغزير، فقرروا الهجرة، وأخذوا يعدون لها، وقد اشترك في هذه الهجرة جميع أفخاذ المنابهة ما عدا الفقرا وهم :(الحسنة والمصاليخ والخماعلة) .

[1] اعتاد الغزاة عند الغارة على إبل الأعداء أن يقرع الفارس البعير الذي يكسبه يعود الرمح، ويقول لا قرب رفاقه إليه (اشهد يا فلان) ويعني أن ذلك البعير أصبح ملكاً له مثبتاً بشهادة شاهد وهنا طبق الحسنة الشيء نفسه على النخل.

ومن الجدير ذكره هنا أن للمنابهة في هذه الفترة هجرتين:

هجرة المنابهة الأولى:

كان المنابهة يعلمون أن هذه المسيرة ليست نزهة لاستنشاق الهواء والتنقل من روض إلى روض، وإنما كانوا يعرفون أنهم سيصطدمون بجدار صلب من قبائل أهل الشمال: (بني صخر والسردية وغيرهم) أعدائهم التقليديين منذ أيام الجاهلية، ولذلك فإنهم وضعوا في حسبانهم كل احتمال.

وكانوا في ثروة ضخمة من العدد، فللمصاليخ وحدهم سبع عطف، وإذا علمنا أن العطفة كانت بمثابة الراية للجيش عندهم، وإن وراء كل راية خيلاً ورجالاً، وحتى لو كنا لا نعرف عدد الخيل والرجال التي تقاتل مع كل راية، ولكنها على كل حال لا بد أن تكون من القوة بحيث يمكنها الدفاع عنها والتقدم بها، والعطف السبع بقيادة ابن يعيش شيخ المصاليخ.

وإذا علمنا أن فخذ العويمر من الحسنة فقط، كانوا يروضون من الخيل تسعين مهرة أصيلة كل عام، أدركنا العدد الهائل الذي كان عليه القوم، وكان للحسنة والخماعلة عطفة واحدة، وهكذا تقدم المنابهة نحو بلاد الشام بثماني ألوية (ثماني عطف)، والجميع بقيادة شيخ الحسنة فاضل المزيد.

وصدق ظنُّهم، فما أن توغلوا في أراضي شرق الأردن حتى اعترضهم رسل الخريشا شيخ بني صخر يطلبون منهم العودة من حيث أتوا، فشكّل المنابهة وفداً لمقابلة الخريشا والاتفاق معه.

ولما دخل الوفد على الخريشا أولَمَ لهم وأكرمهم، وكان في الوفد ذياب بن محينة أحد فرسان الحسنة، وهنا جرت حادثة طريفة تستحق الوقوف عندها، فبعد أن جلس القوم إلى الطعام انسلَّت أفعى، ودخلت سروال ابن محينة، فمدّ يده اليسرى وأمسك رأس الأفعى، وبقي جالساً يتناول الطعام بيمينه، وأخذت الأفعى تتلوى وهي تختنق بين أصابعه، وهنا لاحظ الجلوس منظراً غير مألوف ولا مستحب طي سرواله، فتغامزوا وتضاحكوا بصمت، وقال أحدهم كلمة متسرعة غمز فيها ابن محينة.

وينتظر المحينة بثبات وصبر حتى فرغ القوم من الطعام فنهضوا ونهض معهم، فلما جلسوا، تناول الأفعى المخيفة بيده وكانت قد فارقت الحياة وقذفها بينهم قائلاً: (احتملتُها حيّة فاحتملوها ميتة)، فذعر الجلوس وتركوا أماكنهم، وجلس ابن محينة مكانه فخجل القوم وعادوا إلى أماكنهم واعتذروا من الرجل.

وكان الخريشا متشدداً في تفاوضه مع الوفد، وعرض عليهم شروطاً صعبة لقاء السماح لهم بالإقامة في أرضه هي:

1- أن يعترفوا له بالإمارة عليهم.

2- أن يعطوه ناقتين من كل قطيع من الإبل، واحدة من أول القطيع وواحدة من آخره.

3- إذا لم يقبلوا بالشرطين السابقين ينبغي أن يعودوا من حيث أتوا، وإلا فالحرب بينهم وبينه.

فقال له رئيس الوفد:

- أما العودة من حيث أتينا فلا.
- وأما الإمارة فلا إمارة لك علينا.
- وأما ما تطلبه من الإبل فلم يكن من عادتنا أن نعطيه لأحد.
- وأما إن أردت الحرب فلك ما شئت.

فكانت الحرب وتقابل الجمعان: بنو صخر وحلفاؤهم من جهة، والمنابهة من جهة أخرى، ولا يعرف شيء عن تفاصيل تلك المعركة إلا أن المنابهة استطاعوا أن يزيحوا أهل الشمال عن الأرض، واضطروهم إلى النزوح نحو جبل الدروز وسهل حوران شمالاً، وبعضهم عبر نهر الأردن نحو فلسطين غرباً.

وهكذا أصبحت منطقة شرق النهر خالية للمنابهة، فاتخذوا من حمادها وجزءاً من الحماد السوري مشتى لهم ومربعاً، ومن وادي الغور مقيظاً لهم في أشهر الصيف، ووجد المنابهة في خضر وادي الغور الطيبة وثماره الزكيّة المتنوعة نمطاً رغيداً من العيش لم يكن لهم عهد به من قبل، ولا يعرف كم من الوقت أقاموا هناك على هذه الحال، إلا أن حرباً نشبت بين ما بقي من بني وهب في شبه الجزيرة العربية وبين غيرهم، فأرسلوا يستنصرون بأبناء عمهم المنابهة في شرق الأردن فأسرعوا لنجدتهم.

إذ ساروا إليهم بالجمل وما حمل، فانتصروا لهم على أعدائهم، وأقاموا من جديد في منطقة الجوف، ولا يعرف كم لبثوا هناك، بيد أن خصوبة وادي الغور وعذوبة مائه وتنوع ثماره وجمال الطبيعة في حماد شرقي الأردن، شدتهم إلى تلك الديار من جديد، فكانت الهجرة الثانية.

هجرة المنابهة الثانية:

كانت الهجرة الثانية للمنابهة على نمط الهجرة الأولى، وأصحابها هم أصحاب الهجرة الأولى (المصاليخ وعلى رأسهم ابن يعيش والحسنة والخماعلة وعلى رأسهم فاضل المزيد).

ومرة أخرى يخرج المنابهة أهل الشمال من شرق الأردن ويجلونهم إلى سهل حوران وفلسطين، ولا تعرف تفاصيل الأحداث التي جرت خلال هذه الهجرة، بيد أن معركة كبيرة دارت رحاها بين حشود متحالفة من بني صخر والسردية والمتاولة من جهة، وبين المنابهة بقيادة فاضل المزيد من جهة أخرى، انهزم فيها بنو صخر وحلفاؤهم، وكانت أعنف معركة بين الطرفين وربما كانت النهاية للحرب بينهما، حيث لم يقم بعدها لأهل الشمال قائمة.

وقد ورد ذكر لهذه المعركة في المحررات السياسية لأحداث جبل عامل عام/1193/ هجرية، ولم يذكر المؤلف من أفخاذ المنابهة التي اشتركت في المعركة سوى الحسنة، فقال: ((هزمت الحسنة جموعاً متألبة عليها من متاولة وسردية وصخور وصقور، وكانت هذه المعركة بقيادة فاضل المزيد)).

ولكن من المؤكد أن الخماعلة والمصاليخ قد اشتركوا في تلك المعركة، واستقر بعدها الحسنة في وادي الغور، وعكفوا على زراعة الأرض، واستبدلوا بيوت الطين والقش والقصب ببيوت الشعر، والجرار بالقرب، وهجروا الإبل وحياة الترحال، وظلوا على هذه الحال سبع سنين.

ويعتقد أن عرى الصداقة توثقت بين الشاعرين نمر بن عدوان وجديع بن قبلان خلال تلك السنوات التي استوطن فيها الحسنة في الغور، ثم نمت وشائج هذه المودة وقويت من خلال الرسائل الشعرية المتبادلة بينهما بعد مسير الحسنة إلى سورية وإقامتهم في منطقة حمص وحماة، نجد صدى ذلك في قول نمر لرسوله إلى جديع:

**حوران باليمنى ودع الشام غربِ		بحمص وحماة تذكر منازل حبابي**

**ديارٍ لكم طوعتوها بضــربِ		يا مطوعة بالسيف حمر العلابي**

أما أبناء عمهم المصاليخ، فظلوا أهل إبل وبادية ينتجعون الحماد في الشتاء والربيع، ويصطافون حيث أبناء عمهم في وادي الغور الغني بالماء والخضر والثمار.

على أنّ هذا النعيم الذي أصبحوا فيه لم يخل من الهمز والاستهجان من قبل أناس منهم حتى النساء كنَّ يلمحن بأغانيهن إلى هذا التبدل الذي طرأ على حياة الأهل، ويتغنين بحياة الترحال والتنقل، ويشتكين من حراثة الأرض وحمل الجرار، مثال: (من عقب شيل القرب واليوم جرارة).

وهناك قصيدة تعزى لشاعر من القبيسات يتحدث فيها عن معركة[1] جرت بين الحسنة وحشود من الكرك والزرقا ونابلس وأهل الغور بقيادة الأمير ظاهر الفحيلي، ويقال إن الشاعر كان في الحسنة يومذاك، وشاهد المعركة عن كثب، من فوق مرتفع من الأرض، فعرف مَن تقدم من القوم ومن تأخر، ومن أبلى منهم بلاء حسناً في القتال.

واستمرت المعركة يوماً كاملاً هزم فيها الحسنة الأمير ظاهر الفحيلي وجيشه، ولما اجتمع القوم في بيت فاضل، تولى الشاعر اعداد القهوة لهم، وقام يديرها عليهم، فأخذ يسقي الرجل منهم فنجاناً، وبعضهم فنجانين، وبعضهم الآخر ثلاثة فناجين، ويريق القهوة أمام بعض منهم ويتجاوزه، فقال له أحدهم: أيها الشاعر قدّم حجتك وإلاّ طار رأسك، فأنشد الشاعر القصيدة التالية، والقصيدة ركيكة المعاني، واللحن واللوثة الحضرية باديان فيها، وقد يكون لكثرة تناقل الرواة أثره في كل هذا، فإذا صحت الرواية فإن عمر القصيدة يزيد على المائتي عام، وراويها ليس من البداة الأقحاح، وهو يرويها على أنها بين الأمير ظاهر الفحيلي ومزيد، وهذا وهم في الرواية لأن عهد الفحيلية كان قد انتهى قبل مجيء مزيد الثالث بكثير ـ إن كان هذا الذي يعنيه الشاعر– منذ أن دخلت عشيرة ولد علي سهل حوران وامتلكت الأراضي فيه، وأنا أذكرها حرصاً مني على اغناء جوانب هذا البحث.

يقول الشاعر القبيسي على لسان أحد رجال الحسنة:

يقول الحسيني والذي شاع ذكره — سقته الليالي من صفاها نكودها
قلب كواه البين يمسي موجع — ما جفن عيني اليوم يانس رقودها
على ما جرى ما بين ظاهر ومزيد[2] — مشاعيب حوران تحدر بنودها
جمع علينا الكرك وبلاد نابلس — للغور للزرقا لقوم مرودها
اجت علينا غيمة مستلمة — غيمة تزعق وفيها رعودها
قالوا ناطيكم وناطي رقابكم — ونذبح الوغدان في مهودها
وساقوا الجهامة علجهامة وأوكبت — زمل المراكب قام تمشي برهودها
فوق الحنايا شرعبت كل نوطه — على روس الحنايا ترخي جعودها[3]

---

[1] أعتقد أن هذه المعركة، هي التي ورد ذكرها في المحررات السياسية لأحداث جبل عامل عام 1193هـ وسبق الحديث عنها.

[2] من المرجح أنه فاضل وأن ورود اسم مزيد خطأ في الرواية.

[3] الحنايا: جمع حنية وهي أحد أركان الهودج الذي تجلس فيه المرأة على ظهر البعير. وشرعبت: أطلت. والنوطة أو النوطاء: المرأة الطويلة العنق.

**قالن هذي حلايلكم وهذي موالكم		من ذل منكم بالوغى لا يعودها**

**انحدر لها علي الرشيدي ولد مزيد		يا فسحر العانات حر صيودها[1]**

**قاضب السيف والرمح بيده		هذي يقلعها وهذي يقودها**

**فالح فليح الوجه كن طال عمره		على حر الظراب هدودها**

**فالح فليح الوجه كن طال عمره		يلملبّس المشهر بتوما جديدها**

**عيال المحينة غايبين ولا حضروا		ولو حضروا الفرسان زادوا وقودها**

**ظل الضرب ما بين ذولا وذولا		اليا دنت الشمطا علينا بنودها**

**ولا تقولوا هذه صنيعة		هذي مترخة لنا من جدودها**

يتحدث الشاعر عن فارس من الحسنة اسمه فالح ولكنه لا يكنيه، وكذلك يذكر أن رجال المحينات كانوا غياباً عن المعركة، ويقول إن المعركة استمرت حتى الغروب، وكنّى عن الشمس الشمطاء وبنودها: هو شعاعها قبيل الغروب بقليل.

(1) لا ندري لم كنّى الشاعر علي هذا بالرشيدي ثم قال اين مزيد. ولعل ذلك يعود إلى خؤولة كانت بين أبناء مزيد وأسرة الرشيد الشمرية، وربما أراد الشاعر أن ينسب علي إلى أخواله آل الرشيد زيادة في الثناء.

المصاليخ يُخرجون الحسنة من الغور:

قلنا إن المصاليخ ظلوا أهل بادية وكانوا أهل حيلة ودهاء، وعز عليهم تخلي الحسنة عن حياة البداوة وانصرافهم إلى الزراعة، فقرروا في أحد مجالسهم استخراج أبناء عمهم من هذا الغور قبل أن يضيعوا فيه، وكانت الحيلة سبيلهم إلى ذلك ولم تعجزهم فوجدوها:

ويمتطي اثنان منهم راحلتيهما قاصدين غور الأردن، حيث يسكن الحسنة، جادين في السير في وقت اعتقد أنه أقرب إلى الخريف من أي وقت آخر، وهو الوقت الذي يبدأ البدو فيه عادة بالتشريق نحو الحماد أيام لمعان البرق ومسير المزن باتجاه الشرق والاستمتاع برحلات الصيد والسير في السلف وخلفه الأظعان في رياض الحماد الواسعة العشيبة.

وقبل أن يصل الرجلان النجع يقفان على مرتفع يطل عليه، ويلقيان نظرة متفحصة فلم يرق لهما منظر القوم، كانت البيوت مبعثرة بعضها من الطين وبعضهما الآخر من القصب، وقليل منها من الشعر يتوسطها بيت كبير كثير الأعمدة، وهو بيت فاضل المزيد.

أخذت الشمس تميل نحو الأفق الغربي، وبدا المنظر للرجلين محزناً، فقال أحدهما للآخر: انظر أين تلك البيوت التي كانت (كأنها قطع من الغيم) بدلت بهذه الأكواخ والأعشاش.

فرد عليه الآخر بجواب مقتضب: لقد ضاع الحسنة، وهنا توارت الشمس خلف مرتفعات الغور، فاتخذ أحد الرجلين مكانه على ظهر راحلته في الطرف الغربي من النجع واتخذ الثاني مكانه في الطرف الشرقي منه، حيث يسمع كل منهما الآخر عندما يناديه.

وفي هدأة السكون التي تسود الطبيعة عند الغروب نادى أحدهما الآخر بصوت عال: (يامن عيّن الطير؟) فيأتيه الجواب من صاحبه بصوت عال أيضاً (يا راعي الطير علمي به أمس العصر يخضع أرنباً بأول طرش البلصان بفروع الأرقط).

فكان الجواب صاعقاً هزَّ عواطف القوم المجتمعين في بيت فاضل وأيقظها، فالبلصان هم أحد أفخاذ المصاليخ المشهورين بكثرة إبلهم، والأرقط من الأودية الخصيبة في حماد شرق الأردن، وكان يعني في جوابه: أنه رأى الطير الضائع عصر أمس يطارد أرنباً في مقدمة قطعان البلصان، إذاً فهمَ القومُ الحكاية، فالسائل أضاع طيره والآخر دلّه على مكانه.

والقصد من هذا كله إثارة الشوق عند الحسنة لحياة الترحال واستجاشة شعورهم نحو الحماد وقطعان الإبل وفروع الأرقط العشيبة، وكلها مثيرات للذكريات الجميلة في مثل تلك الفترة من السنة التي يبدأ فيها الحسنة بالتشاريق نحو الحماد، والتي تبدأ مع مسير المزن ولمعان البرق أيام الخريف.

وأعاد السائل سؤاله ثلاثاً فأتاه الجواب نفسه، ثم اختفى الصوتان، وينظر القوم في وجوه بعضهم بذهول فيقول أحدهم (يا عمرة)، وهي كلمة يتمنون بها العودة إلى تلك الأيام.

ويقول الآخر (وليّنا) أي انتهينا.

ويقول الثالث (يا حلولاه يا البل) ويعني أنه يتمنى الحصول على الإبل.

وقال فاضل: من هم هؤلاء، إليّ بهم؟

وعبثاً بحثوا عن الرجلين فقد نفذا المهمة على أحسن وجه، وهما الآن يحثان مطيتيهما باتجاه الشرق بعيداً عن النجع.

وأجمع الحسنة أمرهم بعد هذا النداء الذي سمعوه على ترك الغور وزرعه والعودة إلى حياة البداوة وحركتها المتجددة يوماً بعد يوم من روض إلى روض.

وما أقرب تلك الصورة من النداء الذي أطلقه الرجلان من نداء الشيخ طراد الملحم لعشيرته.

يا أهل البويضا جنبوا عن رداها مساكنٍ بالحرث دوروا بدلها

دوروا بيوتٍ شامخة في وطاها والخيل بالفرسان توحي صهلها

وفي صباح اليوم التالي كان النجع يعج بالحركة، فهدمت الأكواخ، وانتشر حطامها وطويت الخيام وبدأ القوم بالرحيل وسط مباهج الفرح بترك الغور والمسير نحو الحماد، واتجه السلف نحو الشرق وخلفه الأظعان يريدون وادي الأرقط الذي ذكر فيه أبناء عمهم البلصان، فاعترض طريقهم عشائر جبل الدروز بقيادة الأمير الفحيلي فهزمه الحسنة بالقرب من مدينة السويداء، وبهزيمة الفحيلي أصبح طريق البادية الشامية مفتوحاً أمامهم بما في ذلك سهل حوران.

معركة وادي المياه[1]:

بعد أن تغلب الحسنة على الفحيلي وجيشه اجتازوا جبل الدروز وتوغلوا في بادية الشام حتى وصلوا إلى منطقة الشحمي والرمانة ورجم الميازين، فقضوا فصل الشتاء في تلك الأودية المكتظة بالشيخ والقيصوم ويردون الغدران والخبارى، وفي أواخر الربيع أخذت هذه المصادر بالجفاف، فبدأوا يتجهون شمالاً نحو وادي المياه في منطقة البخرا، وقبل أن يصلوا إليها وجدوا عمود الحمى الذي غرزه أمير الموالي ليكون حداً لمنطقته.

وبلغوا من قبل رسل الأمير بأنه يحذر عليهم تجاوز العمود شمالاً، فاقتلعوا العمود وتقدموا نحو الماء، بيد أن الموالي حالوا بينهم وبينه، وشكلوا وفداً يطلبون من الأمير التنحي عن الماء، فلم يقبل، وطلب منهم الرحيل والعودة من حيث أتوا، فشح عندهم الماء واجتمعوا للتشاور فيما بينهم واختلفت الآراء، فمنهم من أشار بالهجوم والوصول إلى الماء مهما كان الثمن، وأشار بعضهم بالانتظار يوماً آخر، وأخيراً أجمعوا على الانتظار عسى الأمير يعدل عن رأيه، وكان في القوم ملحم الذهابي أحد فرسان الحسنة، وهو رجل أصم يصعب إشراكه في الحديث، فاقترب أحد الحضور منه وأخبره بما أجمعوا عليه فقال الذهابي : (لِغدٍ شأنٌ، وتفرَّقوا كلٌ إلى أهله).

وفي صباح اليوم التالي أجهدهم العطش ونفد صبر الكثيرين، وفجأة تتجه الأنظار نحو الفارس العنيد الذي يضرب بالسيف على خوذته ويحدو للإبل باتجاه الماء، إنه الذهابي الذي فجّر المعركة، ويأتيه رسول فاضل مسرعاً ليقول له: ما على هاذ اتفقنا، ويأتي الجواب من الذهابي مختصراً وحاسماً: (واللهِ ليشربنَّ ولو من بين أشفار عجايب)، وعجائب زوجة أمير الموالي، ولما رأى القوم أن الذهابي لم يعر اهتماماً لرسول فاضل، اعتلوا الخيل وبدأ الهجوم في لحظة غير منتظرة، وفتك الموالي بمقدمة خيل الحسنة ببنادقهم التي تحشى بالخردق والبارود، وهو سلاح جديد على الحسنة وخيلهم، ولكنهم في النهاية أزاحوا الموالي عن الماء وألحقوا بهم الهزيمة، وكانت تلك أول معركة بين الحسنة والموالي فانكفأ الموالي نحو الديرة وتركوا البادية.

---

[1] ينبغي الانتباه إلى أن الرواة من الحسنة لم يحفظوا إلا الأيام التي كانت لهم على الموالي. أما الأيام التي كانت للموالي عليهم فلم يحفظوها أو أنهم لم يريدوا أن يحفظوها. فالحرب كانت سجالاً بين الفريقين، يوم لهؤلاء ويوم لهؤلاء وأخبار انتصارات الموالي عند الموالي أنفسهم ولكن أين لي التناوش من مكان بعيد.

مسير الحسنة نحو الفرات:

بعد هزيمة الموالي في معركة البخرا أقام الحسنة على مائها عدة أيام، ثم تقدموا شمالاً بمحاذاة وادي المياه، وهو واد طويل ينتهي في نهر الفرات وفيه كثير من الآبار المنتشرة على مسافات متباعدة، فأخذ الحسنة ينتقلون من منهل إلى منهل حتى وردوا الفرات، وفرضوا الخوة على العشائر والقرى الواقعة على ضفافه، وهكذا أصبحت البادية ما بين شرق الأردن ونهر الفرات وحتى داخل الحدود العراقية تحت سيطرة الحسنة، فكانوا يقضون فصلي الشتاء والربيع في البادية ويصطافون على ضفاف الفرات.

وفي هذه الفترة أصيب عبد الله الفاضل بالجدري، ولما اشتد به المرض ويئسوا من شفائه رحلوا وتركوه وحيداً مع كلبه الوفي شير[1]، وإذا صح ما نسب إليه من العتابا فإنه جاء به من هناك، لأن هذا النوع من الشعر معروف عند سكان ضفاف الفرات في العراق وسورية، ثم اتجه الحسنة شرقاً بمحاذاة النهر وتوغلوا داخل العراق، ولم يطل بهم المقام هناك، فعادوا أدراجهم ميممين صوب أواسط سورية إلى حمص وحماة.

ولا أحد يدري لماذا اختاروا هذه المنطقة بالذات، ولعلهم سمعوا عن هوائها ومائها وخصوبة أرضها فاختاروها على غيرها، وكان سبيلهم إلى ذلك انطلاقاً من دير الزور، السخنة – أرك – تدمر، فأقاموا فيها بعض أشهر الصيف وفرضوا عليها الخوة، وهو مبلغ من المال ومقرونة (منديل) تدفع سنوياً لأسرة الملحم، ثم تحركوا إلى القريتين وأقاموا أياماً على مائها، ثم بعد ذلك تقدموا نحو حمص.

ولما علم الموالي وحلفاؤهم بقدوم الحسنة تحشّدوا في سهل المشرفة شرق حمص وأخذوا يستعدون للقائهم.

وينسب إلى أحد شعراء ضفاف الفرات في العراق قوله متوجداً على الحسنة وهو يقف على رسوم ديارهم بعد عام من تركها:

يا حمود يا وجدي على ربعنا العام — هذه منازلهم على العين خلواتْ

ما يلبسون إلا قماشٍ من الشام — ومشالح من صنع دواد عتلاتْ

متقلدين باللقا مثل عزام — ومتقودين علط المهار العليباتْ

توحي رزيح نجورهم مثل دمامْ — ونيرانهم من كثر الأوقاد حياتْ

والمقصود بقوله العام: السنة الفائتة، ومشالح من صنع داود: الدروع، والدمام: الطبل الكبير، وعزام: السيف، والمهار: جمع مهرة، والعليبات: الأصيلات الطوال.

---

[1] وفي رواية أنهم أبقوا عنده رجلاً أو امرأة من عبيدهم وأن هذا الذي تركوه التحق بهم فيما بعد وقال لهم أن عبد الله قد مات.

معركة المشرفة:

اتخذ الحسنة من السهل الواقع جنوب المشرفة مكاناً لمضارب خيامهم، وهو سهل ذو تربة صفراء ناعمة قليلة الحجارة، ولكنه لا يخلو من بعض التعاريج التي تنحدر باتجاه الوادي الذي يلتف بدوره بما يشبه القوس حول القرية الواقعة فوق تبة تميزت عما حولها من الهيئات الطبيعية، وقد أكسبها انحدارها الحاد نحو الوادي مانعاً طبيعياً بسيطاً يشبه إلى حدّ ما نراه في نظام بناء القلاع المنتشرة في سورية.

أما الموالي فضربوا خيامهم غرب قرية المشرفة، ومنذ وصول خبر قدوم الحسنة أخذت الجموع تتوافد نحو بيت الأمير من كافة مناطق تواجدهم، وكلما كانت تأتي سربة من الخيالة تطلق العيارات النارية من البنادق وسط صيحات الحرب (العرضة)، وكان بيت الأمير على رابية غرب القرية، وبين البيت والقرية سهل صغير يصلح لأن يكون ميداناً لسباق الخيل واستعراض القوات.

وفي ضحى اليوم الثاني من وصول الحسنة إلى المشرفة تقابل الجمعان الحسنة والموالي، وبدأ خيالة الحسنة بالهجوم، فصُدّوا بنيرات كثيفة من رماة الموالي المسلحين ببنادق الفتيل، وبما أن الموالي كانوا قد رأوا مفعول هذا السلاح بخيل الحسنة في معركة البخرا، فإنهم قد أكثروا منه في هذه المعركة، وهكذا صدت جميع هجمات خيل الحسنة في ذلك اليوم وأحدثت فيهم إصابات بليغة.

وفي المساء اجتمع ذوو الرأي فيهم ليروا ماذا يفعلون أمام هذا السلاح الجديد من النار والبارود الذي يملكه عدوهم بكثرة، ولا يملكون منه شيئاً، وأخيراً يهديهم تفكيرهم إلى خطة تقضي بأن تحمَّل الإبل بأكياس مملوءة بالتراب وتصف بالترتيب، ثم تساق وتسير الخيل خلفها حتى الوصول إلى مقدمة جيش الموالي، فإذا التحم الجيشان بطل مفعول البارود ويبقى الفعل للسيوف والرماح، إذ يتفوق الحسنة على الموالي بهذين النوعين، وبدأوا بجمع العدول لتملأ بالتراب ليلاً، ونفذت عملية جمع العدول وتعبئتها بسرعة، وفي الصباح حملت الإبل بأكياس التراب، وسيقت أمام الخيل باتجاه جيش الموالي، وهنا يخرج جدوع الغربان أحد فرسان الحسنة من وسط الخيل، ثم ينادي على أخويه صبيح وطلاس قائلاً لهما: (إن مسيرنا خلف الإبل والتستر بها عارٌ علينا فهل ترضيا؟) فقالا: (لا والله لا نرضى)، وبايعاه على الموت، فكرَّ الثلاثة نحو جيش الموالي، وكرّت معهم خيل الحسنة وسط زغاريد النساء تاركين الإبل وراءهم، فسقط العديد منهم بنيران رماة الموالي الكثيفة فداستهم سنابك الخيل دون أن تتأثَّر وتيرة الهجوم.

والتحم الجيشان ووقف الموالي سداً من الفولاذ أمام الحسنة وبدوا مقاتلين أشداء متمرسين بالقتال ومشبعين بخبرات الحرب، وكان في الحسنة عدد من الفرسان الأبطال أمثال: جدوع الغريان، وعقل العساف، ودبجان الرفاشي، وملحم الذهابي، فأخذوا يشقون الصفوف بسيوفهم نحو بيت الأمير.

وما أن انتصف النهار حتى انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للأمير وجيشه، وكانت هي المعركة الفاصلة بين الحسنة والموالي في منطقة حمص وحماة، ونزح بعدها الموالي إلى العلا، ثم تتبعهم بعد ذلك جديع بن قبلان بقسم من الحسنة وحجاج حتى أوصلهم منطقة الباب بمحافظة حلب، وهو ما سنأتي على ذكره فيما بعد إن شاء الله، ويقال إن خسائر الحسنة كانت سبعين رجلاً، أما خسائر الموالي فغير معروفة.

ورأى كثير من الحسنة ترك الموالي وشأنهم بعد هذه الهزيمة ظانين أنه لن تقوم لهم قائمة بعد الآن، بينما كان رأي بعضهم وعلى رأسهم جديع بن قبلان مطاردة الموالي وإخراجهم من سورية نهائياً نحو تركيا.

مسير جديع بن قبلان خلف الموالي:

بعد هزيمة الموالي في معركة المشرفة، ونزوحهم شمالاً نحو جبل العلا شرق حماة، أشار جديع على الحسنة أن يتتبع الموالي فيتبع رأس الأفعى ذنبها، ولا يترك لهم فرصة يستعيدون فيها قوتهم فيشكلون خطراً جديداً عليهم، ووافقه على هذا الرأي فخذ العويمر وحجاج، وكان العويمر يومها في ثروة من الرجال، فأرسل جديع إلى الموالي أنّ عليهم المسير شمالاً وألا يقيموا في مكان واحدٍ أكثر من ليلة واحدة، وامتثل الموالي للأمر وساروا باتجاه حلب، وسار خلفهم العويمر وقسم من حجاج بقيادة جديع بن قبلان، حتى أوصلهم منطقة الباب.

ولم تحصل في هذه المسيرة بين الطرفين معارك تذكر إلا بعض الغارات المحدودة التي كان يشنها بين الحين والآخر خيالة العويمر على مؤخرة الموالي، وفي منطقة الباب استجار الموالي بابن هذال رئيس عشيرة العمارات فأجارهم ثلاثة أيام، وذهب إلى جديع يطلب منه قبول جيرته للموالي قائلاً له: (يا ابن العم إنني أجرت الموالي ثلاثة أيام وبعدها أنا وأنت عليهم ولا أظنك تخذلني) ولكن جديع رفض قبول الجيرة وقال لابن هذال: إما أن تتنحى عنهم وإلا (فالجرف وجانبيه) ويعني أنك أنت وهم في الأمر سواء).

وعاد ابن هذال لأهله، فأشاروا عليه أن يعود ثانية إلى جديع ويعيد عليه الطلب، فعاد ابن هذال مرة ثانية وثالثة وكان رد جديع لم يتغير: إما أن تتنحى عنهم وإلا (فالجرف وجانبيه).

لقد أخطأ جديع التقدير هذه المرة وكان مفرطاً في ثقته بنفسه لأن الموالي والعمارات خلق كثير يفوقون جيشه عدداً وعدّة، وكان عليه أن يقبل جيرة ابن عمه ابن هذال، ولم يكن أمام ابن هذال والحالة هذه إلا القتال إلى جانب الموالي لأن التخلي عن الجيرة أمر لا تقبله العرب.

وفي صباح اليوم التالي تقابل الفريقان: العمارات والموالي من جهة، والعويمر وقسم من حجاج بقيادة جديع تتقدمهم العطفة من جهة أخرى، وبدا تفوق الموالي ومجيرهم واضحاً بالعدد قبل بدء المعركة، ولكن ذلك لم يؤثر بالروح المعنوية العالية التي كان يتمتع بها رجال جديع، وبدأ خيالته بشن الهجمات على خصومهم، واحتدمت المعركة، وكلما مرت الساعات بدا تفوق ابن هذال والموالي يظهر أكثر فأكثر، وصعب على رجال جديع الذين لم يتعودوا الهزيمة أن يغادروا أرض المعركة، واشتدّ القتال حول العطفة، فقطعت عندها الأيدي وتطايرت الرؤوس وامتلأ السهل بأجساد الرجال من الطرفين، ولم يبقَ حول جديع إلا بضع عشرات من خيالته معظمهم جرحى، وبدا كل من الفريقين منهكاً تعباً، وبذل الحسنة كل جهدهم للحفاظ على العطفة، ولكنهم في آخر النهار أزيحوا عنها وحيل بينهم وبينها وذهبت

العطفة، وانكفأ كل فريق إلى أهله بعد أن أجهدهم القتال، فعدَّ جديع نفسه خاسراً في المعركة، وأرسل إلى ابن هذال يطلب منه إنهاء القتال، ويعده بالتخلي عن ملاحقة الموالي، وقبل ابن هذال العرض، وفي اليوم التالي دفن كل فريق قتلاه، وكانت تلك آخر معارك جديع مع الموالي.

وانقسم العويمر إلى قسمين: قسم استقر في منطقة الباب ومنبج وامتلكوا فيما بعد الأراضي وأصبحوا أهل زراعة وتركوا حياة البداوة، وهم لا يزالون حتى الآن في تلك المنطقة ومعروفون من قبل أقربائهم الحسنة، والقسم الآخر عاد مع جديع إلى منطقة حمص وحماة حيث يقيم الجهيّم وهم القسم الأعظم من الحسنة.

استقر الحسنة بعد نزوح الموالي في منطقة حماة والمعرة وأصبح فيهم في تلك الفترة ثلاث مشيخات لثلاث فرق هم:

-العويمر وشيخهم سهو الكنعان، ويقيمون في الكوم والندوية.

-القضبة وحجاج، وشيخهم جديع بن قبلان، ويقيمون في منطقة خان شيخون والمعرة.

-الجهيّم وشيخهم مهنا الفاضل، ويقيمون في منطقة حماة (أرض الشنبل).

وفي بيت العتابا التالي مصداق لبعض هذا التقسيم:

تخطى من صفر كنعان[1] بالكوم **وتخبا مثل بطن الحبو[2] بالكوم**

حبابي لا تودوا الغير بالكوم **وعشرة غيرنا فيها غشى**

كذلك فإن في الأرجوزة[3] التالية ما يوحي بهذا التقسيم:

بـان المخبّا بـان **بـان المخبّا بـان**

لا جيت ابن قبلان **يرحل ولا يتناني**

لا جيت ابن كنعان **الموعد الخماني[4]**

---

[1] صفر: جمع صفراء وهي الناقة ذات اللون الأسود المشوب بحمرة.

[2] الحبو: هي الأرنب.

[3] هي من النوع الذي يقوله الرجال الذين ينضحون الماء من البئر ويسمون (السناية) جمع سناي، وهذه الأرجوزة وبيت العتابا الذي قبلها، أوردهما الشيخ نايف بن قبلان الملحم، كشاهد على تعدد المشيخات في عشيرة الحسنة خلال تلك الفترة من الزمن.

[4] هو مكان في سهل حوران شمال غرب مدينة درعا.

ولا ندري ما هو (المخبأ) الذي يعنيه الشاعر، بيد أنه يندب ابن قبلان، وابن كنعان للتوجه على وجه السرعة إلى مكان اسمه الخمان، ولو لم يكن معهما قوة عددية لما ندبهما، مما يوحي بأن ابن قبلان وابن كنعان كانا على فريقين من الحسنة، وإلا فما فائدة حضورهما بمفردهما.

ولا أرى هذا النداء آتياً إلا من جهة الشيخ محمود بن ناصر المهنا شيخ الحسنة إبان المواجهة بين الروله وبني وهب تلبية لنداء جاءه من الشيخ محمد الدوخي شيخ ولد علي.

ويقال: إن الحسنة ساروا يومئذ من منطقة حمص إلى سهل حوران لنجدة أبناء عمهم ولد علي، وكانوا ينشدون:

من الشنبل جينا صايلين

ما صيدنا صالح بعير

ما نرخصكم لو أننا

بنجيب ما أدركنا النذير

وهم هنا يذكّرونهم بيوم نجيب، وهو يوم غزاهم فيه الرولة بمكان اسمه نجيب على علم من ولد علي، ولكنهم لم ينجدوا ولم ينذروا أبناء عمهم الحسنة، وهم هنا يقولون:

إننا جئناكم (صايلين) أي مقاتلين ولن نتخلى عنكم كما فعلتم يوم نجيب.

ظهور عبد الله الفاضل من جديد:

قلنا إن عبد الله الفاضل أصيب بالجدري، فرحل أهله وتركوه في الديار وأبقوا عنده رجلاً من عبيدهم، وأن هذا الذي تركوه معه لحق بهم وأبلغهم أن عبد الله قد مات، وأنه استقر بهم المقام في نهاية المطاف قريباً من حماه في أواسط سورية.

وفي أحد الأيام دخل حيّهم رجل غريب على هيئة شاعر ومعه ربابة، طويل القامة، أسمر، تبدوا على وجهه آثار مرض الجدري على شكل حفر صغيرة في خديه وأنفه وجفنيه، كانوا جلوساً في بيت شيخهم يوم ذاك ـ وقد يكون مهنا الفاضل ـ فظنوه شاعراً ولم يعرفه أحد منهم، ثم أنهم فوجئوا بأن هذا الغريب هو الشيخ عبد الله الفاضل، وفي غمرة فرحهم بعودته حمل ربابته وغادرهم.

ولسنا هنا بصدد سرد قصة عبد الله الفاضل، فهذا ما سنأتي على ذكره مفصلاً فيما بعد بإذن الله، وإنما يهمنا هنا أن الحسنة استطاعوا اقناع عبد الله بالعيش معهم واستلام رئاسة العشيرة من جديد، فبنى الشيخ عبد الله بيته قريباً من حماه، وأصبحت المدينة وريفها وباديتها تحت سيطرة الحسنة، ولم يكن للعثمانين يومها من سلطة سوى الناحية الإدارية وشيء من النواحي الأمنية ضمن المدينة فقط، ثم أخذ عبد الله الفاضل يشن بخيل الحسنة الغارات والغزوات في كل اتجاه، فكلما عاد من غزوة قادهم في غزوة أخرى، وما زال هذا شأنه معهم حتى أتعبتهم الحروب وفني منهم خلق كثير، ويقول بعض الرواة أنه كان يفعل ذلك بهم انتقاماً منهم لتركهم إياه في مرضه.

وتحصل في هذه الفترة مفاوضات بين عبد الله وبين أمير الموالي الذين كانوا لا يزالون في منطقة الباب شرق حلب، من أجل عودتهم إلى ديارهم في منطقة حماه بواسطة مبعوث من عشيرة التركي، ولا ندري ما الحوار الذي دار بينهما، وما هي الشروط التي أملاها عليه عبد الله، ويقول بعض الرواة من التركي أن مبعوث الأمير لم يكن مبعوثاً سلمياً لعبد الله وإنما جاء ليغتاله، وإنه استطاع التسلل ليلاً والوصول إلى فراش عبد الله، ولكنه ضن به فغرز خنجراً عند رأسه وانصرف، ثم عاد إليه في اليوم التالي وعرفه بنفسه والمهمة التي جاء من أجلها، فاعتبرها عبد الله يداً للرجل عنده، وقال له: سل حاجتك تُعط، فقال الرجل: نريد العودة إلى بلادنا[1].

وعلى كل حال فإن عبد الله سمح للموالي بالعودة، ووضع لهم حداً يمتد من جسر الرستن باتجاه الشرق، فمن الجسر وإلى الجنوب للحسنة ومن الجسر وإلى الشمال للموالي.

---

[1] لأن عشيرة التركي كانت قد نزحت مع الموالي أمام زحف جديع بن قبلان.

الحسنة يستوطنون في منطقة حمص (ديرة الشنبل):

بعد أن سمح عبد الله الفاضل للموالي بالعودة إلى حماه ووضع لهم حداً عند جسر الرستن، انتقل الحسنة إلى منطقة حمص وأسموها ديرة الشنبل لأن أهلها يكتالون الحب بالشنبل، والشنبل اثني عشر مداً.

وهكذا استقر الحسنة في منطقة حمص، وأصبحت منازلهم شرق بحيرة قطينة وعلى ضفاف العاصي، وامتلكوا الأراضي شرقي حمص وأنشأوا فيها ثلاث قرى هي: البوير وبرزة والشيخ حميد، واللافت للنظر هنا أن هذه القرى هي أسماء قرى في شبه الجزيرة العربية، يقول بعض رواة الحسنة كانت ملكاً لهم.

ووزعت الأراضي في القرى الثلاث على جميع بيوت العشيرة، فكان لكل بيت من الحسنة سهماً فيها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يوفقوا بين الأرض والإبل فاختاروا الإبل على الأرض، وباعوها بأثمان بخسة لأسرة الملحم، وبعضهم الآخر تركها دون مقابل، وهكذا تحولت ملكية الأرض في القرى المذكورة للملحم.

وحتى الملحم أرادوا في نهاية الأمر التخلص من الأرض لولا أن تمسك بها عبد العزيز بن مزيد، فاستقدم لها الفلاحين وزرعها، ثم أقنع إخوته وأبناءهم بمشاركته فيها.

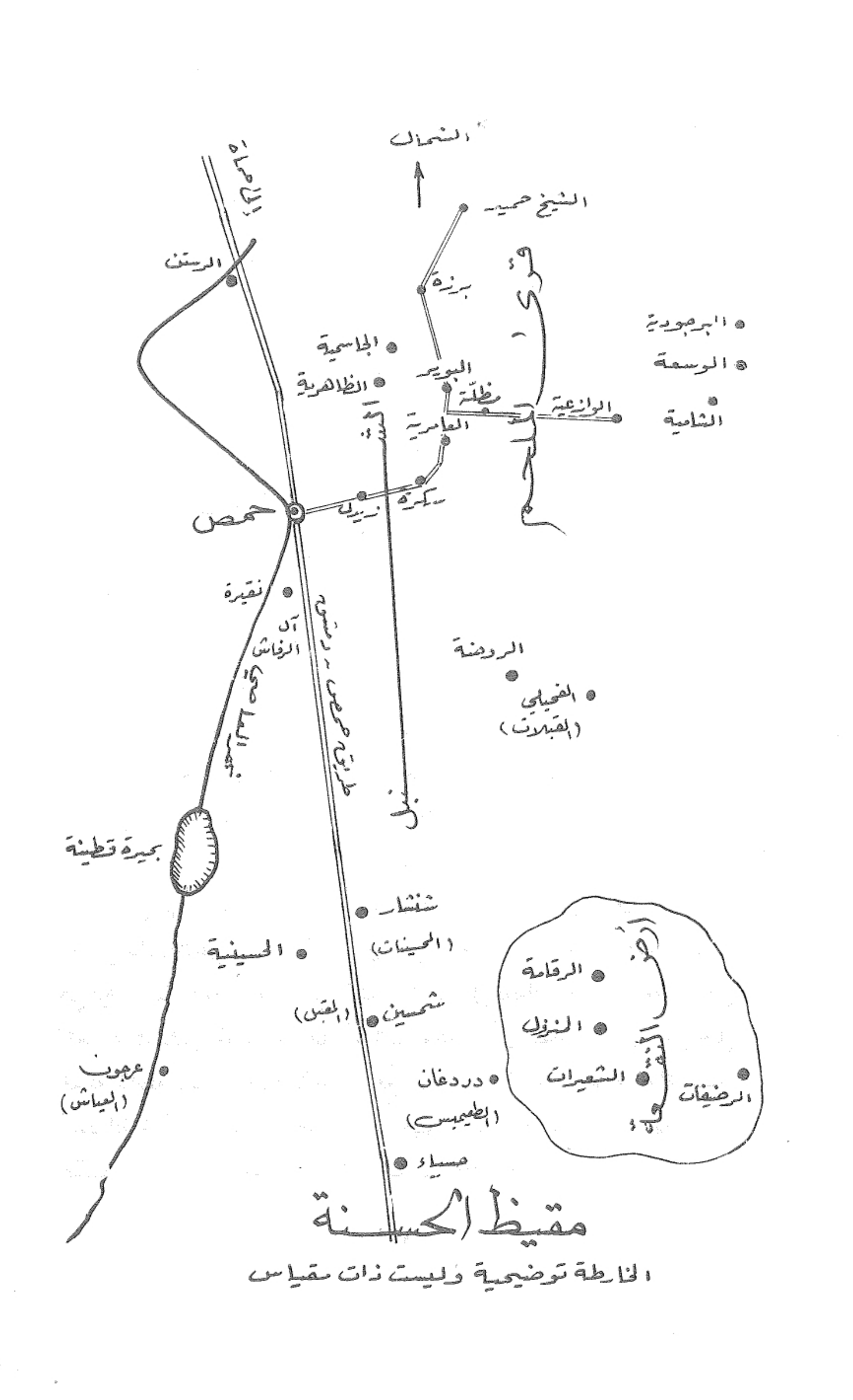
وطاب للحسنة المقام في ديرة الشنبل، فنعموا بطيب هوائها صيفاً وغزارة مائها وتنوع مراعي الإبل فيها، فكانت إبلهم ترتع جنوبي حمص شرق العاصي وشرق بحيرة قطينة وترد على مائها، وترعى يوماً في الأسبوع في أرض النقعة ـ التي سبق أن تكلمنا عنها– وهي أرض غنية بشجر الروثة المحبب كثيراً للإبل.

وعلى قطعان الحسنة الراتعة في أرض النقعة كانت تشن الغارات من قبل أعدائهم، وكانت تأتي النجدات سريعة من خيل الحسنة المرابطة قريباً منها فتهزم الأعداء وتوقع بهم الخسائر، فسمي الحسنة: حماة الشنبل وأسود النقعة.

أما سبيلهم إلى الحماد في مشراقهم فكان: بلدة صدد، فبلدة مهين، فثنيّة المحسّة، ومشتاهم ومربعهم في وادي البطمي، ووادي الهيل والعيثة والرمانة والريشة وسطيح عنازة ومفيض البغالية ووادي الرويشد حتى الحدود العراقية، وفي نهاية فصل الربيع وحين تشح مصادر المياه في الحماد يعودون إلى مقيظهم على ضفاف العاصي سالكين طريق المشراق نفسه.

وفرض الحسنة الخوة على قرى حمص وعشائرهم فكان لكل أسرة قرية أو قريتان تدفعان لها الخوّة، فقرية شنشار كانت لأسرة المحينة، وقرية نقيرة لآل الرفاشي، وقرية عرجون على ضفاف العاصي لآل العياش، وقريتا شمسين والحسينية لآل المقبل، وقرية دردغان لأسرة الطعيميس، وتدمر لأسرة الملحم... الخ.

وكذلك العشائر في منطقة حمص وزعت على بعض الأسرة في الحسنة، فلكل أسرة من الحسنة عشيرة تدفع لها الخوة لقاء حماية هذه الأسرة لها، ورتبت لهم الدولة العثمانية أعطيات سنوية يسمونها (الصر) تدفع لهم لقاء حماية قوافل الحج الذاهبة إلى مكة والمدينة، وفي هذه الفترة توفي عبد الله الفاضل، وخلفه في رئاسة العشيرة مهنا الفاضل.


الشمال
الى حماه
الشيخ حميد
الرستن
برزة
البرجودية
الوسعة
الجاسمية
الظاهرية
البويضة
مطلة
الوازعية
الشامية
العامرية
حمص
نقيرة
آل الرفاش
طريق حمص - دمشق
الروضة
الفحيلي
(القبلات)
بحيرة قطينة
شنشار
(المحينات)
الحسينية
الرقامة
المنزول
شمسين
الشعيرات
دردغان
(الطيبس)
الرضيفات
عرجون
(العياش)
حسياء
مقيط الحسنة
الخارطة توضيحية وليست ذات مقياس

رئاسة مهنا الفاضل:

تولى مهنا رئاسة الحسنة في سن متأخرة بعد وفاة أخيه عبد الله الفاضل، وكان شيخاً جليل القدر، مشبعاً بتجارب الحياة، عاصر أباه فاضل وأخاه عبد الله، واستفاد من تجاربهما في سياسة العشيرة، وقيادتها في الحرب، وتجنب أخطاء عبد الله وهفواته.

ولد الشيخ مهنا الفاضل في شمال شبه الجزيرة العربية، قبل هجرة الحسنة إلى سورية على أغلب الظن — وأكسبته تلك المسيرة الطويلة من خيبر حتى الفرات خبرات واسعة في السياسة، وكفاءة عالية في القيادة، وهو وحده من شيوخ الحسنة، الذي روى لنا التاريخ بشيء من التفصيل جانباً من حياته، والأحداث التي رافقت رئاسته، من خلال مذكرات الجاسوس الفرنسي: لاسكاريس، ومرافقه ـ الحلبي ـ فتح الله الصايغ، اللذان عاشا مع الحسنة ثلاثة شهور من عام (1810) م في عهد رئاسة مهنا.

كان لاسكاريس يكره الحسنة وشيخهم مهنا، وخاصة ابنه ناصر، لأنه فشل في مهمته عندهم، ولكنه لم يستطع أن يكتم القول: بأن مهنا محارباً معجوناً بالتاريخ، ونفهم من مذكرات هذا الجاسوس، أن مهنا عمّر طويلاً وهو في الرئاسة.

تزوج مهنا عشر نساء وأنجب عشرين ولداً كان أنبغهم وأكفأهم ناصر، ولكنه قتل شاباً في حياة أبيه، قبل أن تخلُ له الرئاسة، وعلى كل حال، فإنه كان ذا دور فعال في سياسة العشيرة، في ظل رئاسة أبيه.

يصف لنا لاسكاريس جانباً من حياة مهنا الخاصة، مع شيء من اللمز، فيقول: (إن أمير بني حسن – مهنا الفاضل – المحارب القديم، المتعب من الحروب المتزوج عشر مرات، والمتعب من مخاصمات زوجاته، ووالد عشرين صبياً، والمتعب من وقاحاتهم، أمير بني حسن هذا، يتناول العشاء مع الباعة المتجولين، إنه يأمر بإيصال الحقوق إليهم، ويزربهم معاً على أبواب المخيم، ثم يترك أتباعه ليسرقونهم بهدوء).

ويصف لنا في موضع آخر أحد مجالسه فيقول:

(لقد حضرت عدة مرات، اجتماعاتهم، أو ما يسمونه (المجلس) وهناك انتظر منه وهو يجلس على الأرض، مثل عشرين مثله، بينما كان أصحاب الدعاوي، وطلاب الخدمات والضحايا من كل نوع يأتون إليه لكي يحصلوا على إنصاف الرجل الشيخ.... هناك انتظرت ببلاهة وغباء، أن يركز عينيه عليّ).

إذاً لم يجرؤ لاسكاريس على مفاتحة مهنا، بالمهمة التي جاء من أجلها، وكان ينتظر الساعات الطوال في مجلسه، على أمل الحصول ولو على التفاتة صغيرة منه، ولكن مهنا لم يعره اهتماماً، ولم يلتفت إليه، ولما

اكتشفوا أمره أراد ناصر الفتك به، لولا أن استجار بفارس من الحسنة، اسمه عزيّز، تداركه في اللحظات الأخيرة، وأنقذه من قبضة ناصر.

وفي عهد مهنا، واجه الحسنة أكبر تحالف للقبائل ضدهم، حتى أبناء عمهم ولد علي كانوا شركاء فيه، ثم جهّز هذا التحالف غزواً كبيراً بقيادة الدريعي الشعلان، وبتخطيط وتدبير من لاسكاريس، هاجم الحسنة بالقرب من بلدة القريتين، في شهر نيسان عام /1813/ ميلادي، فدارت بينهما معركة ضارية كانت خسائر الجانبين فيها كبيرة جداً، فقد فيها الحسنة خيرة رجالهم، ومن بينهم ناصر بن مهنا الفاضل العدو اللدود للاسكاريس، ثم تمت مصالحة بين الدريعي ومهنا، دفنت فيها جميع الحقوق بين الطرفين وهو ما يسمونه عندهم (حفرة ودفنه). يقول لاسكاريس عن هذا الصلح:

(أعدنا إليهم[1] هذا كله، بعد أن جاء مهنا يطلب السلام، وغمره ابن الشعلان بالتشريف، وأولم له تحت خيمته، ودفنت عربون صداقة أبدية، سبعة أحجار اختارها الأمراء بأنفسهم وهو تقليد حسني ارتضاه أمير الرولة عن طيب خاطر)[2].

من الصعب معرفة متى توفي مهنا المحارب القديم المعجون بالتاريخ ـ كما وصفه لاسكاريس ـ ولكن من المؤكد أنه عمّر طويلاً، وعاش حياة مليئة بالأحداث والمحن، والحروب التي لم تنقطع، وتولى رئاسة الحسنة بعده جديع بن قبلان.

---

[1] الضمير عائد للحسنة.

[2] ربما كانوا يعنون أنه قد دفن الشر بين العشيرتين وانتهى كل شيء إلى الأبد.

رئاسة جديع بن قبلان:

استلم رئاسة الحسنة بعد وفاة مهنا الفاضل جديع بن قبلان، وكان فارساً مقداماً وشاعراً مرهف الإحساس، خلد غزوات الحسنة ومعاركهم بقصائده التي سرعان ما تجري على كل لسان، وتصبح أغنية للصغار وللكبار، ويتمثلها رجاله ويقتدون بها.

وكان جديع مثالاً رفيعاً للفارس العربي، فأحبه رجاله وجعلوه قدوتهم ومثالهم، وبلغت في عهده الفروسية في خيل الحسنة أوجهاً ومرت بأحسن أيامها، وقادها جديع بكفاءة عالية في كل غزواته وغاراته، ولولا هفوة له في عدم قبوله جيرة ابن هذال للموالي لما وجد في تاريخه باب للنقد ينفذ إليه منه، فإذا كان لكل جواد كبوة فهذه واحدة ولا تثريب على جديع، وسنفرد للشيخ جديع بحثاً خاصاً عن أخباره وأشعاره وحربه فيما بعد إن شاء الله.

وبما أن البدو لا يؤرخون ولا يعرفون التاريخ، فإننا لا نعلم في أي عام توفي هذا الفارس الشاعر الذي ملأت أخبارهُ الآفاق، وسارت بها الركبان، وشدت إليه الرحال.

وثمة اختلاف في الرواية حول رئاسة جديع للحسنة، فبعض الرواة من آل فاضل ينفون أن يكون جديع قد استلم الرئاسة في الوقت الذي لا ينكرون فيه أنه كان قائداً لخيلهم، وأنه هو الذي أزاح الموالي عن ديرة (الشنبل)، ولكنهم ينحون عليه بالملائمة، ويحملونه مسؤولية إضاعة (العطفة) في حربه مع الموالي والفدعان، بينما يؤكد رواة آخرون ـ وخاصة القبلان منهم ـ أن (جديع) ترأس الحسنة، وتوفي وهو رئيساً فيهم.

وقد فات الذين ينفون رئاسة جديع أنه في مسيرة خلف الموالي وفي حربه معهم ومع الفدعان كان معه القسم الأعظم من الحسنة ومعه العطفة، وهما أمران لا يجتمعان إلا لشيخ العشيرة، نعم يصح أحياناً وفي حالات خاصة أن يسند رئيس العشيرة أمر قيادة غزوة من الغزوات لأحد فرسانه الأكفاء، أما في مثل ذلك الزحف الكبير الذي قاده جديع، والذي استمر شهوراً عدة، أو ربما عاماً كاملاً فهو أمر لن يكون إلا لمن هو في سدّة الرئاسة من قومه والله أعلم.

وعلى أية حال فإن جديع بن قبلان سيبقى علماً شامخاً في تاريخ الحسنة وستبقى أقواله وأفعاله أثراً خالداً على مرّ الأيام ما بقي للحسنة تاريخ يذكر.

رئاسة علي بن عبد الله الفاضل:

وبعد وفاة جديع ترأس الحسنة علي بن عبد الله الفاضل، وكان رجلاً متقلباً، سريع الغضب، وفي عهده حدثت الفتنة بين الحسنة وأبناء عمهم المصاليخ، وكان هو مصدرها، ولكنها ما لبثت أن أخمدت، إلا أن انقساماً خطيراً حدث بين الحيين، أضعف من قوتهم وأطمع أعداءهم فيهم، ويقال إن عبد الله الفاضل لم ينجب إلا علياً، وأن علياً كان عقيماً فمات ولم ينجب.

رئاسة المقبل للحسنة:

يوجد في تاريخ الحسنة خلال هذه الفترة كثير من الزوايا القاتمة التي لا يعلم أحد عنها شيئاً، وحتى الرؤساء فيهم، هناك اختلاف بين الرواة في تسلسل أسمائهم ومن جاء منهم بعد الآخر، وآخر من عرف منهم هو الشيخ محمود الناصر الذي نفته الدولة العثمانية إلى استنبول ومنها إلى مصر، ثم مزيد بن عبد العزيز، وفي عهده انتقلت رئاسة الحسنة إلى المقبل، واستلم الرئاسة فيهم بدر بن خضير المقبل وهو من فرسان الحسنة المشهود لهم بالشجاعة والإقدام.

وينبغي الانتباه هنا إلى أن بعضهم يخلط بين بدر بن خضير المقبل، وبدر بن خضير الجعيري، والجعيري أسرة صغيرة من الملحم بادت ولم يبق من سلالتها أحد منذ عهد فارس بن مزيد.

ويقول الرواة من الملحم إن رئاسة المقبل للحسنة تمت في شبه الجزيرة العربية قبل هجرة الحسنة إلى سورية في عهد مزيد الثاني، وأنه عندما سلبه المقبل الرئاسة وغلب على أمره دعا عليهم، وسأل ربه ألا يصل عددهم ثلاثة من الرجال، ويزعمون أن هذه الدعوة قد استجيبت زمناً طويلاً، لم يصل فيه عدد المقبل إلى الثلاثة.

هذا ما حدثني به الشيخ نايف بن قبلان الملحم، وسجلت حديثه على شريط كاسيت مازلت أحتفظ به، وأهديت نسخة منه إلى نجله محمد بن نايف القبلان، ونسخة أخرى لعبد الكريم بن محمد بن هزاع الملحم.

والشيخ نايف بن قبلان من الرواة الثقاة، ويتبين لنا من روايته أن المقبل ترأسوا الحسنة مرتين، واحدة في شبه الجزيرة العربية قبل هجرة الحسنة إلى بلاد الشام والثانية في سورية في ديرة الشنبل في عهد مزيد بن عبد العزيز لأن هذه الأخيرة مسألة مؤكدة لا تقبل الجدل.

وعلى كل حال فإن المشيخات وما كان ينشأ عليها من صراعات، مسألة قد تجاوزها الزمن، ولا يثير ذكرها أية حساسية في النفوس، لا عند الحسنة ولا عند غيرهم من البدو، خاصة ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين بيد أنه حين يكتب التاريخ، يفترض أن يكتب بأمانة وصدق، بعيداً عن التحريف والتزوير، وبعيداً عن إرضاء هذا الطرف أو ذاك.

لم أجد فيمن قابلت من الرواة من يعلم كم دامت رئاسة المقبل للحسنة، وأغلب الظن أنها استمرت نحو ثلاثين عاماً، وهو الحد الأدنى من الزمن اللازم للملحم كي يستعيدوا فيه قوتهم وتمتد هذه الفترة منذ أن أُسر الشيخ محمود الناصر من قبل الأتراك إلى أن نشأ أبناء فارس بن مزيد واشتدّ عودهم.

ولم يذكر الرواة من أحداث تلك الفترة سوى معركة جرت في البصيري بين غزو من شمر وبين فخذ العويمر بقيادة صفوق الكنعان.

معركة البصيري:

تقع بئر البصيري شرق بلدة القريتين بنحو (50) كيلو متراً في واد يمتد من الجنوب إلى الشمال بين سلسلتين من الجبال، وهي إلى السلسلة الغربية أقرب منها إلى الشرقية، ويصلها ببلدة القريتين من جهة الغرب منفذ يمر من ثنية صغيرة في الجبل تسمى ثنية البصيري، وعرفت هذه البئر بغزارة مائها، وعليه كان يصطاف فخذ العويمر من الحسنة كل عام، وكانوا أهل إبل كثيرة لا تتسع لها أراضي القرى، لذلك فإنهم غالباً ما كانوا يصطافون على المناهل القريبة من أطراف البادية.

وفي مقيظ لهم مع صفوق الكنعان على بئر البصيري، صبحهم غزو كبير من شمر والإبل لا تزال في مباركها، فقام إليهم العويمر بالسيوف والرماح، ودار القتال بعنف بين بيوت الحي، فانكشفت شمّر وركب العويمر ظهورهم، ولما أرادوا الهرب من ثنية الجبل حال العويمر بينهم وبينها وسدوا عليهم الطريق، فكانت مذبحة مخيفة أمضى فيها القوم بضع ساعات في صراع مرير، أبيد في نهايتها الغزو بكامله، وهلك من العويمر خلق كثير، وامتلأ مدخل الثنية وسفح الجبل بجثث القتلى، وبعد نهاية هذه المعركة الرهيبة، مال العويمر إلى قتلاهم فدفنوهم، أما شمر فتركت جثث قتلاهم في العراء، ويقال إنه من كان يمر بتلك البقعة من الأرض بعد بضع سنين من المعركة، كان يسمع حفيف أظافر الرجال عندما تحركها الريح، ومن بعض ما قاله صفوق الكنعان مخاطباً أهل ذلك الركب من الغزو هذه الأبيات:

أهل الركاب ركابكم مقويات[1] نحايف[2] ورقابهن مثل الأقواس

قبل العشا نسرع لكم بالشواتِ[3] ونجرٍ[4] يغني بينكم تقل[5] نحاس

واجب عليّ أومي لكم بالعباةِ يا موافقين الخير دلّة ومحماس

ولشاعر من الحضر يدعى مرهج الطريف قصيدة يذكر فيها معركة للحسنة مع شمّر، ولكننا لا نعلم أهي معركة البصيري التي يعنيها الشاعر، أم هي معركة غيرها، فالرواة من الحسنة يتحدثون عن عدد من المعارك جرت بينهم وبين شمّر، والقصيدة طويلة يثني فيها الشاعر على من أبلى من فرسان الحسنة بلاءً

---

(1) منهكات من الجوع والتعب.

(2) ضعاف.

(3) شريحة اللحم المشوية.

(4) النجر: جرن القهوة.

(5) تقل: مثل.

حسناً في المعركة، بيد أن القصيدة ذهبت مع من ذهب من الرواة ولم نعثر منها إلا على بيتين اثنين، يثني فيهما الشاعر على اثنين من العبيد أحدهما اسمه مرجان، والآخر اسمه سعيد يقول فيهما:

العبد سعيد يقول اليوم عيد   يا هلا بشمّر ودربٍ جابها

العبد مرجان مرخي للعنان   مخضب الشلفا[1] لحد نصابها[2]

---

[1] الشلفا: هي الحربة.

[2] نصابها: ذراعها الذي يثبت عليه رأس الحربة.

كيف استعاد أبناء مزيد الرئاسة من المقبل؟

استعاد أبناء مزيد مشيخة العشيرة من المقبل وكان سبيلهم إلى ذلك حيلة ومكيدة ما كنت أريد الخوض في تفاصيلها لولا أنها أصبحت من الماضي البعيد ولا يولِّد ذكرها أية حساسية في النفوس، فالذين فعلوها ذهبت بهم الأيام وأصبحوا تراباً، وليس لأبناء هذ الجيل، ولا الأجيال القادمة يداً في تلك الحادثة ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾[1].

فتلك أمة ذهبت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت والله تعالى يقول: ﴿إنَّ إلينا إيابهم، ثم إنّ علينا حسابهم﴾[2].

وكان حول أبناء مزيد مجموعة من العبيد الدهاة الأشداء، وكان لتلك المجموعة دوراً رئيساً في تخطيط وتنفيذ تلك الفعلة السوداء الغادرة والمخالفة للمألوف، إذ ليس من عادة البدوي الغدر بضيفه أو بمن أكل من طعامه ولو كان عابر سبيل.

كان ذلك في مقيظ للحسنة على ضفاف العاصي قريباً من بلدة قطينة، وعلى أثر عودتهم من إحدى الغزوات، وكان من عادتهم عند العودة من كل غزو أن يتبادلوا الولائم، فأولم الملحم لطعام العشاء ولم يدعو إليه إلاّ المقبل ـ وكان المقبل يومها هم شيوخ العشيرة ـ فلما جلس المقبل إلى المائدة وما كادت أيديهم تمتد إلى الطعام حتى كانت السيوف تخترق ظهورهم من الخلف، وكانوا سبعة أبيدوا جميعاً، وهم صفوة رجال المقبل ودفنوا في رأس تل بالقرب من بلدة قطينة.

هذا ما روته والدتي عن جدتها لأبيها رخيّصة المقبل زوجة نهار الغنام، التي كانت أحد الشهود العيان على ما جرى في ذلك اليوم، تقول والدتي: كانت جدتي رخيّصة المقبل تحدث بهذا بين حين وآخر كلما اجتمعنا حولها.

على كل حال، فإن ما جرى قد طواه النسيان، وعدت عليه الأيام، ولم يبق منه شيء في النفوس وعاد الكل أهل وأبناء عشيرة تجمعهم الألفة والمحبة وصلة الرحم، وما أجمل قول من قال:

**فإن الذي بيني وبين بني أبي		وبين بني عمي لمختلف جدا**
**فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم		وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا**
**ولا أحمل الحقد القديم عليهم		فليس كريم القوم من يحمل الحقدا**

---

[1] سورة فاطر – الآية 18.

[2] سورة الغاشية – الآيات 25-26.

رئاسة فارس المزيد:

واستلم المشيخة فارس بن مزيد، وفي هذه الفترة حدث شرخ كبير في جسم العشيرة لا أرى له سبباً ـ والله أعلم ـ إلا خلاف المقبل مع الملحم، فانسلخ عنها فخذ الجهيّم المتعاطفين مع المقبل وعبروا نهر العاصي غرباً إلى منطقة الحرش في أقصى القسم الشمالي من سهل البقاع، ومكثوا هناك نحو عشرين عاماً، ولم يبق حول فارس بن مزيد سوى عبيده وعدد قليل من بيوتات الحسنة، وفي هذه الفترة قويت شوكة فخذ البرقع من العمور، وأرادوا القضاء على الملحم فأجمعوا على أن يولموا لهم ثم يقوموا بتصفيتهم، إلاّ أن رجلاً من العمور يقال له ابن فروان أنذر الملحم وأخبرهم بما يحاك لهم، فاستنصر الملحم بأبناء عمهم الجهيم في الحريشة فهبوا لنجدتهم، فانقلب السحر على الساحر، ودارت الدائرة على البرقع، ومن يومها أصبح لابن فروان وذريته من بعده حظوة خاصة عند الملحم وأعفوهم من الودي.

واستلم الرئاسة فارس بن مزيد، وفي عهده بلغت المعارك أشدها بين الحسنة والموالي في عهد أميرهم أحمد بيك الذي أخذ يشن الغارة تلو الغارة على الحسنة بعد أن رفضوا طلبه الزواج من (حربة الفارس)، فأراد أخذها بالقوة، وفي إحدى غاراته جرح جرحاً بليغاً، ثم أنه جهز جيشاً كبيراً من الموالي والحديدين وقسم من الفدعان وغزا به الحسنة فقتلوه وهزموا جيشه، وكانت تلك آخر معركة وأكبرها بين الطرفين.

نزوح الجهيم إلى لبنان:

وقد حدث في هذه الفترة شرخ كبير في جسم العشيرة لا أرى له سبباً– والله أعلم – إلا خلاف المقبل مع الملحم، فانسلخ عنها فخذ الجهيّم المتعاطفين مع المقبل وعبروا نهر العاصي غرباً إلى منطقة الحرش في السفح الشرقي لجبل لبنان، قريباً من الهرمل، ومكثوا هناك خمسة عشر عاماً وبعضهم يقول عشرين، ولم يبقَ حول فارس المزيد وإخوته سوى عبيدهم وعدد قليل من بيوتات الحسنة، ثم عاد الجهيم بعد هذه العزلة الطويلة وعبروا نهر العاصي شرقاً، وأخذ الوئام يعود إلى العشيرة شيئاً فشيئاً، حتى اكتمل شملها في عهد الشيخ سعود بن فارس الذي كان على جانب من الحلم والسماحة ودماثة الخلق.

معركة حربة: (يوم حربة)

هي حربة بنت فارس المزيد الملحم، تعلّمت القراءة والكتابة، وكانت أوّل امرأة متعلّمة في الحسنة، ولذلك سمّوها (الخطيبة) وكانت على جانب من الجمال والأدب، وهذا ما جلب لقومها المصائب والحروب، فكلّما سمع بذكرها شيخٌ أرسل يخطبها، وحين يقابَل طلبه بالرفض كان يغزوهم، وكان الحسنة في تلك الفترة في قلّة من العدد كما أسلفنا، وهذا ما يغري أعداءهم بهم.

وفي عداد مَن سمعوا بجمالها وهاموا بها عن بُعد أحمد بيك أمير الموالي، فأرسل إلى الحسنة رجلاً من عنده متخفيّاً ليرى حربة عن كثب ثمّ يعود ويصفها له، واستطاع الرجل أن يرى حربة، فعاد إلى أحمد بيك وأخذ يصف له جمال حربة ويزيد في الوصف حتّى كاد الأمير يفقد عقله، فقرر الحصول على حربة بأيّ ثمن، وأرسل إلى أبيها يطلب يدها منه، ووافق والدها على طلبه، ولما عاد الرسول إلى قومه سألوه إن كان أبو حربة وافق على طلبه أم لا، فأجابهم البيك بغلظة: وافق لأنّه يعلم إنّي سآخذها بالقوّة إذا لم يعطها بالرضى.

ووُجد في المجلس مَن نقلها ساخنةً إلى فارس الملحم، فغضب وعدل عن موافقته، وبعث إلى الأمير يخبره أنّ طلبه مرفوض.

كان الحسنة يعلمون أن رفض طلب البيك سيسبب لهم المتاعب ويكلّفهم غالياً، ولكن الأمير استهان بهم فتجاوز حدّه وأساء الأدب، فأرادوا له أن يعلم أنهم الأقوى وإن قلّ عددهم، فاحتقروه ورفضوه.

ولما بلغ الأمير رفض طلبه طار صوابه وجهّز على الفور جيشاً كبيراً وغزا به الحسنة لينتزع منهم حربة بالقوة، ولكنه هزم وجرح في المعركة بضربة من سيف سعود الفارس أخو حربة، ولكن البيك لم يقطع الأمل من الحصول على حربة، فأخذ يشنّ الغارة تلو الغارة على الحسنة حتى أنهكتهم الحرب، ويُقال إنّه كان أحياناً يغير عليهم في اليوم مرّتين، لكنه كان يعود في كلّ مرّة خاسراً، ثمّ أنّهم زوّجوا حربة لابن سمير شيخ ولد علي، وهنا ثارت ثائرة البيك، فجهّز جيشاً من الموالي والحديديين وقسم من الفدعان، وغزا به الحسنة في مصيفهم شرقيّ بحيرة قطينة.

وأمام هذا الزحف الكبير الذي رأى الحسنة أنهم لا قِبَل لهم به ركبوا الخيل وساقوا الإبل أمامهم وخرجوا من المضارب تاركين بيوت الشعر مبنيّة ليس فيها أحد، ولما وصل أحمد بيك بجيشه النجع جلس في ربعة فارس الملحم وشرب القهوة، فقالت له إحدى النساء: يا أحمد بيك! أما آن أن تتّقي الله وتتركنا؟ فقال: ابنة مَن هذه؟ فقيل له: هذه ابنة حسين الكنعان، فقال لها البيك: (وحياة شوارب أبيك معشى الديب

بالخلا[1] لترجعنّ للنخيلات اللاتي جئت منهنّ) ... ويعني أنه سيعيدها وأهلها إلى نجد، فقالت له المرأة: يقهرك الله.

وتجمّع خيّالة الحسنة قليلو العدد أمام هذا الحشد الكبير من جيش أحمد بيك، وكانوا أمام خيارين: إمّا هزيمة تلحقهم العار إلى الأبد، أو قتال غير مضمون النتائج ربّما يودي بهم جميعاً إلى الموت، وهما أمران أحلاهما مُرّ، وكان عليهم أن يقرّروا بسرعة ماذا يفعلون، فاختاروا القتال وتوادعوا، ثمّ حملوا حملة رجلٍ واحد على الأمير ومَن حوله، فإذا ما قتلوا الأمير فستنتهي المعركة لصالحهم.

وكان سلاح البيك بندقيّة ذات فوّهتين: واحدة تُحشى بالخردق والبارود، والأُخرى يطلق منها الرصاص، وأوّل مَن كرّ على الأمير فارس من العمور، فأطلق الأمير النار عليه وأحرق منديله ونفرت فرسه من صوت البارود فلم يستطع الوصول إليه، ثم حمل عليه حسين الوقيان فأطلق عليه الأمير رصاصة قطعت حزام السرج وأوقعت حسين على الأرض، ثم حمل عليه محمد البخيت الملقب (أبو طربوش)[2] فعاجل الأمير بضربة بالسيف على بطنه ألقت أحشاءه على الأرض ولكنه لم يجهز عليه وترك شرف قتله إلى عمه ملحم الفارس الذي تلاه في الهجوم وبضربة من ملحم كان البيك يهوي جثة هامدة على الأرض.

لم تهتز الأرض تحت جسم الأمير الضخم حينما هوى عليها، ولكن أطراف النجع اهتزت بزغاريد النساء التي انطلقت تحية للرجال الشجعان الذين قتلوا الأمير، ولما رأى الموالي أن أميرهم قتل لاذوا بالفرار وتبعهم خيالة الحسنة حتى مشارف حمص.

ودفن جثمان الأمير شرقي نجع الحسنة وبعد سبعة أيام أتت قافلة صغيرة من نساء الموالي فأخرجن الأمير من القبر بعد أن أنتن، وحملنه على بعير وعدن به إلى حماة وهن ينشدن:

يا حيف يا تل الحلاوة يقتلك ضرس الهقط

يا مير متوسد حجر وابن الحسيني يلتقط

ويعني بتل الحلاوة: الأمير، وضرس الهقط: الحسيني، والهقط: هو الشنينة تصفى بأكياس حتى تجمد ثم تقطع قطعاً صغيرة وتنشر في العراء حتى تجفّ وتقسو، والواحد من هذه القطع يسمى ضرس الهقط، وكانت هذه آخر أكبر معركة بين الحسنة والموالي.

---

[1] يُقال إن حسين الكنعان كان إذا سمع عواء الذئب ليلاً حول المضارب يربط شاةً بعيدةً في العراء ويتركها عشاءً له.

[2] لقب بهذا اللقب لأنه كان عند القتال يضع على رأسه طربوشاً أحمر ليكون علامة تميزه عن غيره.

ما قاله الدرعاني في معركة حربة:

وقال أحد شعراء الرولة من فخذ الدرعان مخلداً هذه المعركة:

البيك جانا ما هو باغي مطاميع	**يبغي يأخذنا بعشقته للخطيبه[1]**
مع النبا ممشاه ما يقضب الريع[2]	**من فوق شهب الخيل عجلٍ هذيبه[3]**
جايب لنا هيل الغنم والمراييع[4]	**هيل الكباش اللي علفها روبيه[5]**
يبغي ياخذنا بالليالي القواطيع[6]	**يبغي السلف مع الجهامة يجيبه[7]**
عيوا عليها قاصرين المصاريع[8]	**اهل البويضا معطبين الضريبه[9]**
حنا ذبحنا البيك[10] والبيك صعصيع[11]	**زيزومكم[12] بالبوق يا أهل القريبه[13]**
من كف أخو حربة زبون[14] المداريع[15]	**وعاشت يمينٍ ما يداوي صويبه**
يا شوف عيني ما هو قولة تشاويع	**يوم شقلبه مع راس هاك الجذبيه**
يبكيه ابن قاعد دموعه دواليع	**ويبكي الحديدي وابن قاعد[16] قريبه**
سكر بكاهم كلهم من رواضيع	**يا حلو هاك اليوم سمعة نحيبه**

---

[1] حربة الفارس.

[2] الوادي.

[3] ركضها.

[4] جمع مرياع وهي الشاة التي تألف الراعي ويعلق برقبتها الجرس.

[5] شنينة.

[6] الباردة.

[7] الأظعان.

[8] مقاود الخيل.

[9] ما يضرب بالسيف.

[10] أمير الموالي.

[11] قوي.

[12] قائدكم.

[13] سرعة الغدر.

[14] قاهر.

[15] الفرسان الذين يرتدون الدروع.

[16] أحد قادة جيش الأمير.

وراحت بهم عسر المقاود[1] مطاويع وراحت جواد البيك معهم جنيبه[2]

يا عيال وايل وابشروا بالمرابيع قيظوا وريضوا بالرياض العشيبه

ويقول بعض الرواة من الملحم أن الذي قتل أحمد بيك هو ملحم، ولكن العامة يؤكدون أن صاحب الضربة الأولى القاتلة هو محمد البخيت، وأن ملحم أجهز على الأمير وهذا هو المرجح والله أعلم.

ولكن الشاعر هنا يقول إنه رأى بأم عينه كيف ألقى ملحم الأمير على الأرض، ولا ندري أكان حقاً شاهد عيان، أم أنه أراد أن يتخذ بها يداً عند ملحم شأنه شأن غيره من الشعراء.

فقال:

يا شوف عيني ما هو قولة تشاويع يوم شقلبه مع راس هاك الجذيبه

الشرح: لم أجد فيما يحفظه الرواة من أشعار ما يخلد معركة من معارك الحسنة مع أعدائهم ويدخل في تفاصيلها، ويمجد أعمال أبطالها، بالشكل الذي ينقل لنا صورة كاملة عن المعركة كما نقله وصوره لنا صاحب هذه القصيدة.

وما روي من أشعار لا يتعدى كونه نبذاً قصيرة تشير من بعيد إلى ملامح المعركة ولا تدخل في تفاصيلها، ولا تصلح أن تكون سنداً أو دليلاً، ولكن الدرعاني هنا بدا وكأنه نذير قوم، فجاء يخبرنا عن قدوم الأمير بجيشه الجرار قبل وصوله، ويبين لنا الغاية التي جاء من أجلها هذا الجيش، فالبيك لم يأتِ طمعاً في السلب والنهب، ولا لحيازة المغانم، فهذه عنده منها الشيء الكثير، وإنما جاء لينتقم لحبه الضائع، ولكرامته التي أهانها الحسنة حين رفضوا أن يكون صهراً لهم، وجاء وهو واثق من النصر بقوته وجيشه الجرار، وهذا ما جعله (مع النبا ممشاه ما يقضب الريع) والنبا ما ارتفع من الأرض، والريع ما انخفض منها، فهو لا يخشى أأنذر القوم وأخذوا حذرهم، أم لم ينذروا، فالأمر عنده سيان، لأنه واثق من النصر، وجاء على خيل شهب (عجل هذيبه)، والهذيب ركض الخيل، ثم يصف جيش الأمير البيك بأنه من رعاة الغنم والمراييع وأصحاب الأكباش.

والمراييع: جمع مرياع ويطلق على الذكر والأنثى من الشاء التي تألف الراعي فيعلق برقبتها الجرس وتسير خلفه في مقدمة القطيع، وترتع حوله إذا جلس، فيقتدي بها القطيع ويرتع معها وإذا سارت خلف الراعي سار وراءها.

---

[1] الخيل.

[2] بدون راكب.

والرويبة: مزيج الماء مع اللبن الرائب ويسمونها أيضاً (الشنينة) لأن اللبن يشن بالماء فيصبح شراباً رائباً.

والبيك جاء لينهب الحسنة، ومتى؟ (بالليالي القواطيع) وهي ليالي الشتاء الباردة، والتي تقل فيها عادة المؤونة وتندر المراعي، فتذهب بكثير من الإبل برداً وجوعاً، فكأنها والحالة هذه تقطعها، وهو لا يريد أن يبقى على شيء عندهم فيحتوي السلف والجهامة سوية، والسلف: الخيل والركاب تسير أمام القافلة، والجهامة: الإبل وعلى ظهورها المتاع والنساء والأطفال – وهي الأظعان.

ولكن البيك أخطأ التقدير، وفاته الصواب، وغرّه كثرة العدد والعتاد، وظن أنه سيلتهم تلك العصابة القليلة من فرسان الحسنة بسهولة ويسر، إلا أن هذه العصابة فتكت به فقتلته وهزمت جيشه.

وكنّى الشاعر الحسنة بـ (قاصرين المصاريع) وهي الأعنة يقصرون منها على خيلهم لتكون أطوع لهم أثناء القتال، ونعتهم بأهل البويضاء، وهي شعار الحسنة في الحرب.

ثم يخاطب الشاعر الموالي قائلاً:

حنا ذبحنا البيك والبيك صعصيع زيزومكم بالبوق يا أهل القريبه

الصعصيع: يعني بها القوي الضخم من الرجال، وزيزومكم: قائدكم، والبوق: الخيانة، والقريبه: الإساءة وسرعة النكوص والارتداد.

ثم يذكر اسم قاتل البيك (أخو حربه) ملحم بن فارس فيقول:

من كف أخو حربه زبون المداريع وعاشت يمينٍ ما يداوي صويبه

والمداريع: الفرسان الذين يرتدون الدروع، ويعني بقوله زبون المداريع: أي قاهرهم والفاتك بهم، ثم يدعو ليد ملحم اليمنى بالسلامة وطول البقاء، فيقول: (وعاشت يمين ما يداوي صويبه)، والصويب: الجريح، فجريح تلك اليمين لا ينفعه الدواء، لأن جرحه لن يشفى ما دامت الضربة أتت من كف (أخو حربة)، ملحم الفارس.

ثم يقول إنه رأى الأمير بأم عينه وه يهوي على الأرض، فهو إذاً شاهد عيان لا قول يقال، والجذيبة: المرتفع من الأرض، وشقلبه يعني أنه ألقاه أرضاً.

وبكى رجال الأمير وصحبه على أميرهم وخص بالذكر منهم: ابن قاعد والحديدي صهر الأمير وقريبه، وكان بكاؤهم أحلى من الحليب والسكر على قلب الشاعر، فقال:

سكر بكاهم كلهم من رواضيع يا حلو ذاك اليوم سمعة نحيبه

ثم ولّت بهم خيلهم منهزمة ومعهم جواد البيك (جنيبة): ليس على ظهرها أحد.

ثم يزف البشرى إلى أبناء وائل ليهنؤوا بالمقيظ والمرباع حيث يحلو لهم، ولأن البيك الذي كان ينغص عليهم عيشهم ذهب إلى حيث لا رجعة، فلا خوف بعد اليوم ولا إزعاج، فقال:

يا عيال وايل وابشروا بالمرابيع قيظوا وريضوا بالرياض العشيبة

وإذا كان للعرب في تاريخهم أيام خالدة يفخرون بها، فإنه يحق للحسنة أن يفخروا بذلك اليوم، وأن يسموه يوم حربه لانتصارهم على ذلك الجيش اللجب بعدد قليل من الرجال.

بقي أن نعلم أن عشيرة الموالي كانت سيدة البادية السورية قبل مجيء قبيلة عْنِزَة، وتحوّل هذه السيادة إليها، ولكن الموالي ظلّوا يقارعون عْنِزَة ويشنون عليها الغارات، وهم العشيرة الوحيدة التي امتنعت على عْنِزَة فظلت بمنأى عن سيطرتها، ولم تدفع لها الخوّة كما دفعتها باقي العشائر.

وفي هذه الفترة تناقص عدد الحسنة كثيراً، فلم يبقَ من كل أسرة سوى الرجل والرجلين أو الثلاثة رجال في أحسن الحالات، بينما فنيت سلالات أخرى بكاملها ولم يبق منها أحد، مما أغرى بهم أعدائهم فأخذوا يتعاورونهم بالهجمات من مختلف الجهات، فأهل الشمال من جهة، وشمر من جهة، وأبناء عمومتهم ضنا عبيد من جهة، والموالي – أعداؤهم التقليديون – من جهة حتى كادت تفنيهم الحرب.

كذلك فإن للصراعات السلالية على ا لسلطة، وما كانت تنتهي إليه من نتائج، وانقسامات خطيرة كالتي حدثت بين المقبل والملحم، وبين العساف وأبناء فاضل، بالغ الأثر في إنهاكهم وإضعاف قوتهم، كما أنها قضت على معظم الصفوة المختارة من رجالهم، إلا أن ذلك لم يضعف من مكانتهم، ولم يزعزع عزيمة القتال فيهم، فظلّوا حماة الشنبل وأسود النقعة، صبر في الحرب، صدق عند اللقاء، فما غزاهم غازٍ إلا عاد خاسراً يجر ذيول الخيبة والهزيمة.

رئاسة سعود بن فارس:

بعد وفاة فارس بن مزيد خلفه في رئاسة العشيرة ابنه الأكبر سعود وشاركه في السلطة أخوه ملحم، وكان الاثنان على طرفي نقيض، فبينما كان سعود حليماً متسامحاً واسع الصدر، كان ملحم متشدداً حاد الطباع.

وبعد وفاة ملحم خلفه ابنه محمد، فشارك بدوره عمه سعود في السلطة، وتجاوزه في كثير من الأمور التي كان يراها سعود من حقه هو وكثيراً ما كان يضيق صدره بتصرفات ابن أخيه، ولكنه كان يغضي عنها لأن محمد الملحم كان يمتلك مؤهلات متميزة في الحرب والقيادة لا يملكها سعود نفسه، وعلى كل حال، فإن العلاقة بين الرجلين لم تكن على ما يرام، حتى أن سعود كان أحياناً يشكو محمد إلى السلطات العثمانية كي تحدّ من تجاوزاته، وقد تميز عهد سعود بأنه عهد وئام وصفاء وجلاء لما في الصدور.

وخلف سعود بعد موته ابنه فندي، وكان قريب الشبه بخلق أبيه، كريماً، عطوفاً على الأيتام والمساكين، وله أيادٍ بيضاء في هذا المجال يشهد بها الجميع، ومات وهم عنه راضون، وخلفه في رئاسة العشيرة ابنه طراد.

رئاسة طراد بن فندي الملحم:

خلَّف فندي بعد وفاته ابنه طراد، ولم ترَ عشيرة الحسنة خلال تاريخها الطويل شيخاً يملك من الحنكة والسياسة وحضور الجنان وطلاقة اللسان ما يملكه طراد.

عُيّن نائباً عن عشيرة الحسنة في أول برلمان سوري أيام الانتداب الفرنسي، وكان خامس خمسة نواب من قبيلة عْنِزَة في البرلمان وهم: النوري بن مهيد، فواز الشعلان، راكان بن مرشد، وطراد الملحم، وكان طراد لسانهم في المجلس، وسنفرد بحثاً خاصاً للحديث عن شخصية طراد المتميزة في سياق حديثنا عن الرجال الأعلام في تاريخ الحسنة.

وقد أدى خلاف بين الحسنة والنعيم في عهده على أرض من أملاك الدولة في منطقة البيضاء والنهيدين إلى حدوث مواجهة مسلحة بين العشيرتين، قتل فيها من الحسنة بدر الملحم أخو طراد وبشير الخافور، ورجل من الفواعرة حلفاء الحسنة، وقتل فيها من النعيم رجل واحد وعدد من الجرحى بينهم متعب السيد رئيس العشيرة.

تم تتبع اثنان من عشيرة النعيم طراد وقتلاه في دمشق في ساحة المرجة، وشيع جثمانه بموكب مهيب إلى حمص، ودفن فيها في مقبرة الكتيب وسط حزن عميق عمّ أرجاء البادية والريف، وخلفه في رئاسة العشيرة ابنه ثامر.

رئاسة ثامر الملحم:

هو شيخ الحسنة أبو طراد ثامر بن طراد بن فندي بن سعود بن فارس بن مزيد بن عبد العزيز، استلم ثامر رئاسة العشيرة في سن مبكرة بعد وفاة أبيه، وكان عليه أن يجاري رؤوساء العشائر الذين يكبرونه سناً، ولهم تجارب كبيرة في الحياة، ولكنه ما لبث أن تجاوزهم وتقدم عليهم، فأصبح أقدرهم على قضاء حوائج الناس في الدوائر الرسمية، وأجرأهم في مراجعة دوائر الدولة، وأكثرهم معرفة في أمور القضاء المدني.

مثّل الحسنة سبعة عشر عاماً نائباً في البرلمان السوري وعضواً في مجلس الأمة أيام الوحدة بين مصر وسورية، وقد أكسبه اعتداله وبعده عن السياسة احترام وتقدير رجال الدولة في كل العهود التي مرت على القطر العربي السوري، وكان يعين حكماً في حل المنازعات بين العشائر في سورية ولبنان.

ويملك ثامر جرأة كلامية متميزة، فلا يداري في جوابه إذا وجد الرد المناسب، ففي أحد اجتماعات مجلس الأمة في القاهرة، قال جمال عبد الناصر لأعضاء مجلس الأمة السوريين: (اليوم ستذهبون إلى الأهرامات وترون عظمة الحضارة المصرية اليوم القديمة أيام الفراعنة)، فقال له ثامر: نحن يهمنا أمر مصر عندما أصبحت عربية، أما عندما كانت مصر فرعونية فلا تهمنا ولا تعنينا بشي.

وكان الجواب مفاجئاً لعبد الناصر وهو الذي تعوّد ممن حوله أن يصفقوا له لكل كلمة يقولها، ولكنه تبسم وتظاهر بالرضا، ولم يخفِ إعجابه بجرأة ثامر وحسن جوابه، وإلى جانب ذلك، فإن ثامر محدّث لبق، سلس الحديث، طيب المعشر، قريب من القلب.

تزوج الروح ابنة فواز الشعلان ورزق منها ستة أبناء هم: طراد: وهو الابن الأكبر لأبيه، وكان رحمه الله فارع الطول وسيماً، أسمر أكحل، حلو الابتسامة، بهي الطلعة، دمث الأخلاق، ولو قدر له أن يعيش لكان خير خلف لأبيه في العشيرة، ولكنه توفي في ميعة الصبا وريّق الشباب.

أما الباقون فهم: موفق، وعبد الكريم، ومنصور، وعبد الإله، وفواز.

ما كتب عن الحسنة:

كل ما كتب عن الحسنة هو بعد هجرتهم من شبه الجزيرة العربية إلى شرق الأردن وسورية، أما ما قبل هذه الهجرة فلم نجد لهم أي ذكر في المراجع التاريخية ولا فيما كتبه الرحالة المستشرقون.

وما كتب عنهم لا يتعدى كونه نبذاً قصيرة تتلخص في بضعة سطور لا تستحق الذكر ولا فائدة منها للباحث، فليس أكثر من خاطرة يسجلها عابر سبيل أقام فيهم ساعة من زمان ثم مضى، إلا أنه بعد أن قطعت شوطاً كبيراً في بحثي المتواضع هذا، أهدى إليّ الأخ الكريم محمد ربيع الجندلي كتاباً ترجمه عن الفرنسية الكاتب السوري فريد جحا، يحكي قصة جاسوس فرنسي ومرافق له من مدينة حلب، قاما برحلة في البادية السورية إبان الحملة الفرنسية على مصر، وقد جاء هذا الجاسوس ليكسب تأييد القبائل في سورية للحملة الفرنسية ضد الأتراك العثمانيين.

ويذكر هذان الرجلان في مذكراتهما أنهما وصلا عشيرة الحسنة قريباً من القريتين متنكرين كبائعين متجولين، وعاشا مع الحسنة ثلاثة أشهر من عام 1810م، وشارك مرافق الجاسوس الحسنة في إحدى غزواتهم على عشيرة الضفير وغنم فرساً، كان ذلك في عهد الشيخ مهنا الفاضل.

يقول الجاسوس لاسكاريس في مذكراته أنه لم يجرؤ على مفاتحة مهنا الفاضل بمهمته، ولما كُشف أمره، أراد ناصر بن مهنا الفتك به ولكنه استجار بفارس من الحسنة اسمه عزيز، واستطاع الهرب مع مرافقه إلى حماة ومنها إلى دمشق، وفيها تعرّف إلى رجل قاده إلى عشيرة ولد علي على عهد الشيخ (دوخي بن سمير) فأقام معهم فترة من الزمن ورافقهم في رحلات الصيد والصقور، ووصفها وصفاً دقيقاً رائعاً، ثم انتقل إلى قبيلة الرولة في عهد الشيخ الدريعي الشعلان.

واستطاع هذا الجاسوس بحنكته ودهائه أن يقنع الدريعي بفوائد الحملة الفرنسية، ومزايا الخلاص من حكم الأتراك معللاً إياه بالأماني والوعود الكثيرة، فشكل تحالفاً بين قبائل الرولة والولد علي والضفير والفدعان ضد الأتراك.

ولما كان لاسكاريس يعلم أن الحسنة لن ينضموا إلى هذا التحالف الذي تم بمساعيه، قرر توجيه ضربة قوية لهم تضعف من شوكتهم، وينتقم لنفسه منهم، ونجح في أخذ موافقة الدريعي على قراره هذا، وهكذا تم تجهيز جيش قوامه ستة آلاف وخمسمائة مقاتل لغزو الحسنة، أورده لاسكاريس على الشكل التالي:

-ألف رامي بندقية من عشيرة الضفير.

-ألف وخمسمائة مقاتل من ولد علي.

-أربعة آلاف مقاتل من الرولة.

– إضافة إلى مائتين وخمسين فارساً من الفدعان انضموا إليهم قبل نهاية المعركة.

والجميع بقيادة الدريعي الشعلان، ولكن الحسنة صدوا الغزو وطاردوه، إلا أنهم وقعوا خلال المطاردة بكمين من رماة البنادق الضفير ففقدوا كثيراً من رجالهم.

وقُتل في تلك المعركة ناصر (بن مهنا الفاضل) ثم تمت بعد ذلك مصالحة بين الدريعي و(مهنا الفاضل) انضم على أثرها الحسنة إلى التحالف الجديد.

ما قاله لاسكاريس عن الحسنة:

ولنستمع إلى لاسكاريس أو (الشيخ ابراهيم) كما سمى نفسه ومرافقه فتح الله الصايغ الذي سمي نفسه عبد الله الخطيب وهما يحدثاننا عن رحلتهما إلى البادية السورية من بدايتها، وقد أطلاّ على نجع الحسنة أو بني حسن كما سمياهم ... يقول لاسكاريس:

((وانفتح أمامنا سهل صغير في نهاية سرير النهر، وهناك إلى الشمال قليلاً قريباً من القريتين، وفي أمسية حارة من أماسي شهر تشرين الأول ... رأيت للمرة الأولى مخيماً للبدو ... كانت الخيام تمتد كبقيع داكنة فوق الأرض الصفراء، وتتحدد واطئة قصيرة تشبه الكوم التي يضعها الخلد عندما يحفر وكره، ويبدو نظامها الدائري حول خيمة الأمير، أقل قسوة من ربض القرية والمساكن الأخيرة فيها منصوبة هنا وهناك، في أي مكان عن طريق المصادفة، أو فوق أرض أكثر تسطحاً، ولقد عني الجميع بأن يتجهوا بفتحاتها نحو الريح، وكانت جميع هذه الأبواب الطويلة تنفغر أمامنا وكأنها أشداق مستعدة لتعض.

كانت طرق هذه القرية الوقتية الملتوية بين الخيام مزحومة بالحيوانات: بعض حمير منحرفة المزاج، والكثير من الماعز والغنم تحرسها جماعات من الأطفال اللاهين، كانوا يثغون، ويزقزقزن فرحاً، ويضربون بعصيهم الحملان المجنونة التي كانت تضيع بين البالات.

كانت الجياد مربوطة إلى أوتاد خيام مالكيها، وكان بعضها يرعى بمعزل عن آخر البيوت في نوع من بستان، أما الجمال فكانت تحيط في هذه الساعة المتأخرة بالآبار التي يخمن أنها تبعد بضع مئات من الأمتار، وأنها ستعود سريعاً هازة بخطاها الوئيدة القرب المتكدسة فوق أسنمتها، والتي يتدفق منها الماء.

وتتصاعد من تجمع الناس والحيوانات هذه رائحة حريقة: فالروث الملقى هنا وهناك ورائحة العرق في حرّ الشمس، ودخان الروث المجفف الذي يحرق على النار ورائحة العفونة دلائل على قلة الماء لدى هذا

الشعب الذي يعيش في الصحراء، وسيكون علينا تذوق رائحة العفونة هذه، والكشف بأنوفنا عن اقترابنا من المخيم وتمييز القبائل عن طريق رائحة خيامها، إلا أننا، فتح الله وأنا، قد هبطنا الطريق نحو القرية، نشم بلطف، الأنف منا حذر، والحنجرة مشدودة، وأحاطت بنا طائفة من الأولاد، أدهشتها تسلية رؤيتنا.

كان الرجال يدخنون بهدوء أمام خيامهم ويجيبون على تحيتنا كما يفعل أرباب الحوانيت في حلب، لم يكن في أثرنا جلبة هازئة، ولا صياح حاقد، ولم يتبعنا كلب مرخى: فهل نحن حقاً لدى قوم وصفوا لنا بالقسوة والشدة؟

وسألت عن خيمة الرئيس، وسمعت صوتي، بعد الكثير من القلق والمخاوف، قد أخذ يخرج سيئاً، وأخذت أسمع منه، على الرغم مني، نوعاً من الخشوع والتواضع، فسؤالي لا يتفق مع الصحراء، إذا كنا نبغي تجنب المزاح، فقال أحدهم: (رئيسنا، الله في الجنة). واستأنف الآخر (ليس لنا من رئيس، أنحن من الترك حتى نطيع أحد الباشوات؟ إذا أردت معرفة أمير قبيلة الحسن، مهنا العظيم، فاذهب إلى آبار كريت، على بعد أربعة أيام من هنا).

وبدأت أفهم، بعد أن طفت من خيمة إلى خيمة تلاحقني سخريات ثلثي القرية، بدأت أفهم من أنا بالنسبة للبداة، ولماذا لم يقطعوا رأسي في الحال، وعرفت ما ينبغي عليّ عمله، فليس بائع متجول مجهول يزور مخيم البدو من بني الحسن شيئاً نادراً، كما خيّل لي، ولا هامّاً، أو شيئاً عجيباً من نحو ما –كان على لامبالاة الخفير –أن تنبهني.

والحقيقة وإن كانت مخيبة للآمال، هي أني هنا شخص لا معنى له، لا يحمل معه أي شيء من الغرابة، وقد يستحق الاحتقار، وليس الخنجر بكل تأكيد، أما تحية الأمير فينبغي عدم التفكير فيها، فليس لبائع خام بالمفرق مثلي ما ينشده لدى جلالة أمير القبيلة: هناك علاقات اجتماعية يتوجب على الجاسوس أن يتفهمها ويتعلمها.

وهكذا أفسدت دخولي إلى عالم البادية، ونحن أخيراً، على قيد الحياة، كما ردد فتح الله ذلك مراراً، ولقد تبين لنا أن حكواتية قرية صدد المرعبين قد كانوا في تلك اللحظة متآمرين، وقادونا بعد أن طفنا دائرين بين الخيام إلى عبد أسود يقوم بدور الجابي، ودفعنا بضعة دراهم، وقدمنا كفيتين خضراوين هدية، فسمح لنا بأن نذهب لننصب خيمتنا بمعزل عن المخيم، كان برادعي من دمشق، وبائع أعشاب يدّعي أنه من

فارس، يؤلفان معنا ضاحية الأغراب هذه، وبعد ساعتين نصب فتح الله منضدة التي كان يفكر في استخدامها غداً)).

فتح الله ملاحظات (تشرين الثاني 1810):

الرعب، ودائماً الرعب، كيف حدث أن بقي السيد لاسكاريس هادئاً وراء لحيته: فأكثر اللحظات رعباً لا تنال من رباطة جأشه، فلقد بقي معلمي مستقيماً بارداً بسيط الحركات عندما اجتاز حارس المخيم، في ذلك اليوم، وعندما مسح عنه سخريات البداة عند وصولنا، أو عندما قادونا عند هذا الزنجي الضخم (عبد، إلا أن لديه مظاهر المتبجح)، الزنجي الذي دفعنا له ضريبة، لقد ذكرني بجفاف بالنظام عندما رآني مترنحاً (ماذا تفعل يا فتح الله... كفّ عن تصنعك وريائك)، ولقد حاولت أن أطيع فالشجاعة تُتعلم، كما قال لي، وهي مسألة تدريب وتمرين، فلنتدرب على الابتعاد عن الخوف.

لقد ظهر لي (عزيز)[1] مندهشاً عندما عرضت عليه طلبي، فلقد ارتبطنا بهذا الفارس الرائع الفاتن لفتيات المخيم بروابط كثيرة، وكان غالباً ما يأتي لشراء ألاعيبي، وأقول ألاعيبي لأنني أنا الذي أقف وراء منضدة البضائع طوال النهار، أما معلمي فكان يفضل التجوال، وقياس أبعاد الأشياء، إن السيد لاسكاريس مولع بالقياس إلى حد الجنون: طول رمح، شكل بعير، خيمة أمير، المخيم نفسه، بحيث أنه، وقد تعوّد عادة قياس المسافات دائماً، فقد غدا متصلب المشية، وهيئته هيئة مساح الأرض الذي يعد خطاه.

وهكذا كان عليّ أن أتدبر أمري قدر استطاعتي مع قطنياتي، فتوصلت عن طريق ذلك إلى التعرف على جميع الناس: العبيد، والرجال، الأمراء، وأبناء عم الأمير نفسه، وحتى النساء اللاتي يأتين ليرين بضاعتي وينظرن إليّ نظرات جريئة لم أتعودها من ثرثارات مدينة حلب.

عاد عزيز من حملة عقاب ضد عدو مجهول، من (غزو) كما يسميه، ولقد فهمت من صياح الفرح الذي حيّا عودة المحاربين أنهم كانوا مسرورين من النتيجة، ولم يكن من السهل دائماً ووسط اختلاف أصوات العودة هذه الكشف عن سير المعركة، ولقد لاحظ السيد لاسكاريس يوماً ما أن متوحشي أمريكا يظهرون نجاحهم بجلب شعور أعدائهم معهم، أما هنا فالأمر مختلف إذ لا يتقاتل الناس للإجهاز على العدو بل لسلبه فقط، فالغنائم أكثر نفعاً من إراقة الدماء، والبداة المخيفون هم، بعد كل ما يحدث مقتصدون في ميدان دماء العدو: فقد يعود المنتصرون بفروتين وجملين أو مهرين في الأيام السعيدة، ويعود المكسور عاري الرجلين أو مردوفاً، ولكن يعود، وهو أخيراً عندما يعود يغنّي شعبه الصغير باستقباله مع

[1] أظنه عبد العزيز لأن البدو لا يسمون عزيز وإنما يصغرون عبد العزيز فيقولون عزّيْز بتشديد الياء وتسكين الزين الثانية.

ذلك: فنحن دائماً شديدو الانتباه إلى تملق حب الذات الخاص بالمحاربين، يحدث مثل ذلك عندما يكونون قد هزموا أيضاً.

فلقد انتصر عزيز في هذا المساء، وعرض غنيمة ثمينة: بضعة جمال من نوع ممتاز، وثلاث قطع من الحرير، التي أتى يبادلها عند وصوله بمعطف كان يتمنى الحصول عليه منذ زمن بعيد، كان يلتمع من العرق والمجد، وغير قادر على منع الضحك الهائج الصادر عن حشد فوضوي من الغلمان حوله، كان مزاجه المرح لذيذاً في الرؤية ولقد شجعني، فرجوته دون أن أفكر فيما أقول بأن يشركني في غزوته المقبلة.

وشجعني السيد لاسكاريس، الذي كنت أرقبه بطرف العين، شجعني بابتسامة، أما عزيز الذي استخفّه الفرح، فقد أخذني بين ذراعيه، ووعدني برمح، وجواد وغنيمة وافرة.

قضيت عدة أيام في التدرب معه على استعمال الرمح، علمني شحذه على الحجر، وغرزه في الأرض من طرف زجّه الحديد، وعلمني كذلك القفز إلى سرج الجواد بالاستناد إليه، ثم بيّن لي كيف يمكن العدو بالجواد مع الإمساك به بالمرفق من خلال العنق، تاركين الريش الصغيرة ترفرف وقطع النقود التي تزينه ترن.

ثم تلا ذلك تمارين الهجوم، ضربة رمح إلى الأرض على كتلة من القماش: إن عدم إصابتها تعني غرس الحديد في الرمل والتدحرج عليه بكتف نصف مخلوع ترافقنا ضحكات الآخرين وهزؤهم، ثم طعنة رمح ضد فارس في دائرة من الجلد، وضربة رمح إلى الخلف ضد من يلاحقنا: حتى فتح الله يمكن أن يهرب.

لم أكن قد أصبحت رماحاً ممتازاً عشية انطلاقنا، إلا أنني قد بدأت أعرف كيف أمسك وركي من دون أن أزعج الجواد، ومن دون أن أتعرض لخطر الإيذاء أو لتعوير رفاق السفر، لقد أسكتت تطبيقاتي سخرية المبتدئ، لم أكن قد غدوت بعد أيام محارباً، إلا أن أكثر المتشائمين قد أخذ يتصل بي.

والغزوات تبدأ عادة بنوع من الاستعراض غير المنظم خلال المخيم، استعراض من صياح التشجيع تطلقه النساء والأولاد، والذي يتحول سريعاً، إلى شغبٍ مطلق العنان، وركضٍ بالخيل مستديرٍ مصحوبٍ بصرخات وحشية، وهكذا استسلمت مشغولاً بالإمساك برمحي إلى الخمار العام، وقلت لنفسي أن غرض هذا الصخب تهدئة قلق الجنود، كانت فكرة كون الآخرين خائفين مثلي تريحني قليلاً، وانطلقنا أخيراً عند مغيب الشمس: كنا ذاهبين لمهاجمة قبيلة (ضفير).

ولم يكن الضفيريون يعنون أمراً كبيراً بالنسبة لي، كانوا يتحدثون عنهم كثيراً في قبيلة الحسن التي كنا نقيم عندها، إنهم من عرق مخادع، وأوباش أوغاد، وشعب جبان، أقدر على تسلق كثيب لسرقة جمل من المحاربة بشكل مكشوف مع إنشاد الشعر.

فمن هم في الحق؟ سنرى ذلك فيما بعد.

كانت جماعة من قبيلة ضفير قد تجرأت على الاقتراب من بئر لبني حسن: وهذا أمر لا يحبه البدو أبداً، مثلما كانت أمي لا تحب أن يأتي أحد أولاد عمي لقطف الزيتون من بستانها من دون أن تدعوه إلى ذلك، فما اللباقة إذاً؟ إذا أردنا شرب ماء الآخرين، فيجب أن نسألهم ذلك، ونظهر الخضوع، ونعترف بأننا أضعف من القبيلة التي نسألها، وعلينا أن ندفع ضريبة، ولندع هؤلاء البؤساء يفعلون ذلك، وسريعاً ما يقبل ألف من قبيلة ضفير ليطؤوا بأقدامهم مراعينا، وهذه ألف سنة مرت، وبنو حسن يتقاتلون مع بني الضفير: فليس هناك حاجة لعذر عندما تقودك غارة إلى القتال، إن دورياتنا قد لمحتهم، وهم في متناول اليد، وهكذا كان: فإلى الهجوم عليهم.

وسرينا طوال الليل يقودنا دليل صامت، كنا نغني لنتدفأ، إلا أننا كنا مع ذلك نرتجف فرحاً في الظلام الرطب، كان نور الهلال يتسلل إلينا ضعيفاً من خلال نوع من الضباب الذي سيكثف حتى الصباح، بحيث أنني في معركتي الأولى هذه، لم أر في الحق، شيئاً كثيراً.

وبزغ فجر أبيض: أوقفنا عزيز، بناء على إشارة من الدليل، كنا قد استدرنا حول سفح هضبة كنت أحزر أبعادنا في الظلام، وكان مرتفع صغير أمامنا يخفي مخيم بني ضفير.

كانت خطتنا تتلخص في ارسال كشافين يتسلقان القمة، ويشيران إلينا عندما يستيقظ المخيم، ليس الهجوم بمستحسن قبل ذلك: لا يهاجم البدو في الليل، لماذا؟ ليس التفسير حربياً، فالمقاتلون في الليل عند نسائهم، وإذا ما هاجمناهم فالرعب (أو الحب لا أحد يدري) يضطرهم إلى متابعة القتال بعنادٍ يمكن أن يكون مؤذياً.

أما في وضح النهار فنحن نفاجئهم، ونسيطر عليهم، وتكون المعركة قد كسبت: فهم يستسلمون بسهولة، ولن نتشدد في معاملتهم، فكل شيء قد تم، وعندما يأتي دورهم في مفاجئتنا ننتظر منهم الحلم نفسه: فالعرب في الصحراء يقتتلون قليلاً، أقل قليل ممكن.

كان كشافانا قد ذهبا مصطحبين معهما البندقيتين الوحيدتين اللتين نملكهما، وهما بندقيتان هنديتان قديمتان رديئتان مرتوقتان، كان بإمكانهما وهما مضطجعان أن يتدخلا لدفع هجومٍ معاكس إذا ما سارت الأمور بشكل سيء، كانت حنجرتي مضغوطة، بينما كنت أراهما يتقدمان على المرتقى، كنت أتخيل المنحدر الآخر، مع مخيم الزلابية على الجمر، إنه عالم صغير مسالم على وجه الإجمال، وسيهاجم عزيز

برماة رماحه العشرين، كنت أتساءل عن الكيفية التي سأشارك بها في الأمر، وأشعر بحيرة لأن جميع العيون مركزة علي: عين عزيز ومقاتليه، ولاسكاريس في المخيم، وأمي كذلك من بيتها في حلب.

وجرى الأمر كما كنا قد خططنا له من قبل، فإشارة الكشافين الأولى أكدت أن بني ضفير هناك، ودفعتنا إشارة أخرى من عزيز إلى القتال.

ولقد ركزت رمحي في الوسط، وأنا أركض جوادي ساكتاً حتى القمة حتى لا أجرح الجواد الذي يتقدمني، ثم ظهر المخيم بارزاً في الضباب: وأعطتني صرخات رفاقي الوحشية شيئاً من الشجاعة، بينما أذهلت المفاجأة العدو، إلا أنها كانت مفاجأة عابرة وذهول سرعان ما ضبط: فلم يكن بنو ضفير حقاً اللصوص الجبناء الذين وصفوا لي، ولكنهم قوم محاربون، ولم يكن ذلك الكمين الأول الذي ينصب لهم، واختبأت النسوة في اللحظات التي سبقت دخولنا المخيم في أثناء تسلقنا المنحدر كالذئاب في الخيام، وتدحرج الرجال نحو أسلحتهم، انتظرنا اثنا عشر منهم واقفين السيوف الممشوقة في أيديهم، وآخرون ركضوا مع رماحهم نحو جيادهم، وانهمك الآخرون في حشو بنادقهم.

وكانت ملاقاة أغمضت عيني وأنا أصرخ مثل الآخرين، وانطلقت رمحي إلى الأسفل مضموم الجسم من دون أن أسدد على إنسانٍ ما، ولقد حاول شيطان طويل مسلح بخنجر أن يتعلق بساقي اليسرى، فدفعته بضربة عصا فسقط على الأرض، ووجدت نفسي من بعد في الجهة الأخرى من المخيم الصغير، كان الآخرون يتخبطون في الخيام المقلوبة، وكان الكثيرون على الأرض، في وضع سيء جداً.

ها هو ذا عدو يعدو بجواده نحوي في الوقت الحاضر، نظرت إليه مضطرباً محاولاً أن أدير جوادي لأكون في مواجهته، ها هو ذا قد أقبل نحوي فتمددت على ظهر مطيتي، ففته ومضى رمحه فتكسر في الحجارة، تبعته، بعد أن اطمأننت إلى أنه قد غدا أعزل، وقفز إلى الأرض، بعد أن جرى نحواً من مائة متر، وصرخ بي مشيراً بكلمات إلى الجواد الذي كان يمتطيه، وهكذا كسبت معركة على الطريقة البدوية، معركة لم يسفك فيها دم، وها أنا ذا أمتلك جواداً جديداً، وتركت عن أريحية المعطف الممزق لمن تغلبت عليه.

وعدت باتجاه المخيم حيث سمعت بضع طلقات نار: كان رماة قبيلة ضفير يريدون أن يبرهنوا على شهرتهم كأحسن رماة الصحراء، ولقد تركوا للبارود أن يتكلم، ولقد تلقى أحدهم لسوء حظه ضربة سيف، ومات آخر بهدوء بعد أن تلقى رمحاً في البطن، واختفى من بقي في الضباب، كانت النساء يعولن تحت الخيام المقلوبة التي لم تمس، وجمعنا ما أردناه: بضعة جياد، وخمس بنادق، وهذا هو النصر،

وابتلعت المديح المختصر الذي وجه إلى تصرفي، ثم مضينا نحو مخيم بني حسن فوصلناه في مساء اليوم نفسه.

لاسكاريس مذكرات – كانون الأول (1810):

ثلاثة أشهر مرت لدى بني حسن: ثلاثة أشهر ضاعت، (دروفيتي) سيثور، وربما فقد الإمبراطور صبره، فأنا لم أنجز شيئاً ما، وها أنا ذا أخبط في لامبالاة البداة الرخوة، أنا الذي كنت أفكر أن باستطاعتي إقناع رؤسائهم وإثارة حماسة محاربيهم، فيا للسذاجة!

أما وقد أهانني احتقار مضيفي، فإنني قد أهنت أكثر بسبب خجلي من عدم تقدير البدو لي، كانوا قد حدثونا كثيراً عند حداد صدد عن المخاوف التي سنلقاها لديهم، بحيث أنني انتشيت بجرأتي الخاصة وبعظمة انتصاري، ولقد فكرت على النحو التالي:

(هذا لاسكاريس إذاً: إنه يجتاز صحارى محرقة يتعرف إلى شعب قسوته أسطورية، شعب لم يكن أحد قبله يتجرأ على الاقتراب منه، الخطر جسيم، إلا أن لاسكاريس يسيطر على خوفه، ويحتقر شكوى جسمه المسحوق بالحرارة والتعب، إنه يتقدم نحو البدو، رسول امبراطور الفرنسيين، وكشاف جيوشه، وحكم مصير الشرق يتقدم رجلاً حديدياً لملاقاة رجال الرمال، ولن تكون سفارته لدى البدو إلا عظيمة مأساوية ودامية من دون شك، إلا أنها عظيمة، سيقطعون رأسي في الحال أو سأتناول طعام العشاء، هذا المساء على مائدة الأمير)، فيا لها من حماقة!

إن أمير بني حسن (مهنا الفاضل) المحارب القديم المتعب من الحروب، المتزوج عشر مرات، والمتعب من مخاصمات زوجاته، ووالد عشرين صبياً والمتعب من وقاحاتهم.. أمير بني حسن هذا يتناول طعام العشاء مع الباعة المتجولين، إنه يأمر بإيصال الحقوق إليهم، ويزربهم معاً على أبواب المخيم، ثم يترك أتباعه يسرقونهم بهدوء.

لقد حضرت عدة مرات اجتماعاتهم، أو ما يسمونه (المجلس)، وهناك انتظرت منه وهو يجلس على الأرض مثل عشرين مثله، بينما كان أصحاب الدعاوي، وطلاب الخدمات، والضحايا من كل نوع يأتون إليه، لكي يحصلوا على إنصاف الرجل الشيخ.. هناك انتظرت ببلاهة وغباء أن يركز عينيه عليَّ، كنت آمل أن يتعرف في وجهي شيئاً ما مختلفاً، إشارة ما، وأن يهمس في أذنيه صوت سري: انتبه يا مهنا،

فهذا إنسان أكبر بكثير مما يبدو لك، وهو يعرف أشياء هامة، قد تكون نافعة لك، ففض المجلس، ودع هذا البائع يتكلم.

إلا أن الخوف كان هنا، لمحناه أم لا، فلقد كنت أتكوم في معطفي مذعوراً من فكرة إمكانية اكتشاف أمري وشاعراً بخنجر الحرس بين فخذي، كنت أتكوم وأفر من جميع الأنظار وأتخذ هيئة التعب القصوى التي تلائم هؤلاء الذين يريدون أن يمروا دون أن يحس بهم أحد، وهكذا كان لاسكاريس الكبير المتألِّم والمعزّى في آنٍ لكونه لم يتعرَّف إليه، كان لاسكاريس يعود سريعاً إلى خيمته، وإلى تجارته التي لا تحتمل.

وهكذا كنت أحسّ، وقد أمسك بخناقي الرعب، بأنني معاق بتنكري، كنت أقوم أنا وفتح الله جيداً بدور البائع المتجول وصاحبه المتدرب الشاب، وفتح الله نفسه خاصة بنشاطه المستمر، وطلاقة لسانه، وفكاهته الساذجة التي لا تظهر.. كل ذلك يسحر الزبائن، ومنضدة البيع المنصوبة في أي مكان قد أصبحت مكاناً للقاء، وهدفاً للنزهة، ومنصة للأناقة: قصراً ملكياً على الإجمال، ولو كان لدي مزيد من البضائع، ولو أنني أظهرت مزيداً من الحزم تجاه الزبائن، وانتباهاً أكثر اتجاه اللصوص، فإن الأمور يمكن أن تكون جيدة، وكان يمكن أن أجد مصيراً جديداً في الصحراء، ولكن ما الذي جنيت من ربح؟ لقد خسرنا: وعليّ أن أعود سريعاً إلى دمشق للبحث عن مال فيها.

كان فتح الله يثور لإهمال معلمه، وكان يتألم، لكونه خادماً أميناً، من رؤيتي أخسر وأسحق؟ في ممارسة التجارة، كان يأسف على زبائن أفسدوا بشكل أحمق، وأحسست أن عليّ أن أحدثه بسرعة، فما الذي يفيده مما تشتريه هؤلاء النسوة، ومما يبتاعه هؤلاء الشيوخ، وهؤلاء المحاربون المتطرفون، فزبوننا ينبغي أن يكون الأمير والأمراء الذين يحيطون به، وهؤلاء لم نستطع أن نفتن واحد منهم بعد.

عليّ أن آسف لهذا الإخفاق، إنني أفهم بشكل أفضل أبناء قبيلة حسن، ولقد بدأت أفكر في أنني قبل خطئي في طريقة التعامل قد أخطأت في قصدي هذا الشعب.

كانت المجموعة الصغيرة التي وصلنا إليها في شهر تشرين الأول قد انضمت مؤخراً إلى القبيلة الكبرى، فانضافت الخمسون خيمة إلى خمسمائة كانت تحيط بصورة طبيعية بخيمة مهنا، وكانت قبائل صغيرة، وأسر تابعة متفرقة في الصحراء يمكن أن تضاعف هذا المجموع، وترتقي بذلك قوة بني حسن إلى ألف خيمة، ولقد غدا باستطاعتي، بعد تسليمي الأمور إلى فتح الله، أن أتجول بسهولة في الخيام، وأن أشارك في مناقشات المساء الطويلة، وأن أثرثر مع الجمالين الفصحاء أثناء تنقلاتهم، وأخذت أرى أمور هذا الشعب الصغير بشكل أوضح في الوقت الحاضر.

كان الدخول إلى بني حسن سهلاً بالتأكيد، فما كنت أبغي القيام به كان هؤلاء بعيدين عني، ولقد أدركت أن هذه الجماعة قد بدأت تكره الصحراء، وأن تاريخها مجيد إذا ما صدّقت الشعراء الذين يتكاثرون حول الأمير، لقد عرفت بعد أن أتت من أعماق الجزيرة الصحراوية منذ قرون كيف تحتل الأراضي بين القريتين ودمشق، ثم كيف تتمسك بحقوق لا تناقش فيها، وأتى بعد هذه السيطرة المكتسبة نوع من التكاثر، ولم يبق للجوع وهو سيد الصحراء والمحرض على الانتجاعات الكبرى من شأن لدى بني حسن، فغدت هجراتهم قصيرة: يومان، أو ثلاثة على الأكثر، وكانوا يلمحون الآبار المحفوظة بعناية، والمراعي السليمة التي ترعى فيها القطعان، وتطور ذلك فيما بعد: فمع نهاية الضياع الطويل تضاعف عدد الجياد، ثم عدد الأغنام، التي كانت ستموت لو أنها دفعت أكثر في أعماق الصحراء.

لا تزال هذه القبيلة بدوية، إلا أنك تشعر بأن ثقل القرون يدفعها نحو شواطئ نهر العاصي المزدهرة، وهكذا أخذ بنو حسن، شأنهم في ذلك شأن (الموالي) الذين كانوا أقوياء جداً منذ مائة عام.. أخذوا يظهرون وكأنهم يريدون استبدال كوخ السباخ بخيمة الشعر.

كانوا يقاتلون دائماً، ولكن أقل مما كانوا يفعلون من قبل بالتأكيد، ذهب فتح الله في أحد الأيام يوقظ مخيماً لقبيلة ضفير بضربات رمحه، لم يكونوا ليصوبوا رماحهم بشكل جيد، إذا حكمنا على الصداقات التي قامت بين المتحاربين، وكانوا يهاجمون القوافل أيضاً إلا أن المهاجمات والغزو قد بدت أتفه من قبل: خمسة عشر فارساً، ثلاثون، من قبيلة تعدادها على الأقل ثلاثة آلاف رجل سليمي البنية، وكان يصدر عنهم في الرواح والمجيئ كثير من الجلبة، إلا أنهم في حقيقة الأمر لم يبقروا سوى ثلاثة بطون لمسافرين منعزلين، ولم يكن في ذلك كله مغزى حربي جاد.

أعليَّ أن أستنتج من ذلك إذاً أن جميع البدو محاربون يعيشون على شهرة قسوتهم، بحيث أن عدوّاً جاداً يستطيع التغلب عليهم بسهولة؟ إن ذلك يغريني إذا لم أشعر بذلك في أحاديث المخيم، حيث يتكلم الأقدمون باحترام عن بقية القبائل.

فقبيلة بني ضفير مثلاً وهي التي استولى فتح الله على جواد من عندها، ليست الخاملة التي يتهكم عليها شباب بني حسن، إنهم يحترمونها ويخافونها، فإذا ما توجب أن يدافعوا عن بئر، فإن أمير بني حسن يرسل بضعة رجال، إلا أنني لا أعتقد أنه يرغب في القتال مختاراً.

وتظهر أسماء مقاتلين آخرين في الحكايات والقصائد والملاحم، واستمعت إليهم يعظمون أسماء بعض القبائل: الفدعان، ولد علي، وقبيلة ا لرولة الغامضة التي سحقت – فيما يقال – جيشاً تركياً أمام

بغداد... أهذه مبالغات قصاصين؟ أم إعادة أحداث قديمة جداً؟ أم نشوة شاعر غنائي؟ كيف نتعرف حقيقة ذلك كله؟

على كل حال لم يكن الأمير (مهنا) هو الذي سحق جيشاً تركياً، فابنه الناصر الفظ الأحمق قد جعل من نفسه معجباً بالباشوات ونصيراً للباب العالي، كان يرتدي الملابس كآغا، ويتسمى (بناصر بك) ويعمل على قيادة رفاقه من الغلمان بالتركية، وكانوا يضحكون منه في الخيام، ويجد الأمير نفسه منزعجاً من تصرفات ابنه، إلا أن هذا الأمير المشترك لم يكن هدفاً لي، فمخطط نابليون المعبر عنه بوضوح في رسائل (درفيتي)، معاكس للأتراك، فلا عمل لي لدى حلفائهم، وإنما عليّ أن أتصرف لدى أعدائهم.

فإلى أين أذهب؟ وبنو حسن هؤلاء يغدون شيئاً فشيئاً أقل شراسة، فأية قبيلة أخرى أختار؟ وأية جماعة تمتلك من العنف ما يؤهلها لتكون مركبة لمهمتي؟ ومن هو الرئيس الذي يمتلك قدراً من التعطش للمجد يؤهله للاستماع لنصائحي؟ لقد أخطأت حين اخترت قبيلة متساهلة جداً، أما وقد غدوت مستنير الذهن بخطأي فقد أحسست غريزياً أن المنحدر الأكثر شدة يمكن أن يقودني إلى النجاح، فلنسر ما دمنا قد بدأنا لأن كل ضعف أو خشية قد أصبحا ممنوعين، ولننتق الطريق الأكثر خطورة، وإذا ما أعوزني الشعب فإنني أريده الأكثر قسوة، وإذا ما أعوزني مقاتلون، فليكونوا أكثر المقاتلين قوة ووحشية.

(فتح الله، ملاحظات – كانون الأول (1810):

الأحداث تتلاحق وتتدافع بشكل أكاد أفقد عقلي معه، أيتها السيدة العذراء، عندما سيسمع أبناء عمي قصة ما مرّ بي، لن يصدقوني أبداً، ولنعد إلى الوراء، مساء البارحة كنت لا أزال خادماً تاجراً، مسالماً وسعيداً، تشرفني صداقة بعض المحاربين من بني حسن، وها أنا ذا الآن جاسوس مكشوف، أركض حصاني بولهٍ مع معلمي أمام جماعة من البدو الذين سيقطعون رقابنا إذا لم نبلغ أرياض حماة قبل أن يلحقوا بنا، لقد فقدت أقمشتي الصوفية والقطنية، وصداقة عزيز العجيبة والأعمال التمهيدية التي حققتها في قلب جارة جميلة، ولقد حصلت بالمقابل على شرف الفرار في هذه اللحظة باسم صاحب الجلالة امبراطور الفرنسيين.

كيف كان يمكن أن أتخيل أن السيد لاسكاريس الرجل المحترم الصادق، قد كان عميلاً للفرنسيين؟ كيف أستطيع أن أخمن أن إقامتنا لدى البداة، ومعاناتنا، ومخاوفنا قد أمر بها نابليون، وليس لصالح منفعة شريفة؟ أما بعد أن نزلت بنا الضربة، فقد غدا الأمر مفهوماً. فإهمال معلمي، وعدم اهتمامه بما كان يضيع منا، ورغبته العارمة بالذهاب لتمضية الوقت في حضور مجالس الأمير، كل هذا كان ينبغي أن يكون عجيباً بالنسبة لبائعٍ جوال، ومع ذلك، فقد لاحظت أنه قد غدا منذ عدة أيام قلقاً، كانت تصدر عنه حركات من قلة الصبر تجاه الزبائن، وحتى المحترمين منهم، ولقد فاجأته أحياناً يغمغم بشتائم ضد مضيفينا من بني حسن، ولقد أرجعت هذا كله إلى جنونه، جنونه الرؤوف جداً، والذي لا يؤثر في طيبته، ولا في الاحترام الذي أحمله نحوه، ألا أنه لم يكن يملك مع هذا الرأس المتماسك الثابت.

البارحة إذاً، تسلحت بشجاعتي بعد أن أعددت قهوة المساء، وقررت أن أبين له حساباتنا: لقد كان الأمر كارثة، وقلت لمعلمي: ((إما أن نتجر على الشكل الصحيح، أو أن نرجع بكل بساطة، إلى حلب)).

ولقد ردَّ عليَّ بعنف بحيث أنني بقيت مبهوتاً، وأضاف قائلاً: ((معرفة أمراء الصحراء، يا بني، تعادل بالنسبة لي، الذهب، وكل أقمشة سوريا))، اقترب ولنتكلم بصوتٍ خافت، لأنك ستتعلم هذا المساء من أنت ومن هم الناس الذين تحدثهم، وأتيت، فجلست قربه صامتاً، مدهوشاً، بمغالاة هذه المقدمة وتشدقها.

وبدأ يحدثني عن فرنسا وعن نضالها من أجل حرية شعوب أوربا، وعظمة الحنان الذي تحمله لنصارى الشرق، ذلك الحنان الذي اشتهر في التاريخ، ثم وصف بعد أن ذكر نابليون، ريح الأمل الذي أيقظه

مقدمه إلى مصر، ثم إلى فلسطين لدى مضطهدي الشرق، واتجه الحوار اتجاهاً غريباً، فأنا لم أسمع البتة ريح أمل تهب على أحياء حلب القديمة مع مقدم الفرنسيين ونجاحهم في احتلال مصر، ولقد أبديت هذه الملاحظة لمعلمي الذي لم يصغ إليها إلا قليلاً: فلقد أدار عينيه، مُستثاراً ببلاغته الخاصة، وكان فمه يرتجف تحت شاربيه: ((اصغ إلى جيداً، يا بني لا يأتي نابليون لأمر بسيط، إنه يريد تحرير سوريا من نير الأتراك، سيطرد العثمانيين بسرعة من حلب، وستعيش أنت فيها بسلام أنت وذويك، لقد اختارونا أنا وأنت للإعداد لمثل هذا العمل الكبير)).

هذا أمر هام فيه: رحيل الأتراك سيكون قضيتنا الهامة، لكننا عرفنا كثيراً عن الحروب حتى لم يعد بالإمكان التنبؤ بأخرى من دون مخاوف، فالجنود الفرنسيون، كما يقول أعمامي، قد كانوا قساة جداً في عام 1799، مع سكان مدينة يافا، ينبغي ألا يحل جنود الإمبراطور المرتزقة محل الجنود الإنكشارية الأتراك في بلادنا.

وتابع السيد لاسكاريس همسه إليّ بمشاريع نابليون، فنحن، لكي نتغلب على الأتراك، بحاجة إلى البدو الذين يسيطرون على الآبار بين دمشق وبغداد، وعلينا أنا وأنت، أن نحقق هذا المشروع، يجب علينا، نحن الاثنان، أن نذهب للتبشير لدى البداة بقوة فرنسا وبالتحالف مع نابليون ليس أكثر منذ ذلك.

وهكذا، فمنذ ثلاثة أشهر من حياتي مع البدو كنت أقتسم الخيمة مع جاسوس، لقد تناولت الطعام مع محكوم عليه بالإعدام ومؤجل التنفيذ فيه، ونمت قريباً من هذه القنبلة الحية عدوة الترك، كنت أريد أن أفرّ وأغادر هذا المأفون الثائر الذي كان يرهبني، كنت أريد أن أركض بعيداً عن أرض الرعب هذه، بعيداً عن الصحراء، بعيداً عن البداة، وأن أعود أخيراً إلى معرض البضائع الذي أستحقه.

وتكلم إليّ طويلاً، ببراعة وحذق، هذا الإنسان الشيطان، وصف لي شيئاً فشيئاً، عظمة المشروع، والمجد الذي سيحققه لنا، والثروة المؤكدة التي ستهبط علينا، وذكّرني بأمي، وفخرها المحتمل بي، وحسد أبناء عمي لي، وعزيّز نفسه شاهد شجاعتي الكبيرة، وأبان لي الكيفية التي سنعمل بموجبها معاً سيعفيني من شرط الخدمة، وسيرفعني إلى مرتبة ضابط ومستشار عسكري وصديق، لقد التمعت في عينيه شعلة عظيمة عند إحصاء أرباحنا، والشبق عندما كان يعدني بالسبي الذي سنحصل عليه من حريم الباشوات.

كل ذلك كان يحسب، يا إلهي، وبدأت أتأكد منه، وبنو حسن لم يسيئوا معاملتنا، لقد قمت بالتجسس دون أن أعرف، وكان يمكن أن أموت بسبب ذلك، ولا يزال أعداؤنا من الترك يحكمون بعيداً، بعيداً

جداً عن هذا المخيم، ثم إذا ما ساءت الأمور فبالإمكان تقويض الخيام والرحيل، إلا أنني قد أخطأت في تفكيري وحساباتي.

ونمت في تلك الليلة نوماً مضطرباً، الخوف والمجد والوفاء لمعلمي وعظمة نابليون... كل ذلك كان يتصادم في أحلامي، ولمحت في الفجر عندما أزحت سجف باب خيمتنا رجلين قويين بسحنة مكفهرة يمنعاني من الخروج ويرجعانني بلطمة مفاجئة أدارتني بين السلال، عرفت فيهم رجال ناصر ابن الأمير الذي ينفذ القانون في القبيلة، كانت أسلحتنا القليلة قد اختفت وعرفت أننا أصبحنا سجينين.

وأيقظت فزعاً السيد لاسكاريس، ووصفت له الحالة وطلبت إليه أن يتخذ احتياطاته، لقد تطوعت أن أنتقل بسرعة من وضع الخادم إلى وضع الجاسوس، فوضع الأسير، ووضع المحكوم عليه قريباً من دون ريب، زحف لاسكاريس باتجاه الباب، وتعرف إلى حراسنا، وحاول من دون نجاح أن يتفاوض معهم، فلقد كان هذان الخشنان قد تلقيا الأمر بالسكوت، واستعان مع ذلك بالصبر وببعض الليرات ليعرف شرحاً للحالة التي آلت إليها مغامرتنا الفاشلة، فلقد نقب الأمير ناصر في صناديقنا، بعد أن ساورته الشكوك حول شخصيتنا، وهناك اكتشف بوصلة وكتاباً فرنسياً مصوراً يصف تدمر وبضعة أماكن أثرية أخرى، ولم يتطلب الأمر مزيداً من الذكاء ليعرف أننا من المنقبين عن الكنوز، وهو عمل كثير الانتشار في سورية ومكروه محتقر من البداة، فهؤلاء المنقبون يتوغلون لإحصاء كنوز أراضيهم بغرض نهبها فيما بعد على شكل ماكر من النصب والاحتيال، ظهرت الحالة لي دقيقة وصعبة، يصادرون كل ما لدينا، ثم يتركوننا عاريين فوق الرمال لنموت عطشاً.

وهناك ما هو أسوأ من ذلك، كما أضاف لاسكاريس، فناصر هذا مشغوف بالأتراك متحمس لهم، وهو يحلم بحكم قبيلته حسب شكل من أشكال الإدارة العثمانية، وهو لا يحب شيئاً مثل الاستجوابات البوليسية التي تتم بالاستعانة بالعصا وتنتهي بالشنق، لقد أرسل في الليلة الماضية اثنين من رجاله، لنقل قضيتنا إلى آغا حمص، فإذا ما قرر هذا الأخير أن يتسلى باستجواب منقبين عن الكنوز، فإن ناصراً سيكون سعيداً بتسليمنا إليه، وهكذا تكون قضيتنا بعد مغامرتنا في زنزانة حماة واستكشافات معلمي الملحّة قد أصبحت سيئة جداً.

وعقدنا مجلس استشارة في نهاية الخيمة، ولم يكن السيد لاسكاريس، ولا أنا نعرف بالتأكيد أين نحن؟، ولا كم من الوقت يتطلب سفر رسولي الأمير إلى حمص لرؤية الآغا، ثم العودة مع كتيبة من حراس الشرطة، ولقد قرر معلمي أننا في شمالي (القريتين)، فلا يمكن أن تكون حمص بعيدة، إنها على مسافة

سبع ساعات أو ست، وسيبلغها رجال ناصر في ساعة الغذاء، أي في ساعة القيلولة، ولا يمكن أن يزعج الآغا في فترة ما بعد الظهر، وفي هذا حظ جيد لنا، إنّ أمامنا من الوقت ما يسمح لنا بالفرار، إلا أنه الفرار في وضح النهار من خيمة محروسة، وفي وسط مخيم معاً، والضياع في صحراء مجهولة..

كنت أعتقد أن بإمكاني الاعتماد على عزيز، فقلت ذلك لمعلمي، كان هو بدوره يفكر أن سجننا قد تم بمبادرة من ناصر، أكثر من أن يكون نتيجة شعور عام ضدنا، وأضاف (إن الجماعة المتعاطفة مع الأتراك مكروهة، يحتقرها بقية أبناء القبيلة، فإذا ما توصلنا إلى إحداث هرج ومرج أمام الخيمة، مكننا ذلك من إيجاد وسيلة للهرب، والوصول إلى حظيرة الجياد في نهاية المخيم، وعلينا بعد ذلك أن نفر ممتطين جوادين ممن يلاحقوننا، ثم إيجاد درب ما نضيع فيه أثرنا، ثم الاندفاع مسرعين باتجاه حماة، في محاولة للوصول إليها قبل أن تغلق أبوابها).

تطلب مني إثارة انتباه جارتنا الجميلة بعض الوقت، بعد أن قذفتها ببضع حصيات من فوهة في خيمتنا، وعندما ابتعدت والدتها زحفت باتجاهي تملأ الدهشة عينيها، وبينما كان معلمي يلهي حراسنا كلفتها أن تذهب فترسل لي عزيّزاً وأصدقاءه، ولقد وصلوا مسرعين مطالبين بأصوات عالية بإطلاق سراحنا في الحال، وشاتمين بصوت أعلى الأتراك وعملاءهم، وبينما كانوا يسبون حراسنا، أشعل السيد لاسكاريس كومة صغيرة من البارود أمام حاجز القماش الذي يفصلنا عن الجميع، وكنت أنا قد مزقت الجهة الأخرى من الخيمة بسكين كانوا قد تركوه لي، وفررنا مستفيدين من الفوضى التي كانت تكبر، بينما كانت الخناجر تلتمع مع النار التي التهبت.. فررنا زاحفين بين قطيع من الماعز، متجنبين الطرق الرئيسية، ومتلوين وراء الجمع القلق الذي كان يسارع باتجاه الحريق). -انتهى كلام لاسكاريس ومرافقه فتح الله الصايغ-

وهكذا فشل لاسكاريس في أول تجربة له مع البدو، ومن سوء حظه أن هذه البداية كانت مع الحسنة، فبعد ثلاثة شهور من الانتظار والمعاناة خرج مهزوماً خائفاً بعد أن نجا بأعجوبة من مخالب الموت.

ولكن تيودور لاسكاريس لم ييئس وحوّل نشاطه نحو قبيلة الرولة —كما أسلفنا — هذه القبيلة الغامضة -كما يقول - والتي هزمت جيشاً تركياً بالقرب من بغداد واستطاع بدهاء أن يجمع بين الدريعي الشعلان رئيس قبيلة الرولة وكل من شيوخ عشائر ولد علي والفدعان والضفير، وأن يشكل تحالفاً بين هؤلاء ضد الأتراك العثمانيين لتسهيل طريق الحملة الفرنسية التي ستمر عبر البادية السورية باتجاه الهند،

وتم التوقيع على وثيقة الاتحاد بين جميع الأطراف في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني سنة 1811م – 1226هـ.

ثم استطاع لاسكاريس إقناع شيوخ أطراف هذا الحلف بغزو عشيرة الحسنة لأنها في نظره تشكل خطراً ضد هذا التحالف الأول من نوعه بين القبائل على ما كان بينها من خلاف.

كان لاسكاريس يعمل مستشاراً عسكرياً للدريعي الشعلان، بينما تولى فتح الله الأمور السياسية كسفير متجول للدريعي خلال المفاوضات التي مهدت لهذا التحالف، وبعد أن ألغيت الحملة الفرنسية، وتقلص دور لاسكاريس، أصبح فتح الله الصايغ (الحلبي) المستشار السياسي والعسكري للدريعي الشعلان، ورافقه في أثناء وفادته على الملك سعود في عاصمته الدرعية، في شهر كانون الثاني عام 1813م.

كانت خطة هجوم الغزو كالتالي:

تقوم عشيرة ولد علي بهجوم صاعق على الحسنة مع أول ضوء، ثم تنسحب بسرعة إلى الخلف لتجر الحسنة إلى كمين خطط له بإحكام من قبل لاسكاريس، وقد أراد لاسكاريس أن يحقق من هذا الهجوم غرضين:

الأول: تصفية ناصر بن مهنا في مكانه قبل أن يختلط بغيره من الرجال فيلتبس عليهم أمر معرفته.

والثاني: جر الحسنة إلى مكان الكمين لإيقاع أكبر الخسائر فيهم وإضعاف قوتهم ومن ثم القيام بهجوم معاكس عليهم.

كان الكمين يتألف من: ألف رامي بندقية من قبيلة الضفير مختبئين خلف الحجارة والصخور، ومن أربعة آلاف وخمسمائة من رجال الرولة الذين شكلهم لاسكاريس على هيئة مربعات وأجلسهم في أرض منبسطة، بحيث يبدون من بعيد كأنهم قطعان ماشية ترتع في السهل.

كان الفرنسيون قد طبقوا هذا النوع من التكتيك، على فرسان المماليك في مصر وأبادوهم.

نفذت الخطة بدقة كما خطط لها، وتمّ تصفية ناصر بن مهنا بسرعة في الدقائق الأولى من الهجوم، وانسحب بعدها ولد علي إلى الخلف أمام صيحات خيالة الحسنة الذين تنادوا مسرعين من كافة أطراف النجع.

كان فرسان الحسنة في أوج نشوة النصر والمهاجمون ينهزمون أمامهم حينما ماجت بهم الخيل أمام فوهات بنادق رماة الضفير، وتحت سحابة كثيفة من الدخان سقط الكثير من رجالهم، ولما مالوا إلى السهل ليجتنبوا الأرض الملغومة بالكمين، وجدوا رجال الرولة – الذين كانوا يحسبونهم من بعيد قطعان ماشية –

في انتظارهم والرماح مشرعة بأيديهم، وإذا كان لاسكاريس صادقاً في روايته، فإن خسائر الحسنة كانت جسيمة جداً في ذلك اليوم.

وسنرى فيما يلي كيف كان هذا الجاسوس ومرافقه فتح الله يعدّان ويخططان لتجهيز هذا الغزو.

يقول لاسكاريس في مذكراته عن شهر نيسان عام 1812م:

((أفتش، منذ وقت ما، عن فرصة للقيام بعملية مشتركة أجمع فيها قوات قبائل عدة، إنها تسمح لي بالتحقق من ولاء الأمراء، ومن تعقيدات المناورة على مستوى عدة جماعات، ولقد زوّدني بنو حسن[1] بالحجة.

فهذه القبيلة المقسمة كثيراً وغير الخطرة حقاً، والمرهقة إلى حدٍ يثنيها عن التفكير في المغامرة بعيداً عن مجالات نهبها.. هذه القبيلة تبقى مصدر ازعاج لنا وتهديد، ازعاج لأن مخيماتها بين القريتين ودمشق، والمستمرة نوعاً ما، كانت تشكل سداً يحدّ مدى حروبنا، وهناك أمر لا أستطيع البتة التساهل فيه: لقد ألفينا غزوات كان يمكن أن تجري قريباً من بني حسن، ولقد رأينا فصائل تركية طردتها قواتنا تلتجئ عند هذه القبيلة، ثم تعود من هناك إلى ثكناتها.

كان رؤساء قبائلنا، الحائرين في الخطة التي ينبغي عليهم سلوكها يعضون على الشكائم، ويترددون في الهجوم عليها علانية، كان الجميع لا يريدون إبادة بني حسن –الفدانيون خاصة لا يزالون يعتبرونهم حلفاء محتملين – إلا أنهم جميعاً تستثيرهم حالة ضبابية تسمح لبني حسن فقط بالبقاء بعيداً عن المنازعات، كان علينا أن ننهي هذا الأمر وأن نجبرهم على أن يأخذوا نصيبهم في العمليات، ويمكن من جهة أخرى، لقوة هذه القبيلة التي أضعفتها المنازعات السلالية، أن تتركز بسرعة وتهدد قواعدنا حتى الفرات

إن الشيخ مهنا، الذي خالطت مجلسه إبّان تعلمي يمكن أن يموت في كل لحظة تاركاً منصبه لأقبح أولاده، كنت أعرف بعضاً منهم، وخاصة هذا الأحمق ناصر، إنه إذا ما تسلم زمام الأمور فسيترك الطرق حراً لتركمانيته، وسيسلم قواته لباشا دمشق مقابل لقب رنّان، إن بني حسن الموحدين المسلحين من قبل الأتراك، والذين يقودهم هذا الشاب المجنون، يمكن أن يخلقوا لنا صعوبات جمة.

إلا أنهم يفتحون إذا ما تحالفوا معنا الطريق إلى العاصي، وعند ذلك أستطيع المناورة بحرية في السهل شمالي تدمر، وإذا ما أطلق السعوديين نحونا قواتهم، كما أخذنا نتخوف شيئاً فشيئاً، فإن بني حسن

[1] هم الحسنة وأينما وجدت فإن فتح الله ولاسكاريس يعنيان الحسنة.

يدعمون أمن مؤخرتنا، وحراسة مخيماتنا وقطعاننا، بينما نكون نحن ذاهبين إلى الحرب، والخلاصة كنت لا أرى إلا مزايا في حل مسألة بني حسن: وسيكون الأمر خطراً جداً إذا ما انتظرنا أكثر مما فعلنا.

كان ابن الشعلان المقتنع مثلي بضرورة الإسراع في عملية مؤكدة، يحبذ الإسراع في الإقدام على غزوة واضحة يتقن تنفيذها جيداً فرسان الرولة، كان يرى تصفية ناصر ومعاونيه، وسيوافق مهنا الشيخ عند ذاك على أية شروط لاستتباب السلم.

كان لدي هنا بضعة شكوك عبرت عنها، أن مهنا الجندي القديم المعجون بالتاريخ ليس ضعيفاً ولا خرفاً أبله، إن اغتيالاً سياسياً يخفي وراءه غزوة سيصدم شرف قبيلته وما تبقى لديه من عاطفة أبوية، ويمكن للأمير الشيخ الجاهل لقوتنا أن يثور ويفقدنا وقتاً ثميناً، إن العصبة الموالية للأتراك بين بني حسن تعدّ من الأنصار أكثر مما يقدر ابن الشعلان: فقطع رأسها لا يكفي والأنسب غلبتها والتأثير على القبيلة كلها بعرض للقوة يعرف الجميع بالقوات الجديدة الحقيقية في سوريا.

ووافق ابن الشعلان، مقتنعاً بحججي لأنني عشت لدى بني حسن، على أن يحدث في هذا الشأن أمراء فدان[1] وضفير وولد علي، وكذلك الشخصيات الأقل أهمية، استدعي الجميع لموعد سري على هضبة قاحلة، بعيدة عن أي طريق أو بئر، في مكان لا يمكن لأي مدعو أن يعتبره بتعقل أرضه الخاصة، وتناوبت الولائم التي لا تنتهي مع بعض حفلات قنص، وتبودلت الهدايا، وتفرق الجميع بعد ثلاثة أيام من دون أن يبدو عليهم مظهر من حضر مجلساًن وقد قيل مع ذلك كل ما ينبغي قوله: فابن الشعلان بارع في ديبلوماسية المظاهر والأبهة هذه، ولقد حصل على موافقتهم الواحد بعد الآخر، في سلسلة من الموافقات السرية التي لم تعكّر جو الاحتفالات.

ولقد ألححت على سيطرة عددية تامة غمرني بها الرؤساء، ألف بندقية ضفيرية، وألف وخمسمائة من ولد علي ستأتي لتنضم إلى أربعة آلاف من الرولة على بعد عدة ساعات من النبك، حيث توجد أسرتي والتي ستضطرب، من دون ريب من مثل هذا التجمع، دون أن تتخيل أنني روحه، واعتذر الفدانيون[2] ببعد مخيماتهم، وعدم ضرورة إخلاء مواقعهم التي يهددها سعود دائماً من الجنوب، لقد وصل فرسانهم المائتان والخمسون متأخرين عن الحرب، وفي الزمن المحدد لسلب بضع خيام، وتقديم دليل على موافقتهم على

[1] هي الفدعان وقد أخطأ المترجم.

[2] هم الفدعانيون.

اتفاقياتنا، أما فتح الله نفسه، فقد ظهر في الساعة المحددة مع فرقته من قطاع الطرق وحثالة الصحراء الذي يعرف وحده كيف ينظمهم.

وتم كل شيء بسهولة، فجواسيسنا كانوا يتجولون بحرية في مخيمات بني حسن المفتوحة، كنا نعرف كل شيء عن القبيلة: قواتها، ومشاريعها، وتحركاتها، عهدت إلى قبيلة ولد علي بالهجمات الأولى وبأمر تصفية ناصر: ولقد جلبوا إليّ بسرعة معطفه المدمّى، الهدية القديمة من أحد العثمانيين.

اندفع مهنا عندئذ، وكما توقعنا، نحونا هائجاً، هازئاً بتراجعاتنا التي تجذبه دائماً باتجاه الصحراء، وهكذا وجد نفسه صباح ذات يوم أمام رماة البنادق من قبيلة ضفير المختبئين وراء بعض الصخور، ففقد كثيراً من رجاله، واندفع نحو اليمين، وخمن في سهل خصب من بعيد البقع السود على أنها قطعان مواشينا، إلاّ أنها كانت الفرق الرولية التي شكّلتها على هيئة مربع كما فعلنا في العام السادس قرب الأهرامات، إلا أن فرسان بني حسن لا يمكن أن يعادلوا فرسان المماليك)).

ما قاله بركهارت عن الحسنة:

وذكر الحسنة بركهارت في رحلته سنة 1224 هجرية، فمما قاله: ((هم أقل عشائر عَنْزَة عدداً، ويتألفون من فرعين، الأول الحسنة الأصليين، وشيخ هذا الفرع مهنا، ينزل البادية عادة شرقي طريق دمشق – حمص، إن شجاعة الحسنة وكرمها وقراها الضيف مما يضرب به المثل.

والفرع الثاني المصاليخ يتبعون لواء المهنا. ويقال: أن الحسنة كانت عشيرة واحدة ثم تجزأت بين أخين[1].

إن الحسنة والمصاليخ يأخذون أتاوات من القوافل المارة من الشام إلى العراق، كما يأخذون خوات من القرى المتطرفة)). هذا ما قاله بركهارت منذ مائة وثمانين عاماً.

ما قاله إسكندر الحايك عن الحسنة:

ومن المتحدثين عن الحسنة، اسكندر يوسف الحايك اللبناني مؤلف كتاب (رحلة في البادية)، يذكر فيه انه التقى بالشيخ محمد الملحم في براري القريتين في نيسان سنة 1914م ولبى دعوته إلى مضارب عشيرته، فيقول:

[1] ربما يكون هذا قد حدث في عهد عبد الله الفاضل وأخيه مهنا والله أعلم.

((وقد استقبلنا كوكبة من الفرسان، بأهازيج الطرب وأناشيد الفرح، وكان جميعهم يرددون بالصوت الواحد: (يا مرحباً بالضيوف يا مرحباً)، وما هي إلا هينة حتى شرعوا بألعاب رياضية تذهل اللباب، وأهم ما يذكر حركات الخيل، حين تهاجم الفرسان فأنك لترى الجواد مسرعاً من تلقاء ذاته إلى الموقع الملائم براكبه، فإنه يدرك ما يجب عليه لتوفير العناء على الفارس.

لم أر بين هذا العدد العديد من الفرسان من يمسك بيده لجاماً أو رسناً، بل كان كل منهم يلاعب فرسه ويديرها بإشارة يفعلها بسيفه أو بندقيته أو رمحه، لأن كل من الفوارس يحمل هذه الأسلحة وعلى صدره كمية كبيرة من الخرطوش، والسيف على جنبه، والبندقية في كتفه، والرمح في يده الشمال، ممدود عرضاً على السرج، ومنهم من يضع البندقية بين أذني الفرس سانداً إياها على رأسه، والفرس يركض ورأسه لا يتحرك، ومنهم من يضع الرمح على السرج عرضاً متوازناً، فلا يقع رغم كثرة الألعاب، وسرعة الحركات واختلافها، وكثير منهم يدورون تحت بطن الفرس، ثم يعودون إلى السرج، بينما الفرس تسير بسرعة البرق، ومنهم من يطرح السيف على الأرض والفرس تنهب الأرض نهباً، ثم يأخذه بقبضته، ومثل هذه الألعاب كثيرة مدهشة، أجروها أمامنا وأكدت لنا أنهم بالحقيقة أمهر الفرسان)).

ما قاله وصفي زكريا عن الحسنة:

وذكرهم الأستاذ أحمد وصفي زكريا في كتابه (عشائر الشام)، فقال: ((وعشيرة الحسنة على قلة عددها وقصر ثروتها، وانصرافها للاستقرار والتحضر، وامتلاك القرى والأرض قرب مدينة حمص، لا تزال تعد من أجلّ عنزة قدراً ورهبة جانب، ذلك لما لها في المعارك السابقة من صفحات خالدة)).ا.هـ.

ويقيم الآن القسم الأعظم من الحسنة في سورية في مدينة حمص وبعض القرى المجاورة لها، أما القسم الآخر فيقيم في المملكة العربية السعودية في مدينتي الرياض والقريات، وقليل منهم في جدة، وقد حدث تحول كبير من البداوة إلى الحضارة لدى الحسنة وغيرهم من العشائر في المملكة العربية السعودية في فترة زمنية تستحق لقصرها الإكبار والإعجاب، وذلك بفضل ما تبذله حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، وولي عهده الأمير عبد الله بن عبد العزيز، من رعاية وعناية نحو شعب المملكة، الأمر الذي جعلها مضرب المثل بين جاراتها من الدول المجاورة.

يبدو هذا واضحاً بمقارنة بسيطة بين حال من نالوا شرف المواطنة من العشائر في المملكة العربية السعودية، وبين من لم ينالوه بعد من المتبقين منهم في بلاد الشام والعراق، ففي الوقت الذي أنهى فيه

جيل من الفئة الأولى تحصيلهم الجامعي نرى أقرانهم في الجيل نفسه من الفئة الثانية لا يزالون يعانون الجهل والفاقة.

أما المصاليخ فقد عادوا في الستينات من القرن العشرين الميلادي إلى منبتهم في شبه الجزيرة العربية وهم الآن جميعاً يحملون الجنسية السعودية.

والجدير ذكره أن الأسرة الحاكمة في المملكة العربية السعودية تنتمي إلى هذا الحي من قبيلة عنزة، وينتسب المصاليخ إلى جدهم: حسن بن صاعد بن منبه بن وهب بن عامر بن رفيدة بن عنز بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، على ما جاء في جمهرة النسب لابن الكلبي كما سنذكره لاحقاً بإذن الله.

وقد اشتهر المصاليخ بالحمية وسرعة النجدة وشعارهم في الحرب (الصواعد) نسبة إلى جدهم وجد الحسنة صاعد، ومن الإنصاف القول: أنه كان لهم دور حاسم في معارك الحسنة مع القبائل التي واجهتهم في أثناء زحفهم من شبه الجزيرة العربية نحو بلاد الشام، لما كان عليه المصاليخ من قوة عددية هائلة، ولما برز منهم من فرسان أبطال لا يشق لهم غبار، ولا يجارون في ميادين القتال، وعلى رأسهم الشيخ: قعدان بن أعيش فارس بني وهب وحامي ذمارها، والملقب (أبو شاربين) إذ كان شارباه يمتدان حتى اذنيه، ويقال أنه أزاح خيل الحسنة عن مواقعها في مواجهة مسلحة بين الحيين كادت تؤدي بهما إلى الهلاك لولا أنها لم تدم طويلاً.

ولم تضعف قوة الحسنة إلا بعد أن دب الخلاف بينهم وبين أبناء عمهم المصاليخ في عهد علي بن عبد الله الفاضل، وقعدان بن أعبش، رئيسي العشيرتين حينذاك، والرواة من الحسنة ينحون باللائمة على علي في خلق أسباب ذلك الخلاف وتأجيجه.

وكانت رئاسة المصاليخ وما زالت في أسرة الإعيش، ويمثلهم الآن: مشهور الإعيش، وهو ضابط سابق في الجيش العربي الأردني، ثم انتسب إلى الحرس الوطني في المملكة العربية السعودية ثم أحيل على المعاش برتبة عميد، ويقوم الآن مقام العمدة كممثل لعشيرته لدى السلطات المسؤولة في المملكة العربية السعودية.

ومن المصاليخ فرعٌ مازال في سورية يقال لهم آل عرابي، وكان هؤلاء قد أضاعوا نسبهم فترة من الزمن، لسكناهم في الحضر، ثم اهتدوا أخيراً إلى أبناء عمهم المصاليخ فاعترفوا بانتسابهم إليهم، ويقيم قسم منهم في مدينة حمص، والقسم الآخر إلى الجنوب منها، في قريتي شمسين والحسينية ويبلغ تعدادهم عشرات

الرجال، ويعمل جلّهم في الزراعة، ويمثلهم عند الحاجة خالد بن محمد سعيد عرابي، وذيب بن حسين عرابي، ويقول آل عرابي أن تسميتهم بهذا الاسم جاءت حين انتقل جدهم من البدو إلى الحضر فأسموه الحضر الأعرابي، ثم حرفت إلى عرابي وأخذوا يعرفون بهذا الاسم والله أعلم.

أعـــلام

في

تاريـــخ الحســـــنة

أعلام في تاريخ الحسنة

لقد آن لأخبار أولئك الرجال الأعلام الذين حموا العرض، وصانوا الكرامة، وذادوا عن الحمى، أن تنتقل من صدور الرواة – بعد أن مكثت فيها مئات السنين – إلى صفحات التاريخ ليخلدوا بين دفتيه تقديراً لشجاعتهم ومجيد أفعالهم.

وينبغي أن نعلم أن ما وصلنا هو بعض أشعارهم وأفعالهم وليس جميعها بكل تأكيد، وفي هؤلاء قلت في لحظة من لحظات الذكرى والتلفت إلى الوراء:

قمت أتفطن وين طلقين الإيمان — أهل البويضا كاسرين الدبيلة[1]

وين الرفاشي والمحزم وشامان — أقفت بهم سمر الليالي محيلة[2]

وين السلف يتلا جديع ابن قبلان — ستر العذارى ناقضات الجديلة

وين عقل ابن عساف حماي الأظعان — ستر الجهامة ليا غشتها الدبيلهْ

وين الغلام[3] اللي عفتها بالأعنان — والشيخ ينخى والصواعد[4] مصيلهْ

بساعةٍ ذعر بها الخيل قعدان[5] — والسيف توحي بالمدرع صليلهْ

هزاع نداس المناعير[6] بالزانْ — المقبلي غطى على كل جيلهْ

ليا صار عند قطيهن[7] منع وطعان — وتخاربت بين العميل وعميله

راحوا كما غيمٍ تعدى ومعد بان — ولعاد برقه من بعيد نخيله

يا خوي ما منا عن الموت منصانْ — ولا بيدنا من جور الأيام حيلهْ

ولّي يا دنيا من تجر بيك خسرانْ — ومشيلٍ لو طال عندك نزيله[8]

---

[1] الدبيلة: مجموعة الخيل المغيرة، وأهل البويضا: الحسنة.

[2] هم: دبجان الرفاشي، ومحمد الفيصل الملقب المحزّم، وشامان بن صفوق الملحم.

[3] هو هزاع المقبل.

[4] الصواعد: هم أبناء صاعد (الحسنة والمصاليخ)، ومصيلة: هاجمه.

[5] هو شيخ المصاليخ قعدان بن يعيش فارس بني وهب وحامي ذمارها.

[6] رؤوس القوم، والزان عود المرح.

[7] قطيهن: جمع قطاة وهو مؤخرة ظهر الفرس أو موضع الردف منها والضمير عائد للخيل.

[8] أقامته.

إن هؤلاء جميعاً ومن قبلهم باتوا في ذمة الله، نفذ فيهم أمره، ومضى فيهم قضاؤه، فأصبحوا في باطن الأرض بعد أن كانوا في ظاهرها، وصدق الله تعالى إذ قال:﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[1].

فأما الخلق والإعادة فقد نفذ فيهما أمر الله وسنته في خلقه، وأما الإخراج منها فآت لا ريب فيه، ونسأل الله سبحانه لنا ولهم المغفرة والرحمة، لأنهم – والله أعلم – ماتوا على {لا إله إلا الله}.

[1] سورة طه – الآية 55.

عبد الله الفاضل:

هو عبد الله بن فاضل بن حمد بن ملحم المزيد، ولد في شبه الجزيرة العربية قبل هجرة الحسنة إلى سورية، وعند قدوم المنابهة من شمال شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام كان عبد الله شاباً في مقتبل العمر، وكانت رئاسة عشيرة الحسنة لأبيه فاضل، وبعد أن استقر بهم المقام في بادية الشام، وأصبحت لهم السيادة عليها، تقدموا شمالاً حتى ضفاف الفرات، واستلم عبد الله رئاسة العشيرة بعد أبيه، وكان فارساً وشاعراً، ولا تُعرف المدة التي بقي فيها شيخاً، ولكنه أصيب بمرض الجدري وهو لا يزال في شبابه، وكان هذا المرض خطيراً ومخيفاً لاستحالة علاجه، والبدو يخافونه كثيراً لأنه يؤدي في أكثر حالاته إلى الموت، لذلك فإن من يصاب منهم به يبنون له بيتاً بعيداً عن الحي ويتردد عليه من اكتسب مناعة من هذا المرض منهم، ولكن ما جرى لعبد الله الفاضل كان أكثر من هذا.

فبعد أن أفردوه بعيداً عن مضاربهم في بيت صغير اضطروا إلى الرحيل، لأن البدو بحاجة دائمة إلى البحث عن الماء والمرعى، فإذا فُقِدا كان لا بد من الانتقال إلى حيث يوجدان، وهكذا رحل القوم وتركوا شيخ العشيرة وشاعرهم في غيبوبته وحيداً يعاني حمى الجدري لا يؤنسه سوى ربابته المعلقة بعمود البيت وكلب صيد له اسمه (شير)، رفض المسير مع القافلة، وبقي يشارك صاحبه محنته ويؤنس وحدته، وقد أعجبت القوم هذه الإلتفاتة من شير، وقالوا لعله يحميه من الوحوش ونحروا له جزوراً قريباً من الخيمة، وفي رواية أنهم أبقوا معه رجلاً من عبيدهم، ولكنه لحق بهم وقال لهم أن عبد الله قد مات.

ولما أفاق عبد الله من غيبوبته، ولم يرَ عنده أحداً سوى الكلب شير والجزور المذبوحة، أدرك كل شيء، وعرف أن أهله وعشيرته قد ارتحلوا وتخلوا عنه، فأخذ يخاطب كلبه قائلاً:

هلك شالوا على مكحول[1] يا شيرْ	**وخلو لك من عظام الحيل[2] يا شيرْ**
لو أنك تعوي براس كل حزم[3] يا شيرْ[4]	**هلك مـا عـاد لك منهـم رجـا**

وهكذا كلما أفاق من سكرة الحمى واستطاع الكلام، تفجرت على لسانه أبيات العتابا الحزينة التي يصف بها حاله وحال شير ويعاتب فيها أهله وعشيرته.

---

(1) هو البعير.

(2) الإبل التي ليس في بطونها حمل.

(3) المرتفع المستطيل من الأرض.

(4) هو كلب صيد عبد الله الفاضل.

ويشاء القدر أن يمر به رجل من عشيرة صليب، وكان من عادة هذه العشيرة الاعتناء بمن يجدونه مريضاً من باقي العشائر، ويهدون من يجدونه ضالاً إلى الطريق، فأقام الرجل عند عبد الله يعتني به ويداويه حتى تماثل، وأخذت صحته تعود إليه شيئاً فشيئاً، ولما استطاع السير حمل ربابته ونادى كلبه وجال في ديار العشيرة مودعاً مرابط الخيل، ومبارك الإبل، ومجالس الرجال في الربعة، وحفرة دلال القهوة... الخ.

هناك ودّع عبد الله كل شيء، وتذكر كل شيء، فهنا كان يجلس وهناك مربط فرسه، وهنا كان يقف العمود الذي يعلق عليه سيفه، كل هذه الصور كانت تتراءى له حية حاضرة في ذاكرته، ووقف حتى تعبت قدماه ثم غادر الديار ولكن إلى أين؟ هو نفسه لا يدري ولكنه عقد العزم ألا يعود إلى أهله أبداً، ولا يسأل عن القوم الذين تخلّوا عنه في محنته، وكان الجدري قد غيّر ملامح وجهه، وطمس معالم الجمال فيه فأصبح كخشبة نخرها السوس، وبات من الصعب جداً التعرّف عليه.

فأخذ ينتقل بين العشائر يمدح رؤساءها، ويفخر بأهله معدداً مناقبهم الحميدة من كرم وشجاعة ونجدة، وكثيراً ما كان يفخر بهم على ممدوحيه، واتخذ من العتابا أسلوباً لشعره، ومما قاله:

هلي ما لبسوا الخادم سملهم[1] وإن كادوني العدى أهلي سم الهم[2]

إن كان أهلك نجم هلي سما لهم[3] وكثير من النجم غرب وغاب

أو قوله: هلي ما قلطوا الميدات بصحون... الخ.

ولا نعرف المدة الزمنية التي ساح بها عبد الله الفاضل كشاعر ربابة بين العشائر، ولكنه في نهاية المطاف يهزه الشوق إلى معرفة أخبار أهله وأحوالهم بعده، فهم وإن تخلوا عنه في محنته، فإنهم ما زالوا أهله، ولا يعلو على محبة الأهل شيء، والشاعر يقول:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام

وبدأ رحلة العودة متنقلاً من عشيرة إلى عشيرة، سائلاً عن أهله متقصياً أخبارهم، فيعلم أنه استقر بهم المقام قرب حمص وحماه، ويجدّ السير باتجاه ديرة الشنبل، ويصل بعد طول جهد إلى نجع الحسنة، وقبل أن يدخل الحي وقف على مكان مرتفع وأجال النظر في البيوت المتراصة على امتداد السهل وكان المنظر ذا شجون بالنسبة إلى عبد الله، فقد تعوَّد أن يطل مثل هذه الإطلالة، إما عائداً من غزوة منتصراً فيها يطلق

(1) ثيابهم البالية.

(2) السم القاتل.

(3) سماء لهم.

الأغاني خلف المكاسب والخيل تلعب بالفرسان، وإما عائداً من ريادة أرض حاملاً لأهله البشرى بالمرعى الخصيب والماء الغزير، وإما عائداً من الطلب في إثر غارة للأعداء شنّت على إبل قومه فيلحق بها في أول سرية من خيل الحسنة فشتت شمل الأعداء واستعاد الإبل منهم، على مثل هذه الصورة كان يعود عبد الله إلى النجع.

أما الآن فقد اختلف الأمر كثيراً، وعاد عبد الله لا يحمل سيفاً ولا يركب فرساً، ولا تحيط به الفرسان من كل جانب، لقد عاد وحيداً عارياً من السلاح بنعلين قديمين وثياب رثة وربابة عتيقة تحت إبطه، ووجه طمس الجدري معالمه وأطفأ بريقه.

ولم يجد عبد الله صعوبة في معرفة بيوت الحي، فبدت له وكأنه تركها لوقته فذاك بيت فلان، وذاك بيت فلان، وذاك بيت أبيه فاضل يرتفع شامخاً وسط النجع.

استغرقت تلك الوقفة دقائق طويلة من وقت الشيخ الشاعر، استعاد فيها كل ذكريات الماضي منذ نشأته الأولى في هذه العشيرة وطفولته وشبابه وقيادته لها، إلى أن أصيب بالجدري فتركته في ديارها، وارتحلت عنه، وعذابه ومعاناته في مرضه، وتنقله بين القبائل شاعراً مغمور النسب، وما عاناه في هذه الرحلة الطويلة من جوع وتعب وحرمان، فتفجر الحقد في صدره وقال في نفسه: (بئس العشيرة أنتِ وبئس القوم قومي هؤلاء الذين باعوني بلا ثمن).

وحدَّث نفسه: هل يكتفي بهذه النظرة عن بعد ويعود من حيث أتى ليواصل الرحلة من جديد؟ أم يدخل وسط الحي فيرى الناس عن كثب وينظر إلى الوجوه التي طال اشتياقه إليها؟

كان القرار صعباً على الغريب العائد إلى الأهل بعد طول غياب، وتردد كثيراً قبل أن يخطو إلى الأمام، وأخيراً تقدم ودخل الحي، وكلما مرّ أمام بيت عرف أصحابه، إلى أن توقف في النهاية أمام ربعة بيت أبيه فاضل، فوجدها ملأى بالرجال الذين يعرفهم جيداً واحداً واحداً، وفي وسط المجلس حفرت حفرة كبيرة أوقدت فيها النار وصفَّت فيها دلال القهوة.

ويقف عبد الله أمام الربعة ويلقي السلام على الرجال فيرد بعضهم السلام وبعضهم لا يرد، وارتفع صوت العبد قائلاً: اجلس يا شاعر العرب، ولكن أين يجلس الشاعر الشيخ ولم يفسح أحد له في المجلس، إنها المرة الأولى التي يدخل فيها عبد الله هذه الربعة ولا يقام له، ويعتريه الغضب ويوشك أن يصرخ في القوم قائلاً: ويحكم! لماذا لا تقومون؟ أنا شيخكم عبد الله، ولكنه ابتلعها بصبرٍ وألمٍ حزين، ولو أنه يريد المقام في العشيرة ويريد أن يعرفوه لقالها، ولكنه عقد العزم على التخلي عنهم كما تخلوا عنه، وهو يعلم أنه سيغادرهم بعد وقت

قصير، فجلس حيث كان واقفاً تحت شفا البيت وتوسد النثيلة ووضع ربابته إلى جانبه، وبعد استراحة قصيرة قال له أحد الحضور: أسمعنا صوت ربابتك أيها الشاعر، وردد عبد الله العبارة بينه وبين نفسه وكان وقعها عليه أليماً ثقيلاً، فهو بالأمس القريب كان سيداً في هذا المجلس ينشده الشعراء ويأتي إليه ذوو الحاجات، ويتودد إليه كبار القوم، وهو الآن دون ذلك بكثير، إنه الآن شاعر مجهول يُطلب إليه أن يدخل السرور على قلوب الحاضرين بغنائه على ألحان ربابته.

ولم يرفض عبد الله الطلب، فاستوى في جلسته متربعاً، وأمسك القوس بيدٍ والربابة بيد، وأمرّ القوس على الوتر، ولاعبت أنامله الوتر بمهارة ودقة فجاء لحناً جميلاً عذباً شد إليه انتباه الحاضرين، وأمسك من كان يتكلم عن الكلام، واتجهت الأنظار نحو هذا الشاعر مشدوهة بعزفه الفريد الذي لم يسمعوا مثله منذ زمنٍ طويل، وهنا يسمع عبد الله صوت ابنته الصغيرة (درجة) في الطرف الآخر من البيت تنادي أمها، فارتفع صوته معانقاً صوت الربابة، وقال:

سمعنا بالمجالس حس[1] درجا[2] لعين[3] ألِ حجلها على الساق درجا[4]

ولا من يقول يا مسكين درجا[5] تقدم عالوسادة عن التراب

وخيّمت على المجلس سحابة من السكون والصمت العميق، وبينما القوم على هذه الحال، ينظرون مشدوهين إلى الشاعر وربابته، ارتفع في الطرف الآخر من البيت زغرودُ امرأةٍ جميلٌ مزّق السكون الذي خيم على المجلس، فقام أحد الرجال يسأل عن السبب الذي من أجله زغردت المرأة، فأجابته أن هذا الشاعر هو عبد الله الفاضل، فاستلَّ الرجل سيفه في وجهها، وقال لها: عشقت الشاعر أيتها الحمقاء، فأقسمت بأنه عبد الله وأنها تتحمل النتائج إذا كانت كاذبة[6].

وساد الهرج والمرج في المجلس، وتراكض بعض أهالي الحي القريبين من بيت فاضل نحوه يستطلعون الخبر، واتجهت الأنظار كلها نحو الشاعر وركض بعض الرجال نحوه وكلٌّ يحاول أن يتعرفه على طريقته الخاصة:

---

[1] صوت.

[2] ابنته الصغيرة.

[3] من أجل.

[4] ملفوف.

[5] استدر إلى هذه الجهة.

[6] يقال إن المرأة كانت زوجة عبد الله وأنها عرفته من طريقة عزفه على الربابة.

فهذا يرفع منديله، وذاك يسأله: أحقاً أنت عبد الله؟ وآخر يقترب منه ويفحص جيداً وجهه وعينيه... والحقيقة أن الجسم جسم عبد الله والصوت صوته واليدان يداه ولكن الوجه ليس وجهه ولا العينان عيناه. وهنا تكلم الشاعر وقال لهم: اجلسوا في أماكنكم وأنا أقول لكم الحقيقة، فامتثل القوم للأمر وانتظم المجلس كما كان، وانتظر الجميع بأعصاب مشدودة ماذا يقول الشاعر؟ وتكلم الشاعر قائلاً: ((أنا عبد الله الفاضل، ومصداق قولي إني أعرفكم جميعاً، فذاك فلان، وذاك فلان، وأنت فلان، وسمّاهم كلهم بأسمائهم، والمرأة التي زغردت هي زوجتي فلانة والطفلة التي أسمع صوتها في الركن الآخر من البيت هي ابنتي درجة)).

ولما لم يترك كلام الشاعر مجالاً للشك في أنه حقاً عبد الله، اندفع الرجال نحوه يقبلونه، وعلت زغاريد النساء، واجتمع أهل الحي صغاراً وكباراً فرحين ومهنئين بعودة شيخهم وفارسهم الذي طال غيابه وظنوه فارق الحياة، وها هو الآن بينهم بلحمه ودمه شامخاً بقامته الفارعة.

وفي غمرة هذا الفرح والابتهاج يحمل عبد الله ربابته، ويخرج من البيت معلناً أنه عقد العزم على عدم العيش معهم، وأنه سيتخلى عنهم كما تخلوا عنه، ولكن شتان بين الحالين، فهو الآن يرحل عنهم وهم أقوياء أصحاء في أهلهم وعشيرتهم، وهم تخلوا عنه وهو ضعيف وحيد بين الموت والحياة، وتمسك به الرجال من كل جانب يشدونه ويتوسلون إليه ليبقى بينهم وهو يدفعهم ويتفلت من بين أيديهم، والنساء يمشين خلفه وينادينه قائلاً: لا تتركنا يا عبد الله.

ولكن كلام القوم وإلحاح نسائهم ورجالهم لم يمح ما خلفته المحنة في صدر عبد الله الفاضل ولم ينسه عذابه ومعاناته، فأصم السمع عن كل ما يقال، وشد نفسه من أيدي الرجال واندفع بخطواتٍ سريعة خارجاً من الحي غير عابئ بما يسمع من توسلاتٍ وصيحات.

ولما عجز القوم عن صده عن عزيمته، وقفوا ينظرون إليه حتى غاب عنهم في الأفق البعيد، ويقال أنه ظل يجدُّ السير حتى وصل إلى دمشق، وسكن فيها.

وعبثاً حاول الحسنة استرضاءه وإعادته إليهم، ولما أعيتهم الحيلة ساروا إليه ومرروا الأظعان أمام منزله والفرسان تلاعب الخيل أمامها، وتركوا ظعنه في المؤخرة تبدو عليه سمات الفقر والحزن فلا زينة على هوادج النساء، ولا حاد يحدو الظعن، والنساء يسرن خلفه حافياتٍ حزينات.

ولما رأى عبد الله ما وصل إليه أهل بيته من ذلّ ومهانة اهتز كيانه واستجاش المنظر كوامن عاطفته، كذلك فإن منظر الفرسان تلعب بالقنا على ظهور الخيل، وصيحات الحرب التي يطلقونها وعمليات الكر

والفر التي مثلها فرسان الحسنة أمامه ليغروه بالانضمام إليهم، أثارت في نفسه الشوق إلى هذه الألعاب المحببة إليه، فانضمَّ إلى الظعن وقاده في أثر القافلة.

ولما رأى الحسنة أن عبد الله قد انضم إليهم، عاد إليه السلف فرحين مهنئين وأعطوه فرساً وسيفاً وسار في مقدمة الخيل وسط أهازيج الفرسان وحدائهم، وعاد كما كان شيخاً للعشيرة وعقيداً لخيلها.

ولكنه عقد العزم أن يذهب بهذه العشيرة كل مذهب، وينهكها بالغزوات حتى يقلل عددها ويشتت شملها، فأخذ يغزو بها كل فخذ على حدة نحو قوم لا طاقة لهذا الفخذ بهم فيعود من الغزو وليس معه إلا القليل منهم، ثم يغزو بفخذ آخر قبيلة أخرى، وهكذا ظل يفعل بهم حتى كادت تفنيهم الحروب والغزوات، وأصبحوا أقل عشائر عْنِزَة عدداً، وسواء أكانت هذه القصة حقيقة أم لا، فمن المؤكد أن سبب قلة عدد الحسنة هو حروبهم التي لم تنقطع مع خصومهم ومقارعتهم الأعداء المحيطين بهم من كل جانب.

وقد اختلفت الآراء حول ما نُسب إلى عبد الله الفاضل من العتابا، فبعضهم ينفي أن يكون هذا النوع من القصيد من نظمه، ودليل أصحاب هذا الرأي هو: كون عبد الله ولد في شبه الجزيرة العربية، ولم يكن معروفاً عندهم هذا النوع من الشعر، ثم أنه كان في عشيرة الحسنة فرسان شعراء معاصرين لعبد الله الفاضل، فلم يروَ عن أحدٍ منهم أنه نطق بالعتابا أو تغنى بها، ثم إن عبد الله عندما عاد إلى أهله بعد شفائه بهيئة شاعر قبل أن يعرفوه يقال أنه تغنى بالعتابا، فلماذا لم يتغنى بالقصيد البدوي الذي يفهمونه، وخاصة أنهم حديثو عهد بالهجرة من شبه الجزيرة ولا يعرفون العتابا، ولا يستسيغونها، وحتى لو فرضنا جدلاً أن بعض الخاصة منهم يفهمونها أو أنهم سمعوا بها، فإنه من المؤكد أن العامة لا يعرفونها ولا يطربون لها، كل هذه التساؤلات تجعلنا نشك في صحة ما نسب إلى عبد الله من العتابا ويبقى من المرجح أمران:

أولهما: أن شاعراً اسمه عبد الله الفاضل برز في هذا النوع من الشعر، واشتهر اسمه في بلاد العراق وفي شمال شرق سوريا، ولما وصل ما نسمعه من هذه العتابا إلى بلاد حمص وحماه ظن الناس أن قائلها هو عبد الله الفاضل الملحم فنسبوها إليه، وأنا أرجح هذا الاحتمال كون الشاعر عبد الله الفاضل من شعراء العتابا الأوائل في العراق، وهو معروف حتى الآن من قبل المشتغلين بهذه الصنعة، ويسمونه في العراق بيطار العتابا، فإذا علمنا أن تجوال صاحبنا عبد الله الفاضل كان في سوريا وفي منطقة الجزيرة تحديداً، وأن أكثر من زارهم ومدحهم هم من رؤساء البدو الذين لم يعتادوا سماع العتابا ولا يطربون لها، يُعزز الشك لدينا في أن هذه العتابا من نظم عبد الله الفاضل الملحم.

ثانيهما: أن شاعراً للعتابا سمع بقصة عبد الله الفاضل واستوعبها بمراحلها الدقيقة، ثم نظم هذه الأبيات حسب مراحل القصة ونسبها إليه، وهذا ما نراه كثيراً في القصص الشعبية على نحو ما كتب في قصة محمد الملحم بعد اعتقاله من قبل الأتراك، والقصائد التي نسبت إليه فيها، وهي بعيدة كل البعد عن شعر محمد الملحم وليست من نظمه.

وما نراه من أشعارٍ دسَّت في قصة عنترة والمهلهل وسيرة بني هلال، يعزو فيها مؤلفوها هذه الأشعار إلى أصحاب هذه القصص، خير مثال على ذلك.

ثم إن التخلي عن عبد الله الفاضل بهذه السهولة والبساطة وعلى تلك الصورة الحزينة المؤسفة، وهو رئيس العشيرة وشاعرها وفارسها وقائد خيلها، أمر يدعو للاستغراب ويحتاج إلى كثير من التفسير، وإلَّا كيف يترك على تلك الحال من هو سيد في قومه؟.

فهل عجز القوم عن إيجاد رجل منهم أصيب بمرض الجدري، فاكتسب مناعة ضده ليداوي شيخهم ويجلس عنده؟

ولنفرض أنهم اضطروا للرحيل، ونحن معهم في ضرورة الانتقال لأن ذلك أمر تقتضيه ضرورة الحال التي هم عليها دائماً، ولكن هل عجزوا عن حمله على بعير يسير به خلف الأظعان، بعيداً عنهم حتى إذا أقاموا ابتنوا له بيتاً وآووه فيه؟.

إن أكثر من سؤال يدور في خاطر المرء حين يسمع قصة عبد الله الفاضل، وكلها تقوده إلى استنتاج واحد، هو أنه كان في النفوس أشياء من عبد الله، قد يكون أحدها قتله لعقل العساف (ستر الجهامة)، لأنه مما لا ريب فيه أن ذهاب عقل خلّف جراحاً في القلوب، وترك فراغاً في الحسنة لا يملؤه سواء، إلى جانب أشياء أخرى لا يعلمها إلا الله، ثم الذين عايشوا عبد الله الفاضل وعاصروه من الحسنة.

ثم جاء هذا الجدري من الله، فوجدوا فيه حجة لهم للتخلص منه ربما فرك لها ببعضهم الأكف.

أما أن يكون سبب التخلي عنه الخوف من العدوى فحسب! فهذا ما لا أراه كافياً ولا مقنعاً لذي لبٍّ من الناس، والله أعلم.

عقل بن عساف (ستر الجهامة):

لا ندري هل العساف هو اسم لأسرته أو أنه اسم لأبيه، إلا أن آخر من بقي من أسرته يقال لهم الآن: العياش، وكان آخرهم: عبيد العياش، ومنه جاء دعاس بن عبيد العياش الذي ولد له عدد من الأبناء، سنأتي على ذكرهم بالتفصيل عند حديثنا عن نسب فخذ الجهيم إن شاء الله.

كان عقل بن عساف صاحب أقوى ساعد في عشيرة الحسنة ومن فرسانهم وشجعانهم الأشداء، وكانوا يلقبونه (ستر الجهامة)، لأن وجوده في الحي كان يجزئ عن خيل الحسنة بكاملها.

والجهامة هي الأظعان محمول عليها المتاع فوقها الظعائن، وتطلق عادة على أظعان العشيرة مجتمعة أثناء المسير، والستر مأخوذ من الستار، فأنت تستتر من أحد ما بأن تضع ستاراً بينك وبينه، أو أن تلبس ثوباً تستر به عورتك، فإذا ما أغارت خيل الأعداء على الجهامة، فإن الإبل تراع وتنفر، فتقع النساء على الأرض وقد تكشف عوراتها، فإذا كان عقل بن عساف معها، فإنه يكون بمثابة الستر للظعائن والأظعان، فلا تستطيع خيل الأعداء الاقتراب منها، ومن أجل ذلك سموه (ستر الجهامة).

إلا أن شجاعة عقل وقوته وثقته المفرطة بنفسه، جعلته يعتدي على حق غيره من أبناء عمه، فسكن بيتاً في بلدة تدمر، ومنع عبد الله الفاضل رئيس العشيرة يومذاك من أخذ الخوة من تدمر واستقل بها لنفسه، وكانت تدمر أختاً لأسرة الملحم، وقد بذلت المساعي الكثيرة للحؤول دون هذا الأمر، ولكنه رفض تلك المساعي جميعاً واستخف بعبد الله وبمن حوله، واعتدى على جاره وضيفه.

ولما عجز عبد الله عن إيقاف عقل عند حدّه بالقوة، استعان بجدوع الغريان أحد فرسان الحسنة وبطل من أبطالهم، فقال له جدوع: احمل أنت وعبيدك على عقل وأنا خلفكم، فإذا لم تستطيعوا النيل منه حملت عليه أنا، فجهز عبد الله رجاله وسار بهم إلى منزل عقل، فلما أحس بهم عقل استل السيف وحمل عليهم، فانكشف الرجال عن عبد الله وأصبح وجهاً لوجه أمام عقل، وفي اللحظة التي كان يهم بها عقل للفتك بعبد الله كان جدوع الغريان قد أخّر رجلاً وقدم الثانية ورفع الدبوس(1) بيمينه وبكل ما أوتي من قوة قذف به رأس عقل، فهشمه وسقط ستر الجهامة ميتاً على درج بيته مضمخاً بالدماء.

ولا ندري لماذا اختار جدوع هذا النوع من المبارزة بينه وبين عقل، أتراه لم يكن واثقاً من التغلب عليه في ملاقاة بالسيف وجهاً لوجه؟ لا ندري.

---

(1) هو كرة حديدية بحجم قبضة اليد لها ذراع خشبية طولها نحو شبرين يستعملها الفارس في القتال القريب أو يقذف بها خصمه عن بعد.

وهكذا انتهت حياة عقل العساف ستر الجهامة وحامي الأظعان والظعائن، ولموته حزنت العشيرة نساؤها ورجالها، ونظمت في موته الأغاني والأشعار الكثيرة، لأنه بغى على أبناء عمه واعتدى على حقهم، فإن له في العشيرة مكانة كبيرة، فهو حاميها وسترها والذائد عنها إذا المت بها الملمات.

وأخذ عبد الله ينظم القصائد التي يعتذر فيها من العشيرة ومن أبيه فاضل، ويسوغ قتل عقل معدداً الأسباب والتجاوزات التي كان يمارسها عقل، والإهانات التي كان يوجهها له، ومنها الاعتداء على ضيفه وإهانة من بجواره، وآخرها تجاوزه على حقه في الخوة واستقلاله بها، ولا نعلم من اعتذارياته إلا بضعة أبيات يقول فيها:

الأولة يا أجواد خمسة دمحناه[1]	**وخمسة كميناهن[2] وهن بينات**
والثانية ضيفي على الحق مشّاه	**والضيف يا أجواد من المحصنات**
والثالثة مقرونة[3] أختي[4] تغطاه[5]	**ونسف طرفها فوق زيق[6] العباةِ**
والرابعة ولد قصيري تعشاه	**وخلا حريمه بالنزل صايحاتِ**
والخامسة بنت الكحيلة مغذاة	**برطل بها الحكام صدقٍ ثباتِ**

ثم يعدد أخطاءً ارتكبها عقل بحقه، وفي النهاية يقول:

دمحتهن[7] حتى تمكنت بهواه	**وجليت عن صدري صدا المزمناتِ[8]**
قنصت[9] بحرٍ[10] تدفق السم يمناه	**يا قانص بالوكري[11] من النادماتِ[12]**

---

[1] خمسة تجاوزات قام بها عقل.

[2] أخفيناهن.

[3] المنديل (الكوفية).

[4] هي بلدة تدمر.

[5] جعلها غطاء.

[6] الطرف العلوي من العباءة مما يلي الكتفين والرقبة وهو (الجيب).

[7] تجاوزت عنهن.

[8] الأعوام الطويلة (السنون).

[9] استنصرت.

[10] الصقر ويعني به الذي قتل عقل.

[11] الصقر الذي يلتقطه الصياد صغيراً ويتعهده حتى يكبر ويسمونه الوكري وهذا النوع من الطيور أقل صيداً من غيره من الصقور التي تنشأ في أمهاتها وتتعلم الصيد منها.

[12] من الندامة: إذ يندم صاحب الطير الوكري عندما يطلقه باتجاه الصيد لأنه لا يأتي بصيد ثمين.

كما نرى في البيت الأول، فإن أول ما فعله عقل بعبد الله بعد أن قتل ضيفه أو أنه أهانه بالضرب، وللضيف حرمة تعادل في مكانتها حرمة المحصنات من النساء، ثم استأثر بمقرونة أخته، ويقصد بها الخوة وهي الأتاوة التي كانت لأسرة الملحم على بلدة تدمر والتي كان من جملتها (مقرونة) وهي المنديل أو الكوفية يستر بها الرجل رأسه.

ثم بعد أن ينهي تعداد أخطاء عقل يقول: إنني قد تجاوزت كل هذا، وصبرت متحيناً الفرص حتى جاءت الفرصة المواتية للانتقام، فانتقمت منه واستعدت حقي، وبذلك جليت عن صدري ما تراكم عليه من صدأ السنين الطويلة.

فيقول:

دمحتهن حتى تمكنت بهواه وجليت عن صدري صدا المزمنات

ومن يمعن النظر في هذا البيت يجد أن تحدي عقل لعبد الله والاعتداء على حقه واستخفافه به أمور طال زمنها، وأن عبد الله خلال تلك الفترة كان عاجزاً عن الرد على عقل إلى أن جاءت الفرصة المواتية لقتله، فاستعان بقريبه جدوع الغريان وهو يعنيه عندما قال:

قنصت بحر تدفق السم يمناه يا قانص بالوكري من النادمات

والحر: الصقر الذي يستخدمه البدو في صيد الأرانب والحبارى ويضرب به المثل في الشجاعة والسرعة ودقة الإصابة.

ويقال: إن فاضل المزيد – والد عبد الله – حين سمع نبأ مقتل عقل عضَّ على بنانه، وقال: آه يا ستر الجهامة، وأن عبد الله بقي زمناً متوارياً عن نظر أبيه.

جدوع الغريان:

هو واحد من مشاهير فرسان الحسنة وشجعانهم، وكان يلقب (جدوع النعاس) لأنه حين يكر على خيل الأعداء ثم يعود نحو خيله، كان يسير بجواده الهويني غير مبالٍ بالأعداء الذين خلفه، ويميل رأسه فيبدو وكأن به نعاس، ومن أجل ذلك سمي جدوع النعاس، وأمه نصره الملحم، امرأة فيها خبل تغافل النساء وتأكل خميرة عجينهن، ولذلك سميت نصره (أم الخمر) وهي جمع الخميرة عندهم، وقد أنجبت ثلاثة من الولد كلهم فرسان أشداء، وهم: جدوع وصبيح وطلاس، وكان جدوع أكبرهم سناً وأشدهم بأساً، وإن تساوى الثلاثة في الشجاعة والسجايا الحميدة.

ومن القصص المأثورة عن جدوع وإخوته، أنه كان في أحد الأيام يتقدم الظعن على ظهر فرسه، وتسير إلى جانبه إحدى أخواته على بعير لها، وحانت منها التفاتة إلى الوراء فرأت خيلاً كثيرة أغارت على ا لظعن الذي كان معه أخواها صبيح وطلاس، فلم تخبر أخاها (جدوع) بما يجري وراءها، وظلت تتحدث إليه وكأن شيئاً لم يكن، ثم التفتت مرة ثانية فرأت أن المعركة قد احتدمت عند الظعن بين أخويها والخيل المغيرة.

وكان من عادة جدوع ألا يلتفت إلى الوراء، فالتفتت الثالثة، فرأت أخويها صبيح وطلاس يخرجان الخيل المغيرة من الظعن ويستعيدانه منها تارة وتارة تغلب عليهم الخيل فتأخذ الظعن منهما، والغريب في الأمر أنه حتى هذه المرة لم تخبر الأخت أخاها بما يجري خلفهما، فانظر أي جلد ورباطة جأش كانت تتمتع بهما تلك المرأة! ويقولون: إنها فعلت ذلك لثقتها بأن في أخويها صبيح وطلاس الكفاية لصدّ الخيل.

ولم يعلم جدوع بالأمر إلاّ عندما نفرت فرسه من وقع سنابك الخيل على الأرض، عندها كر جدوع على الأعداء، ولكن بعد فوات الأوان إذ قُتل صبيح وطلاس، فهزم الخيل وقتل عدداً من الفرسان وأسر منهم ستاً وثلاثين رجلاً، ومر بعض القوم المنهزمين بامرأتين تجلسان عند رأسي صبيح وطلاس القتيلين، فسألهما من هؤلاء، فقالتا هذان اثنان من رعاة الحسنة، وكانت المرأتان أختيهما.

وبعد أن انتهت المعركة بهزيمة الموالي – وهم الخيل المغيرة – جاء جدوع بالأسرى إلى البيت فعقر لهم حقه وهيأ منها طعاماً لهم.

وجلس الأسرى في ربعة جدوع وهم ينظرون إليه بإعجابٍ، وهو يجيءُ ويذهبُ متوشِّحاً سيفَهُ ومُرحِّباً بهم، وكان الموالي أهلَ نُكتةٍ لا ينسونها في أحرج الأوقات، فقالوا لبعضهم ليتنا نرى أم جدوع فلا بد أن المرأة التي أنجبت مثل هذا ليست كغيرها من النساء، وطلبوا من جدوع أن يريهم أمه، فيستجيب جدوع

لطلب الضيوف الأسرى ويأتي بأمه، ولما أطلت عليهم نصرة (أم الخمر) راعهم منظرها، كانت عجوزاً سمراء طويلة شعثاء الشعر شديدة السمرة، قد برزت أنيابها من فمها، ليس في ملامحها ما يدل على أنها كانت تملك في صباها ذرة من جمال.

وبعد أن تناول الأسرى عشاءهم ودّعوا (جدوع) مزودين بالماء والطعام، عائدين إلى أهلهم.

كان جدوع ثالث ثلاثة من أشجع فرسان الحسنة في زمانهم وأشدهم، وهم إضافة إلى جدوع: دبجان الرفاشي، وعقل العساف، وكان دبجان الرفاشي صديقاً حميماً لجدوع وكل منهما معجب بالآخر، لذلك فإن دبجان لما رأى فرساً شقراء عند رجل يقال له (الأقيرب) تمنى أن تكون هذه الفرس له أو لصديقه جدوع، فهما فقط اللذان يستحقانها، فقال:

شقرا[1] الأقيرب يا مهنا[2] زهت لي[3] والله لسوق[4] الذود لو فيهن[5] جراس

تصلح[6] لجدوع وإلا لمثلي قرم[7] يعنيها[8] على كل متراسْ[9]

وعندما حدثت الفتنة بين الحسنة وأبناء عمهم المصاليخ، يشاء القدر أن يقتل جدوع بالطريقة نفسها التي قتل بها عقل العساف على يد رجل من المصاليخ برمية دبوس رماه بها عن بعد فهشمت رأسه وانتهى بذلك جدوع الغريان.

ولم يبق من هذه الأسرة التي أنجبت (جدوع) في آخر أيامها سوى رجل واحد اسمه حوّاس، ومن حوّاس جاء عايد، وهو ما يعرف الآن باسم عايد البريغيث، وله عدد من الأولاد سنأتي على ذكرهم في ملحق الأنساب بإذن الله.

---

[1] فرس الأقيرب الشقراء.

[2] أحد فرسان الحسنة وأغلب الظن مهنا المدحلي.

[3] أعجبتني.

[4] لأدفع ثمناً لها.

[5] النوق التي يعلق في رقابها الأجراس، وهي كرام الإبل.

[6] تليق بجدوع.

[7] الشجاع الفاتك.

[8] يهجم بها.

[9] موقع العدو الحصين.

دبجان الرفاشي:

كان لأولئك النسوة السمر القليلات الجمال الفضل في إنجاب عدد غير قليل من الفرسان الأبطال الذين تدين لهم العشيرة بالكثير من انتصاراتها، منذ أن انطلقت من شبه الجزيرة العربية مروراً بالأردن وسورية حتى الباب وتادف شرق حلب.

ومن المؤسف أنه لم يصلنا إلا القليل عن حياة أولئك النخبة من الرجال، إذ كان الواحد منهم يناجز مائة فارس أو أكثر، وينتصف منهم ويهزم خيلاً بكاملها، ومن هؤلاء الأبطال: دبجان الرفاشي، واحد من أخطر أسود النقعة، وركن من أركان خيل الحسنة، وكان فارساً وشاعراً ولكن لم يصلنا من شعره سوى القليل، وشعره كله في الفخر والحماسة وتخليد معارك قومه.

ومما يروى من أشعاره وصفه لفرسٍ شقراء عندَ رجلٍ من ولد علي يقال له: الأقيرب، وتمنّيه أن تكون له ليحمي على ظهرها مؤخرة خيل الحسنة، ويثنيها على من يقع صريعاً في المعركة منهم، وتمنى هذه الفرس الكثير من الفرسان بني وهب ورغبوا في شرائها، بيد أن صاحبها الأقيرب أبى أن يبيعها بكثير أو قليل.

ومن المتمنين اقتناءها فارس من ولد علي، قال فيها:

شقراء[1] الأقيرب يا مهنا زهتلي ... والله لسوق الذود لوهن وضاح[2]

سيل المحيرس[3] تجمحه ما تمثناه ... لعيون من يطري عليها الطماحِ[4]

وشقرا الأقيرب هي من جياد ولد علي، اسم صاحبها: الأقيرب، اشتهرت بسرعتها في الجري، فطلبها كثيرون، ولكنه ضنّ بها وأبى أن يبيعها، فقال أحد أقاربه هذه الأبيات، فلما سمعها دبجان الرفاشي قال: هذا شعر فارس منهزم لأن من يجمح جواده النهر يكون في حالة إدبار وهزيمة، وكان يجب أن يقول:

شقرا الأقيرب يا مهنا زهتلي ... والله لسوق الذود لو فيهن أجراس

تصلح لجدوع وإلا لمثلي ... قرمٍ يعنيها على كل متراسْ

أبغي عليها ليطريح[5] التفت لي ... أقول له لعينيك[6] لا تقطع الياس

---

(1) هي فرس الأقيرب.

(2) وضاح: جمع وضحاء وهي الناقة البيضاء.

(3) نهر صغير إلى الغرب من مدينة درعا في الطرف الجنوبي من سهل حوران.

(4) الطموح: هي المرأة الناشز، والطماح: النشوز.

(5) الجريح الملقى على الأرض.

(6) أبشر.

أردها[1] يا خوي عتلٍ[2] وفتلي[3] لو هي على الأروام[4] قطاعة الراسْ

وربما كان مهنا هذا الذي خاطبه الفارسان الشاعران أحد فرسان بني وهب، أما جدوع الذي يعنيه دبجان الرفاشي فهو: جدوع الغريان أحد فرسان الحسنة، وكان قريباً لدبجان وصديقاً له.

وتتجلى هنا أريحية دبجان لتفضيله (جدوع) على نفسه حين قال: (تصلح لجدوع وإلا مثلي)، فلم يقل إنها تليق بي أو بجدوع، بل بدأ بابن عمه (جدوع) وثنى بنفسه.

وبدأ قصيدته كما بدأها زميله من بني وهب المخاطب نفسه والقافية نفسها، شاكياً تعنُّت صاحب تلك الفرس الشقراء، ومبدياً استعداده لدفع ثمنها مهما كان غالياً حتى ولو كان من النوق النجيبات اللواتي علقت الأجراس في رقابهن، والبدو يعلقون الأجراس والزينة على أجمل إبلهم منظراً.

ويردف معلّلاً سبب رغبته بها بقوله:

أبغي عليها ليطريح التفت لي أقول له لعينيك لا تقطع الياس

فهو لم يتمناها للزينة والعرض عليها في الأفراح والمناسبات، ولا للطراد عليها في حلبات السبق، فليست هذه من هوايات دبجان ولا من عادته، ولكنه يريدها لساعة أعظم وأجل في تاريخ الحسنة، يريدها حينما تحتدم المعركة ويقع الجريح من خيل عشيرته على الأرض طالباً النجدة، وأدبرت عنه خيل أهله وأحاطت به خيل الأعداء، لمثل تلك الساعة اشتهى دبجان تلك الفرس الكريمة ليثني عنانها نحو الجريح غير جبان ولا مهزوز، وكنى عن ذلك في قوله (**عتل**)، ويعني بها شجاع رابط الجأش، وحتى لو كان ذلك الجريح صريعاً بين خيل الروم الذين كان يضرب بهم المثل في الشدة والغلظة، وذلك بقوله:

أردها يا اخوي عتلٍ وفتلي لو هي على الأروام قطاعة الرأس

عندئذ أقول للجريح الملقى على الأرض لعينيك لا تيئس، ولا تخف، إنني قادم إليك ومنقذك.

---

[1] أثنيها.

[2] شجاع غير مهزوز.

[3] أغير اتجاهها والضمير عائد لفرسه.

[4] هم الروم أوهم الأتراك إذ كان البدو يسمونهم الروم أحياناً.

دبجان يهزم خيلاً:

ويأتي النذير في أحد الأيام إلى مضارب الحسنة، يخبرهم أن خيلاً للخريشة شيخ بني صخر ومعه الفحيلي تريد الإغارة عليهم، وأن هذا الغزو قريب من بلدة صدد جنوب شرق حمص، وكان الوقت صيفاً والقوم في مقيظهم في قرية الروضة قريباً من حمص، وكان من عادتهم أن تسرح إبلهم يوماً في الأسبوع نحو أرض النقعة منبت شجر الروثة (الحمض) الطعام المحبب للإبل، وبعد أن جاء النذير قرر القوم عدم إرسال إبلهم نحو النقعة خوفاً من الغارة عليها، ولكن إبل دبجان اعتادت مرعى الحمض، فلما جاء موعد سرحها نحوه أخذ بعض النياق يتفلتن نحو النقعة، فأعادهنَّ الراعي إلى القطيع فتفلتن ثانية وأعادهن الراعي إلى القطيع أيضاً.

كان دبجان يراقب الموقف عن كثب، فقال للراعي: دعهن يذهبن حيث يردن وأتبعهن بباقي القطيع، وهكذا سرحت إبل دبجان نحو أرض الحمض وأرض الخطر.

ويركب الرفاشي فرسه ويتوشح سيفه ويتبع القطيع، حتى إذا وصل النقعة، انتشرت الإبل في أرضها تلتهم الحمض بنهم، ولما انتصف النهار احتلب الراعي لدبجان إحدى النياق فشرب ثم استظل بعباءته وغطّ في نوم عميق، ولم يستيقظ إلا على صوت الراعي يخبره أن الخيل أغارت على الإبل وأخذتها، فلم يرع دبجان ولم يبد عليه أثر لخوف، ولكنه قال: (قاتلهم الله أزعجوهن)، هكذا قال دبجان، فلم يهمّه إلاّ إزعاج النياق، ولم يقل غنموهن أو أخذوهن، لأن استعادتهن أمر مفروغ منه عند دبجان، ولكن الذي أسف له هو ازعاج نياقه الغاليات.

واعتلى دبجان الجواد وامتشق الحسام وكرَّ على خيل الأعداء، فشطرها نصفين حتى خرج من طرفها المقابل وأوقع فيها عدداً من الإصابات، ثم كرّ ثانية حتى خرج من طرفها الآخر المقابل وأوقع فيها عدداً من الإصابات، ثم كرّ ثانية حتى خرج من طرفها الآخر أيضاً، فقتل بعضاً وجرح بعضاً، وهكذا كلما حمل على الخيل يجرح ويقتل ولا ينالون منه شيئاً، ولما رأى القوم أنه لا طاقة لهم به أعطوه ظهورهم ولاذوا بالفرا.

وكانت حصيلة المعركة أن استعاد دبجان الإبل وغنم من الأعداء ستة عشر فرساً أصحابها بين قتيل أو جريح، وعادت إبل دبجان إلى مرعاها وانتشرت في السهل من جديد.

فصعد إلى رجم قريب منه وأشعل غليونه ثم قال:

قال الخريشة غزوة لي تذكر قال الفحيلي غزوة ما بها أرباح

يا رجم لا جاك الخريشة وليمر قل له هلي باللقا مروين الأرماح

أطعن لعيني بكرة لي تفكر اللي لبنها للجنب ريح تفاح

يقول دبجان: اختلف الخريشة والفحيلي بعد هذه الغزوة الخاسرة، وأخذ كل منهما يلقي اللوم على الآخر، فالخريشة يقول: تباً لهذه الغزوة، والفحيلي يقول: أنها غزوة خاسرة جانبها الربح، والخريشة والفحيلي هما قائداً تلك الغزوة، فلكل منهم خيل فيها.

ثم يخاطب دبجان رجم الحجارة الذي جلس عليه بعد انتهاء المعركة قائلاً له: أيها الرجم إذا نسي الخريشة ما حلّ به اليوم وأعاد الكرة مرة ثانية، فقل له إن أهلي يروون الرماح من دم الأعداء في القتال، فهم حماة هذه البقعة من الأرض المسماة (النقعة).

ويقول دبجان أنه فعل كل هذا إكراماً لبكرته ذات اللبن الطيب المذاق الذي إذا شربه فرسان الجنب تذوقوا فيه نكهة التفاح ورائحته الذكية، فإذا شبعت بكرة دبجان وقفت كاظمة وكأنها تفكر في أمر ما، هكذا يصورها دبجان فيقول: (أطعن لعيني بكرة لي تفكر!)، والبكرة: الفتية من الإبل في الخامسة أو السادسة من عمرها.

جديع بن قبلان الملحم (أخو موضي) شيخ الحسنة وشاعرها وقائد خيلها:

ولد جديع بن قبلان في شمال شبه الجزية العربية، وربما كانت ولادته في بلدة خيبر على وجه التحديد، ولا يعرف تاريخ ميلاده، ولكننا إذا علمنا أن هجرة المنابهة باتجاه الشمال كانت في النهايات الأخيرة للقرن الثاني عشر الهجري وبالتحديد عام (1191) هـ، وأن جديع كان يومها واحداً من أولئك الفرسان الذين برزت أسماؤهم في خيل بني وهب، فإنني أستطيع أن أحدد على وجه التقريب أن ميلاد جديع كان ما بين 1150 – 1160 هجرية، وليعذرني القارئ الكريم على عدم دقة هذا الاستنتاج، ولكننا لم نجد سوى هذا السبيل.

لم يتوافر لدينا وصف لشخصية جديع، وقد حاولت جاهداً أن أعرف ولو القليل عنها، فلم أجد ما يلقي ضوءً على صورة هذا الشاعر الفارس، وكل ما يعرف عنه أنه كان وسيماً من الرجال، أما جديع بن قبلان الفارس والشاعر فلدينا الكثير عنه شعراً، ومواقف شجاعة وأريحية صافية تتجلى فيها أخلاق الفارس العربي بأبهى صورها، ولكننا على كل حال سنبقى عاجزين عن إيفاء هذا الرجل حقه، لأنه وإن وصلنا الكثير من شعره فمما لا شك فيه أننا أضعنا منه الشيء الكثير.

وأكثر ما عرف من شعر جديع هو تلك القصائد المتبادلة بينه وبين نمر بن عدوان، وكان هذا الأخير قد قتل زوجه الجميلة (وضحاء) خطأ، وكان بينه وبين جديع معرفة وصداقة، فأخذ يرسل إليه القصائد الكثيرة متوجداً على وضحا مدعياً أن مصيبته لم يصب أحد بمثلها، ومن خلال قصائد نمر بن عدوان المرسلة لجديع يتبين لنا عظم المكانة التي كان يتمتع بها جديع بين فرسان زمانه وشعراء البادية.

وإن قارئ شعر جديع لواجدٌ فيه نفحات ندية يسمو فيها عن عالم المادة ويرتقي فيها إلى مناجاة ربه وطلب رحمته ومغفرته، عازفاً عن الدنيا وما فيها وواقفاً بنا على الصراط المستقيم في خوف وخشوع سائلاً الله أن يسقيه في تلك الساعة جرعة باردة من مائه الكوثري العذب السلسبيل، فيقول:

دنياك ما به مكسب كود ثنتين — الطيبات الفاخرات الغوالي

كسب الثنايا خوي والبادي الدينْ — والعبد ماله غير زين الأعمال

المال مال الله مالي منه شين — غير الثنا والحمد من المال مالي

المال مال الله وحنا المساكين — معك خير ما شافت العين زال

من اليوم ذا ليوم ينفخ اسرافيل — يوم تقلقل بي ثقال الجبال

يوم الصراط ليا وقفنا مخيفين[1] وتعادلن سياتنا[2] والعمال
من سلسبيل أسأل الرب يسقين من مية الكوثر قراح زلال
بجاه النبي وبجاه عشرة[3] رضيينْ وبجاه بيتك يا عظيم الجلال
أنت الذي تعلم هوى نفسنا وينْ يا عالماً بالغيب واللي جرالي
أنا دخيلك عن لعينٍ[4] يناجينْ هجسٍ وهوجاسٍ وساويس بالي
النفس تكسب لي مع الناس ثنتينْ بين الخلايق ما يصيرن عدالِ
ميزانهن قلبي مع الفكر والعينْ وأشغالن ليا على هو بالي
واليا كسبت ثوب الفضيحة من الشينْ ثوب الفضيحة من هواها زهالي
واليا كسبت ثوب الستر زاهي زين الصدق تشهد به جميع الرجال
ترى الشرادة تقول العمر يا شين تغدي على قلب يطبه جفالِ
المرجلة[5] وإن شافت العين للعين الموت ينسونه صلوف الرجالِ

هذه إحدى قصائد جديع التي يرتفع بها عن المادة، ويراها وسيلة لكسب العمل الصالح والثناء الحميل، فالمال مال الله، والناس جميعاً فقراء محتاجون إليه، وليس للعبد في هذه الدنيا من مكسب سوى شيئين اثنين هما: رضا الله والذكر الحسن، وأصل العبادة أن يعبد الله ولا يشرك به أحداً، وليس للعبد من ماله في الدنيا إلا ما أنفقه في طاعة الله وفي سبيله، عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: بقي كلها غير كتفها ((رواه الترمذي))، ويعني أن ما وزّعوه على الفقراء هو الذي بقي لهم ذخيرة يوم القيامة.

ثم يقول: (معك خبر ما شافت العين زالي)، ذلك أن جميع من على الأرض زائل وفانٍ، ولا يبقى إلا وجه الله ذي الجلال والإكرام، حتى إذا ما نفخ اسرافيل في الصور، واهتزت الجبال، وحُشر الناس، ثم أوقفوا جميعاً أمام الصراط ووضع الميزان ووضعت الحسنات في كفة والسيئات في كفة، يومها ترتعش الخلائق وتبلغ القلوب الحناجر، فمن عابر للصراط كلمح البصر ومن عابر كالراكب، ومن عابر كالماشي،

---

(1) خائفين.
(2) سيئاتنا.
(3) هم العشرة المبشرون بالجنة.
(4) هو ابليس اللعين.
(5) الشجاعة.

ومن يزحف عليه زحفاً، ومن تتخطفه الملائكة بالكلاليب فتهوي به في النار، في ذلك الموقف المخيف الذي تجفّ فيه الحلوق، يسأل جديع ربه أن يسقيه شربة عذبة صافية من ماء الكوثر قراح زلال.

ثم يتوجه إلى الله متشفعاً بنبيه وبصحابته العشرة المرضي عنهم وببيته العتيق أن ينجيه ويجيره من الشيطان الرجيم الذي يوسوس إليه بشر الأعمال، فيقول:

**أنا دخيلك عن لعين يناجين		هجس وهوجاس وساويس بالي**

ويسأل الله أن يصرفه عنه ويحميه، والنفس أمارة بالسوء، فإذا ما اشتهت شيئاً وزينه الشيطان لها، وفي السنة الشريفة: ((حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره))، إلا أن النفس عندما تعمل عملاً صالحاً فإنها تطيب وتسمو، وعندما تفعل العمل السيء تهتمّ وتندم على ما فرطت في حق صاحبها ولا ينفعها الندم.

ثم يختم جديع قصيدته معرجاً كعادته على الفروسية والشجاعة، قائلاً إن الشجاعة تظهر عندما ترى العدو وتقف أمامه وجهاً لوجه، وفي تلك اللحظة وأنت أمام خصمك وكل منكم شاهر سيفه، فأكثركم رجولة وشجاعة من ينسى الموت، فإن عظماء الرجال هم الذين ينسون الموت في مثل تلك اللحظات، فيقول:

**المرجلة وإن شافت العين للعين		الموت ينسونه صلوف الرجالِ**

صلوف الرجال: شجعان الرجال وأشداؤهم.

قصائد متبادلة بين جديع بن قبلان ونمر بن عدوان:

وأكثر ما عرف من شعر جديع هو تلك القصائد المتبادلة بينه وبين نمر بن عدوان، وكان هذا الأخير قد قتل زجه الجميلة (وضحاء) خطأً، وكان بينه وبين جديع معرفة وصداقة، فأخذ يرسل إليه القصائد الكثيرة متوجداً على وضحا مدعياً أن مصيبته لم يصب بمثلها.

ومن خلال قصائد نمر بن عدوان المرسلة لجديع يتبين لنا عظم المكانة التي كان يتمتع بها جديع بين فرسان زمانه وشعراء أهل البادية.

فمما قاله نمر في مدح جديع، قوله:

رقيت أنا أمس العصر رأس عرقاً[1]	**غير الكرك والسلط مالي مجاوبْ**
وجدي على عشرة[2] لطيفة بفرقة	**سكرن بيبان القلب وجديع غايبْ**
جديع ليعتلي من فوق زرقا[3]	**يا عز ما تزهي بكفة جنايب[4]**
عمره ما أطلق الرمح طلقاً[5]	**نطاح باللقوات[6] وجيه الصعايب[7]**

يصف نمر بن عدوان حاله بعد موت وضحا، وبعده عن جديع، وما أصبح فيه من الوحدة والضيق، ففزع إلى رأس مرتفع من الأرض، وهذا شأن من يصاب بمصيبة جلل، أو تجور عليه الأيام من البدو، فإنه يأوي إلى رؤوس المرتفعات.

ويمد النظر بعيداً فينشرح صدره ويذهب الضيق عنه، ومن فوق ذلك المرتفع يجول نمر بنظره يميناً وشمالاً علّه يرى أثراً لصديقه الحميم جديع الذي امتدت دونه المسافات، ولكنه لا يرى سوى مدينتي الكرك والسلط في شرقي الأردن يتراءيان له عن بعد، ويجاوبانه بصمت.

ويتوجد على العشرة اللطيفة والأيام التي قضاها بصحبة جديع، ويقول إن أبواب قلبه أغلقت وأظلم ما في داخلها. ولا يبدد هذه الظلمة إلا رؤيته لصاحبه جديع، ويبدي إعجابه بشخص جديع، وهو يمتطي

---

(1) مرتفع.

(2) صحبة.

(3) كناية عن الفرس.

(4) نجاد السيف.

(5) رمي بالرمح عن بعد.

(6) اللقاء.

(7) أشداء الرجال.

فرسه الزرقاء ويتوشح سيفه، فلا يرى أن أحداً يشبه (جديع) وهو على ظهر هذه الفرس وفي جنبه هذا السلاح، ويؤكد لنا شجاعة جديع من خلال استعماله السيف فقط وهو لم يقتن الرمح الذي يبعده قليلاً عن الخصم، ولا يطلق الرمح عن بعد نحو عدوه بل يلقاه وجهاً لوجه بالسيف لأنه بهذه الحال أقرب ما يكون منه.

وقد نسب إلى عنترة بن شداد مثل هذا في قوله:

وغيري يعشق السمر العوالي وإني أعشق البيض الرشاقا

وهو كناية عن شجاعة عنترة لأنه يعشق السيف الأبيض الرشيق، وغيره من الأبطال يعشق الرمح الأسمر الطويل، ومعروف أن الرمح – لطوله – يبعد الخصم عن خصمه فلا يحصل بينهما التحام، وإنما يتمُّ الالتحام عند القتال بالسيوف، فهي لقصرها تتطلب من الخصم أن يقترب من خصمه.

وقال نمر أيضاً شاكياً إلى جديع:

يا راكب اللي كنها المخطي وإلا الوضيحي[1] يا حمد يوم ياضي

حمرا كتوم ولا بحسه تجظي لا زوّعت تشدى رفيف العياظي

فوقها غلامٍ بالخلا لك يفضي بهلول ما هو بخطاة العكاظي[2]

يأخذ كلامٍ من ضميري ينضي[3] من نمر بن عدوان لجديع فاضي

أنا بلايه فينة أيام حظي بأوقات ما قضيت فيهن غراض

يخاطب نمر هنا راكب الناقة الذي سينقل رسالته إلى جديع، وهي ناقة من طراز غريب ليس كغيرها من الإبل، فهي في سرعتها تشبه سرعة البرق عند لمعانه، وهذه عادة شعراء البدو، فهم كثيراً ما يبتدئون قصائدهم بكلمة: يا راكب، وحتى شعراء العربية الفصحى نهجوا هذا المنهج في كثير من قصائدهم، ثم يختار نمر راكباً لهذه الناقة لطيف المعشر حسن الخلق ليس بالفظ ولا المتجهم.

إنه: بهلول، ثم يحمله كلاماً ينضح من ضميره ومن قلبه المجروح ليوصله إلى جديع بن قبلان، شاكياً له جور الزمان عليه، وسوء حظه في أوقات لم يستطع فيهن تحقيق ما كان يريد.

ويقول نمر أيضاً في شكواه لابن قبلان:

---

[1] البرق.

[2] سيء الخلق.

[3] يفيض.

يا راكب اللي لها البعد قربي	**حمرا سمرداتٍ تفوج السرابِ**[1]
شبه الظليم اللي عن الشوف هربي	**وإلا القطاة اللي ذعرها العقاب**
حوران باليمنى ودع الشام غرب	**بحمص وحماة تذكر منازل أحبابي**[2]
ديار لكم طوعتوها بضرب	**يا مطوعة بالسيف حمر العلابي**[3]
يا جديع بن قبلان مال الدهر بي	**وضاقت بي الدنيا مع أيام عابي**
طير النيا يا ستر موضي شهر بي	**يم الثريا والكواكب رقا بي**[4]
مع مثل سلك العنكبوت انحدر بي	**مدري يدوي**[5] **بي على أيّات**[6] **بابي**
زتن[7] **سهوج الموج طاف البحر بي**	**بمصافق**[8] **الجيلان**[9] **ياوا عذابي**
عضيت بالنيبان لا ما استقر بي	**لا ما غرز بشفتي رأس نابي**

وهنا يخاطب نمر كعادته الراكب ويختار له ذلولاً تقرب البعيد، حمراء ضامرة تعاجل السراب في الصحراء، فهي لسرعتها تصل السراب قبل أن يختفي، فتبدوا كأنها تخوض فيه، ثم يحدد له الطريق بأن يضع حوران على يمينه والشام عن شماله ميمماً وجهه شطر حمص وحماه، حيث هناك مضارب عشيرة الحسنة قوم جديع بن قبلان، ويعرج بعد ذلك على مدح جديع وعشيرته، فهذه البلاد التي يسكنونها ويجولون في باديتها، حصلوا عليها بضرب الرقاب وتقطيع الأعناق، وكنّى عن الأعناق بالعلابي وهي جمع علباة، ويعنون بها الجزء الخلفي من الرقبة.

ثم يشكو لجديع جور الزمان عليه، وطائر الشؤم الذي حوّم فوقه، ثم اختطفه، وحلق به عالياً حتى وصل به إلى الثريا، ومن هناك تخلى عنه وأرسله مربوطاً بخيط رفيع كخيط العنكبوت، ولا يدري نمر وهو

---

[1] تخوض فيه.

[2] هم الحسنة.

[3] الرقاب.

[4] ارتفع بي.

[5] يتجه.

[6] على أي باب.

[7] رمى بي.

[8] بتلاطم الأمواج على صخور الشاطئ.

[9] جدران الشاطئ الصخرية.

منحدر يهوي متمسكاً بذلك الخيط الضعيف أين يقع، ولكنه لحسن حظه يقع في بحر لجي، متلاطم الأمواج تقرّبه تارة وتبتعد به تارة أخرى، فهو لم يمت، ولكنه يصور لنا حاله بين الموت والحياة.

ويرد جديع على نمر رداً يحاكي فيه وجدانه، ويخاطب به عقله مضمناً ذلك الرد خلاصة تجاربه في الحياة وتصوره لها، مبيناً له أن هذه الدنيا فانية لا تدوم على حال، وهي كالضباب الذي يخيم على رؤوس الجبال، ثم لا يلبث أن يزول دون أن يترك أثراً، وهي أم لا تبخل بأبنائها على الموت، فتلقي بهم إليه واحداً إثر الآخر حتى يأتي عليهم جميعاً، كذلك يبين له أن توجده على وضحا لن يعيدها إليه، وأنه ليس الوحيد الذي فقد من يحب، بل أن الكثيرين ومنهم جديع فجعوا بمثل ما فجع به.

وأخيراً يقول له:

إذا كنت أنت فقدت زوجك وهي قد تعوض، والنساء غيرها كثير، فتحزن كل هذا الحزن، فكيف أفعل أنا وقد فقدت خمسة من نوادر أهلي وفيهم الشجاع الكريم وصاحب الرأي السديد.

ولا تبكي البواكي عند العرب إلا على ثلاث: الكريم والشجاع وصاحب الرأي السديد.

ويقال إن نمر بن عدوان بعد أن وصلته هذه القصيدة أقلع عن حزنه على وضحاء، وهانت عليه مصيبته، والله أعلم.

يقول جديع بن قبلان في رده على نمر:

رقيت[1] أنا رأس الدرج وش فطن لي	**وأمايز[2] الدنيا قبله وشمال**
عز العزيز[3] وعز برقٍ يهلي	**يم الحماد ونابيات عوالي[4]**
يا صاحبي عينت لي[5] صاحب لي	**مع الجهامة اللي على الطرق حال[6]**
أقفت[7] واقفوا بها عزوة[8] لي	**برماحهم ريش النعام المتالي[9]**

(1) صعدت.

(2) أطيل التفكير (أتفكر).

(3) العزة لله.

(4) الجبال.

(5) أما رأيت لي.

(6) سار لعدة مراحل.

(7) أدبرت.

(8) أهلي.

(9) النعامة التي تحضن بيضها.

فوق أشقحٍ من زمل[1] أبوها تدني[2]	**أشقح شقاحه زاهي بالدلال[3]**
أقود صفرا[4] والظعن مردفٍ لي	**من فوق حرة[5] مثل عنق الغزال**
رجواك يا نمر لخلّك وخلي	**رجوى اليهودي للبكار[6] المتالي**
دنياك يا نمر غمام مظلي	**ركب على روس العوالي وزال**
دنياك يا نمر كلٍّ عليها مولّي	**متروحة يا هيه يا هم ملالي**
يا طير يا بو الجناحين يالي	**تبني بالزرقا[7] ومالك ظلال**
يا واهني يا طير مثلك أولي	**وأهل من العبرات بروس العوالي**
ما همني يا طير كثر وقلي	**ولا همني يا طير كثر الحلال**
أبكي على الخمسة نوادر[8] اهل لي	**اقفت بهم سمر الليالي تلالي[9]**
أبكي على اللي لا هرج ما يزلي	**نحاز[10] الشيوخ ليا بغينا الفسال[11]**
عمود بيت به مراكي وظلي	**وصميل[12] قيظٍ لا نوينا المحال**

ارتقى جديع الدرج وصعد إلى أعلاه، ولا ندري أي درج هذا الذي ارتقاه، أهو درج بيته أم درج بيت سواه، ولكنه على كل حال أحب أن يتخذ مكاناً مرتفعاً، وهذا شأن كل بدوي حين يضيق صدره وتغشاه الهموم والأحزان، فإنه يصعد إلى الأماكن العالية ويرسل نظره بعيداً في الأفق الفسيح، فتتسع الدنيا حوله، وينشرح صدره، ويذهب الضيق عنه، أو يذرف العبرات على حبيب مفقود، أو أهل طال غيابه عنهم، وهذا ما حصل لجديع بن قبلان حين ارتقى هذا الدرج، ومدّ بصره نحو الشرق، فرأى ما

---

(1) ذكور الإبل.

(2) تحمّل.

(3) الزينة.

(4) هي الفرس البيضاء.

(5) الناقة الذلول أصيلة النسب.

(6) جمع بكره.

(7) السماء.

(8) الصفوة المختارة من أهله.

(9) تزغرد.

(10) مرض يصيب الإبل ويشبه السعال الديكي عند الآدميين.

(11) إذا أردنا الاختلاف مع الآخرين.

(12) قربة الماء الصغيرة.

يهيج أحزانه ويعيد إليه ذكرياته الغنية بالمآثر والبطولات، إنه يرى البرق يلمع بعيداً حيث قدر له أن يكون على أرض الحماد وعلى جبال مرتفعة، وربما كان يشاهدها من مكانه الذي هو فيه.

وحسب رواية الشيخ نايف بن قبلان فإن جديع سكن في آخر أيامه مدينة دمشق وفي حي من أحيائها التي في سفح جبل قاسيون، إذاً فإنه كان يرى من هناك غوطة دمشق الجميلة، ويرى بلدة ضمير والجبال التي في الشمال الشرقي منها وهي (النابيات العوالي التي يعنيها جديع).

ثم لا ينسى وهو في موقفه هذا، صاحبه نمر بن عدوان فيسأله عن صاحبة له عزيزة على قلبه ارتحلت مع أهلها وتركته في الديار يعاني الوحدة، وهي تركب على بعير أشقح اللون اختارته من إبل أبيها ونثرت فوقه أنواعاً كثيرة من الزينة، وذهب يتهادى بها مع الجهامة التي يتقدمها السلف على ظهور الخيل يرفعون على أكتافهم رماحهم الطويلة المزينة بريش النعام المتالي.

وهنا اختار جديع هذا اللون لبعير صاحبته لأنه من أجمل ألوان الإبل، وهو ما اختلط بياض وبره بشيء من الحمرة، فإذا ما نثرت عليه الحسناء زينتها ووضعت عليه هودجها وركبته ثم سار يتهادى وسط الظعن، كان لمنظره جمال لا يعادله جمال في نظر الفارس البدوي.

وليس بالضرورة أن يكون لجديع صاحبة حقيقية كما ذكر هنا، وهو الذي عرف عنه العفة والتقى، ولكنه ربما أراد أن يبتدئ قصيدته بها شأنه شأن غيره من شعراء العربية حين يبدؤون قصائدهم بالنسيب، فالشاعر كعب بن زهير على سبيل المثال، ابتدأ قصيدته في مدحه للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم بوصف جميل لسعاد، واختار النياق العتاق النجيبات المراسيل ليوصلنه إليها، وفي الحقيقة لم تكن هناك سعاد كما قال كعب، ولكنه نهج نهج غيره من شعراء زمانه الذين يجعلون من الغزل مقدمة لأشعارهم.

وأمام الظعن الذي يتقدمه بعير صاحبته، يتصور جديع نفسه يقتاد فرسه الصفراء ويركب ذلوله الحرة متقدماً الظعن، والبدو يسمون الكريمة من النجائب حرة، وتختلف الحرة في مظهرها الخارجي عن غيرها من الإبل، فهي أرفع ساقاً، وأصغر خفّاً، وأضمر بطناً، وأدق عنقاً، وأجمل فماً ورأساً، وعلى هذا، فإنها تشبه في مقدمة عنقها ورأسها عنق ورأس الغزال وهذا ما جعل جديع يشبه ناقته: بالغزال ويقول: من فوق حرة مثل عنق الغزال.

وبعد أن عرض لنا جديع هذه المقدمة الشائقه، يلتفت إلى صاحبه نمر بن عدوان يهدي إليه عصارة تجاربه في الحياة، ومواسياً له بموت وضحاء التي ذهبت ولن يعيدها الحزن ولا الدموع، وأن رجاء (نمر) لها

رجاء ميؤس منه، ولا أمل فيه، كما أن رجاء اليهود اقتناء الإبل من جديد أمر ميؤس منه أيضاً، وهو مثل يورده البدو كثيراً ويضربونه لمن يطلب شيئاً مستحيلاً فيقولون: (رجوى اليهود للإبل).

والدنيا في قصرها وزوالها تشبه الضباب أو الغيم الذي على رؤوس المرتفعات، ثم لا يلبث أن يزول دون أن يترك أثراً، وهي تجدُّ السير مسرعة لا تبالي من تأخذ معها، ولا من تسحقه في طريقها، وكل ما عليها فان، وهي تعربد مزغردة لا تقف عن الحركة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويقول:

دنياك يا نمر كلٍ عليها مولي   متروحة يا هيه يا هم ملالي

ويقال إن الأمير محمد السيديرى لما سمع هذا البيت قال: كل عْنِزَة تقف وراء هذا البيت.

ويرفع جديع نظره نحو السماء، فيرى طيراً يحلق عالياً مادّاً جناحيه، فلا يفوته أن يخاطبه متمنياً أن يكون مثله يطير ويهبط على رؤوس المرتفعات العالية ليذرف فوقها الدموع ويسفح العبرات، لعل ذلك يفرّج همه ويخفف حزنه، ولا ندري ما هي الأسباب التي جعلت جديع يتمنى البكاء ويهلّ الدمع، ونحن نعلم أن دموع الرجال غالية في الملمّات كما قال أبو فراس الحمداني.

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة   ولكن دمعي في الحوادث غالي

ولا بد أن ما في داخل جديع في تلك الساعة كان يفوق صبره، وربما فرّج الدمع همّاً وخفف حزناً:

عسى الدموع إذا انهلت غواربها   تطفي لهيب لظى في القلب مكمود.

ولا أجد سبباً لحزن جديع هذا سوى فراقه لأهله وعشيرته الذين طالما قاد خيلهم في الغزوات، وزغردت له نساؤهم في الملمات، يحيط به فلّة من فرسانهم الأشداء الذين قال عنهم جديع الثاني:

خيار الملا أريد ربعٍ سكارى   صيحاتهم تجلي عن كبدي امرار

ولكن جديع لا يتركنا نفكر كثيراً لنعرف سبب بكائه، فيأتي الجواب سريعاً من شكواه للطير الذي رآه وتمنى أن يطير مثله، فيهبط على رؤوس المرتفعات ويرسل فوقها العبرات، فنعلم أن ما أهمّ جديع ليس كثرة المال ولا قلته، وإنما أهمّه وأحزنه فقده لأولئك النفر الخمسة نوادر أهله وصفوتهم وحصنهم، إذا ألمت بهم النوائب، لأن فيهم الشجاع والكريم وصاحب الرأي السديد وذا البلاغة وقوة الحجّة إذا انعقدت المجالس.

وكثيراً ما نرى (جديع) يتوجد على هؤلاء الخمسة من أهله ولا ندري أهم من آل القبلان القريبين إليه في النسب أم هم من عشيرته، وهو يعدّ كل العشيرة أهله، وعلى كل حال فإن جديع بن قبلان كان في قلّة

من رهطه آل القبلان، فهم من خلال تاريخهم الطويل الحافل بالأمجاد لم يتجاوزوا أصابع اليد عدداً في كل جيل، فيقول:

أبكي على الخمسة نوادر هلٍ لي أقفت بهم سمر الليالي تلالي

أبكي على اللي لا هرج ما يزلي نحاز الشيوخ ليا بغينا الفسال

فهو يبكي من جملة ما يبكي من بين أولئك النوادر الخمسة على ذلك الذي إذا تكلم لا يتلعثم بالكلام ولا يتعثر ولا يزلّ لسانه، فهو والحالة هذه يكون في نحور الشيوخ من الأعداء كداء النحاز في حلوق الإبل، والنحاز داء يصيب فحول الإبل في الشتاء، وهو يشبه في أعراضه السعال الديكي الذي يصيب الآدميين.

فإذا ما عقدت المجالس وابتدأت المساجلات الكلامية، واختلف القوم في المقاصد والنيات، كان قريب جديع هذا الذي يبكيه في نحور القوم وفي حلوقهم لقوة حجته وبلاغته وفصاحته كداء النحاز في حلوق الإبل، وهو للعشيرة كالعمود لبيت الشعر، فكما أن عمود البيت يرفعه ويرتكز البيت عليه فيستظل القوم تحته ويتكئون، كذلك فهو للعشيرة سند وركن وسقاء مملوء بالماء البارد العذب في أيام الصيف الحارة والعشيرة ترتحل وتجدّ السير في مسير طويل، وهي صورة رفع جديع بها صاحبه عالياً، وهو دليل على اتّساع خياله وخصوبة معانيه، ومن مواطن الجمال في شعره.

ولم يكن نمر بن عدوان وحيد زمانه الذي شكا همه إلى جديع بن قبلان، بل هناك من هو أبعد أرضاً منه وأكبر همّاً وأعظم مصيبةً، نجد ذلك في قصة المرأة التي أرسلت تستنجد بجديع من منطقة الصمان في المملكة العربية السعودية، واختيارها له من بين الشيوخ والفرسان، لما كان يتمتع به من مكانة، وما كان يروى عنه بين القبائل من شجاعة ومروءة وسرعة نجدة وكرم أخلاق.

والحكاية أن ابنة أحد رؤساء القبائل التي كانت بالصمان أحبت ابن عم لها وأحبها وما زال بها حتى نال منها ما يريد، وخطبها من أبيها فرفض أبوها الطلب، وعبثاً حاول الشاب إقناع أبيها، وضاقت الأرض بالمرأة حين بلغت شهرها الثالث من الحمل، فأيّ محل ترتقي، وأيّ مجير يجيرها مما هي فيه وهي لا تريد أن يطلع على سرّ مصيبتها أحد؟

واستعرضت في مخيلتها أسماء عظماء الرجال من أهل البادية علّها تجد بينهم من ينقذها من محنتها ويخفي سرها فوجدته، أنه جديع بن قبلان أخو موضي شيخ الحسنة وقائد أعنتها، فهو وحده لا سواه أهل لهذه المهمة الصعبة وهذه المصيبة الجلل، فتنظم قصيدة تشرح فيها ما بها وما تعانيه بأسلوب مرمز لا يفهمه

إلاّ من كان في مستوى جديع من الذكاء والفطنة، وأرسلت القصيدة مع شخص أمين، ولكنه لا يعرف معناها على كل حال، ويجدّ الراكب السير على بعيره الذي اختارته له صاحبة القصيدة بعد أن حددت له الطريق وعيّنت له الهدف.

ويصل بعد سفر شاق طويل إلى بيت ابن قبلان فيلقي السلام ويبلغه الرسالة التي فهمها جديع وأدرك مقدار المحنة التي أصبحت فيها تلك المرأة، ولا بد من تلبية الطلب، فكيف وقد وقع اختيارها عليه، وتوسّمت فيه الخير والفرج، وليس مثل جديع من يهون أو يضعف أمام هذا النداء الآتي من مكان بعيد.

وينتقي جديع أربعين رجلاً ممن أحبوه واعتادوا المغامرة معه في أربعين هجين عتاق، ويسير الركب فجر أحد أيام الصيف من مضارب الحسنة متوغلاً في قلب الصحراء باتجاه الصمان، جاعلين الشمس في نحور مطاياهم. ولم يكن مع الراكب منهم من زاد سوى قليل من التمر وقربة ماء، متوسطين تلك المفازة المهلكة المشحونة بالمخاطر، لأن كل العشائر التي في طريقهم عدوة لهم، وهم بذلك على قلة عددهم عرضة للإغارة من قبل أية عشيرة يمرون بأرضها، ولكنهم كانوا يدلجون الليل ويكمنون النهار متحمّلين عناء السفر الطويل والمسير الصعب، كل ذلك من أجل انقاذ امرأة في محنة توسّمت الخير بجديع واختارته على باقي الناس لما تسمع عنه من مجيد الأفعال والأقوال.

ويصل الركب بعد مسير طويل إلى مضارب عشيرة الفتاة، وهناك أمام بيت كثير الأعمدة لا يوجد له شبيه في النجع أناخ الركب، ومن لون وجوههم الشاحبة التي لفحتها شمس القيظ، ومنظر مطاياهم الضامرة، عرف الشيخ صاحب البيت أن ضيوفه آتون من مكان بعيد، وما أتى بهم إلاّ صعاب الأمور، فيكثر من الترحاب بهم.

وبعد أن أخذ القوم أماكنهم في المجلس قدّم جديع بن قبلان نفسه للشيخ وعرّفه أصحابه، وكانت مفاجأة الشيخ لم يكن يتوقعها، فقد سمع عن جديع الشيء الكثير من شعر وفروسية وكرم، وكم تمنّى أن يراه، وها هو الآن يجلس أمامه على غير موعد، فكان فرحه به عظيماً، وزاد من الترحيب والتأهيل بقائد الركب وصحبه، ولكنه في غمرة فرحه وترحابه بالضيوف خالطته الحيرة في أمر هؤلاء القوم، والسبب الذي جاؤوا من أجله، ولم يستطع تفكيره أن يهديه إلى شيء، ولكنه قال في نفسه لا بد أن يكون الأمر من الأهمية بمكان.

وبعد أن أقام الركب ثلاثة أيام –كما هي العادة عند العرب – وأخذوا قسطهم من الراحة عرض جديع للشيخ حاجته التي جاء من أجلها، ولم تكن مفاجأة رؤية جديع بالنسبة إلى الشيخ بأكبر من مفاجأته

في طلبه، إذ طلب جديع الفتاة من أبيها لتكون زوجة له، ويصمت الشيخ – أبو الفتاة – ويصمت معه الحضور، وكانت لحظات ترقّب بدت طويلة عند جديع لأنها الوقت بين التفكير وبين النطق بالقرار.

وينتظر الجميع بأعصاب مشدودة، والحقيقة أن الشيخ بالرغم من تقديره الكبير لجديع بن قبلان لم يكن يرغب في إبعاد ابنته كل هذا البعد، ففكر في طلب يطلبه من جديع وظن أنه لن يوافق عليه، وحسبه مستحيلاً، فالشيخ لا يزال يجهل حقيقة ضيفه ومدى تصميمه على تحقيق ما يريد، ثم تكلم الشيخ وبعد أن أنهى كلامه تنفس ابن قبلان الصعداء وظهرت على وجهه علامات الرضى، فالشيخ طلب الأربعين هجيناً التي يركبها جديع وصحبه مهراً لابنته، وردّ جديع قائلاً: نشكر لك عطاءك يا طويل العمر، أعطيتنا غالياً وطلبت رخيصاً وإني أوافق على طلبك راضياً وشاكراً.

وهناك روايتان:

أحدهما: أن أبا الفتاة مهر الركاب بميسمه، وسمح لهم بالعودة على ظهورها إلى أهلهم على أن يعيدوها إليه فيما بعد.

والأخرى: تقول إنهم تركوا الركاب وأعطاهم رواحل غيرها عادوا بها إلى اهلهم، ولكنهم على كل حال عادوا وقد زاد عددهم واحداً، كان رديفاً لجديع هو فتاتهم التي من أجلها شدّوا الرحال.

كان لجديع زوجة وله منها أولاد، فقسم أيامه بين الاثنتين بالتساوي، ليلة عند هذه وليلة عند هذه، وكان أمام أعين الناس عادلاً في معاشرته لزوجتيه ولكن أمام الله وعندما تنام الأعين كانت الأمور تختلف بين الواحدة والأخرى، فجديع عرف بتقواه وسلامة إسلامه، ولم يغامر بصحبه من أجل الحصول على امرأة يضاجعها ويروى منها نزوته، ولكنه غامر برجاله وبنفسه من أجل عمل لا يبغي من ورائه إلاّ مرضاة ربه والثناء الجميل، وهو انقاذ الإنسانة التي توسّمت فيه الخير والفرج حتى إذا أخرجها من المحنة سرّحها بإحسان مكرّمة إلى أهلها، ومن أجل ذلك كان ليلة مبيته في فراشها يضع السيف بينه وبينها فلا يلامس جسمه جسمها، وما زال هكذا حتى وضعت حملها، وولدت المرأة بنتاً، ولما مضى على ولادتها ثلاثة شهور طلبت منه زيارة أهلها، فيرسلها مصحوبة بالهدايا ومزوّدة بتعليمات لا يعلمها أحد إلاّ هي وجديع، وكانت هذه التعليمات :

أن تطلب الفتاة من أبها عدم العودة إلى زوجها ابن قبلان، متخذة من بعد المسافة بينه وبين أهلها حجّة لها.

ويعود الركب المرافق للفتاة إلى أهلهم يحملون تحيات الشيخ أبي الفتاة لجديع ويحملون رجاءه بطلاقها، فيسرّ جديع بالرد ويبعث للشيخ من يبلغه الموافقة على طلبه وأن ابنته طالق.
ويشاء القدر أن تموت الطفلة ابنة الفتاة بعد أيام قليلة، وتأتي في أحد الأيام مجموعة من الرجال يخطبون الفتاة لابن عمها الذي سبق أن رفض له مثل هذا الطلب، ولكن أبا الفتاة يوافق هذه المرة وتزف الفتاة لزوجها الجديد.

رسالة المرأة إلى جديع بن قبلان:

يا راكب من عندنا فوق عنسي[1] عنسي ولد عنسيةٍ من عمان[2]

تمد من الصمان[3] بالشام تمسي والعصر في بيبان حمص الأداني

يا جديع يا مشكاي من كل جنسي ما شفت مثلي صابر مودماني[4]

خلي عقد لي عقدة بالدمقسي[5] عقدة حرير وحلها حقرصاني[6]

عقد البلش[7] ما حل باصباع خمسي آذى يوازي آدمي قرمزاني[8]

هلال وهلالين[9] واليوم وأمسي عد[10] الطعام مروكم[11] ديدماني[12]

أنام شاغلني السهر يوم أمسي مثل الخليع[13] اللي على النار داني

قمت اجتلد بالليل من هم نفسي شيءٍ جرا لي غامضٍ له معاني

---

(1) هو البعير الذلول.

(2) هي بلاد عمان في الخليج العربي.

(3) مكان في شبه الجزية العربية.

(4) آدمي.

(5) الحرير.

(6) كثيرة العقد صعبة ا لحل.

(7) المصيبة التي أصبحت المرأة فيها والتي لا تحل بأصبع اليد.

(8) هو صورة مرمزة لكيفية وقوع الآثم.

(9) شهر وشهرين.

(10) كأن.

(11) متراكم.

(12) بعضه فوق بعض.

(13) المقرور الذي أجهده البرد.

طير النيا[1] خيم على ظل شمسي والنوم عيت لا تطيقه أجفاني

ثلاث شهور كلهن نوم عمسي وأقالب الجنبين سمي رماني

بلاي قلبي حامس الجوف حمسي زفير نار الجوف حرة كواني

أخاف أنا يا جديع من قول همسي[2] قليل حظ وحالف له يماني

واشي قليل الحظ رماي رمسي[3] بياع ذمة بالحسا[4] والدهاني[5]

غدا ربيعي صيف وأشجار غرسي غدت حطامه ما بقي له مكاني

براس الطويلة انهض لواي خمسي طلاب غيث وخاين بي زماني[6]

تخاطب المرأة رسولها الذي سيحمل رسالتها إلى جديع بكلمة: (يا راكب)، وتختار له بعيراً من طراز خاص، هجين بن هجين، وعنسي بن عنيسة، معروف النسب أصيلاً من بلاد عمان التي اشتهرت بهذا النوع الأصيل من الإبل المعروفة بسرعتها وصبرها على قطع المسافات الطويلة، ثم تحدد له الطريق وتعيّن له الهدف، فنقطة انطلاقه من الصمان، وعليه أن يكون في مساء اليوم نفسه على مداخل مدينة دمشق، وفي عصر اليوم الثاني عليه أن يدق أبواب حمص الدنيا.

وكما نرى فإنها أوكلت إلى رسولها مهمة صعبة، وأي بعير هذا الذي يستطيع أن ينطلق من الصمان ويصل في اليوم نفسه إلى دمشق ثم في الساعات الأخيرة من اليوم الثاني يكون على أبواب حمص الأداني؟ إن المهمة صعبة ومستحيلة على بعير صاحبتنا، ولكنها لا تلام على كل حال فالمرأة في محنة والأمر يتطلب السرعة كي تصل النجدة في الوقت المناسب، وعلى وجه السرعة وإلاّ فانه: الموت.

وعندما يصل النهاية، عليه أن يسلم الرسالة إلى جديع الذي سيحلّ رموزها، فالرسالة مبهمة إلى حدّ ما، وحتى الرسول الذي يحملها لا يفهم معناها، وفي البيت الثالث تبدأ بوصف الحال التي أصبحت عليها بعد ثلاثة شهور قائلة:

هلال وهلالين واليوم وأمسي عد الطعام مروكمٍ ديدماني

---

[1] هو غراب البين.

[2] هو قول الواشي الذي يهمس في أذن من يوشي إليه.

[3] هو الذي يشيع الفاحشة فيفضحها.

[4] مرق اللحم.

[5] الدهن.

[6] وهنا ترفع اللواء وتلوح به من بعيد طالبة النجدة.

فهي بعد هذه الأشهر الثلاثة أصبحت كأنها أكلت بعد جوع طويل فشبعت وامتلأ بطنها بالطعام، ولكنه طعام من نوع خبيث أحرق جوفها وأسهرها ليلها، ونغّص عليها عيشها، فهي تقضي ليلها مرتعشة خائفة كالمقرور، ثم تصف في باقي الأبيات حالها وصفاً دقيقاً فيه شيء من الغموض، إلا على شاعر مثل جديع.

وفي البيت الأخير تصعد مكاناً عالياً وترفع يدها تلوح بها طالبة النجدة شأن من يغير الأعداء على ماله أو يحدث له خطب جلل، فيرفع اللواء مستفزعاً أهله وعشيرته.

وقال نمر بن عدوان في احدى مرثياته لجديع بن قبلان:

اركب على وجنا بمشيه تزومي	**عريانة العرقوب نابي السنامِ**
يا ذيب خجه مع فجافجٍ خرومي	**فجافجٍ ما بين هابط وزامي**
وإن بينن لك نابيات الخشومي	**تراهن بيوت وما بشوفك تمامِ**
تراهن بيوت أهل السخا والعلومي	**نافوا على ميراث سامٍ وحامِ**
لو شافت عيني بيوتهم وقم يومي	**أخير عندي من ثمانين عامِ**
يا دايم ارحم حال من لا يدومِ	**بجنة الفردوس سلهم ونامِ**

وجنا: الناقة العريضة الوجنات، تزومي: تسرع، خجه: سربها، فجافج: جمع فج، وهو المسلك في الأرض، وفجافج: مسالك. هابط: منخفض، زامي: مرتفع، نابيات الخشومي: بيوت الشعر، والخشوم: جمع خشم ويعني به مقدمة بيت الشعر. تمامي: خطأ.

ثم يترحّم في البيت الأخير على جديع ويتمنى له طيب المقام في الجنة.

وقال نمر بن عدوان يشكو همّه إلى جديع بن قبلان:

البارحة فزيت من هجعة النومْ	**جاني خليلي واختفى عقب ما بان**
فزيت مذهولٍ من العقل معدومْ	**مالي بعد وضحا خليلٍ وخلانْ**
طيفا تصور لي خياله من حلومْ	**وأصبحت من حلمي جثيما وحيرانْ**
يلومني بموالفي كل مليومْ	**قالوا سفاهة زاد نمر بن عدوانْ**
عسى توطا لايمي دولة الرومْ	**ولا عسى يا طاه رهطٍ من الجانْ**
الله نشد يا حمود عن معرفة يوم	**حنا ثمان سنين يا حمود جيران**

يا حمود يظهر لك صديق من القوم ويظهر من الربع الموالين عدوان

يا جديع يا مشكاي يا مفني الكومْ[1] فقد الخليل مصيبتي يا بن قبلان

حظي خمر[2] طيره عقب ما ادرج[3] الحومْ الله لا يجزا طير حظي بالإحسانْ

بكيت أنا وعقاب يومٍ باثر يومْ جار الزمان وباغت اليتم سلطانْ

ويرد عليه جديع قائلا:

يا نمر ما صابك من الله مقسوم الله بخلقه ما ينا يا بن عدوانْ

إن مات حي قيل يا نمر مرحومْ اطلب لمفقودك من الرب غفرانْ

إلا ولا حيا من الموت معصوم اعرف ترى دنياك ما فوقها فانْ

دنياك هذي بين هازم ومهزومْ ما أنت الوحيد بفقد غالي وخلانْ

ما قدر المولى على العبد محتومْ الله جعل للروح حد وديانْ

كل عليه من أسود الوقت مثلومْ من ظيم بقعا شاكياً جن وانسانْ

الله يجيرك يا السنافي عن اللومْ عزاه يا مروى شبا لامع الزانْ

يا نمر من ظيم الولي مأنت مظيومْ اصبر وعالج ضامرك يابو سلطانْ

الصبر زين وينفرج كل مكتومْ كم واحدٍ مثلك توطته الأزمانْ

الحلم يجعل صاحب العقل مهمومْ طيف الليالي ما بها غير نقصانْ

لا عاد عند الناس يا نمر محشومْ دور عوضها عند حضر وبدوانْ

هذا واحد من ردود جديع بن قبلان على صديقه نمر في رسائلهما المتبادلة على إثر وفاة وضحة – زوجة نمر – التي أصبحت قضية شغلت نمر بن عدوان وأصدقاءه المقربين، ومادة ثمينة خلدت لنا نتاج هذين الشاعرين، وفجرت على لسان نمر أروع قصائده في الرثاء والشكوى من جور الزمان وافتقاد الخلان، كما خلّدت لنا أجمل قصائد جديع في نظرته للحياة الفانية وإيمانه القوي بالدار الآخرة وبالقضاء والقدر خيره وشرّه.

[1] سمان الإبل.

[2] عجز عن الطيران.

[3] حلق عالياً.

وهو هنا شأنه دائماً في مواساته لنمر وردوده الكثيرة عليه يؤكد له أن ما أصابه قدر من الله واقع لا محاله، فالكل خلق الله وملكه يتصرف بهم كيف يشاء ولا حول لنا ولا قوة فيما يقضي الله سبحانه، وما علينا إلا أن نطلب من الله لمن نفتقده المغفرة والرحمة، وإن كل حي على وجه الأرض مصيره إلى الفناء.

قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿**كل من عليها فان**﴾[2].

ولست وحيد زمانه الذي افتقد من يحب، فكثيرون غيرك أصيبوا بمثل ما أصبت، فاصبر واحتسب وأجرك على الله، واعلم أن الأجل محتوم فلا يتقدم لحظة ولا يتأخر، والكل إنسهم وجنّهم لا بدّ واردون حوض المنية، وكنّى عن المنية باسم (بقعا)، هكذا يسميها البدو.

ثم يقول له بتلطف وتودد: (لا أريد أن أكثر عليك اللوم ومثلك لا يلام)، ثم ينهى جديع مواساته وتعازيه لصاحبه أبي سلطان بحلّ مقترح ربما يجد فيه بديلاً لفقيدته الغالية (وضحا)، ما دام (نمر) سيداً وجيهاً في قومه ومكرماً معززاً، والكل يخطب ودّه ويتقرب إليه والذي خلق (وضحا) خلق مثلها كثير، فليبحث عن زوجة بديلة لها ولا بد أنه واجد مثيلاً لها إن كان في البدو أو الحضر، فيقول:

لا عاد عند الناس يا نمر محشوم	**دوّر عوضها عند حضرٍ وبدوان**

ورداً على قصيدة نمر بن عدوان التي مطلعها:

يا راكب اللي لها البعد قربي	**حمرا سمردات تفوج السرابِ**

يرد جديع بنفس القافية:

يا راكب من عندنا فوق هربي	**يشدن هريف مسولعات الذيابِ**
حيل يخلن نازح الدو قربي	**بنات هرشٍ من مجاذب ركابِ**
جيشٍ عرايب والمجاذيب عربي	**عليهن اللي يوصلون الجوابِ**
تلفون شيخاً بالمواجيب ذربي	**متريحينٍ عقب ما أنتم تعابِ**
شيخٍ شرب من كوثر الطيب شربي	**نمر عزيز النفس نزه الجنابِ**
إن حل هند قطيهن حس ضربي	**يلكد على جمع العدو ما يهابِ**
يا نمر لو هي بالحرايب نحر بي	**بالسيف فوق ملاكدات العقابِ**
نجيك فوق الخيل بسربة وسربي	**لا شك حكم الله قوي الحسابِ**

[1] سورة الزمر: الآية 30.

[2] سورة الرحمن: الآية 26.

يا نمر كلٍ قال وقتي مكر بي	**يشكون صفقات الدهر بانقلابِ**
كلٍ شكا من ضيم دنياه كربي	**دنياك تسقي حنظليل الشرابِ**
خل الظما يرعن مكادرك طربي	**الله طوى لفات صفح الكتابِ**

مسولعات الذياب: الذئاب المسعورة، حيلٍ: جمع حايل، وهي عكس العشار، الهرش: كبير السن من فحول الإبل، مجاذب ركابي: خيار الهجن، وقطيّهن: جمع قطاة وهو موضع الردف من الدابة والضمير عائد للخيل، ملاكدات العقابي: الخيل، جيش عرايب: ركاب أصيلات، يلكد: يهجم، سربه: مجموعة من الفرسان، حنظليل الشراب: الشراب المرّ، وحنظليل: نسبة إلى الحنظل.

واشترك جديع مع شاعر من آل الدوخي – رؤوساء عشيرة ولد علي – في صياغة هذه الأبيات: كأن ينظم أحدهما بيتاً ثم ينظم الآخر البيت الذي يليه:

يا راكب من فوق حمرا ردومي[1]	**هات العقيلي[2] والحقب[3] مع رسنها**
تشدى القطا الكدري حداه السمومِ	**والا نعامة قرّب الزول منها**
يا جديع نحرها[4] حرار الرجومِ[5]	**اخوان عذراهم[6] محارى كمنها[7]**
حنا قرايب و القرابة لزومي	**وأفعالنا لازم تسيلون[8] عنها**
يوم العذارى[9] أرقبن[10] الرجومِ	**صيحاتهم حنا خذينا ثمنها**
من ضربنا راحت حقوقٍ هزومي	**كلٍ يقول النار ما أصد عنها**
من صدمنا اليوم عنه تشومي[11]	**بنت الذي يرخي مجادل رسنها[12]**
أطعن لعيني بكرةٍ لي ردومي	**ترعى بقفر بلادنا مع وطنها**

---

(1) سمينة.
(2) هو خرج العقيلي.
(3) هو الحزام الذي يشد الشداد إلى مؤخرة بطن الناقة.
(4) سربها.
(5) الصقور ويعني بهم آل الدوخي.
(6) هم آل الدوخي.
(7) مكمنها.
(8) تسألون.
(9) النساء.
(10) أشرفن أو صعدن إلى رؤوس الرجوم.
(11) تعافه أو ترفضه.
(12) مقودها والضمير عائد إلى الفرس، ويرخي مجادل رسنها كناية عن شجاعته.

هزاع المقبل وقصة الدهماء:

عصفت الفتنة بالحيين المتجاورين، والتقت الخيل بالخيل، وعلت أصوات الرجال وصيحات التّحدِّي وسط صليل السيوف وصهيل الخيل.

وهكذا أوقدت نار الحرب واشتدّ أوزارها وحمي الوطيس، وبدأ خيالة الحسنة بالتراجع أمام الضربات الموجعة من فرسان الخيل المغيرة، وانكشف فرسان الحسنة عن شيخهم يومذاك علي الملحم، وأدبرت بهم الخيل مسرعة لا يلوون على شيء، ولم تجدِ صرخات الاستغاثة التي كان يطلقها علي لاستجاشة عزيمة القتال فيهم والصمود أمام عدوهم، وعبثاً حاول علي النجاة، إذ قصّر به جواده وأصبح الموت على بعد خطوات منه ممثلاً بعقيد القوم المغيرين ذي الشاربين الكبيرين الممتدين حتى أذنيه، كان علي يعلم جيداً أن عقيد القوم إذا أدركه لا بدّ قاتله، كما أن عقيد القوم أيضاً كان رأس علي منيته ومبتغاه، لأن علياً في تقديره هو رأس الأفعى ومنبع الفتنة التي عصفت بالحيين.

وذهبت عبثاً صيحات علَي ونداءاته خلف خيله المنهزمة، وكلما مرّ به فارس من فرسان الحسنة يندبه للقتال ويستغيث به، ولكن الأمر جلل والخصوم أقوياء والضرب كان موجعاً ولم يبق هناك سبيل للنجاة سوى الانسحاب من المعركة وصاحب الجواد الأسرع هو الذي يستطيع النجاة.

لقد انهزم الحسنة وأسقط في يد علي، وأصبح الموت منه قاب قوسين أو أدنى، ولم يبق بينه وبين خصمه سوى خطوات قليله.

كان الفارس[1] ذو الشاربين الطويلين كأسد الغابة الجائع والفرسان تفرّ أمامه كما يفر الصيد، وبينما كانت الأرض تضيق بما رحبت على علي مر به أحد فرسان الحسنة على فرس دهماء، ومرة أخرى يعاود علي الأمل بالتمسك بحبل النجاة ولكن ممن؟ أمن هذا الفارس راكب الدهماء؟ وهو يعلم أنه لا يكنّ له كثير ودّ لأنه ممن كانوا يرون علياً هو المسبب الأول لهذا البلاء وما جرى هو حصيلة تقلّبه وأخطائه.

كل هذه العوامل استعرضها علي في ذاكرته وبسرعة لا تعد بالثواني، ولكنه كان يعرف جيداً السجايا الخلفية لهذا الفارس، فهو لن يتخلى عنه في مثل هذه الساعة إذا ندبه مهما كانت النتائج، وهذا ما جعله يطلق صيحته الأخيرة قائلاً: (وين راعي الدهما) – أي أين صاحب الدهماء؟ – ويأتي الرد سريعاً أسرع مما كان يتوقعه علَي بكثير، فيثني الفارس عنان جواده نحو علي، وهو يقول: (خيال الدهما هزاع).

---

[1] هو قعدان بن يعيش شيخ المصاليخ وفارس بني وهب ذائع الصيت.

إنه هزاع المقبل واحد من الرجال الذين أنجبتهم نساء الحسنة وبهم كانت تستر الجهامة ويصان شرف العشيرة إذا ألمت بها الخطوب ودارت عليها الدوائر.

والتقى راعي الدهماء بعقيد القوم الذي يهمّ باختطاف رأس علَي بصارم سيفه، وبضربة من سيف هزاع هوى عقيد القوم عن ظهر جواده إلى الأرض، وبسقوطه خفّ زحم الهجوم نحو الحسنة، فتنادى فرسانهم وعلت أصواتهم تبشر بمقتل سيد القوم المغيرين الذي أوقع الذعر في خيلهم، فأعادوا الكرة على خصومهم، وألحقوا بهم الهزيمة، وتحوّل بذلك الموقف من هزيمة محققة إلى نصر مؤزر.

وعرف من يومها هزاع المقبل (براعي الدهما)، وأورث هذا اللقب أسرته آل المقبل من بعده، فأصبح يقال للواحد منهم: (راعي الدهما).

مرعي الخضير المقبل:

هو مرعي بن حسن بن خضير المقبل، ولد في البادية ولا يعرف تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته تحديداً، ولكنه جاء في الفترة التي كفّ فيها الحسنة عن المغازي، واكتفوا بالدفاع عن ديرة الشنبل، وهو واحد من الفرسان الأبطال الذين يذخر بهم كل جيل من أجيال الحسنة، وأكثر ما اشتهر به (مرعي) بلاؤه مع فرسان الجنب، وهي الخيل التي كانت ترافق الإبل لحمايتها من غارات الأعداء.

وكانت تلك المجموعات من خيل الجنب تترصد الخيل المغيرة فتنقض عليها، وفي طليعتها مرعي، فتمزقها وتشتت شملها، وكعادة نساء الحسنة فقد تغنين ببطولات (مرعي) وأفعاله، كما تغنين بغيره من الأبطال، فُصغّن فيه الأغاني التي تقال في الأفراح ومنها قولهن:

**تهزعوا للبل شمالٍ وقبله		مرعي جنب للبل قلبي طربْ له**

وتهزعوا: تمايلوا أو اذهبوا أينما شئتم، والخطاب لرعاة الإبل، ويعنين أيها الرعاة ارتعوا بابلكم حيثما شئتم، شمالاً أو جنوباً شرقاً أو غرباً فلا خوف عليكم من الأعداء، ما دام (مرعي) معكم في الجنب. أو قولهن:

**البل تريدك يا مرعي		البل تريد المناعير**

نعم الإبل تهوى الفرسان الذين يحمونها ويحمون ماءها ومرعاها، فترتع في أي روض تريد، وترد أي غدير تشاء، والمناعير: عليه القوم ورؤساؤهم وأبطالهم.

وتعقبه في أحد الأيام حملة من مائتي خيال من الدرك العثمانيين تريد القبض عليه، فلما رأى (مرعي) القوة أقبلت أسرج جواده وعنّه وتوشح سيفه، ثم أوقد النار وأخذ يعد القهوة ويدقها في الجرن ويلاعبه، فنزلت الحملة عند سعود الملحم (شيخ الحسنة يومذاك)، وطلبت منه أن يسلمها (مرعي)، ولكن سعود كان يعلم أن (مرعي) لن يسلم نفسه للحملة وسيفتك بها، وكان على مرمى النظر من سعود، وقد رأى منه ما رأى، فدفع لقائد الحملة مائتي ليرة ذهبية وأنكر وجود مرعي.

جديع بن قبلان الثاني:

لكم أنجبت هذه الأسرة كثيراً من الفرسان الشعراء الذين لا يكاد يخلو منهم جيل من أجيال الحسنة ومن هؤلاء كان جديع الثاني:

ولد جديع الثاني في البادية، وهو شاعر وفارس، إلا أنه لم يبلغ المكانة التي بلغها سلفه جديع الأول، ولم يصلنا الكثير من أشعاره، وأكثر ما روي عنه كان عن حرب الحسنة مع الموالي والغارات المتبادلة بينهم، ومن هذه القصائد قوله:

يا الله يا والي على كل والي يا خالق الدنيا عليك التدابيرْ

يا عالم بالغيب واللي جرالي يا الله تبدّل ساعة الشر بالخيرْ

صفوا عليّ مترفين العيالي[1] وداسن كتوفي معسكرات المسامير[2]

قمت أتفطن وين ربعي ببالي أهل البويضا[3] مهدمين الطوابير

السبعة اللي من سباع الرجالي سبعة سباع من الرجال المناعير[4]

يمسونهن مس الرشي بالمحالي وكن وردوهن ورد غربٍ[5] على بيرْ

أنا أبشركم طيبٍ يا لموالي وياما براسي من كثير الزعاطير[6]

بدأ جديع كغيره من الشعراء بذكر الله، راجياً وداعياً ومتوسلاً أن يبدل ساعة الشر التي أصبح فيها عندما أحاطت به خيل الأعداء وهو ملقى على الأرض وداسته بحوافرها بساعة خير كرماً منه ومنّة.

والقصة أن خيلاً للموالي أغارت على الحسنة وتصدى لها عدد من الفرسان بينهم جديع، فطعن ووقع على الأرض، وأراد الموالي الإجهاز عليه، لكن رفاقه أحاطوا به وانتشلوه من بينهم وظن الموالي أن (جديع) قد قتل وأشاعوا هذا الخبر عند أهلهم، وتذكر جديع في تلك الساعة سبعة من أقاربه، ولا ندري من هم هؤلاء السبعة، أهم الذين كانوا معه وأنقذوه، أم هم من الذين تخلّفوا عن النجدة ولم يكونوا ساعة

---

(1) الشباب المرهفين (المترفين).

(2) الخيل.

(3) الحسنة.

(4) رؤوس القوم.

(5) الدلو.

(6) المروءة والحمية.

الطلب؟ أم هم سبعة من الذين ماتوا؟، وتمنى جديع أن يكونوا أحياء حاضرين في تلك الساعة، ووصفهم بالرجال المناعير، ويعني بها خيرة الرجال شجاعة وكرماً.

وهذه الصورة قريبة من الصورة التي يبكي فيها جديع الأول خمسة من رجال أهله عندما قال:

أبكي على الخمسة نوادر هلٍ لي أقفت بهم سمر الليالي تلالي

إذ قال جديع الثاني:

السبعة اللي من سباع الرجال سبعة سباع من الرجال المناعير

وكناهم بأهل البويضا، وهي (نخوة الحسنة)، وذلك أن أحدهم إذا استثير أو امتشق السيف للقتال يقول: (راعي البويضا حسيني) ونعتهم بـ (مهدمين الطوابير)، والطوابير: صفوف الفرسان وقد انتظمت للقتال فهم يهدمونها ويدمرونها إذا حملوا عليها، وذلك بقوله:

قمت أتفطن وين ربعي ببالي اهل البويضا مهدمين الطوابير

ثم يصفهم وهم يكرون على الأعداء، وكل منهم حنى ظهره على جواده يحثه ليزيد من سرعته، مستعيراً لهم صورة من واقعة البدوي مشبّهاً كلاً منهم في حثّه لفرسه بالحبل الذي يحتك بالبكرة المركبة على فوهة البئر، فيقول:

يمسونهن مس الرشي بالمحالي وكن وردوهن ورد غرب على بير

والرشي جمع رشاء: وهو الحبل الذي يربط به الدلو، والمحالِ جمع محاله: وهي بكرة تثبت على عمود يغرز عند فوهة البئر ليجري عليها الحبل عند انحدار الدلو في البئر وعند خروجه.

وفي نهاية القصيدة يزف البشرى إلى الموالي بأنه ما يزال حياً يرزق، وأنه ما يزال في رأسه كثير من الخطط والثقة بالنفس والحزم والشدة عند اللقاء، وكنّى عن كل هذه الصفات بكلمة (الزعاطير)، فقال:

أنا أبشركم طيبٍ يا الموالي ويا ما براسي من كثير الزعاطير

وهي ليست بشارة خير للموالي على كل حال، ولكنها بشارة شر وتهكّم.

وقال جديع بن قبلان الثاني معاتباً أمير الموالي:

يا راكبٍ من فوق مومي العلوقِ(1) تأخذ عليها من خفيف الرسالة

---

(1) هو البعير الذلول. والعلوق: هو ما يعلق على هذه البعير من أدوات زينة من النسيج المزين بالأهداب الملونة.

لا جيت ذباح الغنم والفروق[1] سلم عليه وسايله كيف حالهْ

يا مير ليه بشياه راشد[2] تبوقِ[3] فرشت وجهك للحديدي عتالهْ[4]

أنتم عليكم البوق[5] والرب فوقي وحنا علينا ردهن بالجمالهْ[6]

ركبوا عليكم مخضبين العروقي[7] أهل البويضا كل أبوهم جهالهْ[8]

بارودكم لخشوم ربعي نشوقي عطر البنية وأن تنثر دلالهْ[9]

يحمل جديع راكب هذا البعير رسالة خفيفة إلى أمير الموالي يعاتبه فيها على حنثه بوعده وعدم وفائه بعهده الذي قطعه على نفسه، بأن يعيد إلى الحسنة كل ما ينتهب منهم من مال وحلال سواء عند عشيرة الموالي – خاصته – أو عند عشيرة الحديدين.

وكان قد تم اتفاق بين الحسنة وأمير الموالي أن يعيد كل طرف منهم للآخر ما يسلبه اللصوص وقطاع الطرق، وكان الحديديون مشمولين بهذا الاتفاق بتعهد من الأمير، وحصل أن أخذ الحديديون غنماً لراشد الطعيميس، ولما طولب الأمير بتنفيذ تعهده وإعادة الغنم إلى راشد، حنث بوعده وتنكر للاتفاق المبرم بينه وبين الحسنة وسمح للحديديين بالاحتفاظ بالغنم.

والبوق الذي يعنيه الشاعر: هو الخيانة، فيقول له:

أنتم عليكم البوق والرب فوقي وحنا علينا ردهن بالجمالة

هكذا شأنكم أيها الموالي الخيانة أبداً، ونحن شأننا الرد بالوفاء والجميل، ثم يقول له: (ركبوا عليكم مخضبين العروق)، والعروق: جمع عرق وهي أعواد الرماح يخضبونها شباب الحسنة بدماء الأعداء، والجهالة الذين يعنيهم الشاعر: هم الشباب، وهؤلاء الشباب من الحسنة الذين لا يرهبهم البارود بل يطربون

---

(1) الإبل.

(2) راشد الطعيميس.

(3) تغدر.

(4) عارية.

(5) الخيانة.

(6) الرد الجميل.

(7) الرماح.

(8) الشباب.

(9) دلالها: زينتها.

لصوته ورائحته التي يتنشقونها وكأنها عبير العطر الذي يفوح من ثياب الحسناء ليلة زفافها، هم الذين يكيد بهم جديع أمير الموالي ويقهره.

وحل جديع الثاني ضيفاً على أحد الحضر، فقدم له بعض الفاكهة وفيها خيار، وقال له: كل هذه الخيارة، أو قال: صف لي هذه الخيارة، لا ندري، فقال جديع:

يا لله يا خلاق ليل ونهاره يا خالق الجنة أيضاً مع النارْ

خلا القمر والشمس يمشن جهاره متخالفات دب الأيام سيارْ

لا طلعت الشمس وبان النهاره الناس تمشي بالدلايل والأبصار

لا غابت الشمس وبان السماره الليل أظلم وانكمش شوف الأنظارْ

قالوا خياره قلت ما هي خياره ولا هنا خيارة غير زينات الأثمارْ

خيار الملا اللي عليه الزياره محمد نبي الله نأتيه زوارْ

خيار البيوت كبارها والصغاره البيت بيت الله حجابٍ عن النارْ

خيار الخيار خياركن يا المهاره لاجت مع أول الخيل مغوارْ

خيار الخيار خياركن يا البكاره لاجت مع أول الذود معطارْ

خيار الملا أريد ربع سكارى صيحاتهم تجلي عن كبدي مرارْ

ما قلطوا للضيف كثر العذارا وبأيمانهم ما حاشن الخمس للنارْ

البكارة: جمع بكرة وهي الشابة من الإبل التي لم تلد بعد، ربع سكارى: المجموعة من الفرسان الذين أسكرتهم نشوة الحرب فبدوا كأنهم سكارى بفعل الخمرة لما يبدونه من الأقدام والأفعال الخارقة.

قال شاعر الفصحى:

تدرعوا العقل جلباباً وإن حميت نار الوغى خلتهم فيها مجانينا

فصيحات هؤلاء السكارى الذين يريدهم جديع في المعركة هي التي تجلي عن كبده مرارة طعم الحقد الذي يكنه في صدره للأعداء، ورهط جديع هؤلاء أو ربعه كرام أيضاً لا يتذرعون بالأعذار الواهية إذا جاءهم الضيف، وكل ما حصلت عليه أيمانهم يوضع على النار فيطبخ ويقدم للأضياف، وهذا ما يعنيه في قوله:

ما قلطوا للضيف كثر العذارى وبأيمانهم ما حاشن الخمس للنار

الخمس: هن أصابع اليد الخمسة.

واوي المدحلي:

ولد واوي في البادية، ولا يعرف تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، ويقال إن أمه نذرت إن هي رزقت ولداً ذكراً لتمسيّنّه بأسماء الوحوش، فرزقت ولدين أسمت أحدهما ذيب والآخر واوي.

كان واوي فارساً لا يشق له غبار، ولا ريب أن له مواقف خالدة مع خيل الحسنة، إلا أن أخبار تلك المواقف ذهبت في صدور الذين ماتوا من الرواة، ولم يصلنا منها إلا الأقل من القليل، ولعل في الرواية الصغيرة التالية ما يلقي لنا ضوءً على جانب من شجاعة واوي وبلائه في القتال.

فلأمر ما نزح واوي إلى عشيرة السبعة وأقام فيهم زمنا، وجاء في أحد الأيام رجل من حجاج يبحث عن ذود له أضاعهن، فوجدهن في إبل رجل من السبعة، فاستاق الذود وأناخهن أمام بيت واوي، (وهذا يعني أنهن قد أصبحن في جيرته)، فجاء السبيعي وأخذ النياق، ولم يرع حرمة البيت، فحمل واوي رحاله وسار عائداً إلى الحسنة ومعه قريبة الحجاجي، وبعد مسير يومين، قال واوي: الآن نعود ونأتي بذودنا، فعادا واستاقا الذود – والإبل في مرتعها بعيدة عن أهلها – ولحق بهم الطلب، المؤلف من خيل لم يحدد الراوي عددها، وعندما اقترب منهما الطلب، قال واوي لقريبه الحجاجي: اذهب أنت بالنياق وأنا أكفيك شر الطلب، وكرّ واوي على الخيل.

لم يكن فرسان الطلب أغماراً ولا جبناء، ولكنهم كانوا يجهلون شجاعة واوي وشدة بأسه، ولذلك فإنهم سخروا منه وضحكوا عندما أقبل عليهم منفرداً، ولكن ضحكاتهم ما لبثت أن تحولت إلى صيحات ألم وتأوهات من ضربات سيف واوي الموجعة، وهو يخترقهم كالسهم لينفذ من طرفهم الآخر، فطاردوه ولكنهم لم يدركوه، ثم انثنى عليهم.

لم يكن في هذه المرة ضحك ولا استهزاء، بل كان هناك تحفز مذعور لإفساح المجال أمام جواد واوي الذي أقبل ينهب الأرض بيديه.

كان عهد الطلب بواوي ذلك الغريب الهادئ الخجول، أما الآن فإنه يبدو كعفريت من الجن ذعرت صرخاته المخيفة خيلهم ومزقتها، وفي هذه المرة أوقع فيهم عدداً من الإصابات أيضاً، ثم تجاوزهم لينثني عليهم، عندها قال عقيد القوم: أطيعوني وخلّوا عنه، فوالله لو أن مع هذا الواوي ثعلباً ما عدنا إلى أهلنا، وناداه قائلاً: اذهب وشأنك يا واوي، فليس لنا عندك بعد الآن غاية، فانكفأ الطلب عائداً، وذهب واوي وقريبه بالنياق.

محمد الفيصل الملحم (المحزّم):

هو أبو نايف محمد بن فيصل بن راجح بن مزيد الملحم، وهو إضافة إلى شامان بن صفوق الملحم آخر اثنين من فرسان السيف في عشيرة الحسنة، حيث دخل فيما بعد البارود ضمن تسليح البدو وانتهى عهد السيف والسنان.

ارتحل محمد في طفولته مع والده فيصل إلى الجزيرة الفراتية على إثر خلاف بينه وبين أبناء عمه، وجاوروا هناك الشيخ جدعان بن مهيد سنين طويلة، كبر خلالها محمد الفيصل وأصبح فارساً تتناقل أخباره الركبان، ويتردد اسمه خلال المعارك التي كانت تدور بين الفدعان وأعدائهم، ولقب هناك بالمحزّم لأنه كان يشدُّ وسطه بالحزام ويشمر ثيابه قبل الدخول في المعركة، ثم عاد محمد المحزّم مع أهله إلى عشيرته الحسنة وأصبح فارسها وحامي مؤخرة خيلها.

ومن الأيام المشهودة التي كان له الفضل فيها في الدفاع عن خيل الحسنة ما رواه لي والدي، قال:

غزونا عشيرة السبعة – فخذ العبده – بخيلٍ كثيرة، وكنت يومها غلاماً حدثاً في أول غزوة لي، فأغرنا على العبدة واستقنا إبلاً لهم، فلحقنا الطلب من أهل الإبل وأخذ يجيء الطلب إثر الطلب، حتى تكاثر القوم وأصبحوا أضعاف عددنا، وتجالدنا معهم ساعات طويلة، ثم أعطيناهم ظهورنا وأخذت خيلنا شكل رتل طويل والقوم محيطون بنا عن يميننا وعن شمالنا ومن خلفنا، وكنت لا تسمع إلا كلمة (امنع يا خيال) والذي لا يقبل المنع فيدركونه، كانوا يتعاورونه بالسيوف، وكنت في آخر القوم لأت فرسي لم تكن من جيد الخيل، وأخذت أتوقع الطعن في ظهري بين لحظة وأخرى.

وبينما نحن على هذه الحال، إذ بفارس مكشوف الرأس قفّ شعر رأسه وبيده حربة يلوح بها على ظهر فرس سوداء يقال لها (العبية) يعود إلينا من أول الخيل وهو يلاعب حربته بيده وينشد (يا أبو زميّم راعني يا أبو زميّم راعني)، وانقض على الخيل التي ركبت أكتافنا كما ينقض الصقر على الصيد، فما بقي أحد ممن كانوا خلفنا إلاّ نال نصيبه من حربته، حتى أعادهم عنا مسافة بعيدة، ثم لحق بنا وقد انحنى على ظهر (العبيّة) وهي تجري به كنسيم الريح، وكانت تلك نهاية الالتحام بيننا وبين القوم إذ لم يجرؤوا بعدها على اللحاق بنا.

أتعرفون من هو ذلك الفارس؟ إنه أبو نايف محمد الفيصل (المحزّم) درع خيل الحسنة وحصنها المنيع.

شامان صفوق الملحم:

هو أبو فواز شامان بن صفوق بن فارس بن مزيد الملحم، وأمه فطيم المهوس المقبل.

ولد في البادية، ولا نعرف تاريخ ولادته بالتحديد، وهو الابن الأكبر لأبيه والابن الوحيد لأمه، نشأ شامان في بيت على جانب من الثروة، وكان أبوه صفوق يتمتع بمكانة اجتماعية كبيرة في العشيرة كونه أخاً لسعود الملحم شيخ الحسنة، كان شامان قوي البنية منذ صغره، ظهرت عليه علامات الفروسية والشجاعة مبكرة، كان أقرب إلى الطويل من الرجال، مهيب الطلعة، عريض ما بين الكتفين، ذو وجه أغر متسع، وشاربين طويلين.

ولحب والده له وخوفه الشديد عليه، كان عند القتال يعزله بعيداً عن المعركة، فلما كبر شامان واشتد عوده لم يعد يذعن لأمر أبيه، فأخذ يكرّ على الأعداء عند اللقاء في مقدمة خيل الحسنة، واشتهر بقوته وشجاعته التي تغنت بها النساء في الأفراح والمناسبات، منها قولهن:

حطوا على شامان حجاب[1] السلامة ابغيه عزٍ لي[2] وبتالي الجهـامـة[3]

حطوا على شامان حجاب الموت ابغيه عزٍ لي وليا ذعذع الصوت[4]

ومما يحكى عنه أنه في احدى المعارك التي استمرت من الصباح حتى منتصف النهار، وبعد انتهاء المعركة أراد أن يلقي السيف من يده فوجدها قد تشنجت على السيف وأحكمت أصابعه على مقبضة وتجمد الدم عليها، ولم يستطع نزعه من يده حتى غمسها في الماء الساخن وعالجها طويلاً حتى انفرجت أصابعه عن مقبضه.

وروى لي والدي القصة التالية، قال: أغرنا على أهل الجبل (عشيرة الغياث) واستقنا إبلاً لفليج المقدم أحد فرسان أهل الجبل المشهورين، وكنا نحو أربعين فارساً من الحسنة وفينا شامان الصفوق ومحمد الفيصل المحزّم، وبعد أن خرجنا من الحرة ووصلنا السهل – وهي أرض مأمننا – لأن أهل الجبل ليسوا كفئاً لنا فيها، فهم اعتادوا القتال في الأرض الوعرة ذات المساتر الطبيعية، تنحينا جانباً عن خيلنا أنا ومحمد وشامان ونزعنا الأعنة من رؤوس الخيل، وقد شغلنا الحديث وخيلنا تسير مع أيمننا تسوق الإبل، وحال بيننا وبينها مرتفع بسيط من الأرض حجب عنا رؤيتها، فلما انكشفت الرؤية فوجئنا بخيلنا تجتازنا

---

[1] هو التميمة أو ما يكتب على الورق من آيات القرآن الكريم ويعلق في العنق أو يحمل تحت الإبط كي يحمي حامله من الشر أو العين.

[2] ناصر لي.

[3] هي الأظعان.

[4] ارتفع وهو صوت النذير في الحي إذا داهمه الأعداء.

منهزمة وخلفها مجموعة من فرسان الغياث (أهل الجبل) يتقدمهم فليج المقدم صاحب الإبل، وهو يرتجز ويقول: (يا بخت فليج بنياقه)، وترجلنا لنعنّ خليلنا أنا ومحمد وشامان، فقال شامان: يا خالي يا خالد ويا محمد يا أبا نايف، أقسم عليكم أن تخلوا بيني وبين هذا الفارس وخيله فأنا أكفيكم إن شاء الله شرّه، فركبنا الخيل ووقفنا ننظر ماذا يفعل شامان بعد هذا القسم.

اعتلى شامان الجواد وامتشق الحسام، كان شامان أهيب من ذي لبدتين وهو في مجلسه، فكيف إذا ثار والسيف في يمينه ورجلاه في الركاب؟ وكما ينقض الليث الهصور على فريسته انقض شامان على خصمه، وبالتفاتة سريعة من فليج نحو شامان، شدّ فليج عنان فرسه ووقف مكانه ينظر إلى هذا الفارس الذي أقبل عليه.

لم يكن فليج جباناً ولا غمراً، بل فارساً شجاعاً فاتكاً، وهو منذ لحظات كان يرتجز بسيفه خلف مجموعة من خيالة الحسنة وهم يفرون أمامه، ولكن الأمر اختلف الآن كثيراً وبسرعة، فالفارس القادم عليه لم يرَ مثيلاً له من قبل، فقد بدا له كأنه كتلة صخر ملتهبة حطت من فوهة بركان عنيف، فإذا لم يتنحَ عنها سحقته، فقدّر بنظره الثاقب وخبرته أن القادم نحوه هو شامان، فهو لم يره من قبل، ولكنه سمع عنه الشيء الكثير، وما دام الخصم شامان، إذاً فالمعركة خاسرة من جانب فليج وعليه أن يقرر بسرعة ماذا يفعل، ولم يكن له من خيار سوى الانسحاب، وبمهارة فائقة أدار فليج جواده وغمزه برجليه فاندفع كالسهم إلى حيث وُجّه، وأخذت الضربات من قدمي فليج تتوالى سريعة على جنبي الجواد، لقد انهزم فليج المقدم فارس أهل الجبل واندفع شامان خلفه، فكانا كالبرق يتبعه الرعد، وارتفع خلفهما خطّان طويلان من الغبار.

كان المنظر جميلاً وباعثاً للفخر والاعتزاز لخيالة الحسنة ومخيفاً محزناً لخيالة فليج الذين وقفوا مشدوهين ينظرون إلى قائدهم المنهزم، وربما كانت هذه المرة الأولى التي رأوه بها على هذا الحال، وأدركوا أن هذا الفارس سيعود إليهم بعد أن ينتهي من فليج، ولم يضيعوا الوقت فتخلوا عن الإبل وأرخوا الأعنة لخيلهم باتجاه الحرة.

لم يستطع شامان اللحاق بفليج إذ كان الأخير على سرج سابح لا يلحق، وفرس شامان أيضاً من كرام الخيل ولكن من يدري، فالأعمار بيد الله، وربما لم يحن أجل فيلج بعد، وتابع محدثي: ولما يئس شامان من اللحاق بخصمه تركه وعاد إلينا فاستقنا الإبل وأكملنا سيرنا.

ولما نزغ الشيطان بينه وبين ابن عمه طراد رئيس العشيرة يومذاك، أخذ يجمع حوله الرجال، ويرسل التهديدات إلى شامان، فأرسل إليه شامان يقول: ((لا تتعب الناس معك ومعي، تعال نتفق أن أركب فرسي وأذهب خلف هذا المرتفع واركب أنت فرسك والحق بي وهناك تجري تصفية الحساب))، لم يوافق طراد على العرض، ليس لجبن فيه، بل كان شجاعاً متهوراً أحياناً، ولكن شامان من ذلك الطراز النادر من الأبطال إذ كان يساوي خيلاً بكاملها، ولا طاقة لطراد به في مبارزة منفردة على النحو الذي يريد.

وعن موقف آخر مشابه من مواقف شامان، قال والدي: لما اشتد الخلاف بين شامان وابن عمه (طراد) وانفضّ الناس من حول شامان دخلت عليه عشية أحد الأيام فلم أجد عنده سوى واحد من عبيده.

كان شامان يجلس متربعاً يدخن (النرجيلة) وبندقيته تحت ركبته اليمنى، فجلست أمامه متربعاً أيضاً، ووضعت بندقيتي معترضة فوق فخذي ،وبعد سؤالي عن حاله، قال: حدثني يا خالي، فبدأت حديثاً لا أذكر فحواه، ولكن العبد قاطعني قائلاً لشامان: إن طراد ورجاله جاؤوا ليفتكوا بك يا عمي، فلم يلتفت إليه شامان، ولم يبد عليه أي أثر من اهتمام أو خوف، واكتفى بأن قال له: أنهم طيبون وسيعودون قبل أن يصلوا إلينا، وطلب مني أن أتابع الحديث هنا لا بد من التدقيق والمقارنة بين الروايتين ، وكنت في موقف لا أحسد عليه آنذاك، لأن كلاً من شامان وطراد ابن عمٍ غالٍ وصديق حميم، بيد أن وجودي عند شامان في تلك اللحظة كان يحتم عليّ البقاء إلى جانبه.

ثم عاد العبد مرّة أخرى ليقول: إن الرجال كادوا يصلوننا يا عمي، وهنا أخذت أسمع ضوضاء القادمين تخترق سكون الليل وتقترب منا، كنت انتظر من شامان أن ينهض ليتخذ لنفسه مكاناً خارج البيت يقاتل منه ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، وبنفس الشجاعة ورباطة الجأش في المرة الأولى، أجاب شامان العبد قائلاً: إنهم طيبون وسيعودون، وطلب مني متابعة الحديث أيضاً، كان بإمكان المهاجمين أن يرونا بوضوح ونحن نجلس تحت ضوء السراج المعلق بعمود البيت، وكنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن يخترق الرصاص جسدي وجسد شامان، وحدثت نفسي: أي نوع من الرجال هذا؟ بل أي جبل هذا الذي لا تحركه الريح ولا تهزه الأعاصير وتابعت حديثي، ولكنني بدأت أسمع ضوضاء الرجال تخفّ مبتعدة شيئاً

فشيئاً، فاعتقدت أن القوم يتراجعون وعزز هذا الاعتقاد دخول العبد علينا وهو يقول متهللاً: إن القوم عادوا[1] من حيث أتوا، عندها قال له شامان: أما قلت لك؟ .

[1] من المؤكد أن طراد لم تكن غايته قتل شامان، وما فعله هو نوع من التهديد واستعراض للقوة ولعل ذلك بعض من سياسة طراد الحكيمة، إذ كان أحياناً يفضل أن يهز العصا ولا يضرب ولكن شامان اجتاز الامتحان بنجاح منقطع النظير وأثبت أنه بحق من أشجع الرجال وأصلب الرجال.

شامان يكمل المسيرة:

عندما قامت الثورة العربية الكبرى ووصلت طلائع الجيش العربي إلى الأردن بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، سار محمد الملحم بعشيرة الحسنة للانضمام إلى جيش الثورة العربية ومعه شامان، ولكن الدولة العثمانية أرسلت حملة عسكرية أدركت الحسنة عند قرية الهيجانة جنوب شرق دمشق، وطلب قائد الحملة التفاوض مع محمد الملحم على ألا يرافقه من رجاله سوى اثنين، فجاء محمد ومعه شامان ورجل آخر لمقابلة قائد الحملة.

وتقابل الفريقان على رأس تل صغير قرب قرية الهيجانة، ووقف القائد التركي على رأس التل وخلفه قواته ومعه جنديان، وتقدم محمد منه ومدّ يده للسلام عليه، فأمسك به القائد التركي وسلّمه للجنديين اللذين يرافقانه، وكان محمد يشكو من عرج في رجله ولا يقوى على العراك، فكّر عليهم شامان، واستخلص محمداً منهم، وجاء به إلى فرسه وأمسكه مقودها، وقال له: اركب، ثم انصرف إلى فرسه ليركبها، فعاجل القائد التركي وجنوده محمداً وأمسكوا به واقتاده، وانضمت إليهم باقي القوة وأحاطوا بمحمد، فحمل عليهم شامان على ظهر جواده بالسيف فأطلقوا النار عليه وقتلوا جواده، فانصرف إلى فرس محمد الملحم وركبها وحمل عليهم بالسيف ثانية فقتلوا الفرس الثانية، عندها عاد شامان إلى العشيرة وأكمل مسيرتها إلى الأردن، وهناك قابل الأمير فيصل ووضع نفسه تحت تصرفه، فسرّ الأمير فيصل بلقائه وأحسن استقباله، ولما دخل الجيش العربي مدينة دمشق بعد هزيمة الأتراك كان شامان في مقدمة الفرسان الذين يحيطون بالأمير فيصل.

وكان لشامان فيما بعد دور فعال في الكفاح الوطني ضد الاستعمار الفرنسي من خلال تعاونه مع الشيخ صالح العلي قائد الثورة في جبال العلويين، ويذكر المقربون من شامان أنه كانت ترد رسائل وأسلحة من الملك فيصل الأول ملك العراق إلى الشيخ صالح عن طريق شامان.

هكذا يموت الرجال:

حدثني محسن بن صالح التركاوي، وهو واحد من صحب شامان الذين كانوا معه حين تعرض للحادث الذي أودى بحياته، قال:

كنت برفقة شامان الملحم يوم تعرّض للحادث الذي أودى بحياته في محطة رياق من قضاء الهرمل في لبنان، وكان يومها يتحدث إلى رجل لا أعرفه قريباً من خط القطار، فلما تحرك القطار من المحطة التفّ طرف عباءة شامان على مقصات القاطرة، فهوى تحت العجلات ومرّت على ساقيه، فحملناه بالقطار الذاهب إلى حمص.

وجلست إلى جانبه، وعلى الرغم من قصر زمن الرحلة بين رياق وحمص، كانت بالنسبة لي أطول رحلة قطعتها في حياتي، لأنني كنت أنظر إلى رجل من أشجع ما رأيت من الرجال وهو يموت على هذه الحال.

ورغم عظم الإصابة التي حصلت له – إذ هرست ساقاه– لم يتأوه ولم يتألم ولم تبدُ عليه أية علامة خوف، وعندما اقتربت الرحلة من نهايتها وأصبحنا على مقربة من مدينة حمص، سألني شامان قائلاً: يا محسن، هل رأيت فيّ ضعفاً، وهل تأوّهت، أو خارت عزيمتي؟ فقلت وأنا أحبس عبرتي في عيني والأسى يعصر قلبي: لا يا أبا فواز، إن الضعف والهوان بعيدان عنك وستشفى بإذن الله.

وخرجنا به من حمص إلى قريته الظاهرية، وانتشر الخبر المفجع في العشيرة، فتداعى الرجال من كل حدب وصوب، وأحضر طبيب خبير بعلاج الكسور يقال له (ابن ميدع) فكشف عن ساقي شامان وكان منظرهما مخيفاً ومحزناً، ولم يطق أقرباء شامان رؤيته على تلك الحال فخرجوا جميعاً من البيت، وتعالت أصوات الكثيرين منهم بالبكاء، ووقع (ابن ميدع) في حيرة لأنه كان أمام حالة لم ير مثلها قط!

لم يكن ابن ميدع تلميذاً مبتدئاً، ولكن حالة شامان كان ميؤوسا منها، فقد سحقت ساقاه سحقاً واختلط العظم باللحم، ولاحظ شامان حيرة الطبيب وتردده، فقال له: افعل ما يروق لك يا بن ميدع ولا تأخذك بي رحمة، وقبل أن ينتهي الطبيب من لف الضماد على ساقي شامان المسحوقتين، كانت روحه قد خرجت من جسده وفارق شامان الحياة.

وبموته مات آخر فارس من فرسان الضرب بالسيف في عشيرة الحسنة، وبكت نساء العشيرة شامان كثيراً، وعلى مثله تبكي البواكي، وكيف لا يبكين من كان سترهن وحصنهن في الملّمات وهنّ اللواتي كن يتغنين به في المناسبات:

حطوا على شامان حجاب السلامة أبغيه عزٍ لي وبتالي الجهامة

حطوا على شامان حجابٍ عن الموت أبغيه عز لي وليا ذعذع الصوت

ولكن أين السلامة والموت قدر ابن آدم الذي لا بدّ منه؟ ومات شامات فارس الحسنة وأغنية نسائها..

رحم الله شامان، فهكذا يموت الرجال.

محمد بن ملحم الملحم:

هو أبو عبد الكريم محمد بن ملحم بن فارس بن مزيد الملحم، ولد في بادية الشام ولا يعرف مكان ولادته وتاريخها تحديداً.

وكان فارساً وشاعراً، وبالرغم من كون عمه سعود الفارس شيخاً للعشيرة، إلا أن محمداً كان يحتل مركز الصدارة اجتماعياً وقيادياً لما كان يمتاز به من صفات الفارس البدوي المتمثلة بالشجاعة وحب المغامرة والولع بالمغازي، ولم يكن لعمه سعود من الشيخة سوى شكلها الخارجي، أما من الناحية العملية فكان محمد هو القائد الفعلي لخيل الحسنة في الغزوات، وإليه يرجع البتّ في الأمور الهامة ضمن العشيرة وخارجها.

وكان يمتلك مهارات نادرة في الرماية وركوب الخيل، ويحسن التصرف في اللحظات الحرجة، ففي الرماية قلما كان يخطأ الهدف وهو على ظهر الجواد مسرعاً، أمّا في ركوب الخيل فهذه مهارة مكتسبة، لأنه عايشها ومارسها منذ نعومة أظفاره.

حدثني والدي وهو واحد من أقران محمد وأصدقائه المقربين، ومن الذين كانوا يساوونه سناً، فما من غزوة غزاها محمد ولا روحة وغدوة ولا طلب في إثر إبل أخذها الأعداء إلا كان والدي رفيقاً له فيها.

قال: سرنا في غزو كبير ضم الرولة وبني وهب والسردية وكان عقيد الغزو النوري الشعلان، ووجهته نحو فخذ العبدة من عشيرة السبعة لإدراك ثأر لنا عندهم، ولما أصبحنا على مسيرة يوم من القوم دفع عقيد الغزو أربعين فارساً خيلهم من أجود الخيل وأسرعها يسمون: العيون، ليستطلعوا لنا العبدة.

فانطلق العيون في الصباح الباكر وعادوا إلينا في ضحى اليوم الثاني، وأفادوا بأن القوم علموا بأمر الغزو وأنهم يقومون بعملية تجميع لخيلهم استعداداً للمعركة، فقرر عقيد الغزو العودة والتخلي عن تنفيذ الغزو لأن عنصر المفاجأة فُقد، وستكون الخسائر كبيرة عند التقاء الطرفين.

فالعبدة جاءهم النذير في وقت مبكر وهم الآن للغزو بالمرصاد، كان قرار عقيد الغزو سليماً من الناحية القتالية لأن جلّ الغزو كان هدفهم الكسب فحسب، أما الثأر فكان لعشيرة الحسنة دون سواهم، ولا يريد أن يقحم كل جيشه في معركة غير مضمونة النتائج، والخسائر فيها بالأرواح محتملة الوقوع لأن القوم سيقاتلون دون حلالهم، ولكن رغبة الكثيرين من الغزاة كانت إتمام الغزو لأن العبدة أهل إبل كثيرة، وهم يطمعون بالحصول على غنائم كبيرة، والفوز بصيد ثمين بهذا العدد الكبير من الرجال.

ورقصت الخيل بالأعنّة والرجال على ظهورها وكلهم يريد الإغارة، فالصيد ثمين وكثرة الغزو تبعث الثقة بالنصر والفوز بالغنيمة، واندفع عبيد العقيد النوري الشعلان على خيلهم في كل اتجاه لينقلوا قراره بالعودة والاستنكاف عن إتمام الغزو، ويطلقون النار من بنادقهم محذرين الناس من مخالفة الأمر، وقالوا إنه لديهم الأوامر بقتل فرس كل من يخالف قرار العقيد.

وكنت أقف إلى جانب محمد الملحم وأذنا فرسي بحذاء أذني فرسه، فقال لي: (إن لم نأخذ بثأرنا اليوم من العبدة بهذا الجموع فلن نأخذه بعد اليوم أبداً)، ونزع منديله وعقاله عن رأسه ووضعهما في خرج فرسه، ونزعت منديلي وعقالي عن رأسي ووضعتهما في خرج فرسي تهيؤاً للغارة.

فقد أدرك محمد الملحم رغبة كل فرد من الغزو، وعرف أن رغبة الجميع كانت الوصول إلى الهدف والفوز بالمكاسب، وإن الأمر لا يحتاج إلا لقليل من العزيمة حتى يتحول الموقف إلى هجوم صاعق لا يستطيع عقيد الغزو ولا عبيده الوقوف أمامه، لذلك فلم يفوّت محمد الفرصة وقرر أن يفجّر المعركة.

وبكل ما في جوادينا من قوة دفعناهما باتجاه العبدة، وحدث ما كان يتوقع ويريد محمد الملحم، فما أن انطلقنا حتى انطلقت على أثرنا جميع الخيل، ولم تعد لتجدي صيحات التحذير التي أطلقها عبيد أمير الغزو ولا طلقات بنادقهم.

واهتزت الأرض تحت سنابك الخيل، وثار الغبار كأنه ضباب كثيف حتى أن أحدنا لا يكاد يرى أذني فرسه، وبعد مرور نحو نصف ساعة على بدء الغارة عارضتنا الريح وانكشف الغبار فإذا ما أمامنا من الخيل يزيد على الأربعمائة، وطبعاً أغار النوري وعبيدة وراء الغزو في النهاية.

فوصلنا القوم وكانوا مظعنين، وكنت أرى الأطفال الصغار يتطايرون من الحوايا على ظهور الإبل كأنهم الحصى، وغنمنا يومها إبلاً كثيرة، وكان عهدي بمحمد منذ اللحظة الأولى للغارة، وفي طريق عودتنا وقد أظلم الليل نادى منادي عقيد الغزو: أن أقيموا محمد الملحم مكسور، فتركت رفاقي عند المكاسب وأسرعت استطلع الخبر فوجدت محمداً مستلقياً على ظهره وحوله مجموعة من رجال السردية يفرغون ما في مكاحلهم في جرحه، وكانت قد أصابته رصاصة في ركبته اقتلعت صابونة الركبة (الرضفة) فشفي الجرح فيما بعد وبقي محمد أعرجاً في رجله اليمنى لا يستطيع طيّها، فإذا جلس مدها أمامه.

كيف انتهى محمد الملحم:

سبق أن ذكرنا أن محمد الملحم سار بعشيرة الحسنة إلى شرقي الأردن للانضمام إلى جيش الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، ولما علمت الدولة العثمانية بأمره أرسلت إليه حملة عسكرية بقيادة ضابط تركي أدركته عند قرية الهيجانة.

وعلى قمة التل القريب من هذه القرية تقابل محمد الملحم واثنان من رجاله أحدهما شامان الملحم مع قائد الحملة بناء على طلب هذا الأخير الذي وعده أنه يريد التفاوض معه ويعود بعدها محمد إلى أهله، ولكن الضابط التركي غدر به واستغل عدم وجود قوة معه فاعتقله وساقه إلى دمشق وهناك أعدم شنقاً على أحد الأقوال.

وقد اختلفت الروايات حول نهاية محمد الملحم، فمنها أنه قتل في مكانه فور إلقاء القبض عليه، ومنها أنه سيق إلى دمشق وهناك أعدم شنقاً، ومنها أنه نفي إلى جزيرة كريت في البحر الأبيض المتوسط.

والحقيقة أن نهاية محمد الملحم مسألة تدير الرأس، كونه لم تنقطع أخباره عن أهله، فلا يكاد ينسى ذكره حتى تأتي الأيام بخبر جديد عنه، فمن قائل إنه رأى كتاباً جاء من محمد الملحم إلى طراد الملحم، وقائل آخر أنه شاهده وتحدث إليه، وغيرها وغيرها من الأخبار والروايات والناس بين مصدق ومكذب، وكان أكثرهم حماسة وتصديقاً لكل ما يقال زوجته وابنة عمه نوف السعود، فلم تترك سبيلاً إلا اتبعته للوصول إلى الحقيقة، ولكنها في النهاية لم تحصل على شيء وبقيت الحقيقة في عالم الغيب.

فمن هذه الروايات ما رواه لي الشيخ ثامر الملحم، قال:

وصل إلى والدي طراد يوماً كتاب مرسل من قبل محمد الملحم، وكان والدي يومها في مدينة حمص ولم يقرأ الكتاب غيره، وانتشر خبر الكتاب وكثر التساؤل حوله، وفي أحد الأيام اجتمع الملحم في بيتنا وطلبوا من والدي تفسيراً وتوضيحاً لهذا الخبر، وما قصة هذا الكتاب، وبعد تقصي الخبر وجد أن مصدر تسرّبه هو عمي عبد الرزاق الملحم، فخرج به والدي من البيت وجلسا بعيداً يتناجيان، وكنت يومها غلاماً صغيراً، ولكنني أدرك معنى الحديث فسمعت والدي يقول لعمي: أأنت قلت إن كتاباً جاءني من محمد الملحم فأين ومتى حدث هذا؟

فقال له عمي: نعم قلت هذا، ألا تذكر الكتاب الذي جاءك ونحن في حمص يوم كذا وفي مكان كذا وسمى له اليوم والمكان، فقال له والدي: لا تحدّث بهذا أبداً وإن عدت لمثله سترى مني ما لا يرضيك والكتاب الذي رأيته هو من محمد الملحم الحركي (من عشيرة الحروك).

وكان يوجد مثل هذا الاسم في عشيرة الحروك، ولكن ما يدعو للشك هو أنه من المستبعد جداً أن يكتب رجل مثل محمد الملحم الحركي إلى الشيخ طراد الملحم وهما في منطقة واحدة يشاهدان بعضهما يومياً إذا أراد أحدهما وبسهولة.

أضف إلى هذا، أنه من غير المألوف مبدأ المراسلة بين فرد من العشيرة وبين رئيس العشيرة وهما يقيمان معاً قريبين من بعضهما، وعلى هذا النحو فسرّ الخبر وكُذّب.

والخبر الثاني جاء به عبد لفواز الشعلان كان يرافقه في إحدى رحلاته إلى أوربا، قال: إنه رأى محمد الملحم في إحدى الجزر في البحر وأنه كان يزوره برفقة عمه فواز أثناء إقامتهما في تلك الجزيرة.

وأعطى العبد أوصافاً صحيحة لمحمد الملحم كما هي معروفة عند أهله، ولكنه أنكر الخبر بعد أيام ولما سئل عن سبب انكاره قال: (عبد وكذب)، ووعدته نوف السعود زوجة محمد أن تعطيه فداناً من الأرض إذا هو أكد الخبر، ولكن العبد أصرّ على الإنكار وكذب ما كان قد قاله، ففسر سبب تراجع العبد عما قال في المرة الأول أنه إيحاء من جهة معينة ذات تأثير قوي عليه.

وتشاء الصدف أن يلتقي بعض أفراد أسرة الملحم برجل أمريكي في مدينة الرياض في المملكة العربية السعودية يعمل مندوباً لشركة نفط أمريكية اسمه محمد أمين، ويقول محمد أمين إنه ابن أمير عربي من بلاد الشام، وكعادتها عند مجيء خبر عن أبيها أسرعت مير ابنة محمد الملحم لتقصي حقيقة الخبر، فذهبت إلى الرياض وقابلت الأمريكي محمد أمين وأخذت عنوان أهله وراسلتهم، وبعد تبادل الرسائل وصل إلى قرية البيضاء امرأتان أمريكيتان قالتا إنهما ابنتا محمد الملحم، ويقال إن أحدهما بكت لما رأت صورة محمد الملحم معلقة على جدار بيت عبد العزيز الملحم، وقالت: هذه صورة والدي.

ومن أجل هذا السبب سافرت مير برفقة ولدها تامر الملحم وبعض أفراد أسرته إلى الولايات المتحدة لمقابلة هذه الأسرة التي قيل إنها أسرة محمد الملحم والتعرف عليها عن كثب، ولا ندري المحصلة التي عادت بها أم تامر بعد هذه الرحلة الطويلة.

ويبقى الله وحده هو العالم بمصير محمد الملحم شيخ العشيرة وفارسها وشاعرها الذي شغلت أخباره الناس عشرات السنين.

محمد الملحم شاعراً:

قليلون جداً هم الذين يعرفون أن محمد الملحم كان شاعراً، وأن شعره من جيد الشعر البدوي، وهو في معظمه إما رداً على تحدّي من جهة معينة أو في الفخر بأهله وعشيرته.

وأجمل شعره وأكثره هو ما كان بينه وبين الشيخ رشيد بن سمير رئيس عشيرة ولد علي، إذا كان الاثنان في تنافس مستمر كونهما رئيسين لعشيرتين قريبتين في النسب، ويمتلك الإثنان مواهب متقاربة في الذكاء والفروسية، وإن كان رشيد يفوق محمد بالدهاء والحيلة.

ومن بعض ما أثار النقائض الشعرية بينهما خلافهما على ودي ولد علي الذي كان من حق رشيد بن سمير، ولكن عندما كان ولد علي يصطافون في ديرة الشنبل كان يقوم بجمعه منهم محمد الملحم، مما أدى إلى خلاف كبير بين الإثنين، فاحتكما في نهاية الأمر إلى الوالي العثماني في دمشق، ولكن الوالي حكم لرشيد بن سمير بالودى أينما وجد ولد علي.

وبهذه المناسبة نظم رشيد بن سمير قصيدة وأرسلها إلى محمد الملحم يمدحه في بدايتها وينعته بالجود، ثم يقدم له تعازيه الحارة على خسارته في الحكم، فقال:

يا الله يا رزاق ربعٍ[1] مفاليس[2]	**تجلي صدا صدري وباقي الهموم**
عقب الذي شديت عشرة نسانيس[3]	**واركب عليهن من عيالٍ قرومِ[4]**
يلفن على محمد زبن[5] النواميس	**وبالعون زبن الوانية[6] والقحومِ[7]**
فنجال بن ولازمٍ يقرط[8] الكيس[9]	**وعمال كسرة[10] للطراريش[11] يومي**

[1] جماعة.

[2] عائدون من الغزو دون مكاسب.

[3] الركاب الطول الرفاع.

[4] أقوياء شجعان.

[5] صاحب النواميس، والنواميس الخصال الحميدة.

[6] الفرس في مؤخرة الخيل.

[7] الفرس في أول الغارة.

[8] يلقي.

[9] هو كيس التبغ.

[10] نهاية البيت الوسطى مما يلي الربعة.

[11] الطراق.

قل له صرك[1] راح للقرد وابليس وما هي علومك بالمجالس تزومي[2]

كأنك فسقان وطاغي خشمك[3] ابليس ترى الوعر ترمي خطاة العزوم[4]

لا شيء أحب إلى البدوي من الكسب، فهو يغزو ليكسب لا ليقتل ويعود بالغنائم إلى أهله فرحاً مبتهجاً، إذا أقبل عليهم أخذ يهلل ويطلق الأغاني التي قيلت خصيصاً لهذه المناسبات كأن يقول: جبنا الغنايم والعفن نايم، أو يقول:

يا زينة العينين قومي تحلي وادفعي عشيرك مع فتق الأخله

ويعني أنه لا ينام كما ينام عفن الرجال، وهو: الخمل الكسول، ولم يتقاعس عن الغزو ليجلس مع القواعد كالنساء.

ثم هو يخاطب الفتاة الحلوة الجميلة، زينة العينين، بأن تدفع زوجها المتخلف عندها مع فتق الرواق وتلقي به خارج البيت لأنه لا خير فيه، ومن أجل هذا كله بدأ رشيد قصيدته بنداء للفظ الجلالة الذي يرزق الغزاة بعد أن عادوا من غزوتهم مفلسين، فيقول:

يا الله يا رزاق ربعٍ مفاليس تجلي صدا صدري وباقي الهموم

ويسأله أن يزيل ما علق في صدره من الهم والحزن الذي أصبح بمرور الأيام يغلف قبله وصدره مشكلاً طبقة من الصدأ، كالتي تعلو الحديد حين يصدأ.

ثم بعد ذلك يهيئ عشراً من الركاب (النسانيس) ويعني بهن الطوال الرفاع السريعات، ثم يختار لهن الشباب القروم ليحملوا رسالته إلى محمد، زيادة بالإكرام والتقدير لابن عمه ابن ملحم، ثم يحدد لهم الهدف وهو بيت محمد (زبن النواميس)، والنواميس جمع ناموس وهي تعني عند البدو جميع الصفات الحميدة التي يفخر بها رجالهم.

ثم هو إلى جانب ما يمتاز به من هذه الصفات، شجاع لا يخاف الموت عند اللقاء وفي أثناء المطاردة، ففي اللقاء يصد راكب الفرس القحوم وهي الجريئة التي تكر بفارسها على خيل الأعداء عفواً دون جهد منه، أما في المطاردة فهو أهل للإيقاع بمن تأخرت به فرسه عن الخيل المنهزمة، أو من يحاول من الأعداء حماية مؤخرة قومه المنهزمين، والوانية هي الفرس في مؤخرة الخيل.

---

[1] هو الأعطية التي كانت الدولة العثمانية تدفعها لمحمد الملحم.

[2] تتباهى.

[3] أنفك.

[4] هي الفرس لا تستجيب لراكبها إذا شدّ عنانها.

ثم إنك واجد في ربعته رائحة البن المعطرة بالطيب، وبعد أن تأخذ نصيبك من القهوة العربية المرة، يلقي إليك محمد بالكيس المملوء بالتبغ إذا كنت ممن يهوون هذا، وهو كناية عن المبالغة في إكرام الضيف ليدخل السرور إلى قلبه بعد مشقة السفر وعناء الطريق، وتحت ذلك الكسر أو الكاسر (وهو العمود الذي يرفع به طرف البيت من أحد الأجناب) والذي أصبح لارتفاعه وكأنه رجل يومي بيده للطراق والمسافرين كي يمروا.

وبعد أن يأخذ أولئك الرجال القروم الذين شدّ لهم رشيد الرحال، نصيبهم من الراحة، يبلّغون رسالته إلى محمد بأن صره ذهب أدراج الرياح وأن المسألة ليست بالتعالي والتباهي في المجالس، فيقول:

قل له صرك راح للقرد وابليس ما هي علومك بالمجالس تزوم

وفي البيت الأخير يقول له ما معناه أنك إذا أطغاك الشيطان ووسوس إليك بأخذ حق غيرك دون أن تحسب حساباً لأحد، فاحذر فإن الفرس الجموح التي لا تستجيب لراكبها عندما يريد أن يجنبها المسالك الوعرة تتعثر وتقع، والبدو يسمّون هذا النوع من الخيل: عزوم، لأنها لا تستجيب لفارسها حين يشد عنانها.

كأنك فسقان وطاغي خشمك ابليس ترى الوعر ترمي خطاة العزوم

ويرد عليه محمد رداً قوياً بقصيدة من القافية نفسها، ولكننا لا نعرف إلا القليل منها وضاع منا كل ما بين المقدمة والنهاية.

يقول محمد الملحم في البيتين الأولين:

هنيت غرٍو[1] ما بقلبه هواجيس قلبه نظيف وخالي من الهموم

ما همه إلا ملية البطن والكيس[2] ومكيفٍ عند العذارى يحومِ

وفي البيت الأخير يرد على تحدي رشيد قائلاً:

كأنك فسقان وطاغي خشمك ابليس ترنا نفشك بالرجال القحوم

وهو نوع من مقابلة الشر بمثله، فإذا كان خصمه أطغاه ابليس وزين له عمله فأعجبته نفسه فإن لدى محمد دواء الغرور، وهو (الرجال القحوم) الذين يقتحمون خيل العدو ولا يهابون الموت وهم قديرون على إعادة الباغي إلى رشده وتحجيمه وإيقافه عند حده.

---

[1] الرجل الهامل الذي يخلو قلبه من الهموم.

[2] لا هم له إلا الأكل وتدخين التبغ والكيس هو كيس التبغ.

ويبقى هذا التنافس قائماً بين الرجلين، وفي أحد الأيام بينما كان الحسنة في الحماد بأرض اسمها الريشة، واشتد الخلاف والتحدي بين محمد ورشيد، وكان رشيد في ثروة من عشيرته الأقربين آل الدوخي الذين يتجاوز عددهم الأربعين فارساً، مضافاً إليهم عشيرة ولد علي ذات العدد الكبير والمعروفة بشجاعة رجالها وقوة بأسهم، ووجد محمد الملحم أنه بحاجة إلى مدد من أهله وبعض عشيرته الذين كانوا يقضون فصل الشتاء في القرى شرق حمص، وفيهم عمه سعود الفارس شيخ العشيرة، فبعث إليه محمد قصيدة يستنهض فيها همته ويستحث عزيمته ويدعوه للحاق به والرد على التحدي قائلاً:

وين الرجال الي على الخيل صلفين   أبو الجذيا قالطٍ للزحامي

والصلفين الشجعان الأشداء، وأبو الجذيا هو: الجخدم (الجليماني) – كما يسميه البدو – وهو تحقير لخصمه واستهانة به بأن شبهه بهذا النوع من الهوام، وقد بالغ محمد في تصغير شأن رشيد بلا ريب، فلو كان الأمر كما قال لما استنجد بعمه سعود، ولكن يجوز للشعراء ما لا يجوز لغيرهم.

ومن الريشة على الحدود السورية الأردنية يختار محمد اثنين من الركاب السريعات المعروفات النسب، ويختار لهن اثنين من الرجال الأشقياء الذين اعتادوا دلج الظلماء وشق عباب الصحراء ومعرفة مسالكها، لينقلا رسالته إلى عمه سعود، فيقول:

البارحة طالعت[1] زولٍ[2] وزولينْ   لا ما غدا[3] نهارنا كالظلام

والبارحة والنوم ما والم[4] العين   لا ما قادن[5] نابيات السنام[6]

من عقب ذا يا راكبٍ فوق ثنتين   لا زوعن[7] يشدن[8] رفيف الحمام

مدن من الريشة[9] عليهن مشقين[10]   لاضمضمن[11] يشدن ظليم النعام

---

(1) رأيت.

(2) خيال.

(3) حتى.

(4) لم تالف عينه النوم.

(5) حتى سارت الإبل.

(6) هي الإبل.

(7) إذا أدبرن.

(8) يشبهن.

(9) أرض في الحماد السوري.

(10) أشقياء.

(11) لا ضمضمن: إذا ركضن، والظليم: ذكر النعامة.

يلفن لأبو تامر[1] ذرى[2] كل مسكين ومحملاتٍ من كثير السلام

وين الرجال اللي على الخيل صلفين[3] أبو الجذيا قالطٍ[4] للزحام[5]

لا بد أن (محمد) كان في مأزق عند إرساله هذه القصيدة لعمه سعود، وهذا ما جعل نهاره يصبح ظلاماً، فأخذ يرى الهدف هدفين والشيء شيئين، لتراكم الهموم عليه مما جرى له وحراجة موقفه مع خصمه التقليدي الشيخ رشيد بن سمير، ولا يلام محمد في هذا، ففي السنة الشريفة: (اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال).

ثم إنه عندما اختلط ظلامه بنهاره لم يذق للنوم طعماً إلى أن غادرت الإبل مباركها صباحاً سارحة باتجاه مرعاها، إذ يقول:

والبارحة والنوم ما والم العين لا ما قادن نابيات السنامِ

وواضح من سياق البيت أن (محمد) بقي ساهراً ليله كله حتى صباح اليوم الثاني، ولكنه تركنا هنا في حيرة فهو لم يميز بين البارحة نهاراً والبارحة ليلاً حين يقول:

البارحة طالعت زول وزولين لما قادن نهارنا كالظلام

ونحن نفهم أنه يعني هنا بالبارحة نهاراً حتى اختلط معه النهار بالظلام، ثم يقول في البيت الثاني:

والبارحة والنوم ما والم العين لا ما قادن نابيات السنامِ

وهو هنا يعني بالبارحة ليلاً، وهذا اختلاط في المعاني في البيتين، ولا أدري هل هو خطأ وقع فيه الشاعر أم وقع فيه الرواة، وكان من الأفضل أن يقول في البيت الأول:

أمس الضحى طالعت زولٍ وزولين لما غدا نهارنا كالظلام

وهنا يبدو الأمر واضحاً لا غموض فيه، فهو لشدة ما فيه من ضيق، أصبح نهاره كالظلام، ثم بعدئذ يتبعه بالبيت الثاني فيقول:

والبارحة والنوم ما والم العين لا ما قادن نابيات السنامِ

فيكون بذلك قد انتقل من النهار إلى الليل إلى ضحى اليوم الثاني وهذا أقرب للفهم وأوضح للمعنى.

---

(1) هو سعود الملحم (عم محمد).

(2) حصن كل مسكين.

(3) أقوياء أشداء.

(4) متقدم.

(5) القتال.

وبعد ذلك يجهز محمد ذلولين سريعتين يشبهان في سرعتهما طير الحمام، ويختار لهن راكبين من الأشقياء العارفين بمجاهل الطريق ويحدد لهم البداية والنهاية في مسيرهما، فبدايته أرض الريشة في أقصى الجنوب الشرقي للحماد السوري ونهايته قرية الشيخ حميد شرقي حمص حيث ينيخان الركاب هناك أمام بيت عمه سعود، ويسلمانه الرسالة المستعجلة، فالرجل في ضيق من أمره وينتظر النجدة، ويستحث عزيمة القوم في بيته الأخير واصفاً إياهم بالصلافة على ظهور الخيل، ويعني بها كما أسلفنا الشجاعة وشدة البأس، فيقول:

وين الرجال اللي على الخيل صلفين أبو الجذيا قالطٍ للزحام

وهو هنا يصغر لهم شأن خصمه بتشبيهه إياه بأبي الجذيا، ولكنه لم ينصف الرجل، فهو في الحقيقة أمام شجاع داهية من الرجال، إنه أمام رشيد بن سمير أخو عذرا، وابن محمد الدوخي مسواط بقعا.

وعندما تزوج محمد الملحم امرأة فلاحة أنكر عليه أحد أعمامه ذلك، وقال: (عيب على محمد الملحم أن يتزوج من فلاحة)، فرد عليه محمد قائلاً:

أعلمك بالعيب والعيب عيبين يا الهيس[1] يا اللي راكسٍ بالعيوبِ

أول عيوبك تركك الفرض والدين وثاني عيوبك بالمجالس كذوبِ

قلبك هراج[2] ومرتعٍ للشياطين وشيبك ضلال وعاصية لا تتوبِ

يا ويل قلبك يوم ينفخ اسرافيل يا قرد[3] حظك من كثير الذنوبِ

والله العيب الهزيمة بين خيلين من كل عمرك بالملاقا خنوبِ[4]

يفنّد محمد هذا العيب للائمه، فهو يعيب عليه ثلاثة أمور: أولها تركه الصلاة وأمور دينه وثانيهما الكذب في الحديث، وثالثها خوفه عند اللقاء وتأخره بالكر على الأعداء، وكنّى عن ذلك بقوله:

والله العيب الهزيمة بين خيلين من كل عمرك بالملاقا خنوبِ

ثم يبدأ بالتفصيل موجهاً الطعنة نحو قلب لائمه، معيباً عليه ابيضاض لحيته ناعياً إليه عدم توبته، ثم يحذره من ذلك اليوم الموعود عندما يلتقم اسرافيل القرن وينفخ فيه فتهتز السموات والأرض وتصير الجبال

---

(1) الخامل.

(2) شديد الخوف.

(3) يا ويل.

(4) جبان.

كثيباً مهيلاً، فالويل له يومئذ من كثرة الذنوب وتعدد الآثام، ثم يختم قصيدته بطعنة قاتلة وهي الجبن عند اللقاء وأن صاحبه اللائم منذ يومه غير صادق في اللقاء:

والله العيب الهزيمة بين خيلين   من كل عمرك بالملاقا خنوبِ

والجبن أكبر عيب عند البدو، وخاصة رؤوس القوم منهم.

هكذا كان (محمد) دائماً، جارحاً في هجائه، فهو يكيل لخصمه الصاع صاعين، وقد رأيناه لاذعاً في هجائه لرشيد بن سمير وها هو الآن أشدّ في هجائه لمن لامه بزواجه من فلاحة، فجاءت كلماته أشدّ وقعاً من ضرب الحسام على لائمه، وعلى كل حال فإن محمد ألا يلام لأنه لم يرتكب حراماً ولم يأتِ بما يخالف السنة، وكل ما في الأمر أنه تزوج فلاحة، فهل هذا عيب أو حرام؟

إنها مفاهيم أهل ذلك الزمن وجاهليتهم!!

ويقرض محمد ضرباً آخر من الشعر يسمونه الحداء، وهو ما يتغنى به الفرسان على ظهور الخيل في ميادين السباق أو في الاحتفالات أو عند التهيؤ للقتال، وهو ما يثير حماسة الرجال ويستنهض هممهم، مثال ذلك قوله:

ما تسألن عن السبب   اللي فتن بين العرب

أعلمك بخبارها

بالليل وحنا نايمين   جونا اثنين فازعين

ينجب من قوم خيارها

وجبكم ياوية وجب   ذبح لكم كبش الغنم

هذا تكميل بهارها

ما فيكم واحد فعل   يا مروية هزله بالمحل

متكسرة تجارها

متناقلات[1] المنجمة   هذه من أكبر ملزمة

كيف الفاعوري يقحمه   خذى الغنم وحمارها

---

[1] هنَّ الجارات يتناقلن أو يعرن بعضهن المنجمة أو الميجنة ليثبتن بواسطتها أوتاد البيت. ويريد محمد أن يقول: أنه لزاماً علينا حماية جاراتنا وصيانة حقهن.

يقول محمد: أسألني عن سبب الفتنة التي عصفت بالحيين المتجاورين وأنا أنبئك بأخبارها، ويعاجل سائله بالجواب فيخبره بأنهم بينما كانوا نياماً في الليل، إذ أتاهم رجلان يستجيران بهم، وباختيارهما لهذا المجير إنما اختارا خيار القوم ويعني به نفسه، ومن اجل ذلك قال: (ينجب من قوم خيارها)، ثم يلوم رجال عشيرته على تقصيرهم في الدفاع عن جارهم، ويشبههم بتجار الغنم الذين هزلت غنمهم في أرض لا ماء فيها ولا مرعى، فكسدت تجارتهم وهبطت هممهم وظهر عليهم الوهن والضعف.

ثم تأتي القاصمة حينما يغار على غنم جارهم فتنتهك بذلك حرمة المستجير بهم، وعندما يذهبون للمطالبة بغنم جارهم ممن أخذها يذبح لهم كبش الغنم المنهوبة ويولم لهم به، فكان ذلك خاتمة الإهانة.

والحكاية أن اثنين من عشيرة الفواعرة استجارا بمحمد الملحم لأمر أحدثوه في عشيرتهم، وبينما كان الحسنة في مشتاهم في الحماد، وكان محمد متخلفاً عنهم في القرى شرق حمص أغار بعض الفواعرة على غنم المستجير بمحمد وأخذوها، ولما لحق بهم مجموعة من خيل الحسنة وحلّوا ضيوفاً عند الذي أخذ الغنم، أظهر لهم الاحترام وأكرمهم وأعاد إليهم قطيع الغنم وأولم لهم بكبش منها، ولم يعلم الحسنة أنهم أكلوا كبش جارهم إلا بعد عودتهم إلى أهلهم.

ولما علم محمد بالأمر قال هذه الأرجوزة من الحداء يلوم فيها عشيرته ويكيل لهم الذم على تقصيرهم في حق جارهم، وهنا بدا محمد أيضاً لاذعاً في انتقاده لقومه على ما حدث في غيابه.

ويذكر أن محمد الملحم ظلّ سبع سنوات يشن الغارات على الذين انتهكوا جيرته، وأخيراً رفعوا له راية بيضاء على ناقة وضحاء تركبها إحدى بناتهم وساقوها إليه مع غرامة عينية من الإبل –وكان هذا عرفاً سائداً بينهم – فأخذ محمد الإبل وأعاد المرأة إلى أهلها بعد أن تنازلوا عن حقهم عند (دخيل محمد) الذي أوقع الجرم فيهم.

خالد الخضير المقبل (راعي الدهما):

هو أبو الشايش خالد بن نايف بن خضير المقبل، ولد في البادية ونشأ فيها، ولم يعرف تاريخ ولادته على وجه الدقة، وقد يكون ما بين (1870-1880)، وهو آخر من بقي من المقبل، توفي أبوه نايف وهو لا يزال رضيعاً، نزح[1] في طفولته على أثر النكبة التي حلت بالمقبل إلى ولد علي في جنوب غرب سهل حوران، وجاور رؤسائهم آل الدوخي، ومكث فيهم حتى شب، وأخذ يغزو معهم حين يغزون، ثم عاد إلى الحسنة وأصبح فارساً متميزاً في خيلهم.

تدرب خالد على الفروسية وركوب الخيل منذ صغره، فنشأ فارساً مغامراً، عارفاً بفنون القتال، وحاذقاً في ركوب الخيل خبيراً بأنسابها، ولا يقتني إلا الكريمة منها، ولم يمنعه كونه آخر من بقي من أهله من أن يلقي بنفسه في المهالك.

قال لي مرّة: أغرنا على أعداء لنا في أرض اللجاة، وكانت الطريق ضيقة لا تتسع لأكثر من فرس واحدة وأمامي خلق كثير، وأردت أن أسبق الخيل فأكون في أولها ولم يكن لي من سبيل سوى الخروج عن الطريق، والغارة بفرسي في الحرة، ولما سألته كيف فعلت ذلك؟ أما خفت أن تتعثر فرسك بالحجارة الكبيرة الوعرة خارج الطريق؟ أجابني: الخيل يطأن على جناح جبريل، فلم يصبني أي مكروه وسبقت الخيل إلى الهدف.

وما من غارة شنت على قطعان إبل الحسنة إلا كان خالد في مقدمة فرسان الطلب، فيهزمون الأعداء ويستردون ما أخذوه، وكان من عادة خالد ألا يأسر من فرسان المؤخرة، لأن جيادهم ليست من كرام الخيل بل كان يجانب الأعداء المنهزمين ويلحق بالمقدمة فينتقي الجواد الأحسن، ويعطي فارسها عهداً على الأسر فإن قبل الأسر أسره، وإلا رماه عنها، واقتادها.

ومن أسرع الخيل التي اقتناها (الصريخية) غنمها من فارس من أهل الجبل يقال له الصريخي، وأهداها إلى صفوق بن فارس الملحم، فولدت عنده مهرة أهداها صفوق بدوره إلى خالد، قال لي خالد: كنت أعلفها القمح المجروش، وأسقيها لبن الإبل فما كبت تحتي أبداً، ولا سبقتها فرس قط، ومن كرام خيله أيضاً، الهطلاء التي سبق على ظهرها خيل الحسنة واسترد الشويماء[2] من خاطفها.

---

[1] هذا ما أكدته إحدى بناته، وقالت إن أباها كان قد حدثها به، أما كيف عاد إلى الحسنة فتقول ابنته أنه حدّثها أن الملحم هم الذين استرضوه وأعادوه إلى العشيرة.

[2] هي فرس لرجل من الحسنة يقال له ابن فليان.

وهو كأقرانه في العشيرة أميٌّ لا يقرأ، ولكن ايمانه بالله كان قوياً، وكان يقول: إذا اوى العبد إلى فراشه وقال: استغفر الله، فإن الله يغفر له، إن الله غفور رحيم، وقال: جاءنا النذير في يوم قائظ من أيام رمضان – ونحن صيام – وأخبرنا أن خيلاً للأعداء أغارت على الإبل، فاعتلينا الخيل في حر الهاجرة وسعين في طلب الأعداء متعقبين آثارهم لمسافات بعيدة، حتى أجهدنا الظمأ، وعثرنا على أرض فيها آبار ماء قليلة العمق، فأخذ الفارس من رفاقي يربط رداءه بمقود فرسه ويدليه في البئر ثم يخرجه يقطر ماء فيمتص أطرافه، وهكذا أفطر صحبي جميعاً، أما أنا فتابعت الصيام حتى المساء رغم ما بي من الظمأ الذي كاد يهلكني.

ولقّب (براعي الدهماء)، والدهماء فرس لأحد فرسان المقبل لقب بها في إحدى معارك الحسنة الفاصلة.

كان خالد شجاعاً مغامراً وجليساً مؤنساً، حاضر البديهة، عذب الحديث، لا يمله جليسه، قوي الذاكرة، قال لي مرّة أنه كان يحفظ القصيدة إذا أعادها الشاعر للمرة الثانية، فهو ليس بشاعر ولكنه يقرض الشعر، ولكنه يستطيع ان يعبر عن خلجات نفسه وعن المناسبات بشعر جيد ومتين، ولكننا لا نحفظ من شعره شيئاً إلا بعض مقاطع صغيرة من نوع (الهجيني) لأنه نادراً ما يتحدث عن نفسه أو يروي ما قال من شعر إلا إذا سئل عن ذلك، ولم أسمعه تحدث بشعره، وأنا لم أسأله عنه يوم كان حياً، لعدم توقعي الولوج في مثل هذا البحث في يوم من الأيام.

فمما قاله مادحاً زيد العرفج أحد خيالة الحسنة حينما راد الأخير أرضاً اسمها القرارية، فوجدها كثيرة العشب والماء، وقاد الحسنة إليها، فقال فيه خالد:

**البل[1] عالت[2] يا لولا زيد		عدلها[3] على القراريه[4]**

**الفاطر[5] ترعى هي ويا الصيد[6]		ترعى نواوير قفريه[7]**

**يستاهل حب البنات الغيد		ما دوبحن للحياضيه**

---

(1) الإبل.

(2) ضلت طريقها.

(3) غيّر اتجاهها.

(4) أرض في الحماد السوري.

(5) الناقة المسنة.

(6) الغزلان.

(7) هي الأرض القفر التي لم يرتع فيها حيوان بعد أن اعشوشبت.

من عادة البدو إذا أجدبت أرضهم أن يبعثوا رائداً أو رواداً للبحث عن أرض يتوافر فيها الماء والمرعى، ويقولون عن هذا الذي يكلف بهذه المهمة: رائد، أو يقولون عنه: خمّام، ويقولون: ذهب فلان يخُمُّ أرض كذا، أو يرود الأرض الفلانية، وقسم البدو البادية إلى مناطق، وجعلوا لها أسماء تعرف بها، فما من مرتفع من الأرض ولا تل ولا واد ولا سهل إلا له اسم معروف عندهم.

أجدبت أرض الحسنة في إحدى السنين، فذهب زيد العرفج يرود لهم أرضاً اسمها القرارية، وكان القوم في ضيق من أمرهم لما أصابهم من قلة الماء والكلأ، فلما عاد زيد من القرارية يحمل إليهم البشرى بالماء الغزير والعشب الكثير وأن أرض القرارية تنتظرهم بورودها وخضرتها وأنها قفر لم يطأها أحد، كان فرحهم بهذه البشرى كبيراً ولا بد في هذه الحالة أن تثني العشيرة على الرائد الجريء الخبير الذي جاءهم بالخبر المفرح، من أجل ذلك قال خالد هذه الأبيات في معرض الثناء على زيد تقديراً لجهده وتخليداً لهذه المناسبة، فقال:

البل عالت يا لولا زيد عدلها على القرارية

وعالت: ضلت طريقها عندهم، ويعني بقوله عدلها: أمالها وغير اتجاهها: أي أن الإبل ضلت الطريق وأصابها الجوع والعطش في أرض قاحلة لولا أن زيداً هداها وقادها للاتجاه الصحيح، وهو اتجاه القرارية حيث هناك مأواها ومرعاها.

وينسب إليه قوله معاتباً إحدى زوجاته:

**لولانا ما سامك السيّم[1]		يا بنت من حدد بكارة**

**ما رأنك من عزوة جهيم[2]		اللي على الهوش[3] صباره[4]**

تزوج خالد تسع نساء أنجبن جميعاً ما عدا واحدة ورزق منهن عدد كثير من الأولاد ماتوا كلهم صغاراً، ولم يعش له إلا من واحدة هي (صيته الغنام) التي أنجبت أربع بنات وثلاثة أولاد، هم: الشايش، وهو الابن الأكبر، وحسن، ونايف، وتوفي في آذار عام (1963م) عن عمر يناهز الثمانين.

وعلى تبة صغيرة في الطرف الجنوبي لقرية شمسين يرقد الآن وإلى الأبد راعي الدهماء خالد الحضير المقبل، وترقد إلى جواره زوجته صيته وولده الشايش ... رحم الله خالداً، فقد كان يحسن الظن بالله ...

---

(1) هو التاجر يقول لصاحب البضاعة: أتبيعها بمقدار كذا: دون أن يشتريها فهو بذلك يسومها.

(2) فخذ الجهيم.

(3) القتال.

(4) صبر عند اللقاء.

خالد الخضير المقبل يسترد الشويماء:

كانت الشويماء فرساً لرجل من الحسنة يقال له ابن فليّان، اشتهرت بسرعتها وكرم نسبها، وفي ليلة ظلماء تسلل إليها رجل من الموالي وخطفها من مربطها، ولما أصبح ابن فليان ارتفع صوته في الحي طالباً النجدة، فاعتلى الفرسان الخيل، وجدّوا في الطلب ولما علم خالد بالأمر، أمر بماء وراح يغتسل لأنه تعود ألا يلقى الأعداء إلا طاهراً، فقال له صاحب الشويماء: الشويماء ذهبت والخيل أجهشت، وأنت لا تزال تغتسل؟

قال لي خالد: لبست ثيابي، واعتليت الهطلاء[1]، وما هي إلا دقائق، حتى أدركت خيلنا وتجاوزتها في أثر الخاطف، وأخذت المسافة تمتد بيني وبين من خلفي حتى أنه لما حانت مني التفاتة إلى الوراء، لم أر من خيلنا أحداً، فأطربني ذلك وأشعرني بنشوة النصر، والظفر بالخاطف وحدي.

أصبح الخاطف الآن على مرمى النظر مني، وها أنا أراه يقتاد الشويماء راجلاً، ظناً منه أنه قد بلغ مأمنه، فلما التفت خلفه ورآني ركب الشويماء وأخذ يلهبها بسوطه فراحت تسابق الريح، وأطلقت العنان للهطلاء فاندفعت بي تنهب الأرض نهباً، وكأنها هي الأخرى لديها الرغبة في إدراك الشويماء، ولما أصبح الخاطف على مرمى الهدف من بندقيتي، رميته بطلقة استقرت بين يدي الشويماء، وخشيت أن أصيبها بأذى فكففت عن الرمي، كان لدى الخاطف بندقية ومن السهل عليه اقتناصي عن بعد، ولكنه لم يفعل، معتمداً على سرعة الشويماء للنجاة مني، وأخذت المسافة تقصر بسرعة فائقة بيني وبين الشويماء.

كنت أعرف قدرة الهطلاء العالية على تحمل التعب، وسرعتها الفائقة في الجري، ولكن أن تدرك الشويماء بهذه السرعة، وبعد مطاردة حوالي ستين ميلاً! فهذا ما لم أكن أتصوره.

لم تستمر المطاردة طويلاً بعد أن ركب الخاطف الشويماء، فما هي إلا دقائق قليلة حتى أصبح الخاطف عن يميني، فوقفت في الركاب، وضربته بالبندقية على ظهره كما يضرب بالعصا، فألقيته أرضاً، فنهض يتعثر واستجار بي، فسلبته سلاحه وعفوت عنه.

وسألني: من أي العشائر أنتم؟ فقلت: نحن النعيم، قال: أقسم أني كنت أظنكم الحسنة، ولو علمت أنكم النعيم ما فعلتها، وبعد دقائق وصلت خيلنا وفي مقدمتها الشيخ طراد الملحم على فرس صفراء قد اسود لونها من كثرة العرق لشدة ما أجهدها.

---

[1] اسم فرس خالد.

فقال لي: لماذا أبقيته حياً؟ فأقسم الخاطف ثانية أنه يظننا الحسنة، ولم يعلم أننا النعيم، فقال له طراد: خسئت أيها الغادر وخاب ظنك بل نحن الحسنة، وهمّ به ليقتله، فأسرع الرجل يختبئ خلفي، عندها أعرض عنه طراد، ولما تكاملت خيلنا عدنا بالشويماء إلى صاحبها، وأخلينا سبيل الخاطف.

فهاد المحينة: (أبو شمسه)

هو أبو شمسه فهاد بن سطام المحينة، ولد في البادية السورية، وهو من الرعيل الأخير من فرسان الحسنة الذي عاصروا آخر الغزوات.

وأكبر معركة اشتهر اسمه فيها، وذاع فيها صيته، كانت بين عدد قليل من رجال الحسنة – كان فهاد واحداً منهم – وبين غزو كبير من العمارات بقيادة الشيخ محروت الهذال.

كثيرون هم رواة تلك المعركة من الذين شاهدوها، وأكثر ما أعجبني ما روته لي والدتي، فعلى الرغم من مرور نحو خمسين عاماً على تلك المعركة، فقد ذكرت لي تفاصيلها ودقائقها وكأنها تعيشها الآن.

ورب قائل يقول إنه يأخذ من النساء، أو من عجوز خرفة، وأقول أليس كثير من الحديث الشريف قد أخذ من النساء؟ ثم أليس بعض ما أخذه علماء اللغة الأوائل هو من نساء من البادية؟ ولا أحد ينكر أن من النساء من لا تقل عن الرجال حفظاً للرواية وصدقاً في الحديث.

قالت: استيقظت فجر ذلك اليوم ونظرت إلى الشرق وإذ بي أرى شهباً وخطوطاً حمراء ترتفع إلى أعلى ثم تهبط وكأنها نجوم تتهاوى من السماء، فأيقظت والدك لأسأله عن هذه الظاهرة التي لم أر مثلها من قبل، ولما استيقظ ورأى ما رأيت قال: هذا غزو صبحنا، أو قال: هذا صباح –والبدو يسمون الهجوم صباحاً: (صباح) والهجوم مساءً (بيات) – وعمد إلى الإبل فحشرها أمام البيت ليقاتل دونها، ولم تمض دقائق حتى علت الضوضاء في الحي، وأخذنا نسمع أصوات العيارات النارية بوضوح وأصوات الغزاة المهاجمين يقولون: عوجان، عوجان، فعرفنا أنهم العمارات.

لم نكن نحن هدفهم، بل كان هدفهم عشيرة الفواعرة ولكننا أخذنا بجريرتهم، كنا يومها مخيماً صغيراً من الحسنة وعدد رجالنا لا يزيد على العشرة رجال.

كان بيتنا في وسط الحي، وهذا ما جعل أهل الحي جميعاً يحشرون قطعان إبلهم أمامه وحالوا بينها وبين المهاجمين، كان عدد المهاجمين كبيراً، وتدفقوا على شكل موجات، فكلما صدّ رجالنا موجة تبعتها موجة أخرى، واستمر القتال حتى وقت الضحى وكثر القتل في الغزو وأصبحت أينما أنظر أرى أجساد الرجال على الأرض، منهم من قضى نحبه ومنهم يحتضر.

كان الغزاة خليطاً من الركب والخيالة، وكان رجالنا يقاتلون وهم على ظهور الخيل، كانت مهمتنا– نحن النساء – تشجيع المقاتلين، فكانت زغاريدنا تنطلق مصاحبة هجمات رجالنا على الأعداء وكنت في

أول المشجعات وأقرب ما أكون إلى المقاتلين وكنت أسمع صوت فهاد يعلو مجلجلاً كلما حمل على القوم قائلاً: (خيال الرحمن وأنا أبو شمسه).

لقد حدث ما يشبه المعجزة في ذلك اليوم، إذ لم نكن نصدق أن هذا العدد القليل من رجالنا يستطيع إيقاف ذلك الزحف الكبير المتتابع من الغزاة، وانقسم رجالنا إلى مجموعتين:

مجموعة تولّت إخراج قطعان الإبل من ساحة القتال والابتعاد بها عن المهاجمين، ومجموعة بقيت للقتال، وحتى هذه الساعة جرح من رجالنا اثنان هما: عسود وحميدي وعدّا خارج المعركة، وقتل عشوي الوقيان ولكنه مات بطلاً، أفرغ ذخيرته على الأرض وجثا على ركبتيه ليس بينه وبين الأعداء ساتر، وقاتل حتى قتل.

كان فهاد مع المتخلفين للقتال وجرى أشده عند حلّتنا[1]، فكلما استولى عليها الغزاة حمل عليهم فهاد وأخرجهم منها، كانت هجماته المصحوبة بزغاريدي تتوالى كلما اقترب الغزاة من الحلّة، وسمعت غير مرة من يقول من المهاجمين: اقتلوا المرأة التي تزغرد.

كانت الشكوك تساورني دائماً أن يعود فهاد سالماً كلما حمل على الأعداء والرصاص ينهمر عليه كالمطر، وكلما أطلق النار على واحد من المهاجمين يقول: (خذها وأنا أبو شمسة).

كنت قد نزعت أعمدة البيت فاستوى على الأرض فوق الحلّة، واندس أحد المهاجمين تحت البيت وأخذ يزحف نحو عدل فيها ثيابي، فتناولته بفأس على رأسه رأيت الدم يقطر منها حينما رفعتها عنه، فصاح الرجل: اقتل المرأة يا عايد فقد قتلتني، كان عايد يقف أمامي وجهاً لوجه، فأطلق عليّ النار فاخترقت الطلقة ثيابي وخرجت من بين ركبتي، فغشيني دخان كثيف، وظننت أنني أصبت، وغلبني طبع النساء فصرخت، كان فهاد قريباً مني فرمى الرجل بطلقة أصابت منه مقتلاً وفي هذه المرة زغردت.

كان في ضيافتنا اثنان من رجال الدرك السوريين يرافقان جابياً للضرائب جاء يستوفي رسوم المواشي السنوية، والثلاثة يمتطون الجياد، فأما الجابي وأحد رجال الدرك فركبا جواديهما ولاذا بالفرار، أما الدركي الآخر فاشترك مع رجالنا في القتال وسمعته وهو يرتجز ويقول:

كوبة تكوبك يا الذليل حلاة الدنيا علومها

[1] الحلّة بكسر الحاء وتشديد اللام، أثاث البيت بعد تقويضه.

لقد أدهشتني شجاعة ذلك الرجل، فلم أكن أتصور أن حضرياً يقاتل مثل رجالنا، ولكن دهشتي زالت بعد أن علمت أنه من أهل القريتين، لأن موقع تلك البلدة على أطراف البادية يطبع ساكنيها بطابع أهل الصحراء.

أصبحنا الآن في الساعات الأخيرة من ضحى ذلك اليوم، كانت قطعان الإبل أثمن شيء عندنا وأغلى شيء، كما أنها كانت بغية الغزاة وغاية مناهم، ولكن رجالنا صدّوهم عنها وأبعدوها، وهي الآن في مأمنها، ولم يبق في الساحة إلا فهاد، فأخذ يصول على المهاجمين صولة الأسد كلما اقتربوا منا، فيوقع فيهم ثم يعود.

وحدثت نفسي: تبّاً لهذه الحلة، أتستحق من فهاد كل هذه التضحية؟ بيت عتيق وبعض الحدائج والعدول، وشيء من التمر والتمن، كلها لا تساوي ثمن بعير، لماذا لا يتخلى عنها ويلحق بخيلنا التي استاقت الإبل.

كان الحسنة يعلمون أنهم كسبوا المعركة ما داموا سلموا بالإبل، وكان قتال فهاد للغزاة هو عملية إعاقة فقط حتى تبلغ الإبل مأمنها، ولكنه ظل يقاتل حتى النهاية، كان أمر فهاد في ذلك اليوم عجيباً غريباً، وأغرب ما فيه أنه بعد هذا كله لم يصب ولو بخدش صغير.

وفي العام الثاني من تلك المعركة، ذهب رجال من الحسنة في قافلة ليمتاروا التمر لأهلهم من محطة الرطبة على الحدود العراقية السورية، وهناك قابلوا رجال قافلة للعمارات جاءت لهذا الغرض، فقال لهم أحد رجالها: ممن القوم؟ قالوا: من الحسنة قال: أمنكم فهاد أبو شمسة؟ قالوا: نعم، قال: أحقاً له ابنة اسمها شمسة؟ قالوا: نعم، فقال الرجل: هنيئاً لمن يتزوجها وينجب منها ولداً!

وتمر السنون، وينتهي عهد الغزوات، وتنطوي الأحقاد، ويأتي في أحد الأيام الشيخ محروت الهذال إلى ديار الشيخ طراد الملحم زائراً، ويطلب رؤية فهاد أبو شمسه.

قال لي أحد الحضور يومذاك: نودي على فهاد، فأقبل ولمظهره حين أقبل حظ كبير من اسمه، كان يشبه الفهد في نظراته وهيبته واعتزازه بنفسه، وسط من الرجال ممتلئ، ذو شاربين أشقرين غليظين، وقام إليه محروت الهذال فقبله وأجلسه إلى جانبه.

هكذا يقدّر الرجال الرجال.

طراد الملحم:

هو أبو ثامر طراد بن فندي بن سعود بن فارس بن مزيد الملحم، لا نعرف تاريخ ولادته تحديداً، ولكنه توفي في بداية عام 1946، وسط من الرجال ليس بالطويل ولا بالربعة، ذو بنية قوية، أسمر، واسع العينين.

وكان من فرسان الكلام في مجالس البدو، جريئاً حاضر البديهة سريع الجواب متمرساً بالسياسة وذو دراية وحكمة، استطاع بسياسته الحكيمة أن يجمع تحت قيادته جلّ عشائر حمص ويجعلها تبعاً لعشيرته وهم عنه رضوان، للعاقل عنده سياسة وللجاهل سياسة، داهية يعرف من أين تؤكل الكتف.

قال لي أحد شيوخ العشائر الذين عاصروا (طراد) وساروا تحت لوائه ما معناه: كان طراد يأكلنا ونحن نضحك، وكان عضواً بارزاً في البرلمان السوري أيام الانتداب الفرنسي، وهو المتكلم بلسان زملائه نواب العشائر في البرلمان، وكان فيهم فواز الشعلان والنوري بن مهيد وراكان المرشد، وكانوا بتعاونهم مع نواب كتلة الشعب يشكلون ثقلاً هاماً في البرلمان السوري، ولو قدّر لطراد أن يعيش إلى عهد الحكومة الوطنية لتبوّأ مركزاً متقدماً في الدولة.

قيل لأحد الذين عاصروه: صف لنا (طراد) فقال: إن أردت (طراد) شيخاً فهو شيخ، وإن أردته بدوياً فهو بدوي، وأن أردته عسكرياً فهو عسكري، وهذا يعني أن (طراد) كان رجلاً متعدد المواهب حائزاً على جميع صفات القائد الناجح.

كان الوحيد من نواب قبيلة عْنِزَة الذي يجيد القراءة والكتابة، واستطاع أن يكون لنفسه ثقافة خاصة اكتسبها من ممارسته لمنصبه ومن مخالطة الطبقة المثقفة من كتلة حزب الشعب ومن صداقاته الكثيرة لمثقفي البلد، واستطاع أن يتعلم بسرعة من اللغة الفرنسية ما يمكنه التحدث به مع الفرنسيين بلا ترجمان.

وكان الفرنسيون قلّما يردون طلباً لطراد، لأنه في تقديرهم الشخصية المميزة بين رؤساء العشائر، طمعاً في كسب العشائر إلى جانبهم أو أن يضمنوا عدم تعرضها لهم على الأقل، وقد ذهب بعيداً بعض المتطرفين من القوى الوطنية في إساءة تفسيرهم لهذه المعاملة التي كان يلقاها طراد من الفرنسيين، في حين يقول المقربون من طراد أن كثيراً من الأوامر والأسلحة كانت تمرر إلى الثوار عن طريقه وبسيارته لأنها في حصانة من التفتيش كونه نائباً في البرلمان السوري.

وعلى كل حال فإن من يعلم مقدار ما كان يتمتع به طراد من حنكة ودهاء، يسهل عليه الاقتناع بأن (طراد) ربما استطاع أن يغرر بالفرنسيين. والله أعلم.

وكان طراداً بدوياً مفرطاً في تعصبه لبداوته ومن المعارضين لفكرة تحضير البدو وتسجيلهم في سجلات الأحوال المدنية، فمما قاله في رده على أحد أعضاء البرلمان السوري من الذين يدعون لتحضير البدو: نحن منذ أن هبت الريح ونبت الشيح أهل بادية ولن نكون إلا كذلك.

جاء طراد في نهاية فترة المغازي المتبادلة بين العشائر، لذلك لم يكن له دور يذكر فيها، ولكنه كان على كل حال على جانب من الشجاعة وحب المغامرة تخوله أن يكون ذا دور فعال فيما لو قدر له أن عاصر تلك الغزوات التي عصفت بها فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى.

روى لي أحد أقران طراد المقربين منه، قال:

أغارت علينا خيل للرسالين من عشيرة السبعة، وأخذت ابلاً للحسنة، وقال عقيد الخيل المغيرة لراعي الإبل: قل لمحمد الملحم – وكان محمد شيخ العشيرة يومذاك – نحن الرسالين ولسنا (سريبة) موالي، ومن حسن حظهم يومها أن محمد ومعه سبعون فارساً من فرسان الحسنة كانوا في زيارة للهرمل في لبنان تلبية لدعوة من أحد رؤساء العشائر هناك.

ولما جاء النذير لم يكن في الحي إلا أنا وطراد وثلاثة رجال آخرين أو أربعة، فلحقنا بالمغيرين وكان سلاحنا البنادق ما عدا واحدً منا يقال له (بريك) كان سلاحه رمحاً، ولما أدركنا القوم وجدناهم قد انقسموا إلى مجموعتين:

مجموعة تسوق الإبل وأخرى نحو خمسين فارساً تخلفوا للاشتباك معنا، ولما رأونا قليلي العدد مالوا علينا، فترجلت ورميتهم بمجموعة من الطلقات فانكشفوا عنا وتعطلت بندقيتي في تلك اللحظة، فلما رأوني أصوب عليهم ولا أطلق كروا علّي، عندها حمل عليهم طراد على فرس حمراء فشطرهم نصفين وخرج من طرفهم الآخر، ثم كرّ راجعاً عليهم فاستقبلوه بوابل من الرصاص فقتلوا فرسه ووقع على الأرض وأحاط به الأعداء فحملنا عليهم أنا والباقون من خيلنا وانتشلناه من بينهم وأردفناه وراءنا وانفضّ القوم عنه.

وتابع محدثي قائلاً: لن أقول لك يا ولدي أننا استرجعنا الإبل، فالقوم كثيرو العدد وبندقيتي تعطلت ولم يكن معي سلاح غيرها، وفرس طراد قتلت وصاحب الرمح بريك أطلق رمحه باتجاه الأعداء عندما اقترب منهم وأضاعه.

ولم يحدث في عهد طراد للحسنة سوى معركة واحدة بين عشيرة النعيم من جهة وعشيرة الحسنة وحليفتها يومذاك عشيرة الفواعرة من جهة أخرى، على أثر خلاف لامتلاك أراضي الدولة في منطقة البيضاء والنهدين.

معركة البيضاء:

ذكرنا أن منطقة البيضاء من أملاك الدولة وتقع بجوار أرض يملكها الحسنة والنعيم، فأراد كل من الفريقين امتلاكها لنفسه، ولما اشتد الخلاف بين العشيرتين ولم تُجدِ الوسائل السلمية والمساعي المبذولة للحل لم يبق هناك من وسيلة سوى اللجوء إلى القوة لحسم المسألة.

خرجت عشيرة النعيم مسلحة بالرشاشات والبنادق وتحصنت في حفرة كبيرة كانت تستعمل مقلعاً للحجارة من أجل البناء وتتسع لمئات الرجال تقع إلى الشمال قليلاً من قرية الرضيفات الحالية.

وجاءت عشيرة الحسنة والأبو عيد وعشيرة الفواعرة يتقدمون في أرض سهلية مكشوفة لا يقيهم سوى أكوام من الزرع المحصود.

وقد أحسن النعيم الاختيار، فالحفرة التي تحصنوا فيها تقع في السفح الغربي لتبة صغيرة تشرف من الشرق على سهل البيضاء، وفي هذا السهل المكشوف انتشر الحسنة وحلفاؤهم متّخذين من أكوام الزرع متاريس لهم وخطوط امدادهم مكشوفة من قبل رماة النعيم المتمركزين على رأس التبة، وعلى الذي يريد امدادهم أو الانضمام إليهم أن يمر تحت نيران أسلحة النعيم بينما كان خط امداد النعيم مستوراً ويصلهم الماء والذخيرة بسهولة ودون عناء.

كانت عشيرة الحسنة ومن معهم بقيادة الشيخ طراد الملحم، أما النعيم فكانوا بقيادة متعب السيد، وهكذا بدا اقتلاع النعيم من مكانهم الحصين أمراً مستحيلاً، وأية محاولة من هذا القبيل من قبل الحسنة هي محاولة خاسرة.

وصعب على بعض رجال الحسنة أن يكونوا في هذا الموقف ولا يفعلوا شيئاً، فعقد بعضهم العزم على الهجوم، وفي طليعتهم بدر الملحم أخو طراد الأصغر، فكرَّ على النعيم في متراسهم، ولما أصبح على مقربة منهم رشقوه بالرصاص فقُتل، ثم تلاه بالهجوم بشير الخافور، فقُتل أيضاً، ثم تبعهم ذعار بن محمد الفيصل فقُتلت فرسه واتخذ منها متراساً حتى هدأت النيران ثم انسحب عائداً.

قال لي والدي: جئت يومها متأخراً وقد أخذ القوم أماكنهم في مواقع القتال فوجدت في طريقي أم ثامر – زوجة طراد –وحولها أكوام من الذخيرة تمد بها المقاتلين، فقالت لي: اسلك هذا الطريق لتأمن خطر الرماة.

كان هناك طريقان: أحداهما تلتف حول ما يشبه مرتفع صغير من الأرض يقع خارج مدى أسلحة العدو– وهي التي نصحتني أن أسلكها – والثانية أقصر من الأولى ولكنها محفوفة بالمخاطر لوقوعها تحت

التأثير المباشر لرماة النعيم، فخشيت أن تحدّث المرأة في مجلسها نساء الحسنة بأنني أخذت بنصيحتها خوفاً فاخترت الطريق الأخطر.

كان عليّ أن أقطع مسافة نحو ميل حتى أصل إلى طراد، وهي مسافة ليست بعيدة على فرسي، ولكنني وجدتها طويلة جداً وأنا أقطعها تحت وابل غزير من نيران النعيم المتمركزين على التبة، إلا أنني وصلت إلى طراد دون أن أصب، فقلت له: أن هذا ليس مكاناً لنا، دعنا نغير على قرية القوم ونستاق حلالهم، فيضطرون إلى الخروج من مكمنهم ليلحقوا بنا وعندئذ نتساوى معهم في مواقع القتال فننتصف منهم، فوجّه فوهة بندقيته إلى نحر فرسي وقال: ترجل عنها وإلا قتلتها، فلبيت رغبته وترجلت.

كان طراد يعلم أن هجومي على القرية سيتبعه هجوم لكامل القوات، وهذا ما لم يكن يريده، وحقيقة الأمر أن (طراد) لم يكن يريد الفتك بالنعيم ولا يريد اراقة الدماء لوجود صلة بالرحم بين الحسنة والنعيم من جهة، وبحكم ادراكه للمسؤولية من موقعه كنائب في البرلمان من جهة أخرى، وربما ظنّ أنه بهذه الحشود الكبيرة التي كانت حوله يستطيع أن يخيف النعيم فيتخلون عن مطالبتهم بالأرض وتمر الأمور هكذا بسلام، ولكن الأمر اختلف كثيراً عما قدّره وأسقط في يده.

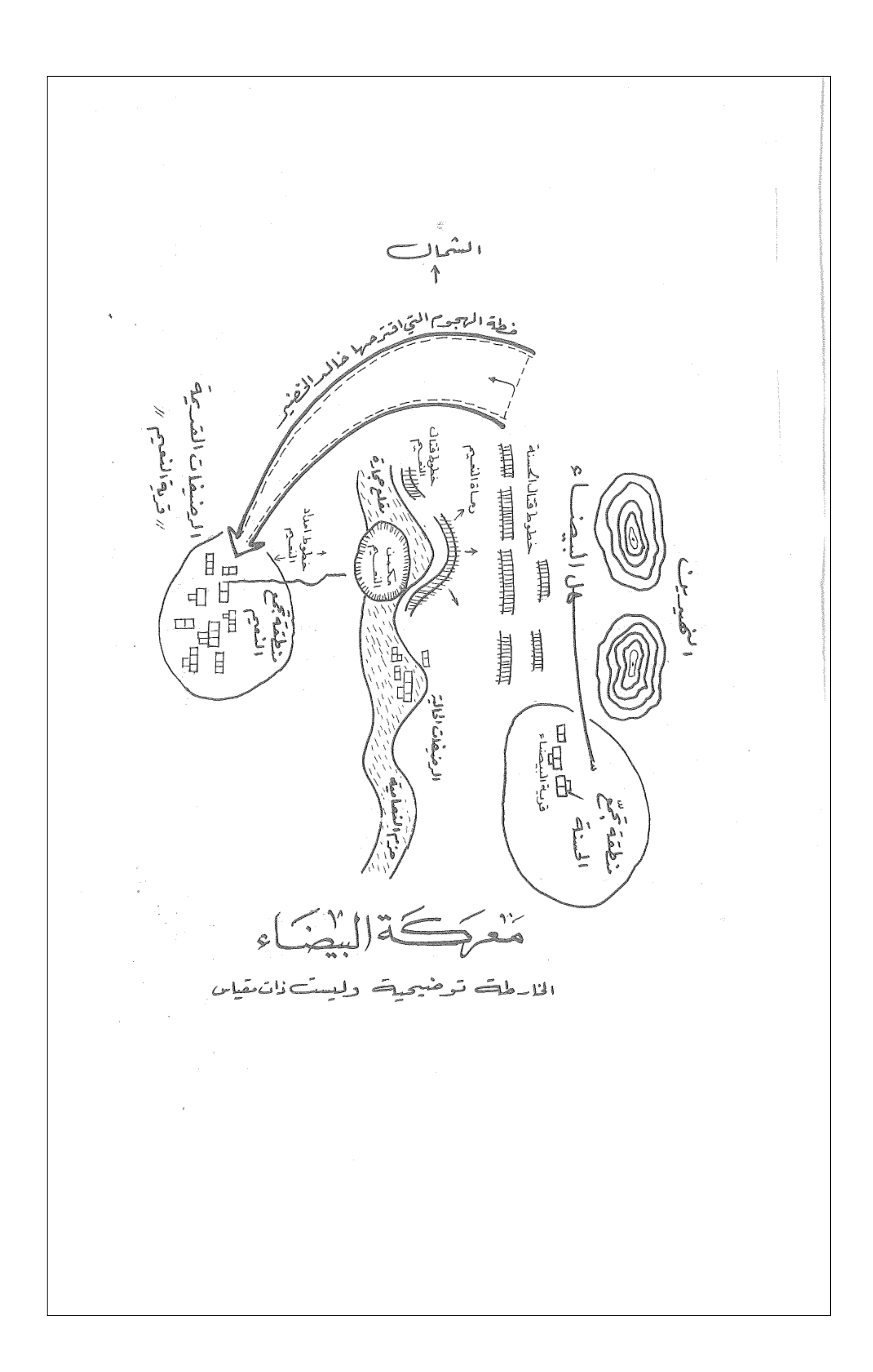
استمرت المعركة يوماً كاملاً قتل فيها من الحسنة بدر الملحم وبشير الخافور ورجل من الفواعرة اضافة إلى عدد من الجرحى وجرح من النعيم عدد من الرجال بينهم متعب السيد، وفي نهاية اليوم تدخلت قوة صغيرة ن الهجانة بين الطرفين وأنهت المعركة، وأجلي على أثرها النعيم إلى قرى أقربائهم شمالاً في السنيدة وعز الدين.

ووجد خصوم طراد في البرلمان فرصة مواتية للتخلص منه عن طريق أعدائه من النعيم مستغلين بذلك العداء بين العشيرتين، فسخّروا لتنفيذ هذه المهمة اثنين من النعيم هما: شلاش الدغيلة وأحمد العزو، فتتبعا (طراد) إلى دمشق، وهناك في ساحة المرجة أطلقا عليه الرصاص فقتلاه وهو يهم بالصعود إلى سيارته، وشيع جثمانه في موكب مهيب من دمشق إلى حمص ودفن فيها في مقبرة الكتيب، وعمَّ ريف حمص والبادية بأكملها حزن عميق عليه، لأن (طراد) كان رجلاً يحظى باحترام كل الناس وتقديرهم حتى من قبل أعدائه، فيقال إن بعض رؤوس القوم من عشيرة النعيم أراقوا أوعية القهوة على الأرض حزناً عليه يوم قتله.

وبعد سبع سنوات من وفاته ذهبت مجموعة من الحسنة وقتلت متعب السيد من عشيرة النعيم ورجلاً آخر كان معه في بيته، ونفذ الهجوم على متعب السيد ليلاً بوساطة دليل من العمور كان قد ضاف

متعباً وأمضى عنده أياماً فعرف مكان سهره ومكان نومه ومن أين الطريق إليه، وكان هذا آخر دم يراق بين العشيرتين، إلا أن النعيم تتبّعوا الدليل الذي قاد المجموعة إلى بيت متعب السيد وقتلوه بعد عدة سنوات في مدينة تدمر.

تزوج طراد (مير) ابنة الشيخ محمد الملحم فأنجبت له ولدين هما: ثامر، وهو الابن الأكبر لطراد وشيخ الحسنة الحالي، وقد سبق الحديث عنه، وعبد العزيز وهو عضو في مجلس الشعب السوري منذ اثني عشر عاماً ونيف عن عشيرة الحسنة وريف حمص، وإذا استثنينا قائمة الحزب الحاكم من المرشحين كان عبد العزيز أكثر المرشحين أنصاراً في مدينة حمص وريفها، وله صداقات متينة مع كبار المسؤولين في الدولة وقيادات حزب البعث العربي الاشتراكي.


الشمال
خطة الهجوم التي اقترحها خالد الخضير
معركة البيضاء
الخارطة توضيحية وليست ذات مقياس

طراد الملحم شاعراً:

كان طراد شاعراً ملهماً يجيد جميع أنواع الشعر عند البدو وكثيراً من شعر الحضر، وكان حكماً لشعراء العتابا ومن المشتغلين في صناعتها، إلا أنه لا يقرضها إلا في المناسبات القليلة وفي المجالس التي يقال فيها مثل هذا النوع من الشعر.

واستحوذ الشعر المعروف بالقصيد على الجانب الأكبر من اهتمامه، وبما أن (**طراد**) كان بدوياً شديد التعصب لبداوته، فإننا نرى ذلك في كثير من أشعاره، فالبادية وأهلها والنجعة فيها مشتى ومربع ومنظر بيوت الشعر الكبيرة وهي تبدو من بعيد تغرق في السراب، والخيل تجول في مرابطها، ثم صوت النذير يدبّ في الحي، فيعتلي الفرسان الجياد، والغارة على الأعداء والكر والفر، كل هذه أشياء محببة إلى طراد ونجدها كثيراً في شعره ويندب عشيرته إليها في المناسبات.

وهو يمقت حراثة الأرض وزراعتها والركون إلى حياة الخمول والكسل وسكنى القرى، ويرى في ذلك مذلة وانتقاصاً لسمعة العشيرة ومكانتها.

كل هذا يبدو واضحاً في القصيدة التالية التي أرسلها إلى الشاتين في القرى من عشيرته، وفيهم والده وأبناء عمه يدعوهم ويهيب بهم إلى الرحيل وترك الحرث وإشادة بيوت الشعر الشامخات على أرض البادية الواسعة وتحت سمائها الصافية.

فيقول:

يا الله يا خلاّق ما في وطاها — يا خالق الخرسا وباسط سهلها

أنت الذي علام ما في خفاها — تعلم خفى النفس أيضاً وعملها

عيني جزت[1] عن نومها وش بلاها — والدمع من عيني تزايد وشلها[2]

يا راكب اللي حوارها[3] ما تلاها — حرة نزاق[4] ولا تداني فحلها

فوقها غلامٍ بمسيرة قداها — قرمٍ وصاتي للجماعة نقلها

تلفي على سليمان عز قصراها — وفواز حر بالملاقا يعدلها[5]

---

[1] امتنعت.

[2] دمعها.

[3] ولدها الصغير والضمير عائد للناقة الذلول.

[4] حرة: أصيلة، ونزاق: سريعة النهوض ولا تطيق الفحل.

[5] هما ابنا عمه سليمان المزيد وفواز الشامان.

ومن عقب ذا خلها تمدد خطاها — لريف الجواعا[1] يوم يبدي محلها

تلقى رجالٍ بالمراجل تباها — كل يريد الغانمة ويعملها

يا أهل البويضا[2] جنبوا عن رداها — ومساكن بالحرث دوروا بدلها

دوروا بيوت شامخة في وطاها — والخيل بالفرسان توحي[3] صهلها

ملكادكم[4] يا عيال ينثر دماها — وعدوكم بالكون يشكي مللها

يبدأ طراد قصيدته بذكر الله جل جلاله شأن غيره من شعراء البادية، فهم كثيراً ما يبدؤون قصائدهم بهذا النوع من الافتتاح الجميل، وأي شيء أجمل من ذكر الله الخالق البارئ لكل شيء، والمتصرف في شؤون عباده كيف يشاء، وهو الخالق في جملة ما خلق هذه الأرض، وهي المقصودة فيما يعنيه بقوله: يا الله يا خلاق ما في وطاها، فالضمير في وطاها عائد إلى الأرض وهي الخرساء التي يعنيها طراد في قوله: يا خالق الخرسا، فالخرسا هي الأرض لأنها لا تتكلم في هذه الدنيا على أنها تتكلم في اليوم الآخر عندما يأمرها الله سبحانه أن تحدث أخبارها، قال تعالى: ﴿**يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها**﴾[5]، ثم يردف قائلاً في البيت الثاني مخاطباً ربه سبحانه وتعالى:

أنت الذي علام ما في خفاها — تعلم خفي النفس أيضاً وعملها

فأنت وحدك ولا أحد سواك تعلم ما خفي من الأمر وما بدا وتعلم السر الخفي، وبعد أن يخاطب ربه سبحانه هذا الخطاب الجميل يعود ليشكو ما حل به متسائلاً عما أرّقه وأسهره فأطال ليله وأبعد النوم عن أجفانه، وجعل عينه تشوم عن النوم وتجود بالدمع الغزير المتزايد فيقول معبراً عن كل هذا:

عيني جزت عن نومها وش بلاها — والدمع من عيني تزايد وشلها

والمقصود بقوله جزت: امتنعت، والوشل يعني به الدمع الغزير، ثم يجهز ذلولاً حرة كريمة من الإبل، عاقراً لم ينْزُ عليها الفحل مكنياً عن ذلك بقوله:

يا راكب اللي حوارها ما تلاها — حرة نزاق ولا تداني فحلها

---

[1] الضمير عائد لأبيه فندي بن سعود.

[2] هم الحسنة.

[3] تسمع.

[4] غارتكم.

[5] سورة الزلزلة، الآيات 4-5.

ويعني أنه لم يشقها الولد فيضعف ذلك من قوّتها، وهي مع ذلك (نزاق) كما يقول، ويقصد بالنّزاق: سريعة النهوض من مبركها إذا اعلاها راكبها، فهو لا يكاد يثب على ظهرها حتى تنتصب واقفة وتجدّ السير مسرعة إلى حيث يوجّهها.

والشاعر يخاطب راكب هذه النجيبة الحرّة ذلك الغلام القرم الخبير بمسالك الصحراء، الجريء على قطع مجاهلها، فيحمّله رسالته إلى أهل ذلك الحيّ من عشيرته ساكني القرى التاركين لحياة الترحال الخالدين إلى الراحة والنوم، محدّداً له الطريق ومعيّناً له الهدف.

ثم يعرج به على أبناء عمّه واحداً واحداً ليبلّغهم هذه الرسالة المهمّة مستنهضاً هممهم بعد أن ينعتهم بجميل الصفات، فيقول له:

تلفي على سليمان عز قصراها وفواز حرٍّ بالملاقا يعدّ لها

وهم أبناء عمّه: سليمان المزيد وفواز الشامان.

والتشابه واضح بين قصيدة طراد هذه وبين قصيدة محمّد الملحم التي مرّ ذكرها، وتكاد تكون أُختاً لها في معناها وتسلسل أفكارها، ثم بعد أن يبلّغ رسالة سليمان وفواز يأمره بمتابعة السير إلى بيت أبيه فندي بن سعود الملحم في قرية الشيخ حميد حيث هناك الجود والكرم وربيع الجياع إذا أجدبت السنون، قائلاً له:

من عقب ذا خلّها تمدد خطاها لريف الجواعا يوم يبدي محلها

وهناك أمام بيت كبير كثيرون هم الداخلون إليه والخارجون منه، ينيخ مطيّته ويضع الرحل عنها، ثم يدخل الربعة وبعد أن يلقي السلام على المتربّعين فيها يجلس ليستريح من عناء السفر الطويل، وبعد أن يشرب القهوة يستمع إلى حديث القوم عن الشجاعة والتفاخر بالأمجاد، يقول لهم على لسان طراد:

يا أهل البويضا جنبوا عن رداها مساكنٍ بالحرث دوروا بدلها

والبويضا هي الكلمة التي يقولونها إذا اشتد الخطب ودب الحماس بالنفوس وحمي وطيس العركة والتقى الرجال بالرجال، عندئذ يقول الواحد منهم: (راعي البويضا حسيني) أو (أنا راعي البويضا) أو عندما يندبهم من يقع عليه عظيم أمر أو يغير عليه الأعداء فيقول: (وين أهل البويضا) ويسمونها النخاوة ولكل عشيرة من البدو نخاوة، فمثلاً نخاوة الرولة: أهل العليا والسبعة: أهل العرفاء والحسنة أهل البويضا... إلى آخره.

وبعد هذه الكلمة تدب الحماسة بالرجال، وتنزع المناديل عن الرؤوس وتشهر السيوف ويكر الشجعان على الأعداء أو يعتلون ظهور الخيل للحاق بإبل قد نهبت، ويرفع النساء الألثمة عن أفواههن ويطلقن الزغاريد فتزداد حماسة ا لرجال فلا يحسبون للموت حساباً.

وبعد هذا النداء: (يا أهل البويضا) يطلب منهم طراد الابتعاد عن رديء الأعمال فإنها لا تليق بهم، وهم الذين سارت بأفعالهم وأمجادهم الركبان، وهو يرى أن من جملة الأعمال الرديئة: سكناهم القرى وانقطاعهم عن أبناء عشيرتهم الضاربين في الصحراء، المتنقلين من روض إلى روض ومن غدير إلى غدير، فكلما ضاقت بهم أرض طاب لهم المقام في أرض أخرى أكثر ربيعاً وأعذب ماءً، فتقتلع الخيام في الصباح الباكر وتحمل الرحال ومع اشراقة الشمس تسير الأظعان، وأمامها يسير السلف، حتى إذا انتصف النهار ومالت الشمس إلى الزوال ووصلوا الأرض المنشودة، تفرق السلف ليختار كل واحد منهم منزلاً جديداً لأهله والاختيار هنا مطلق.

والحرية مطلقة في انتقاء المنْزل لا تقيدها مخططات البلديات أو تنظيمات أمانة العاصمة كما يحصل في أهل الحاضرة، فالبدوي هنا يرى أن الأرض كلها ملك له يختار منها ما يشاء وينزل حيث يروق له وترعى إبله الروض الذي تريد.

هذه هي الحرية التي يهواها (طراد) ويريدها لأهله ويندبهم إليها، أما ما سواها فعيب ومذلة، ثم يقول لهم مفضّلاً بيوت الشعر على بيوت الحجر:

**دوروا بيوتٍ شامخة في وطاها		والخيل بالفرسان توحي صهلها**

والبيوت الشامخة: هي بيوت الشعر المرتفعة على الأعمدة، ثم يذكرهم بأغلى شيء عندهم ومثار فخرهم فيقول:

**ملكادكم يا عيال ينشر دماها		وعدوكم بالكون يشكو مللها**

والملكاد: الغارة على الأعداء التي طالما شنّوها واشتهر بها خيالة الحسنة، وغارة الحسنة ثقيل وقعها على الأعداء فيملونها ويشكون منها لما تسببه لهم من قتل وجراح وجريان دماء.

وحبذا لو كان ذلك في سبيل الله.

الغزل في شعر طراد:

لم يخلُ شعر طراد من الغزل، شأنه شأن غيره من شعراء البدو، ولكن غزله من النوع النظيف الخالي من العبارات المستهجنة وسفاف الكلام، واصفاً من يتعزل بها بالعفة والنزاهة والبعد عن العيب، فلم يطعن في عرضها قط، ولا قيل فيها ما يدنس شرفها وعفتها، فمنها قوله:

يا لله يا رحمان يا معدل الميل اطلبك أنا يا رب غروٍ[1] رجوح

لا دق[2] في مصيون عرضة ولا قيل ولا هو من اللي بالردية[3] سموح

أم القرون[4] مجدلتهن على ميل[5] سفايفٍ[6] من فوق هجن[7] تلوح[8]

أفديها أنا بمالي ورزقي مع الخيل وأفديه أنا بميزان عقلي وروحي

من لامني عساه ما يمرح[9] الليل عله وحيد دوم حقه يروح

يا الله يا رحمان: وأنعم به من افتتاح يفتتح به العبد الكلام، وقد عودّنا طراد أن يبدأ معظم قصائده بهذا الافتتاح وهذا النداء الجميل، فقبل قليل مرّ معنا قوله: يا الله يا خلاق ما في وطاها، وها هو الآن يقول: يا لله يا رحمان يا معدل الميل، والميل: مأخوذ من الفعل مال، يميل، ومال الحمل عن الدابة أو عن الراحلة: انخفض من جهة وارتفع من الجهة الأخرى، والمقصود أن الله تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء، ويعز بعد ذل، ويذل بعد عز، وهو وحده بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

والذي يريده طراد من ربه بعد هذا النداء هو: غرو رجوح، والغرو كلمة يطلقونها على المحبوب وتستعمل عندهم للذكر والأنثى، قال أحدهم:

الغرو أبو طوق بقلبي شلاني شلية قطيع حاديهن شليويح

---

[1] الغرو: الحبيب، ويطلق على الذكر والانثى.

[2] ما قيل فيها ما يدنس شرفها.

[3] المشينة أو المخزية (كالقبلة وغيرها).

[4] الضفائر.

[5] على أحد الجانبين.

[6] هي نسيج من قماش بعرض كف اليد يزين بالأهداب الملونة ويتدلى على جانبي الذلول حتى قبل الأرض بقليل.

[7] الركاب.

[8] تتمايل.

[9] ما يبيت أو ما ينام.

والغرو الذي يطلبه طراد هو غرو من نوع معين لم يلامس شرفه الدنس، ولا توجد فيه خصلة معيبة، فعرضه مصون عن القيل والقال لعفته وحرصه عن الوقوع في الرديء من الأعمال، فهو كما يقول:

لا دق في مصيون عرضه ولا قيل ولا هو من اللي بالردية سموحِ

هكذا يريدها طراد، ثم يعدّد أوصافها بادئاً بأجمل ما يزين المرأة البدوية وهو ضفائرها، ويسمونها: القرون، وقد جدلت هذه الضفائر وأرسلتها على جانبي رأسها وصدرها فزيّنته كما تزين السفايف جانبي الذلول. والسفايف نسيج ملون من الصوف بعرض الكف أو يزيد قليلاً، موشى من أطرافه ونهايته بالأهداب الملونة تتدلى على جانبي الناقة، اثنان من كل جانب، ويشبه به شعراء البدو شعور جميلات النساء ذوات الضفائر الطويلة، ويفتدي هذا الغرو الذي تمناه بماله وعقله وروحه وبفرسه التي هي أعز ما يملك الفارس البدوي من متاع الدنيا، ثم يدعو على لائمه في حب هذا الغرو بالأرق وسهر الليل وبالوحدة وضياع الحق، ولا أصعب من أن يكون الرجل وحيداً ليس له عصبة يشدون عضده، ويأكل غيره حقه وهو يرى، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، وذلك هو قهر الرجال الذي استعاذ بالله منه النبي ρ.

وقال يصف حاله، وقد أناخ القوم عيسهم وحمّلوها ثم سارت بهم مبتعدين بمن يحب:

قاموا على عوج القوايم[1] يشيلون متنوين يم هاك البياحِ[2]

فرقانهم[3] مع طلعة الشمس يمشون ومظهورهم[4] متضاحي بالمراح[5]

واشيب عيني يوم قاموا يدنون[6] وادمع عيني فوق الأوجان ساحِ

صبن غزير وهلن الدمع يا عيون على الذي بالسر ما قيل باح

قاموا على ذود[7] الحبيب يحوفون[8] وراحت[9] تهصر[10] بحلي الجناح[11]

---

[1] هي الإبل.

[2] الأماكن الفسيحة التي ارتحلوا إليها.

[3] جمع فريق وهو المجموعة من بيوت الحي.

[4] ظعنهم.

[5] أرض الديار.

[6] يشدون الرحال.

[7] البعير الذي تركبه حبيبة الشاعر، والذود يطلق على الواحد والمجموعة ما دون العشرة من الإبل.

[8] يحملون الرحل على البعير ويزينونه.

[9] أدبرت.

[10] تسير بخطى وئيدة.

[11] يعني بها حبيبته والجناح والأعطاف أو يعني بها جمال القوام.

أبو حجاجٍ[1] في جبينه مثل نون خط القلم من فوق بيض الطلاحي[2]

وحياة من هو عالم كل مكنون هذا صحيح ولا بهرجي سفاحِ[3]

عسى الذي ينساك يا ترف مضمون عله صويب[4] في عطيب السلاح[5]

وهذه واحدة من النقائض المتبادلة بين طراد وشاعر من عشيرة النعيم:

يا الله يلي خالق الكون وعبادْ أنت الذي يا رب دايم ومعبودْ

يا رازق القاع المحيلة برعادْ[6] خيرك وشرك حين ما تريد موجودْ

عيني جزت[7] عن لذة النوم ورقادْ بالليل من كثر الهواجيس ما أنودْ[8]

من أمور صارت كلها عوج ونكادْ أهبيت[9] يا وقت به الحق مفقودْ

أبو الجذية[10] قال أنا اليوم صيادْ أصيد حرٍ[11] كنت له قبل مصيودْ

أبو الحصين[12] إلي على الخوف معتادْ زاعم بنفسه بالمهمات نمرودْ

يا راكب اللي صفرة الصبح مدادْ[13] خرج العقيلي[14]والحقب[15] زاد مشدودْ

تلفي بيوت منقع الخبز والزاد وخلاف ذا ما قيل تلقى بهم زودْ

نعم بكم قومٍ على النار لكادْ ضرابةٍ للشيش من ساس وجدودْ

شقر الغنم تشهد لكم بين العبادْ نعيميةٍ لا قيل بأثمانها زودْ

(1) الحاجب.

(2) صحائف الورق الأبيض.

(3) كذب.

(4) جريح.

(5) السيف ماضي الحد.

(6) الغيم المصحوب بالرعد والمطر.

(7) امتنعت.

(8) أنام.

(9) خسئت.

(10) الجخدم (الحردون).

(11) الصقر.

(12) الثعلب.

(13) الضمير عائد للبعير الذلول، والخطاب لراكبه.

(14) نسبة إلى جماعة عقيل.

(15) الحزام الذي يشد القتب إلى مؤخرة بطن البعير.

ورداً على بيت لشاعر النعيم يزعم فيه انتسابه إلى رسول الله ρ قال طراد:

جدك أبو لهب على الخبث معتاد تبت يداه النار والحبل ممسود

في جيدها من صارع النار وقاد تصلى جنوب اللي على النار ممدود

ثم يفتخر طراد بقومه فيقول:

ربعي ضنا وايل على روس الأشهادْ صفوة ضنا عدنان من ساس وجدودْ

يشهد لنا الشابور بأجناب الأجيادْ رسان القلايع حين ما نجيبها قودْ

من دور تغلب ما بنا قط سيادْ ظلامةٍ وما ظلمنا ثقل عود

ثم يختمها بالصلاة على النبي ρ كعادة الكثيرين من شعراء البادية قائلاً:

وصلوا وصلى الله على سيد الأسياد ختمتها بالمسك والند والعود

شرح القصيدة:

بعد هذا النداء الجميل لله الحي الدائم المتفرد وحده بالعبادة، يعدد طراد بعض نعم ربه المتفضل بها على خلقه إذ يقول:

يا رازق الأرض المحيلة برعاد، والأرض المحيلة: القاحلة، والرعاد: المطر العزير المصحوب بالرعد، أو الغيم الممطر المصحوب بالبرق والرعد.

ثم يشكو ما أسهره وما أرّقه وجعل عينيه تعاف النوم لكثرة ما يساوره من وساوس وهموم، وممَّ كل هذا السهر وهذا القلق الذي يشكو منه طراد؟ أنه من هذه الأمور العوجاء وهذا الزمن الذي فقد فيه الحق وانقلبت فيه الموازين، فأصبح (أبو الجذيا) –ويعني به الجخدم – يدعي لنفسه البطولات، ويطلب مبارزة الأبطال الذين لم يكن نداً لهم فيما مضى من الزمن.

وحتى الثعلب الجبان – أبو الحصين – الذي كان الخوف من عادته وطبعه أصبح يظن نفسه مارداً مغواراً في الملمات، ثم بعد هذا الافتتاح الجميل والشكوى من جور الزمن يجهز طراد بعيراً أصيلاً ويختار له بعض ما يوضع عليه من متاع ومن بعضه: (خرج العقيل) نسبة إلى قوم يقال لهم (عقيل) اشتهروا بهذا النوع من الخروج، فيقول:

يا راكب اللي صفرة الصبح مداد خرج العقيلي والحقب زاد مشدود

ويوجه خطابه إلى رسوله الذي سينقل رده على شاعر النعيم ويطلب منه أن يجدّ السير باكراً (صفرة الصبح) وهو لون السماء من الشرق قبل طلوع الشمس بقليل، حتى إذا وصل نجع النعيم فإنه واجد في بيوتهم الكرم وطيب القرى، أما ما عدا ذلك فليس عندهم شيء، وكل ما ادّعوه من شجاعة وبلاء في الحرب فهو زيادة وادعاء عريض ولا فخر لهم إلا بتربية الأغنام المعروفة باسم النعيمية، والحق يقال، فإن النعيم أهل فتك وبأس شديد، وما ذهب إليه طراد لا يعدو كونه كلام شاعر.

ويعيب طراد على النعيم الدروشة والسيادة والهجوم على النار لأنهم يدّعون أن لهم جداً من الأولياء الصالحين يحميهم منها، ولذلك يقصدهم من يصيبه مسّ من الجن فيأخذهم الحال، فينقرون الدفوف ويطعنون أجسامهم بالمزاريق (الشيش) وهي إحدى البدع التي ينكرها الإسلام وليست من الدين بشيء.

وفي رده على شاعر النعيم الذي ينسب نفسه إلى رسول الله ρ يقول:

جدك أبو لهب على الخبث معتادْ تبت يداه النار والحبل ممسودْ

وهو هنا ينفي انتساب خصمه إلى رسول الكريم ويميل به نحو أبي لهب، وهو المقصود بقوله: (جدك أبو لهب)، وهو يضمن بيته ما تعنيه السورة الكريمة: (تبت يدا أبي لهب وتب).. إلى آخر السورة، على أن الانتساب لرسول الله ρ بداية، هو باتباع هديه والأخذ بالنور الذي أنزل عليه، وعليه فإن الشاعرين ليسا على شيء فيما يعنيانه.

ثم يفخر طراد بقومه بني وائل الجد الأول لقبيلة عَنِزَة التي ينتسب إليها، ويشهد على شدة بلائهم في الحروب شيئاً من عدّة الفارس التي يرتديها في القتال وهو: الشابور، والشابور مهماز يثبته الفارس الخيال في كعبي قدميه ليحث به الجواد عند الغارة على الأعداء فيزيد من سرعته — وكذلك يشهد أرسان القلايع التي يكسبونها من الأعداء، والقلايع: جمع قلاعة، وهي الفرس التي يكسبونها في القتال بعد أن يرمون عنها فارسها.

ويقول: إننا منذ عهد بني تغلب – وهي احدى قبائل بني وائل – لم يكن فينا قط سيّاد أو أصحاب طرق كما عندكم، والسياد: جمع سيد، ويعني به الدرويش الذي يدّعي الولاية أو يزعم أنه ينتسب إلى أحد الأولياء الصالحين وأن له كرامة عند الله تعالى حيث يكثر أمثال هؤلاء في عشيرة النعيم.

نعم لم يكن فينا سياد ودراويش، وقد اعتدنا أن نظلم الناس ولا يظلمنا أحد، وفي قوله هذا نفحة من كبرياء عمرو بن كلثوم شاعر تغلب وفارسها، حيث يقول:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وخير من هذا كله قول رسول الله ρ: اللهم إنا نعوذ بك أن نظلم أو نظلم ونعوذ بك أن نجهل أو يجهل علينا، ثم يجعل مسك الختام صلاته على النبي الكريم ρ:

صلوا وصلى الله على سيد الأسياد ختمتها بالمسك والند والعود

الأنســاب

الأنساب

من بعض ما يفخر به العرب على غيرهم من الأمم أن لهم أنساباً يتعارفون بها، وهم وأن فات بعضهم معرفة تسلسل أجداده الأدنين، إلا أنهم حريصون على انتمائهم القبلي، فخورون به.

فأبناء العشيرة أو القبيلة متكاتفون متعاونون على السراء والضراء، حريصون كل الحرص على رفع اسم القبيلة والذود عن شرفها، ففي معركة اليمامة قاتل خالد بن الوليد بالمسلمين مختلطين في بداية المعركة، فرأى أنهم يتراجعون أمام ضربات المرتدين من جيش مسيلمة الكذاب، عندها قال خالد – وهو القائد المعجون بخبرات الحرب –: امتازوا لنعرف من أين نؤتى، فاجتمعت كل قبيلة على حدة تحت لواء واجتمع المهاجرون والأنصار تحت لواء، ثم حمل بهم خالد فهزم المرتدين.

وقوّى الإسلام فيهم رابطة النسب فجعل أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، ولفت نظرهم إلى أنه خلقهم من أبوين ذكر وأنثى وأمرهم بالتعارف فيما بينهم، قال تعال: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[1]، وعندما سئل رسول الله ρ من خير الناس، قال: يوسف نبي، ابن نبي، ابن نبي.

وقال عليه الصلاة والسلام:(**إن الله اصطفى من العرب كنانة، واصطفى من كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار**).

وقال عمر بن الخطاب– رضي الله عنه – لولده: يا بني انسب نفسك تصل رحمك واحفظ معاني الشعر يحسن أدبك فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه، وقال عمر أيضاً: تعلّموا أنسابكم ولا تكونوا كنبيط السواد إذا سئل الواحد ممن هو ذكر بلده.

وكما نرى، فإن الإسلام لم ينكر الانتماء القبلي، وإنما أنكر التعصب القبلي الأعمى والتمايز العرقي البغيض.

وفي خطبة لأكثم بن صيفي أمام كسرى ملك الفرس، عدد فيها مناقب العربْ وقال: أن لهم أنساباً يتعارفون بها.

وورد في كتاب سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، للشيخ السويدي، ما حكاه صاحب الريحان والريعان، عن أبي سليمان الخطابي رحمه الله تعالى أنه قال:

[1] سورة الحجرات – الآية 13.

كان أبو بكر رضي الله عنه نسّابة، فخرج مع رسول الله ρ ذات ليلة، فوقف على قوم من ربيعة، فقال: ممن القوم؟ قالوا: ربيعة، قال رضي الله عنه: وأي ربيعة أنتم أمن هامتها أم من لهازمها؟ قالوا: بل من هامتها العظمى، قال أبو بكر رضي الله عنه: ومن أيّها؟ قالوا: من ذهل الأكبر. قال أبو بكر رضي الله عنه: فمنكم عوف الذي يقال: لا حر بوادي عوف، قالوا: لا. قال: فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال فمنكم الحوفزان[1] قاتل الملوك وسالبها أنعمها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة المفردة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال: فلستم بذهل الأكبر، بل ذهل الأصغر، فقام إليه غلام من شيبان يقال له دغفل حين بقل وجهه، قال:

إن على سائلنا أن نسأله والفتى لا تعرفه أو تحمله

يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك ولم نكتمك شيئاً من خبرنا، فممن الرجل؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا من قريش. قال: بخ بخ أهل الشرف والرئاسة فمن أي القريشيين أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرة، قال الفتى: امكنت والله من سواء الثغرة، فمنكم قصي الذي جمع القبائل كلها وكان يدعي مجمعاً؟ قال: لا. قال: فمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه؟ قال: لا. قال: فمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا، واجتذب أبو بكر رضي الله عنه زمام ناقته، فقال الفتى:

صادف درء السيل درءً يدفعه يهيضه حيناً وحيناً يصدعه

أما والله يا أخا قريش. لو تثبتّ لأخبرتك إنك من رعيان قريش ولست من الذوائب، فأخبر رسول الله ρ بذلك، فابتسم، فقال علي رضي الله عنه: يا أبا بكر، لقد وقعت من الغلام على باقعة، قال: أجل يا أبا الحسن ما من طامة إلا فوقها طامة.

ودغفل هذا، هو دغفل ابن حنظله النسابة الذي يضرب به المثل في النسب، وقد كان له معرفة بالنجوم وغيرها من علوم العرب، قدم مرة على معاوية بن سفيان رضي الله عنه في خلافته فاختبره فوجده رجلاً عالماً، فقال: بمَ نلت هذا يا دغفل؟ قال: بقلب عقول، ولسان سؤول، وآفة العلم النسيان، قال: اذهب إلى يزيد فعلّمه النسب والنجوم، وقد ذكر أبو عبيد أن ممن يقاربه في العلم بالأنساب من العرب ابن

[1] هو الحارث بن شريك.

الكيس من بني عوف بن سعد بن تغلب بن وائل، وفيه وفي دغفل المقدم ذكره يقول مسكين بن عامر الشاعر:

فحكّم دغفلاً وارحل إليه ولا تدع المطي من الكلال

أو ابن الكيّس النمري زيداً ولو أمسى بمنخرق الشمال

وممن كان مقدماً في النسب من العرب أيضاً، النجار بن أوس بن الحارث بن سعد هذيم من قضاعة، فقد قال أبو عبيدة: أنه أنسب العرب، وقد صنف في علم الأنساب جماعة من أجلّة العلماء وأعيانهم كأبي عبيد، والبيهقي، وابن عبد البر، وابن حزم، وغيرهم، وهو دليل شرفه ورفعة قدره.

وتعدّت عنايتهم بالنسب إلى الخيل، فنسبوها وذهبوا بأنسابها إلى أسلاف بعيدة.

(قاد عياش بن الزبرقان بن بدر إلى عبد الملك بن مروان خمسة وعشرين فرساً، فلما جلس لينظر إليها، نسب كل فرس منها إلى جميع آبائه وأمهاته، وحلف على كل فرس بيمين غير اليمين التي حلف بها على الفرس الآخر، فقال عبد الملك بن مروان: عجبي من اختلاف أيمانه أشدّ من عجبي من معرفته بأنساب الخيل)[1].

وأشهر من كتب في الأنساب على الإطلاق: هشام بن محمد بن السائل الكلبي **(وأبوه)** ويعدّ كتابه **(جمهرة النسب)** من أعظم مراجع النسب.

[1] البيان والتبيين، للجاحظ.

نسب قبيلة عْنِزَة

عند البحث في نسب عْنِزَة لا بد لنا من الرجوع إلى ما كتبه النسابون وانتهى إلينا من أنساب العرب، فقد اتفق معظم النسابين[1] على تصنيف العرب إلى فريقين:

أ – عرب عاربة: عرب عاربة: كثمود وعاد وهي التي تسمى بالعرب البائدة، لهلاكها في الزمن القديم الذي سبق الاسلام بقرون عديدة، وقد ورد ذكر لبعضها في القرآن الكريم.

ب – أما الفريق الثاني فهو ما يدعى بـ (العرب المستعربة)[2]، ويضم في قبائل عدنان وقحطان، فليس من عربي إلا يرجع بنسبه إلى هذين الجدين. فقبائل عدنان هي ما تسمى بعرب الشمال حسب مسكنها في شبه الجزيرة العربية. أما قبائل قحطان فتدعى بعرب الجنوب حسب موطنها من شبه الجزيرة أيضاً.

وفي حديثنا عن عْنِزَة ينحصر بحثنا في عدنان، أي عرب الشمال لأن عْنِزَة قبيلة[3] عدنانية محضة، فقد تشعب من عدنان قبائل جمة من سبطة نزار بن معد بن عدنان الذي ولد له : مضر وربيعة وأنمار وإياد، فعامة القبائل العدنانية ترجع في أنسابها لربيعة ومضر، يقول لبيد بن ربيعة العامري:

تمنّى ابنتاي ألا يموت أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وهما ما يسميهما العرب بـ (الصريحين) من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام، فمن مضر قريش وتميم وغطفان وعامر، ومن ربيعة تفرعت عدة قبائل كبكر وتغلب وعنزة وعبد القيس والنمر بن قاسط، فنزة إذاً إحدى قبائل ربيعة، ويجب الانتباه إلى وجود قبيلتين من ربيعة بهذا الاسم، فالأولى: عْنِزَة[4] بن أسد بن ربيعة، أما الثانية فهي: عْنِزَة بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة.

فعْنِزَة بن أسد ولد له يذكر ويقدم ومنهما عدة بطون أهمها: بنو هزان بن صباح بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عْنِزَة، وبنو جلاّن بن عتيك بن أسلم، وبنو الدّول بن صباح، وهزّان هؤلاء الذين ذكرهم الحارث بن ظالم المري، فقال وقد نزل بهم:

---

[1] كابن الكلبي وابن اسحق والطبري.

[2] ويذهب بعض المؤرخين والنسابة إلى تسمية عرب قحطان بالعارية، وعدنان بالمستعربة.

[3] جمهرة النسب لابن الكلبي – جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي – العقد الفريد ج2 الطبعة المصرية سنة 1331هـ.

[4] جمهرة النسب لابن الكلبي – جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي – العقد الفريد ج2 الطبعة المصرية سنة 1331هـ.

أبلغ سراة بني غيظ مغلغلة أني أقسم من هزّان أرباعاً

كما ذكرهم الأعشى حيث قال مخاطباً امرأته وكانت منهم:

لقد كان في فتيان قومك منكح وفتيان هزان الطوال الغرانق

ومنهم الحارث بن الدّول العنزي: وكان إذا مصّر ثوبيه مصرت عْنِزَة معه، فمن لم يفعل نزعوا كتفه.

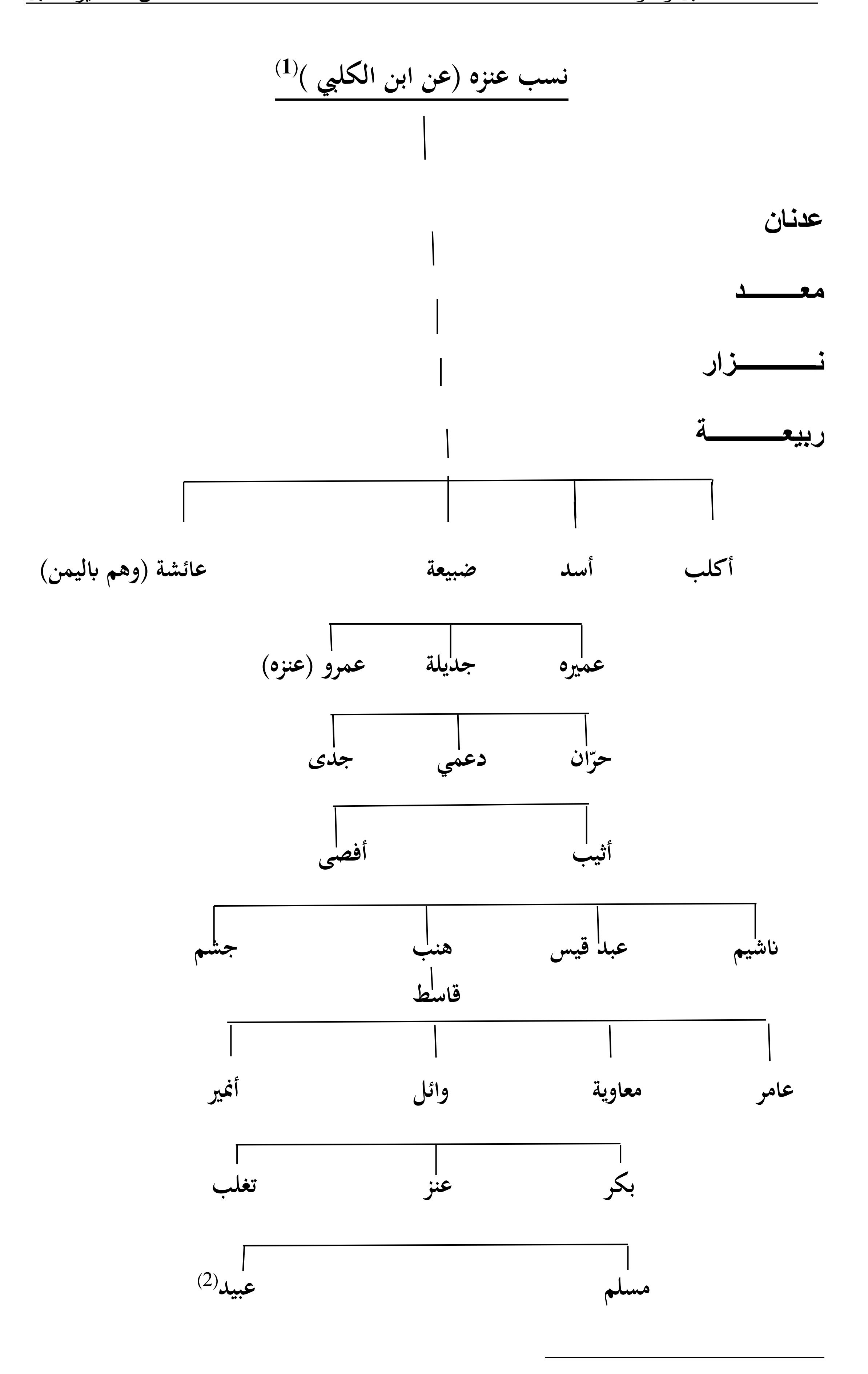
وعْنِزَة تلك كانت قد دخلت في الجاهلية ضمن حلف مع بني عجل بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وقيس بن ثعلبة بن عكابة بن الصعب بن علي بن بكر بن وائل وتيم الله بن ثعلبة، فدعيت تلك القبائل بـ (اللهازم).

أما أبناء وائل بن قاسط الثلاثة (بكر – تغلب – عْنِزَة) فتفرغ منهم ثلاث قبائل كبار هي : بكر وتغلب وعْنِزَة، ومن أشهر بطون عْنِزَة بن وائل: رفيده بن عْنِزَة[1] ومنهم عامر بن ربيعة الصحابي رضي الله عنه حليف لآل الخطاب، وكان الخطاب قد تبناه فلما نزل (ادعوهم لآبائهم) رجع إلى نسبه.

ومن الجائز أن اسم عْنِزَة طغى الآن على قبائل بني وائل الثلاث: فأصبحت كلها تعرف باسم عْنِزَة حتى أننا لم نعد نسمع عن بكر وتغلب شيئاً يذكر، ومن الصعوبة الآن معرفة من هم البكريون ومن هم التغلبيون في قبيلة عْنِزَة.

[1] جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي.

نسب عنزه (عن ابن الكلبي)[1]



[1] أورده ابن الكلبي ابتداءاً من ربيعة.

فمن مسلم جاء: ضنا مسلم وهم: الروله – المحلف –بني وهب.

ومن عبيد جاء: ضنا عبيد وهم: العمارات –الفدعان – السبعة.

قال ابن الكلبي: حدثنا خراش قال: سمعت أشياخاً لبكر بن وائل يقولون: خرج وائل بن قاسط وامرأته تمخض، وهو يريد أن يرى شيئاً يسمي به، فإذا هو ببكر قد أشرف، فرجع فولد له غلام، فسماه بكراً، ثم خرج مرة أخرى وهي تمخض، فإذا هو بعنْزٍ من الظباء، فرجع فولدت له غلاماً فسماه عنْزاً، ثم خرج مرة أخرى، فإذا هو بشخيص قد ارتفع له، فرجع، فولدت له غلاماً فسماه شخيص، ثم خرج مرة أخرى وهو يريد أن يرى شيئاً، فغلبه، فرجع، فولدت له غلاماً فسماه: تغلب.

[2] مسلم وعبيد ليسا من أبناء عنز ولكنهما من سلالته.

نسب الحسنة

الحسنة أحد فروع قبيلة عْنِزَة التي تنتسب إلى جدها عْنِزَة بن وائل بن قاسط بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الذي ينتهي نسبه إلى اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام، وهي أيضاً فرع من بني وهب إحدى بطون ضنا مسلم.

وعليه فإن الجد القريب للحسنة هو حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن وهب جاء: منبه وعلَي وشرعب الكبير (شرعب الأول).

فمن علي جاءت عشيرة: ولد علي، ومن شرعب الكبير جاء: شراعبة وهب.

ومن منبه جاء: صاعد وشرعب الصغير (شرعب الثاني) وخمعل وفقير.

فمن صاعد جاء: حسن وحسين، ومن شرعب جاء: شراعبة المنابهة، ومن خمعل جاء: الخماعلة.

ومن فقير جاء: الفقرا.

فمن حسن جاء: المصاليخ.

ومن حسين– وهو جد الحسنة جاء: جهيم وعويمر وقضيب.

فمن جهيّم جاء: فخذ الجهيّم.

ومن عويمر جاء: فخذ العويمر.

ومن قضيب جاء: فخذ القضبة

وتشكل هذه الأفخاذ الثلاثة عشيرة الحسنة[1].

وورد في جمهرة النسب لابن الكلبي، أن عامر بن رفيده بن عْنِزَة أنجب ثلاثة أبناء هم: عبد الله وإياس ووهب، فإذا كان وهب هذا هو جد بني وهب، فإننا قد استطعنا وصل حلقات النسب ببعضها على الشكل التالي: أن جد الحسنة هو حسين بن صاعد بن منبه بن وهب بن عامر بن رفيدة بن عنز بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

---

[1] جاء في كتاب أصدق الدلائل في أنساب وائل لابن عبار ص: 78 أن من الحسنة فخذاً في المملكة العربية السعودية يقال لهم: المدلج وذكر من فروعهم: الإبراهيم – الدريس – المانع (الخزيمي) الحسن ولكنه لم يذكر تفاصيل أسرهم.

نسب الجهيّم[1]

الجد: جهيم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومنه تفرع الأسر التالية:

- الملحم وفيهم رئاسة العشيرة.
- العرفج.
- المقبل (الخضير).
- العياش.
- الغنام.
- آل الرفاشي.
- الشمسي.
- الطعيميس.
- الزومان

ويذكر الرواة أن ما يقرب من ثلاث عشرة أسرة من الجّهيم بادت ولم يبق منها أحد.

[1] أخذ عن الشيخ نايف بن قبلان الملحم ومحمد بن هزاع الملحم.

نسب العرفج

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن جَهيّم جاء عرفج، ومن عرفج جاء رشود ومن رشود جاء العيط ومحمد.

فمن العيط جاء حميدي ومن حميدي جاء زيد ومنه فصال وحسن.

ومن محمد بن رشود جاء عليان ومن عليان جاء عاصي ومن عاصي جاء خلف ومن خلف جاء: العيط وعايد وعويد وحميدي وسعود.

ومن العيط بن خلف جاء: خليل وعبد الكريم وعبد الإله.

ومن عايد بن خلف جاء: خليف وخالد ومثقال ومحمد ومسعر وعبد الإله وعرفج وزياد.

ومن عويد بن خلف جاء: فايز.

ومن حميدي بن خلف جاء: محمد وأحمد وحمدان وحمود وخالد وناصر وحمد.

ومن سعود بن خلف جاء: علَي ونايف ومشعل وسلطان وخلف ونواف.

ومن فصال بن زيد العرفج جاء: محمد وأحمد وعبد الحميد وعبد القادر.

ومن حسن بن زيد جاء: علَي وخالد وزيد وفيصل وعبد الكريم ومحمد وأحمد.

ويقال للعرفج: بيت الجَهيّم، لأن أكثر أسر الجَهيّم تتفرع منهم كما يزعم بعض الرواة، ولكن لا أحد يدري من تكون هذه الأسر.

هذا ما رواه لي عايد بن خلف العرفج، وهو وحده من فخذ الجَهيّم الذي استطاع ان يعدد نسبه حتى جَهيّم، ولكن من المؤكد أنه أضاع بعض الحلقات لأنني أعتقد أن ما بينه وبين جهيم من الأجداد يزيد عما ذكره بكثير، والله أعلم.

ومنهم العيط بن خلف العرفج، وكان اسد العرين في أهل ذلك الحي من الجَهيّم الذين يسكنون الرضيفات، ومن أصلب أقرانه عوداً وأشدهم باساً، لا يداس على قدمه ولا يغمز جانبه، وقد منحه الله إلى جانب جمال الخلقة، قوة في الجسد.

قال لي أحد أقرانه: كان العيط يصرعنا جميعاً، وكان يعترض البعير المنهزم فيمسك بذيله ويميل به ذات الشمال، فيطرحه أرضاً، توفي في العقد الرابع من العمر وأعقب ثلاثة من الولد، هم: خليل وعبد الكريم وعبد الإله.

نسب الملحم[1]

الجد: جَهيّم[2] بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن جهيم جاء: مزيد، ومن مزيد جاء: شماس، ويقال إن شمسي وشماس هما أبناء مزيد الأول، فمن شمسي جاء: فخذ الشمسي، ومن شماس جاء: الملحم، وبعد شماس جاء مزيد الثاني.

وكان مزيد الثاني آخر من بقي من أسرة المزيد فتقدمت به السن ولم يتزوج، فكان عازفاً عن النساء لولا أن اختارته نفرة الغريان، وكانت امرأة ذات جمال وعلى جانب من رجاحة العقل، فقالت: (أريد أن أحيي دار أهلي) لأنها أقرب فروع الجهيم إليه نسباً، فتزوجها مزيد وأنجبت له خمسة أبناء لم يبق منهم سوى رشيد، فمن رشيد جاء: ملحم، ومن ملحم تفرع ثلاث أسر هي: الكنعان والقبلان وآل فاضل.

وينبغي الانتباه إلى أن هناك بعض الحلقات المفقودة ما بين مزيد الأول ومزيد الثاني، وكذلك فإننا لا نعلم ما هي درجة القربى بين شماس ومزيد الثاني، فكل ما لدينا هو من أقوال الرواة، والرواة يزيدون وينقصون ويتفاوتون في الرواية، علماً بأن الملحم هم أكثر من حفظ نسبهم من أسر الحسنة بحكم موقعهم في الرئاسة ولأن أكثر الرواة منهم.

ومن المصادفات الغريبة أن أسرة الملحم كادت تنقرض ثلاث مرات ولم يبقَ منها إلا رجل واحد اسمه مزيد فهي ابتدأت بعد جهيم بمزيد الأول، ثم انقرضت ولم يبقَ منها إلا رجل واحد اسمه مزيد وهو مزيد الثاني ثم تكاثرت والتاريخ يروي لنا أنه كان لمهنا الفاضل وحده عشرون ولداً، ثم انقرضت ولم يبق منها إلا رجل واحد اسمه مزيد، وهو مزيد الثالث جد الملحم الحاليين ما عدا القبلان.

والملحم أسرة ذات ماضٍ يطفح بالأمجاد والبطولات، ومنها الفرسان والشعراء ورواة الأخبار، وفيها كانت ومازالت رئاسة الحسنة، ما عدا الفترة التي آلت فيها الرئاسة إلى أسرة المقبل، ثم تحولت بعد ذلك إلى الملحم، وعندما كانت تجتمع فروع المنابهة فالرئاسة للملحم عليهم جميعاً، أما حين ينفردون فلكل عشيرة شيخ يرأسها.

---

[1] أخذ هذا النسب ابتداءً من جهيم، وحتى ملحم عن نايف بن قبلان الملحم وغيره من الرواة.

[2] كان يقال لبيت الملحم جهيم، تيمناً بجدهم جهيم، الذي يعتقدون أن له كرامة الأولياء، ويذكرون أشياء حدثت يزعمون أنها من كرامته، منها ما يروونه أنه لما غزاهم أحمد بك (أمير الموالي) وجلس في بيت الملحم، وأمر أن تقدم له القهوة صرخت النساء قائلات: جهيّم، جهيّم، فارتقع البيت وكأن ريحاً حركته ثم استقر على الأعمدة.

وقد تكون هذه الرواية من نسج خيال النساء، أو أن ريحاً قوية حركت البيت مصادفة في حينه، بيد أنها تدل على حقيقة انتمائهم إلى جهيم، وعلى مدى قناعتهم بولايته وكرامته.

نسب الكنعان

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن جَهيّم جاء: مزيد، ومن مزيد جاء: شماس، ومنه جاء: مزيد الثاني، ومنه جاء: رشيد، ومنه جاء: ملحم، ومن ملحم جاء: محمد ومنه جاء: كنعان، ويذكر الرواة أن الكنعان بادوا ولم يبقَ منهم أحد، وفي الستينات من القرن العشرين الميلادي جاء رجل يدعى حسين الكنعان من إحدى القرى المجاورة لمدينة حلب وادعى أنه من سلالة الكنعان، وأن جده جلا إلى تلك المنطقة لسبب ما، وبعد التقصي والتحقيق وسؤال بعض المسنين من الحسنة، ومنهم علي المحينة على صحة ما ادعاه ذلك الرجل، تبين انه قد نزح أحد الكنعان نحو الشمال في فترة من الفترات وانقطعت أخباره ولا يعرف عنه شيئاً، وفي النهاية اتفق المجتمعون برئاسة الشيخ ثامر الملحم على الاعتراف بانتساب ذلك الرجل إلى أسرة الكنعان.

ويبلغ تعداد هذه الأسرة عشرات الرجال يقيم بعضهم في مدينة حلب، وبعضهم الآخر في قرية إلى الشرق قليلاً منها وأصبحت كنيتهم الكنعان الملحم، والوجيه فيهم الآن حمود الملحم.

نسب القبلان

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن جَهيّم جاء: مزيد، ومنه جاء: شماس، ومن شماس جاء: مزيد الثاني، ومن مزيد الثاني جاء: رشيد، ومن رشيد جاء: ملحم، ومن ملحم جاء: محمد (قبلان).

ويقال إن (محمد) هذا أُسر في إحدى الغزوات ثم أُطلق سراحه، فعاد إلى أهله ولما أصبح على مقربة منهم جاءهم البشير بقدومه – وكان قد طال انتظارهم له – فتجمعوا فوق مرتفع من الأرض ينتظرون وصوله، فلما أطل عليهم قال من رآه: ها هو محمد أقبل، فتعالت أصواتهم قائلين: أقبل أقبل، وبعضهم يقول: قبلان قبلان، فاقترن اسم قبلان باسمه حتى غلب عليه فيما بعد وأصبح يعرف محمد باسم قبلان، والله أعلم.

ومن قبلان جاء: جديع وجاسم.

فمن جديع بن قبلان جاء حامد.

ومن حامد جاء هزاع.

ومن هزاع جاء جاسم وجديع، (وهو جديع الثاني).

ومن جديع جاء محمد.

ومن جاسم بن هزاع جاء: قبلان، (وهو قبلان الثاني).

ومن قبلان جاء نايف.

ومن نايف جاء: محمد – علي – منصور.

ومن جاسم بن قبلان جاء صالح.

ومن صالح جاء: أسعد.

ومن أسعد جاء: مصلح وفياض.

ومن فياض جاء: عبد الله وعبد الهادي.

ومن مصلح جاء: ممدوح.

ومن ممدوح جاء: فرحان – عبد الهادي – عبد العزيز – مصلح – فواز – فايز.

ومن فرحان بن ممدوح جاء: سلطان – محمد – ممدوح – قبلان.

ومن محمد بن نايف جاء: نايف وعبد الله.

ومن فايز بن ممدوح جاء: ممدوح وصخر.

وهي أسرة طالما أنجبت الفرسان والشعراء، واشتهر رجالها باسم (إخوان موضي)، ومن أشهرهم جديع بن قبلان الأول الذي ترأس عشيرة الحسنة بعد مهنا الفاضل، وهو شاعر وفارس وله معارك مشهورة مع الموالي، وقد سبق الحديث عنه عند ذكرنا للرجال الأعلام في تاريخ الحسنة.

ومنها الشاعر والفارس جديع بن قبلان الثاني الذي اشتهر بقصائده في حواره مع الموالي ورده عليهم.

نسب آل فاضل

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن جَهيّم جاء: مزيد، ومن مزيد جاء: شماس، ومنه جاء: مزيد الثاني، ومن مزيد الثاني جاء: رشيد، ومن رشيد جاء: ملحم، ومن ملحم جاء: حمد، ومن حمد جاء: فاضل، ومن فاضل جاء: عبد الله ومهنا.

فمن عبد الله جاء: علي، ومن مهنا جاء: ناصر، ومن ناصر جاء: محمود وحمود (وهو الفارس الشاعر حمود الناصر الذي أجار الدنادشة من العثمانيين)، ثم جاء بعدهم عبد العزيز ومن عبد العزيز جاء: مزيد الثالث.

وما بين عبد العزيز وكل من عبد الله الفاضل ومهنا الفاضل عدد من الحلقات المفقودة، ويختلف الرواة في نسب مزيد الثالث، فمنهم من ينسبه بعد أبيه عبد العزيز إلى عبد الله الفاضل، ومنهم من ينسبه إلى مهنا الفاضل، ويستند الذين ينسبونه إلى مهنا إلى رواية مفادها أن عبد الله لم ينجب إلا علَي وأن علياً كان عاقراً فمات ولم ينجب، والله أعلم.

ومن مزيد الثالث جاء: فارس وراجح وعبد العزيز، وهم أجداد الملحم الحاليين ما عدا القبلان، وتفرع منهم ثلاثة أفخاذ: فمن فارس جاء فخذ الفارس ومن راجح جاء فخذ الفيصل ومن عبد العزيز جاء المزيد.

نسب الفارس

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن جَهيّم جاء: مزيد. ومن مزيد جاء: شماس، ومنه جاء: مزيد الثاني.

ومن مزيد الثاني جاء: رشيد.

ومن رشيد جاء: ملحم.

ومن ملحم جاء: حمد

ومن حمد جاء: فاضل.

ومن فاضل جاء: عبد الله ومهنا.

فمن عبد الله جاء: علي.

ومن مهنا جاء: ناصر.

ومن ناصر جاء: محمود – حمود، ثم جاء عبد العزيز.

ومن عبد العزيز جاء: مزيد الثالث.

ومن مزيد الثالث جاء: فارس.

وينبغي الانتباه إلى أنه ما بين مزيد الأول ومزيد الثالث كثير من الحلقات المفقودة كما أسلفنا.

ومن مزيد الثالث جاء: فارس.

ومن فارس جاء: سعود – ملحم – صفوق – محيي الدين – محمد.

ومن سعود بن فارس جاء: فندي – محمد.

ومن فندي جاء: طراد – بدر – حريثان – عبد الهادي – عبد الرزاق.

فمن طراد جاء: ثامر – عبد العزيز – محمد.

ومن بدر جاء: رافع.

ومن حريثان جاء: فيصل – حاتم – فندي – ناصر – سرور – عبد المحسن – فارس.

ومن عبد الهادي جاء: محمد – عارف – عبد السلام.

ومن ثامر بن طراد جاء: طراد – موفق – عبد الكريم – منصور – عبد الإله – فواز.

ومن عبد العزيز بن طراد جاء: نواف – زياد – محمد – سلطان – عبد الله – عبد المحسن.

ومن محمد بن طراد جاء: طلال.

ومن عبد الرزاق بن فندي جاء: منور – أورنس – راكان – حاكم – متعب – فواز – مشعل.

ولهذا الفرع من الفارس لواحق أو (لحقه) كما يسمونه هم أبناء خالد الفندي، وكان هذا قد نشأ في بيت فندي بن سعود، فتبناه فندي ومنحه اسمه وأصبح يُعرف باسم خالد الفندي، وهو رجل صدق عرف باستقامته وحسن إسلامه، وله ستة من الأبناء هم: مثقال – أحمد — مشرف – سلطان – محمد – ربيع.

ومن ملحم بن فارس جاء: محمد.

ومن محمد جاء: عبد الكريم.

ومن صفوق بن فارس جاء: شامان – عيادة – عايد – عودة.

فمن شامان جاء: فواز.

ومن فواز جاء: محمد – أحمد.

ومن عيادة جاء: بدر – ملحم – فارس – عبد العزيز – سلطان – فنار.

ومن عايد جاء: صقر – ممدوح – دحام – عبد المحسن.

ومن محيي الدين بن فارس جاء: ماجد.

ومن ماجد جاء: مزيد – محيي الدين – عبد الدايم.

ومن محمد بن فارس جاء: جاسم.

ومن جاسم جاء: فرحان، وكان رحمه الله أحد أركان العشيرة ومن الذين يندبهم الشيخ في المعضلات ويشاركه الرأي في القرارات المتخذة، توفي عام 1406 هـ في العقد الخامس من العمر وأعقب أربع أبناء هم: علَي – نورس – أنور – عبد الكريم.

ومن محمد بن سعود جاء: فايز – علي.

ومن فايز جاء: سعود – فيصل – عبد الإله – محمد – سطام.

ومن علي جاء: تركي – طه – محمد.

ومن سعود بن فايز جاء: فايز– نايف – مساعد.

ومن فيصل بن فايز جاء: عبد المجيد – النوري.

ومن عبد الإله بن فايز جاء: طارق – عمر.

ومن سطام بن فايز جاء: نواف.

نسب المهنّا

وهناك فرع من الفاضل اسمهم (المهنّا) من سلال الشيخ محمود بن ناصر المهنا الذي نفته الدولة العثمانية إلى إستانبول ومنها إلى مصر.

ويقال إنه تزوج هناك امرأة من الأسرة الخديوية الحاكمة في مصر ثم تركها في حملها وعاد إلى الحسنة بعد أن أخبرها بمكان عشيرته، وأوصاها إن هي أنجبت ولداً ذكراً تخبره بمكان أهله، وإن أنجبت بنتاً، فهي لها تفعل بها ما تشاء، فأنجبت المرأة ولداً أسمته محمد، ولما شب وكبر أخبرته أمه بمكان أهله ومن هم، فارتحل الشاب إلى سورية وجاء إلى الحسنة – وكان أبوه قد توفي – فاعترفوا بنسبه ولكنهم لم يعترفوا له بالرئاسة عليهم التي كانت من حقه إرثاً عن ابيه، فنزح إلى الرولة وجاور الشعلان وأعقب ولداً اسمه طلال ومن طلال جاء عوض، ومن عوض جاء مناور، ومن مناور جاء طلال وفهد، وفي رواية للشيخ نايف بن قبلان الملحم أن محمد بن محمود ترأس الحسنة خمس سنوات ثم تنكروا له بعد ذلك وعزلوه.

أما تسلسل نسبهم فهو كالآتي:

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن جَهيّم جاء: مزيد، ومن مزيد جاء: شماس، ومن شماس جاء: مزيد الثاني، ومن مزيد الثاني جاء: رشيد، ومن رشيد جاء: ملحم، وبعد ملحم جاء: فاضل، ومن فاضل جاء: مهنا، ومن مهنا جاء: ناصر، ومن ناصر جاء: محمود– وهو الذي نفته الدولة العثمانية إلى إستانبول – ومن محمود جاء محمد، ومن محمد جاء طلال، ومن طلال جاء عوض، ومن عوض جاء مناور، ومن مناور جاء طلال وفهد.

ومنهم الفارس الشاعر حمود بن ناصر المهنا، الذي استجار به الدنادشة عندما طاردتهم الدولة العثمانية، فأجارهم، وارتحل بهم على الجزيرة الفراتية، وهناك جاور قوماً من سكان ضفاف الفرات يبيعون نتاج أغنامهم وعندهم موازين يزينون بها ما يبيعونه، فملَّ حمود معاشرتهم وأنف العيش معهم، فقال متوجداً على عشيرته:

يا حمود مشتى الزور والعنز ما هوايش   يا ما حلى المشتى بهاك الفروعي

بفروع عامجٍ[1] يوم جونا الطراريش[2]   متخالط نوارها والفقوعي[3]

---

[1] وادي في حماد الشام.

[2] جمع طارش، وهو ابن السبيل.

[3] الكمأة.

**ما هم عوضنا بناقلين المراييش[1]		والخيل تزهى بالكمن[2] والفزوعي**

**بياعة القيمق وجوه الفوانيش[3]		شقالة الميزان صاروا ربوعي**

ومما قيل في الشيخ الناصر بعد اعتقاله القصيدة التالية للشاعر سليمان اليمني:

**يا راكب تيهية بنت عيرة[4]		أمضت ليلها والنهار هذيل[5]**

**حمرا ثمان سنين ما جابت الضنا		ما لاح لي مثلها بالركاب مثيل**

**يا راكبه خله تذومل[6] مع السهل		بالقيظ ما يطري عليك مقيل**

**دربك على الشام مرعش دونها		ترى دربك يا الغلام طويل**

**تدخل على استانبول تلوذ بالحرم		تقول يا عبد المجيد دخيل**

**تشفع لنا بالشجاع أخو فضة[7]		يكيلنا[8] يوم السنين محيل**

**غدوا به الأتراك بواقة العهد		الواحد ما بين الاثنين ذليل**

**أنا ودعته لسهيل والقمر		ونجوم من فوق الظلام شعيل**

**صينيته دوم أربعة ناقلينه		بمقام والا في اعقاب نزيل**

**تلقى تحاويل البداوة ببيته		وتسمع لسرد الصافنات[9] صهيل**

**له دلة دب الليالي تطمي[10]		سيل على وجه البلاد يسيل**

**العوسجي[11] ما يهدي الحر[12]فوقه		ولا به لسمحين الوجيه مقيل**

**الأنذال لا قدنا ولا فدنا منهم		أهبيت يا روض الفاينين محيل**

---

(1) أعواد الرماح يوضع فيها الريش للزينة.

(2) الكمين من الخيل.

(3) الدواب.

(4) التيهية: الناقة الكريمة الأصل سريعة العدو، بنت عيرة: الناقة الذلول.

(5) نوع من ركض الإبل.

(6) ركض للإبل يشبه الخبب عند الخيل.

(7) هو الشيخ محمود الناصر.

(8) يميرنا.

(9) هن الخيل.

(10) تسيل أو تطفح بالقهوة.

(11) نسبة إلى شجر العوسج.

(12) الصقر.

وينسب بعضهم القصيدة لابنة الشيخ محمود، والأصح أنها للشاعر سليمان اليمني، لأن هذا النوع من الشعر لم يكن معروفاً عند الحسنة بعد هجرتهم من شبه الجزيرة العربية، والممعن النظر في البيت الأخير من القصيدة يجد أنه كلام شاعر يرجو العطاء لا كلام ابنة فقدت أباها، ففيه يقول:

الأنذال لا قدنا ولا فدنا منهم أهبيت يا روض الفاينين محيل

فالشاعر عندما يمتدح الكرام يغدقون عليه العطاء، إما بشاة أو بعير يقوده أو مال يعود بالفائدة عليه، على عكس الأنذال البخلاء الأشحاء بالعطاء الممحل روضهم أبداً.

نسب المزيد[1]

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن جَهيّم جاء: مزيد، ومن مزيد جاء: شماس، ومنه جاء: مزيد الثاني، ومن مزيد الثاني جاء: رشيد، ومن رشيد جاء: ملحم، ومن ملحم جاء: حمد، ومن حمد جاء: فاضل، ومن فاضل جاء: عبد الله ومهنا.

فمن عبد الله جاء: علي، ومن مهنا جاء: ناصر، ومن ناصر جاء: محمود وحمود، ثم جاء عبد العزيز ومن عبد العزيز جاء: مزيد الثالث، ومن مزيد الثالث جاء عبد العزيز، ومن عبد العزيز جاء رميح وعبد الله وسليمان وعبيد، ومن رميح جاء: محمد – أحمد – ذياب – فيصل – حمد.

ومن محمد بن رميح جاء: صفوق – عبد الرزاق – ناصر.

ومن أحمد بن رميح جاء: طلال – محسن.

من ذياب بن رميح جاء: مفلح – وهب – عناد – رميح – محمد – مزيد.

ومن حمد بن رميح جاء: تركي – شامان.

ومن فيصل جاء: راجح – عبد الله.

ومن عبد الله بن عبد العزيز جاء: ذعار – عبيد.

ومن ذعار جاء: ماجد – هايل – بشير – نايف – فرحان – محمد – سلطان – نواف.

ومن عبيد بن عبد الله جاء: سعود – منور – حطاب – راكان – حكام – مساعد – عبد الرزاق.

ومن سليمان بن عبد العزيز جاء: فاضل – مصلح – بدر – دهام – عبد العزيز.

ومن فاضل بن سليمان جاء: عبد الإله – فواز – سليمان – عبد الله.

ومن مصلح بن سليمان جاء: عبد العزيز – منصور – محمد.

ومن بدر بن سليمان جاء: ميزر.

ومن دهام بن سليمان جاء: نواف.

ومن عبد العزيز بن سليمان جاء: بندر.

ومن صفوق بن محمد جاء: محمد – هزاع.

---

[1] الجد القريب لهذا الفرع من آل فاضل هو عبد العزيز ولا نعلم لماذا يكنون بالمزيد، وأغلب الظن أنه لما اتخذ كل من فارس بن مزيد وراجح بن مزيد لنفسه بيتاً مستقلاً بقي أخوهم عبد العزيز في بيت أبيه مزيد، فغلب اسم ابيه على أحفاده من بعده وأصبحوا يعرفون بالمزيد والله أعلم.

ومن عبد الرزاق بن محمد جاء: محمد – أنور – خالد – فهد – أحمد – مقرن.

ومن ناصر بن محمد جاء: مشعل – فواز – فيصل.

ومن طلال بن أحمد جاء: أحمد – أنور – ناصر.

ومن مفلح بن ذياب جاء: ذياب – حابس – مزيد.

ومن وهب بن ذياب جاء: موفق – توفيق – محمد.

ومن عناد بن ذياب جاء: وايل.

ومن رميح بن ذياب جاء: محمد – فهد.

ومن تركي بن حمد جاء: حمد – محمد – خالد – منذر – عبد العزيز – عبد المجيد.

ومن منور بن عبيد جاء: نواف – مشعل.

ومن حطاب بن عبيد جاء: عبيد – محمد – أدهام – أحمد.

ومن حكام بن عبيد جاء: سعود.

ومن ماجد بن ذعار جاء: أسامة – عبد العزيز – محمد.

ومن بشير بن ذعار جاء: ذعار – سطام.

ومن هايل بن ذعار جاء: فرحان – مشاري – تركي.

ومن فرحان بن ذعار جاء: هايل.

ومن سلطان بن ذعار جاء: نواف.

وفيهم سليمان بن عبد العزيز بن مزيد وكان سيداً مهاباً منيع الجانب له جرأة الأسد وثورته إذا غضب.

وفيهم محمد بن رميح (عارفة الحسنة) – قاضيهم – ومن أصحاب الرأي فيهم، أُسندت إليه مهمة القضاء في العشيرة وظل يشغلها طيلة حياته، توفي عام 1390 هـ عن عمر يناهز الثمانين عاماً.

ومنهم الشاعر عبيد بن عبد العزيز بن مزيد، وشعره من النوع الجيد، إلا أنه لم يصلنا منه سوى أبيات من قصيدة قالها على إثر معركة جرت بين خيل للموالي وخيل للحسنة، هُزم فيها الموالي، فقال عبيد معقباً على نتائج تلك المعركة:

عز العزيز وعز برق نخيله[1]   برق الثريا يوم طيحات[2] الأمطار

[1] عز العزيز: العزة لله. نخيله: نرقبه عن بعد.

[2] وقت هطول الأمطار.

يا الله ياللي كلنا نرتجي[1] له | يا محيي القاع المحيلة بنوار

يا راكب حر حلي هذيله[2] | مقولب الخفين من عوص الأبكار

تلفي[3] لبيت من بعيدٍ عني له | يا مير يا زبن المجنين[4] والجار

البوق[5] ما هو للنشامة[6] نفيله[7] | أما النقا[8] هو كوكب فوق الأنوار

يوم ابن رجو[9] ما اعتنا بعميله[10] | كن فرّ قلبه فرّ فرخ[11] ليا طار

راحت عليكم يا موالي سحيله[12] | سحيلةٍ ما ربعت حين الأصفار[13]

ركبوا عليكم مقحمين الدبيله[14] | أهل البويضا ما بهم واحد بار

يتلون شيخ كلنا ننتجيله[15] | نرجع لشوره حين دوكات[16] الأشوار

بعد مطالعة البرق يتجه الشاعر إلى ربه الذي يعود الناس جميعاً إليه في نهاية المطاف، يرجون رحمته ويخشون عذابه، وهو الذي من جملة دلائل قدرته تعالى أحياء الأرض بعد موتها بإرسال الغيث إليها، ثم يختار قعوداً حراً أصيلاً ينقل عليه رسالته لأمير الموالي حتى إذا وصل ذلك البيت الشامخ ملاذ المجرمين المستجيرين، هذا ما يعنيه بقوله: زبن المجنين، وزبن: ملاذ، والمجنين: من عملوا جرائم في عشائرهم تستحق القتل ففرّوا إلى الأمير ولاذوا بحماه.

---

(1) نرجو خيره.

(2) ركضه.

(3) تصل إلى.

(4) الذين ارتكبوا جرائم كثيرة.

(5) الخيانة أو الغدر.

(6) أصحاب المروءة والشهامة.

(7) مكرمة.

(8) التحدي علناً.

(9) أحد فرسان الموالي.

(10) صاحبه.

(11) الطائر الصغير.

(12) هزيمة.

(13) غروب الشمس.

(14) الخيل المغيرة.

(15) نناجيه ونبادله الرأي.

(16) اختلاف الآراء وتعددها.

وهو هنا يمتدح أمير الموالي لأن ذلك من شيم الفروسية عندهم، فلا ينكر الخصم مزايا خصمه الحميدة، ثم يعاتب الأمير على ما قام به من بوق، والبوق: الخيانة، وكان على الأمير أن يرد النقا ليأخذ خصومه حذرهم حسب العرف عندهم في تلك الأيام، وهكذا دارت عليكم الدائرة وفررتم، وفرّ معكم ابن رجو، ويبدو أن ابن رجو هذا هو أحد فرسان الموالي الذين كانوا مع تلك الخيل المغيرة، أو أنه قائد تلك الخيل. وعميله: صاحبه، وظاهر السياق أن ابن رجو تخلى عن صاحبه في المعركة ولاذ بالفرار، والسحيلة: الهزيمة، وهكذا هزمتم هزيمة استمرت حتى الأصفار، والأصفار وقت غروب الشمس في الشفق الغربي، والدبيلة: الخيل وعلى ظهورها الفرسان، وأهل البويضا: الحسنة، وفي قوله: ما بهم واحد بار، أي ما تخاذل أحد منهم أبداً، وهؤلاء الفرسان الشجعان حماة الشنبل هم الذين تعودوا دائماً إلحاق الهزيمة بعدوهم بقيادة شيخهم يومذاك، الذي يسيرون تحت قيادته ويقتدون برأيه ومشورته إذا اختلف الآراء وكثرت.

نسب الفيصل

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن جَهيّم جاء: مزيد، ومن مزيد جاء: شماس، ومن شماس جاء: مزيد الثاني، ومن مزيد الثاني جاء: رشيد، ومن رشيد جاء: ملحم، ومن ملحم جاء: حمد، ومن حمد جاء: فاضل، ومن فاضل جاء: عبد الله ومهنا.

فمن عبد الله جاء: علي، ومن مهنا جاء: ناصر، ومن ناصر جاء: محمود وحمود، ثم جاء بعدهم عبد العزيز ومن عبد العزيز جاء: مزيد، ومن مزيد جاء: راجح، ومن راجح جاء: فيصل، وهو الجد القريب للفيصل الآن.

ومن فيصل جاء: محمد – هزاع – النوري.

فمن محمد جاء: نايف – ذعار – ناصر – تركي.

ومن هزاع جاء: محمد – ماجد.

ومن النوري جاء: دحام – الطرقي – فيصل – راجح.

ومن نايف بن محمد جاء: محمد – أحمد – حمود – سامي – عاكف.

ومن ذعار بن محمد جاء: صفوك.

ومن صفوك بن ذعار جاء: زياد – محمد – زيد – عبد الإله – نوري – ذعار – مصعب.

ومن ناصر بن محمد جاء: غازي – سلطان – عبد الإله – الياور – عبد المحسن – محمد.

ومن ماجد بن هزاع جاء: هزاع – سلطان – مشاري – عبد الإله.

ومن محمد بن هزاع جاء: ممدوح – النوري – علي – مساعد – عبد الكريم.

ومن تركي بن محمد جاء: خالد – سليمان – محمد – أحمد.

ومن خالد بن تركي جاء: تركي – محمد – عبد العزيز.

ومن سليمان بن تركي جاء: هزاع.

ومن الطرقي بن النوري جاء: دحام – متعب – خالد.

ومن فيصل بن النوري جاء: حاكم – عبد الدايم – عبد السلام – عبد العزيز.

ومن راجح بن النوري جاء: مجحم – سلطان.

ومن دحام بن الطرقي جاء: سطام.

ومن محمد بن نايف جاء: بدر – عبد المجيد – سعد.

ومن أحمد بن نايف جاء: نايف – يزيد.

ومن غازي بن ناصر جاء: فيصل – صايل.

ومن حمود بن نايف جاء: عبد الله – عبد العزيز.

ومن سامي بن نايف جاء: أحمد – محمد.

ومن ممدوح بن محمد جاء: نواف – فيصل – هزاع – سطام.

ومن النوري بن محمد جاء: فارس.

ومنهم أبو نايف محمد بن فيصل الملقب (المحزم) فارس الحسنة وحامي مؤخرة خيلهم إذا دارت عليهم الدوائر وأحاط بهم الأعداء.

ومنهم فيصل بن النوري بن فيصل حليم جواد كريم الخلق راوية لتاريخ الحسنة وأشعارهم وعارف بأنسابهم، ويندبه رئيس العشيرة في الأمور الهامة ويستشيره ويأخذ برأيه فيها، توفي في العقد الخامس من العمر سنة 1990 ودفن في قرية مظلّة قريباً من البوير، وقال صديقه ربيع الجندلي في رثاءه له:

لا والله كن جظيت[1] محدٍ يلومِ   على فراق الطيبين السلومِ[2]

عزى لدنيا لو زهت ما تدومِ   خوانةٍ يلعي[3] بها البوم وغراب

أمس مساعد[4] يا أهل لي هجرها   واليوم فيصل عز ربعه[5] باثرها

قلت آه ليت العين يعمى بصرها   ولا من يشوف الموت مقفي بالأحباب

الأمر لله والحكم والتصاريف   أفطن ترى ما هي على الشور والكيف

وارمي القلم خلي الدموع الذواريف   تهل من هول التقادير وأسباب

تهل على فيصل كريم الخصايل   ذاك الذي ما خابره قط مايل

---

[1] جزعت وتألمت.

[2] العادات.

[3] ينعق.

[4] هو مساعد بن محمد بن هزاع الفيصل كان طالباً في كلية الآداب بجامعة دمشق، توفاه الله وهو في مقتبل العمر قبل أن ينهي دراسته الجامعية، وكان رحمه الله أديباً وشاعراً وعلى جانب من الدين والخلق.

[5] خيار عشيرته.

لا والله لولا ما تلوم الهبايل غير أودع العبرات في راس مرقاب[1]

على منيع الجار وافي السجايا ملجى الضعيف اللي يروم القرايا[2]

يا علْ وبلٍ مثل شل الروايا[3] عطرٍ على قبرٍ به الليث سكاب

مرحوم يا اللي مخالفٍ كل رجسٍ ثوبك علا عن كل شيٍ يخسٍ

يا عل مقامك جنة الخلد يمسي في رحمة الله غافر الذنب تواب

❖ ❖ ❖

(1) المرتفع العالي.

(2) هي القرى جمع قرية.

(3) جمع راوية وهي أوعية الماء.

نسب المقبل (الخضير)

الجد: جهيم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن جهيم جاء مقبل وبه تكنى الأسرة، وكغيرهم من أسر الجهيم لا يعرف تسلسل أجدادهم بعد مقبل، وآخر ما يعرف منهم هزاع المقبل، وبعد هزاع جاء خضير المقبل وبه أصبحت تكنى الأسرة فيما بعد، وإنما الكنية الأصلية للأسرة هي المقبل أما خضير فهو جد خالد الأب الحالي للأسرة وهو خالد بن نايف بن خضير المقبل.

ومن خضير المقبل جاء: بدر – حسن – نايف.

فمن حسن جاء: مرعي.

ومن نايف جاء: خالد.

أما بدر فلم يعقب أحداً.

ومن خالد بن نايف جاء: الشايش – حسن – نايف.

ومن الشايش جاء: متعب.

ومن حسن جاء: خالد – رائد – محمد.

ومن نايف جاء: نواف – محمد – سلطان – أحمد.

ومن متعب بن الشايش جاء: فايز – عبد الله – فواز – عبد الإله.

وهم على قلة عددهم لهم دور بارز في تاريخ الحسنة وفيهم كانت رئاستها في فترة من الفترات، ومنهم رجال أعلام في تاريخ الحسنة وفرسان أبطال، كهزاع المقبل (راعي الدهماء) الذي حوّل هزيمة الحسنة في احدى معاركهم إلى نصر مؤزر.

ومنهم بدر بن خضير المقبل ومرعي بن حسن المقبل، وآخر فرسانهم، خالد بن نايف بن خضير المقبل الذي كان فارساً متميزاً في خيل الحسنة في أواخر أيامها.

ويذكر عيادة بن صفوك الملحم أن لهذه الأسرة فرعاً في الكويت وأن اثنين من رجالها قابلاه في الرياض وقالا: إن جدهما نزح منذ النكبة التي حلت بالمقبل في نهاية رئاستهم للحسنة، وأنه أحد السبعة أو الثمانية الذين أولم لهم أبناء مزيد وفتكوا بهم على الطعام، استطاع النجاة مع اثنين من عبيده والتجأ إلى قبيلة شمر ولا يزال عقبه فيهم حتى الآن، وأن اثنين من عقبه هناك وهما: مالك بن عبدان، وعجل بن عبدان لا يزالان أهل بادية ينتجعان حول مدينة حفر الباطن شمال شرق المملكة العربية السعودية، أما الباقون فيقيمون في دولة الكويت، أما أسرة المقبل في سورية فتقيم الآن في شمسين على الطريق بين دمشق وحمص ويعرفون بالخضير.

نسب الشمسي

الجد شمسي بن مزيد بن جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن شمسي تتفرع الأسر الآتية:

المحينات.

الغريان.

الوقيان.

القبيّل.

نسب المحينات

الجد جَهيّم بن حسين، ومنه جاء: مزيد، ومن مزيد جاء: شمسي، ومن شمسي جاء: محينة، ومنه جاء: ذياب.

ومن ذياب بن محينة جاء: مصارع – سطام.

ومن سطام جاء: فهّاد – علي.

ومن علي جاء: حسين – مناور – محمد – شيحان – نوري.

ومن مصارع جاء: ناصر – نصار.

ومن حسين بن علي جاء: سطام – عسكر – علي – فرحان – هايل – درزي – متعب – موفق.

ومن مناور بن علي جاء: فهّاد – محمد – فرج – خالد – فواز.

ومن محمد بن علي جاء: نايف – متعب – صفوق.

ومن نوري بن علي جاء: خرفان – إبراهيم – خالد.

ومن سطام بن حسين جاء: محمد – صبحي – أحمد –كايد – هايل.

ومن علي بن حسين جاء: حسين.

ومن فرحان بن حسين جاء: حسين – هايل.

ولا ريب أن هناك عدداً من الأجداد بين محينة وذياب، وقد أثبتنا النسب كما رواه لنا حسين بن علي المحينة، والله أعلم.

نسب الغريان

الجد: شمسي بن مزيد بن جهيم بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن شمسي جاء غريان، ومن غريان جاء الفارس البطل جدوع الغريان، وآخر ما بقي من أسرة الغريان هو حواس البريغيث، ولا يعرف تسلسل حلقات النسب بين جدوع وحواس.

ومن حواس البريغيث جاء: عايد.

ومن عايد بن حواس جاء: محمد – أحمد – حمدان.

نسب الوقيان

الجد: شمسي بن مزيد بن جهيم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومن شمسي جاء وقيان.

وآخر ما يعرف من الوقيان: جديع، ومن جديع جاء قطاش – عواد.

ومن عواد بن جديع جاء: عطا الله – عبد الله – خالد.

نسب الغنام

الجد: جهيم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومنه جاء غنام ومن غنام جاء نهار، وبين كل من جهيم وغنام وبين غنام ونهار كثير من الحلقات المفقودة.

ومن نهار جاء: رضا – راضي –رضوان.

ومن رضا جاء: دلي – علي – مطر – حسن.

ومن علي بن دلي جاء: فيصل – خالد.

نسب الزومان

الجد: جهيم بن حسين ومنه جاء زومان ومن زومان جاء خلف، وبين كل من جَهيّم وزومان وبين زومان وخلف عدد من الأجداد المجهولين.

ومن خلف جاء: جدوع وجدعان، فمن جدوع جاء: متعب.

ومن جدعان جاء: حمدان.

ومن متعب بن جدوع جاء: أحمد – محمد – ممدوح.

نسب العياش

الجد: جهيم بن حسين ومنه جاء عياش ومن عياش جاء: عبيد، وبين كل من جَهيّم وعياش وبين عياش وبين عبيد أجداد مجهولون.

ومن عبيد جاء: دعاس

ومن دعاس جاء: فرحان – محمد – ناصر – عوض.

ومن فرحان بن دعاس جاء: عبيد – خالد – عقل – درزي – غازي – سعود – نايف – نواف.

ومن محمد جاء: جاسم.

ومن عوض جاء: تركي.

ومنهم الفارس البطل: عقل العساف الملقب (ستر الجهامة).

نسب آل الرفاشي

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن جَهيّم جاء: رفاشي، وآخر ما يعرف من آل الرفاشي:

عداد وصلبي والهيلم.

فمن عداد جاء: خرفان.

ومن الهيلم جاء: محمد وجريدي.

ومن صلبي جاء: خليف.

ومن خرفان بن عداد جاء: منور – عايد – خالد – عيد – حابس – مثقال – عبد الإله – سلطان.

ومن محمد بن الهيلم جاء: هويدي – علي.

ومن منور بن خرفان جاء: مهلي – محمد – أحمد – عمر – خالد.

ومن عايد بن خرفان جاء: فرحان – ممدوح – خرفان – عداد.

ومن خالد بن خرفان: راكان – عبد العزيز – عافت – مزيد.

ومن خليف بن صلبي جاء: خالد وإبراهيم.

ومنهم الشاعر الفارس دبجان الرفاشي أسد من أسود النقعة الأشداء.

نسب الطعيميس

الجد: جَهيّم بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب، ومنه جاء طعيميس، ومن طعيميس جاء سلطان ومن سلطان جاء حمود، ولا ريب أن بين كل من سلطان وطعيميس وبين طعيميس وجَهيّم كثير من الحلقات المفقودة.

ومن حمود بن سلطان جاء: رشيد – راشد.

ومن راشد بن حمود جاء: عسود – فراس.

ومن رشيد جاء: حميدي – حمد.

ومن عسود جاء: راشد – مبارك – طعيميس – حمود.

ومن فراس بن راشد جاء: علي – جزاع – هزاع – زبن.

ومن حميدي بن رشيد جاء: عطا الله – رسول – سلطان – عايد – محمد.

ومن حمد بن رشيد جاء: رشيد.

ومن رشيد بن حمد جاء: محمد.

ومن راشد بن عسود جاء: مخلف – مسعف – فراس.

ومن مبارك بن عسود جاء: أحمد – عسود – عبد الإله.

ومن طعيميس بن عسود جاء: مصلح – مفلح – علي – فواز.

ومن حمود بن عسود جاء: محمد.

ومن عطا الله بن حميدي جاء: فرحان – خالد – رسول.

ومن رسول بن حميدي جاء: محمد – فرج.

ومن سلطان بن حميدي جاء: محمد – أحمد – حمد – عيد.

ومن عايد بن حميدي جاء: محمد – حميدي.

ومن علي بن فراس جاء: دحام – محمد – خالد – حسين – مطشر.

ومن جزاع بن فراس جاء: فارس – فهد.

ومن هزاع بن فراس جاء: نواف.

ومن زبن بن فراس جاء: فواز.

نسب آل المرسن (المراسنة)

أكثر ما عرف نسبه منهم: خليف، ومن خليف جاء: شحاذة وفدغم، فمن شحاذة جاء: مروّح وخليف وذياب وربيّع وهلال.

ومن مروّح جاء: علي – خالد – سالم – سعد.

ومن خليف بن شحاذة جاء: شحاذة – موسى.

ومن ذياب جاء: رحيل – محمد – محمود – أحمد.

ومن ربيع بن شحاذة جاء: خالد – محمد.

ومن فدغم بن خليف جاء: مفضي.

ويقيم قسم منهم في الحميدية من أعمال حمص في الجمهورية العربية السورية والقسم الآخر في السعودية.

نسب آل الهندي

أقصى ما يعرف من أجدادهم هو: هندي الكنج.

ومن هندي جاء: رشيد – لشان – هلال – هليل.

فمن هلال جاء: حمود.

ومن هليل جاء: أحمد – محمد.

ومن سلوم (ابن أخ هندي) والذي تكنى سلوم به فأصبح يعرف: سلوم الهندي، حيث أنجب سلوم هذا: عواد.

ومن عواد بن سلوم جاء: عايد – نزال – هلال.

ومن حمود بن هلال الهندي جاء: هلال – محمد – أحمد – بلال.

ومن أحمد بن هليل جاء: رشيد.

ومن محمد بن هليل جاء: سامي.

ومن عايد بن عواد السلوم جاء: عبد الله – لشان.

ومن نزال بن عواد السلوم جاء: عواد.

ومن هلال بن عواد السلوم جاء: طلال.

ومن آل الهندي: نعل وهو أخ لسلوم الهندي تزوج بامرأة من عشيرة العمارات، ونزح إليهم وعاش بينهم وتوفي هناك وقيل إنه رزق من تلك المرأة ولداً وبعد أن توفي أنكر العمارات الولد، والله أعلم.

وأصل آل الهندي من عشيرة السردية أسرة الكنج، نزحوا إلى الحسنة منذ زمن بعيد وانتسبوا إليهم واتحدوا مع فخذ الجَهيّم، فأصبح لهم ما للجهيّم وعليهم ما عليهم.

نسب العويمر[1]

الجد: عويمر بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن عويمر تفرع الأسر الآتية:

الرشيد.

الصليبي.

الهليبان.

العون.

ولا ريب أن أسر العويمر كانت أكثر من هذا بكثير...

فالرواة من الحسنة يذكرون أن فخذ العويمر كان يروّض من الخيل الأصيلة تسعين جذعة كل عام، ولكن الحروب والأوبئة – كما أسلفنا – قضت على سلالات كثيرة منهم.. وكانت أرض الشنبل تضيق بإبلهم فيصطافون على المناهل القريبة من أطراف البادية كالقريتين والباردة والبصيري.

ويتصدر هذا الفخذ من الحسنة: سلطان بن فرج بن توهان الرشيد، وقبله كان يرأسه أبوه فرج بن توهان الرشيد.

[1] أخذ هذا النسب عن سلطان بن فرج الرشيد.

نسب الرشيد

(كما رواه لنا سلطان بن فرج الرشيد)

الجد عويمر بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن عويمر جاء: سلطان.

ومن سلطان جاء: صالح.

ومن صالح جاء: توهان – رخيص – مشرف.

ومن توهان جاء: فرج.

ومن مشرف بن صالح جاء: حسن – رشيد – عذاب.

ومن فرج جاء: خالد – سلطان – عناد – سعود.

ومن حسن بن مشرف جاء: صالح – قديم – رشيد – فرحان.

ومن خالد بن فرج جاء: نايف – عايد – فرحان – مصلح – عارف – ناصر – منصور.

ومن سلطان بن فرج جاء: فرج – رشيد – محمد – غازي – فايز – طلال – سعود – مسعد – مساعد – بدر – منصور – مشعل.

ومن عناد بن فرج جاء: صالح – عبد الهادي.

ومن سعود بن فرج جاء: زين – منور – عبد العزيز – سلطان – فارس – عبد الكريم – محمد – عادل.

ومن صالح بن حسن جاء: محمد – فاضل.

ومن قديم بن حسن جاء: غازي – ياسين.

ومن رشيد بن حسن جاء: حابس – حسن – فارس – محمد.

ومن فرحان بن حسن جاء: عبد الله.

ومن نايف بن خالد جاء: خالد – نواف – بدر – محمد.

ومن عايد بن خالد جاء: فاضل – أحمد.

ومن فرج بن سلطان جاء: سلطان – فيصل – محمد – أنور – طلال.

ومن رشيد بن سلطان جاء: فهد– عبد الله – بندر – فايز – وائل.

ومن غازي بن سلطان جاء: فيصل.

ومن صالح بن عناد جاء: مشاري – سعود.

ومن رشيد بن مشرف جاء: عناد – مشرف – ممدوح.

ومن عذاب بن مشرف جاء: رجا.

ومن رجا بن عذاب جاء: فرحان – محمد – صالح – سعود – خالد – فيصل.

ومن عواد جاء: برغش.

ومن برغش جاء: جدوع.

ومن جدوع جاء: خليف.

ومن خليف جاء: مناحي.

ومن مناحي جاء: خليف – تركي.

ولهذا الفرع من العويمر (لحقة) أو لواحق يقال لهم الرخيّص.

نسب الصليبي

الجد عويمر بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن عويمر جاء: صليبي.

ومن صليبي جاء: زعل.

ومن زعل جاء: طريخم وغضبان.

ومن طريخم بن زعل جاء: عايد – عواد.

فمن عايد جاء: فواز – محمد – خالد – فايز.

ومن عواد بن طريخم جاء: فرحان – محمد – طلال.

ومن غضبان بن زعل جاء: هزاع.

ومن هزاع جاء: خليف – خلف – عبد الكريم.

ومن خليف بن هزاع جاء: حابس.

ومن فواز بن عايد جاء: أنور – محمد.

ومن محمد بن عايد جاء: فواز – بدر – خالد.

ومن فرحان بن عواد جاء: طلال – بندر.

نسب الهليبان

الجد عويمر بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

وآخر ما يعرف من الهليبان: محسن.

ومن محسن جاء فرحان.

نسب القضبة

الجد: قضيب بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

وكلمة قضيب تعني عندهم: الأسير يوضع القيد في قدميه ويحتفظ به كرهينة لدفع فدية أو استيفاء حق ضائع.

ومن قضيب هذا تفرع الأسر التالية:

آل المدحلي.

الراشد.

الهاجس

القطيفان

السبهان

نسب القطيفان

الجد: قضيب بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

وآخر ما يعرف من القطيفان صالح.

ومن صالح جاء: عواد، وكان رحمه الله من نوابغ شباب الحسنة يمتلك مجموعة من الصفات الحميدة جعلته في الصدارة بين أقرانه، توفي في العقد الثالث من العمر بينما كان نجمه لا يزال صاعداً وأعقب ولدين هما: محمد ونخيلان.

فمن محمد بن عواد جاء: طلال.

ومن نخيلان بن عواد جاء: عواد – مشعل – بندر – بدر – ممدوح – محمد – فارس — فهد – مصلح – صالح.

نسب آل المدحلي (المداحلة)

الجد: قضيب بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن قضيب جاء: مهنا.

ومن مهنا جاء: واوي – ذيب.

ومن واوي جاء: خابور – محمد.

ومن ذيب جاء: سرحان – بشير.

ومن خابور بن واوي جاء: صبر.

ومن صبر جاء: هزاع – رشود – عذاب.

ومن هزاع بن صبر جاء: خلف – يونس – خليفة – حسين – نزال – خليف.

ومن خلف بن هزاع جاء: صالح.

ومن يونس بن هزاع جاء: خالد – عضيب – محمد – راكان – دحام – ميسر.

ومن خليفة بن هزاع جاء: علي – حمود – عبد الله – عطية.

ومن نزال بن هزاع جاء: ممدوح – هايل – عبد القادر – عبد الناصر – حسين.

ومن خليف بن هزاع جاء: سعود – سعيّد – ممدوح – محمد – هزاع.

ومن رشود بن صبر جاء: عبد السلام – نواف – ماجد – مانع.

ومن عذاب بن صبر جاء: مطر – رحيل – محمد – هلال – عواد.

ومن محمد بن خابور جاء: عمير.

ومن عمير جاء: عياش.

ومن عياش بن عمير جاء: سامي – محمد – عمر.

ومن سرحان بن ذيب جاء: عويد.

ومن عويد بن سرحان جاء: كاكان – حسن – عطية – جديع – خلف.

ومن كاكان بن عويد جاء: مصطفى.

ومن حسن بن عويد جاء: شحاذة – إبراهيم.

ومن عطية بن عويد جاء: فرج – محمود.

ومن جديع بن عويد جاء: ممدوح – هايل.

ومن خلف بن عويد جاء: فواز – طلال – فارس – أنور – خلف.

ولم يذكر لنا راوية النسب نزال بن هزاع المدحلي من أين جاءتهم المدحلية ولا من أي جد ابتدأت.

ومنهم مهلهل المدحلي الذي أورد الحسنة ماء برقع، وذلك ان الحسنة اظمأوا في أحد السنين وكان أقرب ماء إليهم مجمع كبير لمياه الأمطار اسمه (برقع)، يقع إلى الشرق من جبل الدروز في الحماد السوري، فأجمعوا رأيهم ليلاً على ورد الماء صباحاً، ولكنهم بدلوا قرارهم في الصباح خوفاً من تعرض أهل الشمال لهم، ولم يحط مهلهل علماً بذلك، فركب جواده وتقدم بإبله باتجاه الماء، فلما جاء رسول الشيخ يبلغه بالقرار الأخير للقوم قال له: أكلام صبية، كل ساعة برأي، والله ليردن الماء مهما كان الثمن غالياً، وتقدم نحو برقع فاضطر الحسنة إلى السير خلفه فوردوا وصدّروا دون أن يعترضهم أحد بسوء.

نسب آل صالح الراشد (عن مبارك بن ربيع الراشد)

الجد: قضيب بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

فمن قضيب جاء: فارع.

ومن فارع جاء: صالح.

ومن صالح بن فارع جاء: هليل – مهلي – هلال – خالد – محمد.

ومن هليل بن صالح جاء: صالح.

ومن مهلي بن صالح جاء: نايف.

ومن هلال بن صالح جاء: ناصر.

نسب آل عسكر الراشد

الجد: قضيب بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

فمن قضيب جاء: دوان، ومن دوان جاء: عسكر.

ومن عسكر جاء: محمد – محسن – سطام.

ومن محمد بن عسكر جاء: أنور.

نسب السبهان

الجد: قضيب بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن قضيب جاء سبهان، وآخر ما عرف من السبهان هو جروح.

ومن جروح جاء: عشوي.

ومن عشوي جاء: عواد – وايل – هايل.

نسب الهاجس

الجد: قضيب بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن قضيب جاء: هاجس.

ومن هاجس جاء: حمد.

ومن حمد بن هاجس جاء: رشيد – مطر – راشد – هجهوج.

ومن رشيد بن حمد جاء: نقعان – عواد – حسين – محمد – فرحان.

ومن عواد بن رشيد جاء: فرحان – فريح – حاكم – خالد – محمد – فايز – نايف.

ومن حسين بن رشيد جاء: حمدان – توفيق – خالد – علَي – طلال.

ومن راشد بن حمد جاء: عطا الله – خالد – عبد الله – إبراهيم – عَلي – محمد.

ومن هجهوج بن حمد جاء: خالد – محمد.

ومن محمد بن رشيد جاء: قاسم – نايف – نواف – رشيد– تركي – عبد الله.

نسب آل ربيع الراشد (عن مبارك بن ربيع الراشد)

الجد: قضيب بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن قضيب جاء: راشد.

ومن راشد جاء: جديع.

ومن جديع جاء: جديد.

ومن جديد جاء: ربيع – خلف.

ومن ربيع جاء: رثعان – مبارك – محمد.

ومن خلف بن جديد جاء: رجا – ليلي – فهد.

ومن رثعان بن ربيع جاء: علَي – حسن.

ومن مبارك بن ربيع جاء: أحمد – محمد – ماجد – ربيع – صالح.

ومن ليلي بن خلف جاء: خالد – راكان.

ومن فهد ين خلف جاء: عايد – هايل – مفضي – رجا – أنور – نواف.

ومن عايد بن فهد جاء: فهد.

نسب آل سميران الراشد

الجد: قضيب بن حسين بن صاعد بن منبه بن وهب.

ومن قضيب جاء: راشد.

ومن راشد جاء: قنيعير.

ومن قنيعير جاء: سميران.

ومن سميران جاء: علي.

ومن علي بن سميران جاء: حسين.

ومن حسين بن علي جاء: محمد.

ومن محمد بن حسين جاء: حسين.

الفهرس



نبذة عن الكاتب

- ولد في البادية السورية عام 1937م.
- تخرج من الكلية الحربية في مصر عام 1961 م.
- عمل ضابطاً في الجيش السوري.
- من مؤلفاته:
  1. الحسنة حماة الشنبل وأسود النقعة.
  2. البدو بين واقع حالهم وما كتب عنهم.

نبذه عن الكتاب

يقدم الكتاب عرضاً موثقاً لتاريخ عشيرة الحسنة كما تناقلته ألسنة الرواة وما أتيح للكاتب جمعه من المراجع التي كتبت عن الحسنة، فيسلط الضوء على الأحداث التاريخية التي مرت بها العشيرة منذ خروجها من شبه الجزيرة العربية إلى أن استوطنت "ديرة الشنبل" في منطقة حمص، ويسرد الكتاب بإسلوب مميز قصص أعلامها وفرسانها، ويفصل في أنساب أسرها ويستعرض ما كتبه بعض الكتاب عنها.

كما يقدم الكتاب وصفاً جغرافياً دقيقاً لبادية حمص والشام ولمعالمها الطبيعية كما يوضح بنية المجتمع عند البدو وحياتهم الاجتماعية (عاداتهم وتقاليدهم، شعرهم، أمثالهم، مجالس القضاء عندهم، والمرأة في المجتمع البدوي) ويقدم الكتاب أيضاً دراسة مقارنة مميزة لآراء عدد من الكتاب الغربيين والعرب ممن كتبوا عن البدو.

ويقول الكاتب بعد إتمام عمله هذا بعون الله وفضله:

((ولإخواني وأبنائي المثقفين من الحسنة أقول: اللهم هذا جهدي، فإن وفقت فبفضلٍ من الله تعالى ومنّةٍ، وإن كانت الثانية فاخلفوني في عزيمتي)).